تاريخ الأدب الأندلسي

عصر سيادة قرطبة

إحسان عباس

دار الثقافة

المكتبة الأندلسية

« ٢ »

تاريخ الأدب الأندلسي

الدكتور إحسان عباس

تاريخ الأدب الأندلسي

عصر سيادة قرطبة

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

دار الثقافة
بيروت - لبنان

١٩٦٩

هذه الطبعة الثانية

منذ مدة غير قصيرة نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، والناشر يراجعني في شأنه وأنا أسوّف وأماطل ، فقد مضت حتّى اليوم مدة تقرب من ثماني سنوات ، تكفي لتغيير كثير من النظرات وتتطلب إعادة النظر في كثير من الأمور ، وكنت أحسّ أن إعادة طبعه تتطلب مني أن أعيد كتابته ، وليس لديّ من الوقت ما يجعل ذلك أمراً ممكناً .

وأخيراً وجدت أن التعلل بالمعاذير لم يعد يقنع الناشر أو يرضيه ، فاخترت حلاً وسطاً ، وقمت بمراجعة الكتاب فحذفت منه ما رأيته غير ضروري وزدت فيه أشياء كثيرة رأيت إضافتها إليه ، وغيّرت مسائل لم تعد تثبت للتمحيص بعد ترديد النظر فيها ؛ وعدّلت في ترتيب فصوله ، وأضفت إليه في الملحقات مختارات شعرية جديدة ، بحيث أستطيع أن أقول : إن هذا الكتاب في شكله الجديد يكاد يكون غير ذي صلة قوية بالطبعة السابقة .

على أني قمت بكل ذلك وأنا بعيد عن مصادري وكتبي ، ولهذا أبقيت الإشارات إلى المصادر السابقة على ما هي عليه ، وان كان بعض المخطوط قد طبع ، وبعض المطبوع قد ظهر في شكل علميّ محقق ؛ ومن الحق أن أنوّه بكتابين جديدين أمدّاني بالشيء الكثير في هذه الطبعة وهما :

١ — كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني

٢ — ديوان ابن درّاج القسطلي

فالأول منهما قدّم نماذج جديدة للدراسة والحكم ، والثاني جعلني أعيد القسم الأعظم من الفصل الذي كنت قد كتبته عن ابن درّاج .

وبعد : لقد كنت أكثر رضًى عن هذا العمل لو توفر لي الوقت اللازم لكتابته من جديد ، ولكن هذه أمنية لم أستطع تحقيقها ، فأرجو أن يكون في بعض ما حققته منها بعض الرضى لنفسي وللقراء ، وذلك حقاً هو جهد المقلّ ، وفي هذا القدر منه لا أشكو التقصير .

استانبول في ١٥ سبتمبر (أيلول) ١٩٦٨

إحسان عباس

مقدمة الطبعة الاولى

هذه فترة من تاريخ الأدب الأندلسي لا يكاد الدارسون يقفون عندها حتى يتجاوزوها عابرين أحببت أن أطيل اللبث في دراستها وأن أجلو بعض الغموض عن نواحيها لعلي أضع في أيدي قراء الأدب صورة منظمة لفترة هامة من فترات الأدب الأندلسي حقيقة بالدرس والعناية والتوضيح .

وأنا موقن أن الخوض في كبريات المسائل لا يسلم من النقص ولا يبرأ من الخطأ ، غير أني أرى أنه لا بد للدارسين من أن يكتبوا في الموضوعات العامة مثلما يتوفرون على الموضوعات الدقيقة الخاصة ، بل إني لأعتقد أن أخطائي قد تكون حافزاً للتصحيح والتوجيه ، وبذلك تكون الفائدة المرجوة أكبر من الخطأ . على أني فيما حاولته لم أشأ أن أطلق العنان للأحكام الواهمة بل قيدت نفسي بالنصوص جهد المستطاع ، وحكمت على ما بين يديّ دون مغالاة ، حسبما تسمح به المصادر المتيسرة .

وقد أصبحت هذه المصادر تسمح بشيء من الحكم الصائب بعد أن أُبرزت من مكامنها ونشرت على الناس ، لما تلقاه المكتبة الأندلسية اليوم من عناية الناشرين والمحققين سواء ببعث ما لم ينشر من قبل أو بإعادة نشر ما نشر منذ زمن بعيد . وقد كان إخراج طبقات الزبيدي والجذوة والمغرب — مثلاً — خير معين على الكتابة في هذه الفترة ، كما أن تقريب المخطوطات للدارسين وجمعها في صعيد واحد بهمة معهد المخطوطات التابع للجامعة

العربية يسر للدارسين فرصاً لم تكن متيسرة من قبل وذلل لهم عقبات لم يكن تذليلها سهلاً عليهم .

وسيجد القارىء أني صدّرت هذا الكتاب بمقدمة تاريخية عرضت فيها لبعض الحقائق التي يجب أن يلم بها من يقرأ الأدب الأندلسي ، دون أن أوغل في النواحي التاريخية فهي متشعبة مستقصاة في المصادر . ثم حاولت أن أصور كيف نشأ الشعر الأندلسي في حضن ثلاثة أبعاد : مجالس المؤدبين ومجالس الغناء والبيئة الثقافية ، وكيف اتجه الشعر في تيارين : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، وكيف تضاءلت الطريقة الأولى إلى جانب الثانية ، ووقفت عند تبلور الشخصية الأندلسية من الداخل برغم ذلك الاتجاه الشديد نحو المشرق ، ورسمت ظلالاً صغيرة لتطور الشعر حتى قيام الفتنة البربرية ، ثم صورت ذلك الشعر في مظاهره الكبرى وفي تقليد الشعر المشرقي المحدث . ثم ميزت بعض طبقات الشعراء حسب الزمن ، وترجمت لبعضهم مستقصياً حيث أسعفت المصادر على الاستقصاء ، واستكثرت أحياناً من حشد الأمثلة الشعرية ، دون تحليل ، لكي أقرب هذه الأمثلة على القارىء وهي متناثرة متباعدة في المصادر ، ولكي لا أستقل في الحكم على شيء لا يملك القارىء شواهده ، وهو صنيع ما كنت لألجأ إليه لو توفرت لدينا دواوين أولئك الشعراء .

وبعد ذلك تعرضت لدراسة الفتنة البربرية وأثرها في الأدب وتوزيع الثقافة ونشأة فن التراجم الذاتية وتقوية حركة النقد وترجمت للشعراء الذين تأثروا بها ، ثم عقدت فصلاً تحدثت فيه عن الكتابة في الأندلس ، وهو فصل موجز ، لأن صورة الكتابة لم تتضح تماماً إلا في العصر التالي .

وألحقت بهذه الدراسة ملحقات ثلاثة تتصل بها اتصالاً وثيقاً وهي : (١) مجموعة من شعر الغزال لم تنشر من قبل (٢) رسالة ابن حزم في فضل الأندلس (٣) قطعة من ديوان ابن حزم لم تنشر من قبل .

وإني لأحس أحياناً أن لابن حزم صورة طاغية على جنبات هذا الكتاب ، وهذا أمر طبيعي في رأيي وأنا أؤرخ هذا العصر ، لأن ابن حزم أرخ هذا العصر نفسه على نحو موجز متقطع حين كتب في تاريخ أمرائه وعلمائه ومؤلفاته وأنساب أهله ، وهو علَم أندلسي لا يستطيع الدارس أن يغفله أو يغفل أحكامه ، وهو حجّة عند الأندلسيين في الخبر ، وهو إلى ذلك كلّه صورة الأندلس نفسها حين أرادت لذاتها شخصية مستقلة .

ولما تحدثت بأمر هذا الكتاب إلى بعض العارفين لقيت منهم تشجيعاً كثيراً على المضي فيه ، وأنا أشكر لهم ثقتهم فيّ وتفضلهم عليّ ، وأخص بالذكر منهم أستاذيّ وصديقيّ : الدكتور حسين مؤنس والدكتور شوقي ضيف ، فقد أبديا عطفاً مخلصاً على هذه الدراسة . أما أخي الدكتور محمد يوسف نجم فإني أعجز عن أن أقدر العون الذي يبذله حق قدره ، حتّى ليتضاءل في جانبه جهدي الأصيل ، ومن حق الصديق ألا تحجب صداقته وجه فضله ، حفظه الله ورعاه . هذا ويطيب لي أن أقدم شكري الجزيل للأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات والأستاذ فؤاد السيد أمين المخطوطات بدار الكتب على مساعدتهما القيمة لي في تسهيل وصولي إلى ما أحتاجه من الأصول .

وإني لأرجو أن يجد هذا الكتاب قبولاً وأن يمنحني ذلك الثقة التي تدفعني إلى تتبع أدوار الأدب الأندلسي بالتاريخ والنقد ، ليكون هذا الكتاب حلقة أولى في سلسلة من عدة حلقات ، والله الموفق .

إحسان عباس

جامعة الخرطوم – كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٩

الدولة الأموية بالأندلس

عبد الرحمن الداخل	١٣٨ — ١٧٢	٧٥٦ — ٧٨٨
هشام بن عبد الرحمن	١٧٢ — ١٨٠	٧٨٨ — ٧٩٦
الحكم بن هشام	١٨٠ — ٢٠٦	٧٩٦ — ٨٢٢
عبد الرحمن الثاني	٢٠٦ — ٢٣٨	٨٢٢ — ٨٥٢
محمد بن عبد الرحمن	٢٣٨ — ٢٧٣	٨٥٢ — ٨٨٦
المنذر بن محمد	٢٧٣ — ٢٧٥	٨٨٦ — ٨٨٨
عبد الله بن محمد	٢٧٥ — ٣٠٠	٨٨٨ — ٩١٢
عبد الرحمن الناصر	٣٠٠ — ٣٥٠	٩١٢ — ٩٦١
الحكم المستنصر	٣٥٠ — ٣٦٦	٩٦١ — ٩٧٦
هشام المؤيد	٣٦٦ — ٤٠٦	٩٧٦ — ١٠٠٩

الحجّاب في عهد هشام المؤيد

المنصور بن أبي عامر	— ٣٩٢	٩٧٧ — ١٠٠٢
المظفر بن المنصور	٣٩٢ — ٣٩٩	١٠٠٢ — ١٠٠٨
عبد الرحمن شنجول	٣٩٩	١٠٠٨ — ١٠٠٩
الفتنة البربرية ثم محاولات إرجاع الحكم الأموي	٣٩٩ — ٤١٨	

مقدمة عامة

يستغرق هذا الجزء الحديث عن الأدب الأندلسي ، شعره ونثره ، إبان سيادة قرطبة ، حين كانت الأندلس ولاية تابعة لدمشق (٩٢ — ١٣٨) ثم حين أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق يحكمها أمراء فخلفاء من بني أمية (١٣٨ — ٣٩٩) . وفي عهد الخليفة هشام المؤيد أصبح صاحب السلطان الفعلي هو الحاجب . وذلك ما يسمى في التاريخ الأندلسي باسم « الدولة العامرية » ثم تكون الفتنة البربرية ومحاولات متكررة لاسترداد السيادة الأموية ، وكلها تبوء بالإخفاق ويقتسم الطامحون مدن الأندلس ويحكمونها باسم ملوك الطوائف وتضيع سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية .

١

كان الفاتحون الأول الذين دخلوا الأندلس مع طارق ومغيث وموسى بن نصير من البربر والعرب ، وكان استيطانهم في البلاد قائماً على استحسان ما يلائمهم من المناطق ولذلك آثر العرب البوادي والمفاوز[١] ، وقد اتخذوا زوجات لهم من أهل البلاد الذين يدعوهم العرب باسم « عجم الأندلس » فإن قسماً كبيراً منهم دخل الإسلام وهم الذين يدعون « المسالمة » ، وقد

١ النفح ١ : ١٣١ .

نشأ الصراع أولاً بين العرب والبربر وبين اليمنية والمضرية من العرب أنفسهم ، ثم دخل بلج بن بشر بن عياض القشيري الأندلسي وفي صحبته عشرة آلاف ، ألفان من الموالي والباقي من بيوت العرب ، ويسمى هؤلاء الطالعة الأولى من الشاميين . أما الطالعة الثانية فهي قليلة العدد وقد وصلت بصحبة أبي الخطار الكلبي . وقد أضاف هؤلاء الشاميون عنصراً جديداً إلى عناصر الخصومة في الأندلس . إذ اتحد ضدهم البلديون من العرب والبربر ، وأخذوا يحاربونهم ويقولون : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا[1] ، ويبدو أنهم يعنون ببلدهم مدينة قرطبة وحدها . لأن أبا الخطار حين قدم الأندلس فرق الشاميين في الكور فأنزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريّة وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعاً بتدمير ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم[2] وهؤلاء هم الذين يسميهم ابن حزم : « الأجناد الستة » في قوله في رسالة فضل الأندلس : « ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس » ، وهذه هي الأقسام التي أصبحت تسمى أيضاً « كوراً »[3] وأضيفت إليها غيرها من الكور ، فاستعمال ابن حزم لكلمة الأجناد قد يشير إلى أن الكلمتين مترادفتان في معناهما .

وهؤلاء الشاميون كوّنوا مع الأمويين عصبية واحدة ، وقد تضم كلمة « الأمويين » في هذه القرينة من كان أموياً صليبة ومن كان من موالي الأمويين ، ولهؤلاء الموالي مركز اجتماعي رفيع ومنهم بيوت مشهورة بالأندلس مثل بني أبي عبدة وبني شهيد وبني حدير وغيرهم ، وقد نالوا

......

١ ابن القوطية : ١٧ .
٢ ابن القوطية ١٩ .
٣ الإحاطة ١ : ١٠٩ .

مقام الحظوة عند أمراء بني أمية ، ودونهم في المنزلة « الخلفاء » ، وهم فتيان القصر في العهد الأموي ، وهم أول من تؤخذ منهم البيعة [1] . وكان الشاميون يسمون « السادة » ويرجع هذا التمييز إلى وضعهم في الجندية . إذ كان الواحد من الشاميين يرزق بعد انقضاء الغزاة عشرة دنانير إن كان من بيوتات العقد ، فإن لم يكن منها رزق خمسة دنانير ، وللواء الغازي من الشاميين مائتا دينار ، وللواء الغازي من البلديين مائة . ولم يكن الديوان والكتبة إلاّ من الشاميين وكانوا أحراراً من العشر ، أما العرب البلديون فيؤدون العشر [2] .

وبالإضافة إلى هذه العناصر من بلديين ومولدين ومسالمة وشاميين وأمويين كان هناك عنصران آخران من أهل الذمة هما : اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، أما اليهود فقد وثق المسلمون فيهم عند الفتح وضموهم في كل بلد مفتوح مع حامية إسلامية ، وقد تركوا لهم حرية العقيدة وحرية التنظيم الداخلي للجماعة اليهودية ، وأما أهل الذمة من النصارى فقد ذكرنا كيف أن العرب الشاميين نزلوا على أموالهم ، وكان لهم قضاتهم كما كان لهم مطران مركزه طليطلة ، وحفظ العرب لهم أديرتهم وأكثر كنائسهم ، غير أنه لم يطل بهم حتى استعربوا لساناً وزياً . وكان بعض رجالهم مثل أرطباس مقدماً في عهد الولاة يستشيرونه في كثير من الأمور ، وقد ولاه عبد الرحمن القماسة أي جعله قومساً [3] وهو الذي نصح أبا الخطار بتفريق الشاميين على الكور . وعلى وجه الإجمال كان التسامح مع أهل الذمة هو الطابع العام للسياسة بالأندلس إلاّ حين كان الذميون يوالون العناصر المعادية للحكم العربي .

أما تملك الفاتحين للأرض في الأندلس فقد جرى على وجهين :

---

١ النفح ١ : ١٨٢ .
٢ الإحاطة ١ : ١١٠ .
٣ ابن القوطية : ٣٨ .

أ ـ اعتبر العرب ما فتحوه من الأرض غنيمة ، وهذا ما يدل عليه نص فريد لابن حزم في رسالة التلخيص لوجوه التخليص حيث قال : « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت . ووقعت فيها غلبة بعد غلبة البربر والأفارقة والمصريين فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم »[1] . وهذا النص دقيق بعض الدقة في القول بعدم تخميس الأرض ، ولكنه غير دقيق فيما يتعلق بإخراج البلديين عن أرضهم ، لأن أبا الخطار أنزل الشاميين على أموال أهل الذمة ، إلا قلة منهم كانت قد سكنت مع البلديين ولم ترتحل من منازل استطابتها .

ب ـ ثم اعتبرت بقية الأرض التي لم تؤخذ عنوة أرضَ صلحٍ تؤدى عنها الجزية .

وإلى ابن حزم نرجع مرة أخرى حين نريد أن نتصور توزيع القبائل العربية في الأندلس ، حيث نثر المعلومات المتصلة بهذه المسألة في كتاب الجمهرة . ويتجلى من كلام ابن حزم شدة اختلاط القبائل في المدن الكبيرة أمثال قرطبة وإشبيلية ، وإنما نذكر ثبتاً ببعض القبائل على سبيل التمثيل لا الاستقصاء ليتصور القارىء صلة هذا التوزيع بالحياة الأندلسية عامة[2] :

بنو صخر من غطفان : بناحية قرمونة .

١ رسائل ابن حزم الورقة : ٢٥٠ .

٢ أخذت هذه الجريدة من مواطن متفرقة في كتاب الجمهرة لابن حزم ، ويمكن مقارنتها بما جاء في نفح الطيب ١ : ١٣٨ .

بنو مرة : بالبيرة ولهم بإشبيلية بيت واحد وهم بنو عوف بن مرة .
بنو منذر بن الحارث من ثقيف : بباجة .
بنو سلول : جماعة منهم بالموسطة من عمل لبلة .
بنو نمير : بالبراجة .
بنو قشير : بجيان ومنهم بالبيرة عدد .
بنو عقيل : بمنتيشة وجيان ووادي آش .
النمر بن قاسط : بحصن وضاح من عمل رية .
عك : في الجوف شمالي قرطبة .
دوس : بتدمير .
بجيلة : بجهة أربونة .
خثعم : بشذونة ومنهم بالبيرة قوم .
همدان : بالبيرة .
بنو الأشعر : بريّة .
طيء : ببسطة وتاجلة وغليار .
عنس : بجهة قلعة يحصب .
خولان : بقرطبة والبيرة .
المعافر : ببلنسية وجيان ومنهم العامريون بقرطبة .
جذام : بشذونة والجزيرة وتدمير وإشبيلية .
لخم : بشذونة والجزيرة وإشبيلية ومنهم بنو عباد وبنو نمارة .
ذو رعين : بالفحص المنسوب إليهم برية .
بنو هوازن : بالقريتين المذكورتين بهما بإشبيلية .
بلي : شمال قرطبة .
بنو عذرة : بدلاية وبجيان منهم ، وبالثغر منهم بنو فوارتش ولهم عدد بسرقسطة .

بنو قين : برية عدد عظيم منهم .
بنو خشين : بجيان وأعمال البيرة ومنهم بلبلة عدد

وبيّن ابن حزم كذلك أهم بيوتات البربر ومنازلهم بالأندلس[1] وهم بالثغر أكثر من العرب كما أن بعض مواطنهم تكاد تكون مستقلة منعزلة عن مساكن القبائل العربية ، ومنهم أسماء البيوت المشهورة التي سيكون لها دور في التاريخ الأندلسي بعد انقضاء الدولة الأموية مثل : بني رزين وبني ذي النون وبني مضا وبني عميرة ومنهم بنو الزجالي الذين تميزوا أيام الحكم الأموي وغيرهم[2] .

٢

وفي عهد الدولة الأموية ظل ما نسميه « سيادة قرطبة » شيئاً نسبياً ، لأن الحكام لم يستطيعوا أن يضبطوا جميع الجهات الأندلسية ولا انتهت بهم الحروب الخارجية إلى استقرار ، ولذلك كانت تلك السيادة تنبسط حيناً على رقعة واسعة ويتقلص ظلها حيناً آخر . وإذا كان عهد الولاة قد مضى في توسيع الحدود وفي الحروب القائمة على العصبيات فإن عهد الدولة الأموية شغل كثيراً بتثبيت الحدود وبالقضاء على الفتن التي يثيرها الطامحون في الداخل . وقد كان كثير من الثائرين من المولدين والمسالمة ، كما تجددت العصبية بين العرب والمولدين . وفي أيام الأمير عبد الله كانت الأحوال تنذر بتفكك الأندلس إلى دويلات صغيرة ، إذ نجم الثوار وذر قرن العصبية في كثير من

١ الجمهرة . ٤٦٣ وما بعدها .
٢ من شاء التوسع في دراسة الحياة الاجتماعية في عصر الولاة فليراجع كتاب « فجر الأندلس » للدكتور حسين مؤنس ، فهو المؤرخ الحجة في التاريخ الأندلسي .

النواحي . وقد بقيت قطعة من كتاب المقتبس لابن حيان خاصة بحكم الأمير عبد الله تصور هذه الناحية في إسهاب [1] . فثار من المولدين عبد الرحمن بن الجليقي ، واتخذ بطليوس دار مملكته وكان يدعو لعصبية المولدين على العرب ، واقتعد بكر بن يحيى بن بكر مدينة شنت مرية بكورة أكشونبة يدعو بمثل دعوة ابن الجليقي ، وكان جده ردلف عجمياً . وثار محمد من بني قسي المولدين أمراء الثغر وبلغ به الحال أن تملك طليطلة . وثار كذلك السرباقي صاحب ابن الجليقي ونظيره في التمرد ؛ وكان أشد الثوار شوكة عمر بن حفصون وهو أيضاً من المسالمة ، هذا إلى ثوار آخرين من بيوتات البربر والعرب .

واشتعلت الفتنة بين العرب والمولدين بكورة البيرة واجتمع العرب إلى زعامة سوار بن حمدون القيسي ثم إلى سعيد بن جودي من بعده ، وترأس المولدين رجل يدعى « نابل » ونشبت بين العرب والمولدين ثورة أخرى بإشبيلية ، وهكذا ، حتى كان كل شيء ينذر بتصدع أمر الأندلس . ومن هنا نرى أن نواة الانقسام الذي تم بعد الفتنة البربرية كانت موجودة في تكوين الدولة نفسها . ولقد استطاع الناصر أن يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج ، وأن ينعم ابنه الحكم بثمرات السلم وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم . ولكن ما كاد المنصور بن أبي عامر يقبض على زمام الأمور حتى صرف همّه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل ، ومشى ابنه المظفر في آثاره ، ثم عاد الأمر إبان الفتنة إلى الفوضى واشرأبت الميول الانفصالية من جديد . هل كانت طبيعة التفكك ناشئة عن خلل في الإدارة الأموية ؟ هل كانت من كثرة الأعداء الخارجيين ؟ هل نشأت عن عدم الانصهار بين الأجناس المتباينة في الداخل ؟ هل للوضع الجغرافي أثر في كل ذلك ؟ هذه وغيرها

[1] نشرت بتحقيق أنطونية (باريس ، ١٩٣٧)

أسئلة من حق المؤرخ أن يجد الأجوبة عليها ولكن هذه المقدمة الصغيرة تضيق عنها .

على أنّا يجب أن ننصف هؤلاء الأمويين في أشخاصهم وفي مدى إخلاصهم غير المصطنع ليمثلوا دور الحكام المسؤولين ، العارفين بحدود ما يجب عليهم نحو رعاياهم . فربما كانوا في جملتهم خير مثل للحكام الذين يعملون لخير الرعية دون أثرة واستبداد ، ويغلّبون الجانب الديمقراطي على جانب الحكم المطلق ، وينظرون إلى الأمور — في الأكثر — من خلال العدالة والتقوى أكثر من نظرهم إلى المصالح الذاتية ، ويقدمون جانب الشورى على رأي الفرد . وإذا استثنينا الحكم الربضي الذي ساءت سيرته في نظر الأتقياء لأنه أوقع بأهل الربض حين ثاروا عليه ، فإنّا نجد المصادر تفيض بالثناء على خصائص العدل في أولئك الحكام ، فكانوا يتحرون أحوال الرعية ، ويجلسون للمظالم ، ويقدسون حكم القضاء ، ويحاربون في أنفسهم ما قد يجدونه من هوى جامح — كان عبد الرحمن الداخل على سيرة جميلة من العدل [١] وكان هشام ابنه حسن السيرة متحيزاً للعدل [٢] يحاول التشبه بعمر بن عبد العزيز في سياسته [٣] . وكان يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمال [٤] . وكان الأمير محمد عظيم الأناة متنزهاً عن القبيح ، يؤثر الحق وأهله ولا يسمع من باغٍ ولا يلتفت إلى قول زائغ ، محبوباً في جميع البلدان مراقباً لمصالح الرعية . أما عبد الله فكان مقتصداً في ملبسه وشكله وجميع أحواله ، مشيعاً للصدقات ، محبّاً للخير وأهله ، كثير الصلاة ، دائم الخشوع ، شديد الوطأة على أهل الظلم

. . . . .

١ الجذوة : ١٠ .

٢ الجذوة : ١١ .

٣ النفح ١ : ١٦٠ .

٤ ابن عذاري ٢ : ٩٨ .

والجور ، وقد خصص يوماً في الأسبوع يقعد فيه على باب قصره للنظر في الظلامات [1] . ومن خلال هذه الأوصاف لهؤلاء الأمراء وغيرهم ، نستشف البساطة في تناول الأمور ، وقلة الانغماس في نعيم الدنيا ، أو إهمال أمور الرعية ، وقد ظل الأمر كذلك على درجات متفاوتة حتى انقضى عهد الأمويين والعامريين بقرطبة .

٣

ومع تردد السيادة السياسية بين الامتداد والتقلص ، كان هناك شيئان آخذان بالنمو المطرد ، وهما مدينة قرطبة نفسها في عمرانها وأبهتها . والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية . وقد ساعدت طبيعة الأندلس وكثرة خيراتها الزراعية والمعدنية ونشاط تجارتها على ذلك ، كما ساعد عليه الاستمداد من المشرق في شؤون العلم والأدب والحضارة المادية . فكان التجار ينقلون مواد الحضارة المشرقية إلى الأندلس دون انقطاع . وفي أيام عبد الرحمن الثاني دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء من بغداد وغيرها . وعندما قتل محمد الأمين وانتهب ملكه سيق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه [2] . وبقدوم زرياب دخلت الأندلس الموسيقى والأغاني المشرقية كما دخلها كثير من صور الحضارة وتقاليدها وقواعدها . والتقت هذه الحضارة مع الثراء ورخص الأسعار والشغف بالعمران فأصبحت قرطبة في هذا العصر تنافس المشرق في روعة عمرانها وفي طمأنينة الحياة في ربوعها ، وبلغت الأوج في الاتساع والتحضر أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم حتى

....

١ ابن عذاري ٢ : ٢٢٨ — ٢٢٩ .
٢ المغرب ١ : ٤٦ .

قال ابن حوقل حين زارها في خلافة الناصر (٣٣٧) : « هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق »[١] . واشتهرت بمسجدها الجامع ، وبساتينها الكثيرة ، وكان لها من الأرباض واحد وعشرون . كما عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها ورغبة أهلها في العلوم واقتناء الكتب ، وهي بهذا تتميز على سائر المدن الأندلسية .

وأخذت الموجة الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس . ومع أن أكثر المدن الأندلسية كان موجوداً قبل دخول العرب ، فإن أكثر المدن قد اتسع بقدوم المهاجرين وأخذ بحظ من الانتعاش الاقتصادي ، وبنى المهاجرون بعض المدن كالمرية وغرناطة وكثيراً من القلاع ، ولذلك فإن دور هذه المدن في الناحية الأدبية كان أقل من دور قرطبة لأن موجة التفاعل الحضاري كانت تسير وئيدة ، ولم تتسع بحيث تكون عامة ، هذا إلى انجذاب بعض الناس إلى قرطبة لأنها دار الخلافة . ولما زار ابن حوقل بلاد الأندلس ذكر أن بها غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية ، روم ، وربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم إلى حصن ، فطال جهادهم لأنهم في غاية العتو والتمرد[٢] .

ونشط المستوطنون في التعلق بالزراعة ، وجلبوا إلى الأندلس أنواعاً من المزروعات والفواكه المشرقية ، ومع الزمن أصبحت بلاد الأندلس كأنها بستان واحد متصل ، كثيرة المبنى والثمار ، وإذا سافر المرء من مدينة إلى

١ ابن حوقل ١ : ١١١ .
٢ المصدر نفسه .

أخرى ، سار في مناطق عامرة مأهولة تتخلّلها قرى كثيرة نظيفة مبيضة الدور من الخارج ، ولم يحتج المسافر أن يحمل معه زاداً أو ماء وربما مرّ في اليوم الواحد على أربع مدائن كبيرة عدا القرى والحصون[1] . وهذا جعل المنتوجات المحلية والمستهلكات اليومية رخيصة الأسعار ولولا سنوات من القحط والمجاعات لما شاب هذا الرخاء الأندلسي ما يعكره . وقد نوه ابن حوقل بالرخص والسعة والتملك الفاشي في الخاصة والعامة[2] . وتُطنب كتب الجغرافيا في تمييز كل بلد أندلسي بما فيه من الحاصلات النباتية والمعدنية والمصنوعات ، وكلّها يدل على ما يفيض عن حاجة أهلها .

٤

وإلى جانب هذا النمو الحضاري في المجتمع كان هنالك مظهر آخذ بالتقلص ، ذلك هو الروح العسكرية العربية . ولهذا سببان : الأول : محاولة الحاكمين أن يتخلصوا من العصبية التي كان يثيرها الجنس العربي على مرّ الزمن . وقد كانت تلك العصبية بين مضر ويمن في عهد الولاة (٩٢ — ١٣٨) من أسباب ضعف الحكم العربي حينئذ . فلمّا جاء عبد الرحمن الداخل . وقاومته اليمنية وأوقع بها ، استوحش من العرب قاطبة . وعلم أنهم على دغل وحقد ، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك . وأخذ يشتري الموالي من كل ناحية واستعان بالبربر . واستجلبهم من بر العدوة واستكثر منهم ومن العبيد حتى كوّن جيشاً كبيراً[3] . ثم كان الحكم الربضي . فاستكثر أيضاً

---

١ النفح ١ : ٩٧ — ٩٨ .
٢ ابن حوقل ١ : ١٠٨ .
٣ النفح ٢ : ٧٠٦ .

من الخدم والحشم حتى بلغ مماليكه خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف منهم فرسان يسمون « الخرس » لعجمتهم[1] . غير أن العصبية لم تمت ، إذ كانت نواة الأجناد ما تزال قبلية . وكانت الحاجة ماسة إلى إيقاظ هذه العصبية لمقاومة ابن حفصون الذي كان يمثل الانتفاضة « العجمية » بالأندلس . وفي عهد الناصر والحكم كثر الصقالبة ، وأصبحوا الحرس الخاص للخليفة ، حتى إذا جاء المنصور نكبهم وقضى على نفوذهم . ولكنه من ناحية أخرى أراد أن يضعف العصبية العربية فجزأ القبائل وجعل في الجند الواحد فرقاً من كل قبيلة ، فخفت الفتن القائمة على العصبية[2] . وأسقط المنصور زعماء العرب لئلا ينازعوه السلطة وجنّد البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد وأسرى الحرب واستدعى البربر ورتب من هؤلاء جميعاً جنده[3] . غير أن حكام الأندلس في محاولتهم القضاء على العصبية العربية أوجدوا عيوباً جديدة تسببت في القضاء على السيادة العامة في الأندلس وفي إشعال الفتنة بين أجناس متنافرة من البرابرة والمولدين وبقايا العرب والإفريقيين السود والصقالبة ، وعلى يد البربر خربت قرطبة في الفتنة .

أما السبب الثاني الذي أدى إلى ضعف الروح العسكرية فهو طبيعة الاستقرار الزراعي وحاجة السكان إلى الابتعاد عن الحرب للانصراف إلى الأعمال العمرانية ، بينا كان الحكام في الأندلس بحاجة إلى جيش قوي على قدم الاستعداد دائماً ، ولذلك ابتعد الأندلسيون — نسبياً — عن الحرب ، ممّا حدا بالخلفاء إلى اتخاذ جيش أكثره من العبيد والمرتزقة .

. . .

١ المغرب ١ : ٣٩ .
٢ النفح ١ : ١٣٩ .
٣ النفح ١ : ١٨٨ .

٥

وقبل أن تنمو قرطبة نمواً بالغاً في أيام عبد الرحمن الناصر ومن بعده كان المظهر الغالب على حياة المدن الأندلسية هو الطابع الريفي . ومن مظاهر هذه الحياة الريفية : البساطة والخشونة والطيبة وعدم التصنع في المعاملات بين الناس والنبر بالألقاب والانتفاع من الجهد اليدوي والزراعي . وكان الكسب الحلال من الزراعة يجتذب إليه كثيراً من العلماء والأتقياء . ولذلك كثيراً ما نرى المحدثين والفقهاء في هذه الفترة يؤثرون حياة القرية . وكان من شأن الخلفاء أن يرسلوا في القرى من يستطلع أحوال الناس ويكشف عن أهل العلم والخير منهم . فإذا احتاجوا إلى رجل في بعض المناصب أرسلوا في طلبه [1] . فمثلاً أرسل هشام بن عبد الرحمن في طلب مصعب بن عمران أحد الفقهاء الأتقياء ليوليه القضاء فوجده الرسول في ضيعته يعين زوجته على عمل الوشائع وهي تنسج في منسج لها [2] . وكان محمد بن مسلمة الذي أصبح قاضياً في قرطبة متنزهاً عن الناس ملتزماً للبادية [3] . وكان طلاب الحديث إذا سمعوا بهذا النوع من العلماء رحلوا إليه في قريته ليسمعوا منه ويكتبوا عنه — كان أحمد بن هشام القرطبي المحدث مستوطناً قرية احتبانة من عمل قبرة فكان طلاب الحديث أمثال ابن بشكوال والفرضي وابن المصعب يسافرون إليه لأخذ الحديث عنه [4] . وحكى أحدهم أنه كان يختلف مع أصحابه إلى إبراهيم

١ قضاة قرطبة : ٣٩ .
٢ قضاة قرطبة : ٤٣ .
٣ قضاة قرطبة : ١٣٩ .
٤ الصلة : ١٩ .

ابن محمد بن باز إلى المنية فيقرأون عليه وهو يزرع والقفيفة في ذراعه[1] وكان بعض علماء اللغة كالهواري وخصيب يسكن الأرياف ، ويرسل الخلفاء لهؤلاء المتبدين يسألونهم في اللغة أو في شيء من أمور العلم والدين[2]

٦

وتميزت الحياة الاجتماعية في هذا المجتمع منذ البدء بالفهم الصحيح للمسؤولية الاقتصادية وتقدير الكسب والتدبير في موازنة الدخل والخرج ، على نحو قد يعده المشارقة بخلاً . ولكن هذا الوعي الجيد قد حمى البيئة الأندلسية من الكدية ، لسقوط الاتكال في نظرهم ، كما أبعد عنهم الاغراق في التصوف الاتكالي أو استحداث الدويرات والتكايا . نعم أنشأ الحكم المستنصر داراً سماها دار الصدقة ، ولكن يبدو أن التعرض للصدقات في الأندلس كان قاصراً على كل محتاج معذور . أما القادر على الكسب فكان يتجه إلى حرفة تكفيه وتعينه على الحياة . ولذلك انتعشت روح التعاون هنالك . وهذه هي الروح التي يمثلها ابن الكتاني استاذ ابن حزم حين كان يقول لتلامذته : « إن من العجب من يبقى في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة . أما يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والخياط يخيط له ، والجزار يجزر له ، والبنّاء يبني له ، وسائر الناس كلٌّ متولٍّ شغلاً له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ، أفما يستحي أن يكون عيالاً على كل العالم ، لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة ؟ »[3] . ويعلق ابن حزم على

١ الصلة : ٣٣ .
٢ الزبيدي : ٢٨١ والصلة : ٣٤ .
٣ رسائل ابن حزم : ٧٣ .

هذا بقوله : « ولقد صدق ولعمري إن في كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له ، وأيّ كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس ؟ »[1] . ولذلك كان الأندلسيون يبعدون عن كثير من الأمور التي يصبغها المشارقة بلون مثالي . خذ مثلاً حال المؤدب وأخذه للأجر المسمّى « الحذقة » فقد كان المشارقة يختلفون حول أخذ الأجر على التعليم ، أما في الأندلس فلم يقفوا عند هذه المسألة ، لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ، يكفيه الاعتماد على بدوات الكرماء أو تقلبات الظروف[2] .

٧

وفي ظل هذا المجتمع كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية . ولا تقل المرأة الأندلسية عن المشرقية في مدى النفوذ السياسي . فكانت عجب ذات سلطان واسع في أيام هشام بن عبد الرحمن وظلت تسيطر كثيراً في أيام عبد الرحمن ابنه ، وكان لطروب جارية عبد الرحمن إدلال كثير عليه ولكننا لا ندري مدى أثرها في الحياة السياسية . وقد نقم الناس على القاضي محمد بن زياد خضوعه لامرأته كفات[3] ، لا لأن هذا الخضوع كان مستهجناً في حد ذاته ، بل لأن القاضي يجب أن يكون فوق هذا المستوى . وفي أيام عبد الرحمن الناصر كانت رسيس مقربة إليه حتى إنه جعلها تخرج معه في موكبه وهي تلبس قلنسوة وتتقلد سيفاً ، وشق قرطبة

١ - رسائل ابن حزم : ٨٣ .
٢ الزبيدي : ٢٧٨ .
٣ قضاة قرطبة : ٩١ .

على هذه الحال حتى بلغ الزهراء[1] ، ولا ننسَ ما كان لصبح من النفوذ في أيام الحكم وفي جانب من عهد ابن أبي عامر .

وتولت المرأة المناصب أيضاً . فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبد الرحمن وهي نحوية شاعرة بصيرة بالحساب عروضية خطاطة[2] . وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة في الخط[3] . وشارك بعضهن في رواية الحديث فكانت غالبة بنت محمد المعلمة تروي الحديث . وكذلك كانت فاطمة ، وشارك أخريات في الشعر : ومنهن عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجاتها ، وقد جمعت لنفسها مكتبة قيمة ؛ وصفية بنت عبد الله الريّي . ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي . والغسانية الشاعرة التي كانت تمدح الملوك وعارضت ابن دراج في إحدى قصائده حين مدحت خيران العامري[4] .

ولعل هذه المكانة التي بلغتها المرأة هي التي نبهت الأندلسيين إلى التساؤل حول علاقة المرأة بالنبوة وأوقعت الجدل بين الفقهاء القرطبيين في هذه المسألة . وكان من أوائل الذين أثاروا القول في هذه المسألة محمد بن موهب القبري جد أبي الوليد الباجي لأمه ، في الأيام العامرية ، فشنع الناس عليه في ذلك[5] . وقال ابن حزم في الإشارة إلى الجدل حول هذه المشكلة : « هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة ، وفي زماننا . فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة بالنساء جملة ، وبدّعت من قال ذلك ، وذهبت طائفة

١ دقط العروس : ٧٣ – ٧٤ .
٢ الصلة : ٦٥٣
٣ الصلة : ٦٥٣ .
٤ الصلة : ٦٥٣ – ٦٥٧ ، والجذوة : ٣٨٨ وما بعدها .
٥ الجذوة . ٨٥ .

إلى القول بأنه قد كانت في النساء نُبوّة . وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك »[1] . وقد أبى ابن حزم نفسه أن يقبل إطلاق الحديث القائل بنقص الدين والعقل في المرأة في كل الأحوال ، وقصره على نقصان حظّها في الشهادة وعند الحيض[2] « إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال وأتم ديناً وعقلاً غير الوجوه التي ذكر النبي (ص) »[3] .

٨

إن كثيراً ممّا تقدم يمنح المجتمع الأندلسي لوناً قد يكون فارقاً إلى حدّ ما ، ويقربنا كثيراً من الشعور بالتسامح إزاء الحياة ومظاهر النمو الحضاري . ولكنّا ما نكاد نقترب من الدائرة المذهبية والعلمية حتّى نصطدم بروح بالغة من التشدد والتزمت ؛ لقد دخلت المذاهب إلى الأندلس ثم انحدرت أمام مذهب مالك ، فكان أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي قبل دخول بني أمية[4] ، ويقال إن الذي أدخله هو صعصعة بن سلام (– ٢٩٢) وكان زهير ابن مالك البلوي فقيهاً على مذهب الأوزاعي حتّى حين أخذ الناس يتحولون عنه[5] . ثم غلب مذهب مالك مع الزمن لسببين ذكر أحدهما ابن حزم وذكر الثاني ابن خلدون . أما ابن حزم فيقول : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان ، مذهب أبي حنيفة . . . ومذهب مالك عندنا بالأندلس . فإن يحيى

١ الفصل ٥ : ١٧ .
٢ الفصل ٤ : ١٣١ .
٣ الفصل ٤ : ١٣٢ .
٤ ابن الفرضي ١ : ١٨١ .
٥ المصدر نفسه .

ابن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلاّ بمشورته واختياره ولا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا [1]؛ ويقول ابن خلدون : إن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق وكانوا إلى أهل الحجاز أميَل لمناسبة البداوة [2] . ومن الصعب أن نحدد من هو أول من أدخل مذهب مالك إلى الأندلس . فمن قائل إنّه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون لأنّه أول من أدخل الموطأ إلى بلده [3] ، ومن قائل إن الغازي بن قيس دخل الأندلس بالموطإ في أيام عبد الرحمن [4] . وفي ذلك الزمان رحل جماعة من أمثال شبطون كقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل إلى الحج في أيام هشام بن عبد الرحمن فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر فيها رأيه وعلمه [5] . وانتشر الفقهاء ببلاد الأندلس على مذهب مالك . وكان بالبيرة سبعة سمعوا كلّهم من سحنون في زمان واحد [6] . وأصبح الفقهاء يدورون حول المدوّنة وكتاب آخر ألّفه العتبي الأندلسي ويسمى العتبية أو المستخرجة ، وضاقت الدائرة فأصبحوا يكرهون الحديث مع أن الحديث أصل في مذهب أستاذهم ، إلا أنّهم شغلوا بالتفريعات والرأي . وكان أكثرهم لا يتجاوز رأي مالك وابن القاسم أو أشهب ، وأخذ بعضهم

١ النفح ١ ٠ ٣٣٢ .
٢ المقدمة : ٤٤٩ (ط . المكتبة التجارية بمصر) .
٣ النفح ١ : ٣٤٩ .
٤ اس القوطية ٣٤ .
٥ النعح ١ : ٣٥٠
٦ ابن الفرصي ١ ١٣٩ .

يتنقصون أهل الحديث . ويمثل بقي بن مخلد التحول إلى الحديث حينئذ ، فقد ملأ الأندلس حديثاً ورواية وانفرد بإدخال مصنف ابن أبي شيبة وكتاب الفقه للشافعي وغير ذلك . فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث وأغروا السلطان به . غير أن السلطان أيده في موقفه . ومن روايته انتشر الحديث بالأندلس . ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث وإسناد[1] ونشأ بها حفاظ مقدمون منهم خالد بن سعد القرطبي الذي كان المستنصر يقول فيه : إذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين فاخرناهم بخالد بن سعد[2] .

وتمذهب بعض الأندلسيين بمذهب الشافعي وبعضهم بمذهب داود الظاهري ، وجاء المذهب الخارجي مع بعض المهاجرين من إفريقية وكان النكارية هم الغالبين على خوارج الأندلس[3] ، وعرف بعضهم الاعتزال ومن أوائل القائلين به أحمد بن موسى بن حدير صاحب السكة الذي كان يقول : إن الله عاقل[4] ، وكان ابن مسرة يخلط مذهبه بآراء المعتزلة ويقول بالقدر[5] ، كما كان منذر بن سعيد يتهم بالميل إلى هذا المذهب ، وكان حكم ابنه رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم[6] . وقد واجه فقهاء الأندلس هذا المذهب باستنكار شديد . ولما مات خليل بن عبد الملك ابن كليب ، وكان مشهوراً بالقدر لا يتستّر به ، أتى أبو مروان ابن أبي عيسى

١ ابن الفرضي ١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .
٢ ابن الفرضي ١ : ١٥٤ — ١٥٥
٣ الفصل ٤ : ١٩١ .
٤ الفصل ٤ : ٢٠٢ .
٥ انظر الفقرة التالية رقم ٩ .
٦ طوق الحمامة : ٤٥ .

وجماعة من الفقهاء وأخرجوا كتبه وأحرقت بالنار إلا ما كان فيها من كتب المسائل [1] .

وكذلك كان منهم من اتبع المذهب الأشعري ، ومن زعماء هذا المذهب أبو الوليد الباجي الذي ناظر ابن حزم – كل هذه المذاهب لم تكن تنافس مذهب مالك حتى قام ابن حزم يناوىء المذاهب جميعاً وينشر القول بالظاهر ويدعو إلى التمسك بالنص الحرفي للكتاب والسنّة واستمداد الأحكام منهما وينكر التقليد للأئمة ويبطل الأقيسة الفقهية ، إلى غير ذلك من أمور جعلت مذهبه يوصف بأنه ظاهريّ ويسمى أتباعه أهل الظاهر .

غير أن الأندلسيين من وجهة عامة كانوا يعادون كل جديد عليهم حتى إنهم ثاروا على بقي بن مخلد – كما تقدم – ونسبوه إلى البدعة ورموه بالإلحاد والزندقة وخاطبوا الأمير محمداً في شأنه ، واضطر بقي إلى أن يتستّر خوفاً على دمه [2] . ووسم الفقهاء الأندلسيون كل من درس الفلسفة والمنطق وكتاب المجسطي بالزندقة وحرضوا عليه العامة . وتعقبوا أهل القدر من أتباع ابن مسرة وأحرقوا كتبهم واستتابوهم . وقد أراد ابن حزم – وهو الفقيه العالم – أن يحطم الحاجز القائم دون دراسة المنطق والفلسفة ، فعرض نفسه لهجوم الخصوم ، ولكن ابن حزم نفسه أدركه نوع من التدين جعله يقلل من قيمة كل علم لا يقرّب المرء من الله تعالى ، وحث في رسالتيه : التوقيف على شارع النجاة ومراتب العلوم على الانصراف لدراسة الشريعة . ولقي ابن حزم نفسه بسبب هجومه على فقهاء المالكية وإباحته دراسة المنطق والفلسفة وحدّته في الدفاع عما يراه صواباً – لقي شيئاً غير قليل من الاضطهاد

---

١ ابن الفرضي ١ : ١٦٥ .
٢ ابن عذاري ٢ : ١٦٣ .

أدى إلى حرق كتبه. وكان الحسد بين رجال الدين من الأسباب التي تضيق الحرية العلمية. ومع الزمن تعدى الجدل أهل المذاهب الإسلامية وأصبح يقوم بين علماء المسلمين ورجال الدين من أهل الملل الأخرى.

٩

قد ألمعنا في الفقرة السابقة إلى ابن مسرة، وشيء عن موقف أهل الأندلس منه ومن مذهبه، ولا بأس أن نتحدث هنا عن الرجل وعن المذهب الذي جاء به إذ اننا، إذا استثنينا المذهب الظاهري الذي نادى به ابن حزم — وهو مذهب سني — لم نجد مذهباً آخر لقي من مقاومة الأندلسيين ما لقيه مذهب ابن مسرة.

مؤسس هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي، قرطبي ولد سنة ٢٦٩ وتتلمذ على أبيه ومحمد بن وضاح الخشني. وفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر — أي سنة ٣٠١ على التحديد — خرج إلى المشرق فاراً بنفسه، لأنه اتهم بالزندقة، ودخل القيروان فلبث فيها مدة، وهناك رآه الخشني في مجلس أستاذه أبي جعفر أحمد بن نصر أحد تلامذة سحنون، قال الخشني: «فسلم وجلس جانباً، وأنا لا أعرفه. ولا أحد من المجلس، فرأيته يقلب بصره في وجوه المتكلمين، ويديل النظر فيما بينهم، فعلّ من قد رسخ في الصنعة، وعرف ما نحن فيه، فلم أشك أنه من أهل العلم. وما فطن بذلك منه غيري، وغير فتى من أصحابي يعرف بربيع القطان، وطال المجلس بنا على تلك الحال. حتى أظهر الشيخ التحرك، وأومأ إلى القيام. وتداعى أهل المجلس إلى النهوض، فكرهت أنا أن أقوم حتى أعرف آخراً مَن الرجل الداخل علينا. فثبتُّ. فلما خفّ المجلس،

تحول إليه أحمد بن نصر فقال له : يا شاب ، جلست منذ اليوم فهل من حاجة تذكرها ؟ فاندفع محمد بن مسرة بكلام مصنوع إلا أنّه حسن من الكلام جيد فقال : أتيتك مقتبساً من نورك ، ومستمداً بعلمك — إلى ما يشبه هذا من القول ، وأتى به شبيهاً بخطبة موجزة . ولا عهد لأحمد بن نصر بمن يخاطبه بهذا الضرب من الخطاب ، فجعل الشيخ ينظر إليه ويفهم عنه حتى أتى ابن مسرة على ما أحبّ أن يتكلم به ثم سكت . فكان جواب أحمد بن نصر له في ذلك كله أن قال له : يا شاب هذه الصفة هي في القبور ، رحم الله من كانت هذه صفته . فوضع ابن مسرة يديه في الأرض ثم قام وقمنا في أثره »[1] .

وذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج غير مرّة وزار قبر النبي عليه السلام بالمدينة ، وأقام فيها مدة يتتبع آثار الرسول ، فدله بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم فقصد إليها ، فإذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد ، قد شق في وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقي إلى ذلك الفرش على مخارج لطيف ، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي (ص) في الصيف ، فصلى ابن مسرة في البيتين والسقيفة ثم قاس بشبره تلك الدار ، وبنى مثلها لسكناه ، لما عاد إلى الجبل بقرطبة[2] .

وكان يصحبه في رحلته هذه إلى الحج اثنان من معتقدي مذهبه وهما محمد بن حزم بن بكر التنوخي من أهل طليطلة ويعرف بابن المديني[3] وأيوب ابن فتح[4]، ومعهم أحمد بن غانم وكان أسنّ من ابن مسرة وحج معه مرتين[5]،

---

١ علماء إفريقية : ٢١١ — ٢١٢
٢ التكملة : ٣٦٥
٣ التكملة ٣٦٥
٤ التكملة : ١٩٩
٥ التكملة : ١١

ورافقه أيضاً محمد بن وهب المعروف بابن الصيقل وكان أصغر منه سناً[1] . ويروى أنّه اشتغل في الشرق بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً . فاختلف إليه الناس وسمعوا منه وانقسموا فيه فريقين ، فريق رآه إماماً في علمه وزهده وفريق طعن عليه ووصف مذهبه بالقبح وسوء المعتقد[2] .

على أي شيء يقوم مذهب ابن مسره ؟ يبدو من الأخبار القليلة التي تبقت لدينا عنه أنّه كان يجمع بين بعض مبادىء المتصوفة وبين بعض أصول الاعتزال ، فلم يكن معتزلياً خالصاً ولا باطنياً خالصاً . فأما المبادىء الاعتزالية التي كان يقول بها فهي قوله بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله[3] . ويقول ابن حزم : إن ابن مسرة شارك المعتزلة في القول بالقدر ، وكان يقول إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وإن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه جملة وهو علم الكتاب — وهو علم الغيب — كعلمه أنّه سيكون كفار ومؤمنون بالقيامة والجزاء ونحو ذلك ، والثاني علم الجزئيات ، وهو علم الشهادة ، وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك ، فإنّه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئاً حتى يكون ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[4] . وأما المبادىء الباطنية فإنّه بناها على آراء منسوبة لانبذوقليس ، وليست له ، وإنما هي بعض آراء فيلون الاسكندري وأفلوطين . ومن هذه الآراء المنسوبة لانبذوقليس الجمع بين معاني صفات الله وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد وأنّه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه

١ التكملة ٣٢١
٢ ابن الفرضي ٢ : ٤١
٣ المصدر نفسه .
٤ الفصل ٤ : ١٩٨

الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكثر بوجه . . وتزعم الفرقة الباطنية أن لانبذوقليس رموزاً قلّما يوقف عليها[1] . وقد يستنتج ممّا جاء في كتب ابن مسرة أن النبوة اكتساب لا اختصاص وأنّه قد يحرزها من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس . وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول له[2] . وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية موجودة في تاسوعات أفلوطين وهي القول بوجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . وقد دافع ابن مسرة عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية[3] .

واستطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة كثيرين وعاش معهم في عزلة وكان ، كما تصوره الروايات ، ذا قدرة ساحرة مؤثرة في النفوس . كما أنّه ألف بعض الكتب في مذهبه منها كتاب الحروف . وكتاب التبصرة ، ويقول ابن الأبار إن ابن مسرة لم يكن يخرج كتاباً إلا بعد أن يتعقبه حولاً كاملاً ، فلمّا ألف التبصرة احتال صاحبه حي بن عبد الملك الذي كان يسكن معه في متعبده بالجبل فاستخرج كتاب التبصرة وانتسخ منه نسخة لنفسه ورد الأصل ، ثم أرى النسخة لابن مسرة وقال له : تعرف هذا الكتاب ؟ فلمّا تصفحه قال له : لا نفعك الله به ! ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد[4] . غير أن بعض كتبه كان معروفاً في الأندلس ، وقد رأى ابن حزم عدداً منها .

وأثار ابن مسرة حوله بعض الخصومات الجدلية في المشرق وفي الأندلس .

١ القفطي : ١٣
٢ الفصل ٤ : ١٩٩
٣ بالنثيا : ٣٣٠
٤ التكملة : ٢٨٤ ٢٨٥

فممس ألف في الرد عليه من المشارقة : أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي وأحمد ابن محمد بن سالم التستري ، وممن رد عليه من الأندلسيين ابن أبيض ، وقد جمع في الرد عليه كتاباً كبيراً جليلاً أكثر فيه من الحديث والتواهد[1] وللزبيدى أيضاً كتاب في الرد عليه[2]. وللقاضي ابن زرب كتاب آخر قرىء عليه وأخذ عنه عدة مرات بقرطبة[3] . ولم يقتصر تأثيره على تلامذته الذين لقوه واستمعوا إليه بل إن هناك أناساً انحازوا إلى مذهبه دون أن يلقوه . منهم طريف الروطي وأضحى بن سعيد وكانا من أهل الزهد والخير[4]. وقد ألف بعضهم كتاباً في أخباره وأخبار أصحابه ينقل منه ابن الأبار في تكملته[5] .

أما أشهر تلامذته الذين صحبوه أو آمنوا بمذهبه دون صحبة — عدا الذين تقدمت الإشارة إليهم — فهم :

١ — أيوب بن سليمان إسماعيل الطليطلي (— ٣٤٣) وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له[6] .

٢ . ٣ — الياس بن يوسف الطليطلي (— ٣٢١) وأخوه عون .

٤ — خليل بن عبد الملك (— ٣٢٣) تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان غاية في الزهد والورع وكان معلناً بالاستطاعة . مشهوراً بالقول بالقدر وربما كانت تأويلاته تفسر لنا تأويلات ابن مسره كقوله إن الصراط هو الطريق أي الإسلام والميزان هو عدل الله[7] .

١ الصله ٢٤٤
٢ الصلة ٠ ٤٦٥
٣ ابن الفرصي ٢ ٠ ٩٧
٤ التكمله . ٣٤٦
٥ التكملة ١١
٦ التكملة ٠ ١٩٩
٧ ابن الفرصي ١ . ١٦٥

٥، ٦، ٧ـ محمد بن فضل الله بن سعيد ، وحكم وسعيد ابنا مندر بن سعيد القاضي وكلهم تفقه بكتب ابن مسرة . وعن حكم يروي ابن حزم ويصفه بالصدق[1]

٨ ـ أحمد بن وليد (ـ ٣٧٦) من أهل بجانة يعرف بابن أخت عبدون وهو أحد النفر الذين استتابهم محمد بن يبقى[2]

٩ ـ رشيد بن فتح الدجاج (ـ ٣٧٦) قرطبي ، صلى عليه محمد بن يبقى ويظهر أنّه استتابه[3] .

١٠ ـ أبان بن عثمان (ـ ٣٧٧) من أهل شذونة[4]

١١ ـ عبد العزيز بن حكم الأموي (ـ ٣٨٧) كان مائلاً إلى الكلام والنظر وقد غض منه انتحاله لمذهب ابن مسرة .

١٢ ـ محمد بن مفرج المعافري ويعرف بالفتى (ـ ٣٧١) وكان يدعو إلى المذهب ولا يقف عند حد الاعتقاد به[5] .

١٣ ـ ابن الإمام (ـ ٣٨٠) وكان لا يتستر في اعتقاده ، مولعاً بالتشريق في صلاته[6] .

١٤ ـ محمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي (ـ ٣٨٢) وأصله من جيان ، أشهد على نفسه ـ في النهاية ـ أنه غير معتقد لشيء من مذهب ابن مسرة[7] .

١ التكملة · ٣٧٨
٢ ابن الفرضي ١ ٦٦
٣ ابن الفرضي ١ · ١٧٥
٤ ابن الفرضي ١ · ٣١
٥ ابن الفرضي ٢ · ٨٤
٦ ابن الفرضي ٢ . ٩٥
٧ ابن الفرضي ٢ . ٩٨

وبعض الجيل الثاني من هؤلاء التلاميذ هم الذين تعرضوا من جديد للمحاكمة . وأغلب الظن أن هذا حدث بعد وفاة الحكم المستنصر ، أي حوالي سنة ٣٧٠ . عندما كان ابن زرب قاضياً . فقد اهتمّ هذا القاضي بالكشف عن أتباع ابن مسرة واستتابة من علم أنّه يعتقد ذلك المذهب . وتاب على يديه منهم جملة . ثم خرج ابن زرب إلى جانب الجامع الشرقي وقعد هناك وأحرق ما وجده من كتبهم وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين[1] .

وآخر من نعرفه من أصحاب ابن مسرة هو إسماعيل بن عبد الله الرعيني وهو متأخر عن الجيل الثاني منهم . وقد أدركه ابن حزم ولم يلقه « وكان من المجتهدين في العبادة . المنقطعين في الزهد » . وقد أحدث في المذهب أقوالاً سبعة فنفر عنه سائر المسرية وكفروه . إلا قليل منهم ومما أحدثه قوله إن الأجساد لا تبعث أبداً . وإنّما تبعث الأرواح . وكان يقول : إن الإنسان حين يموت . تلقى روحه الحساب . ويصير إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإنّه لا بعث إلا على هذا الوجه أبداً . وكان يقول : العالم لا يفنى أبداً . وكان لا ينسب الفعل إلى الله وينزهه عن ذلك . ويرى أن العرش هو الذي يدبر العالم . وينسب قوله إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال في كتبه . قال ابن حزم : ليس فيها لعمري دليل على هذا القول ولما تبرىء منه المسرية بقيت تتبعه ابنته متكلمة ناسكة مجتهدة وقال ابن حزم إنه (أي ابن حزم) عرض هذه الأقوال على ابن لإسماعيل فأنكر كل ذلك . قال . « ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل من يعظمه بفهم منطق الطير وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون . وهناك أمور لا شك فيها وهي أنّه كان عند فرقته إماماً واجبة

١ النباهي ، ٧٨ ويذكر أن ذلك حدث عام ٣٥٠ هـ والأرجح خطأ لأن ابن زرب أصبح قاضياً سنة ٣٦٧

طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عمّ الأرض وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يكتسبه من الرفاق . وأن الذي يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه — هذا أمر صحيح عندنا عنه يقيناً ، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط . وصحّ أنّه كان يقول بنكاح المتعة»[1] .

١٠

ولم تنشأ عند الأندلسيين مدارس خاصة بل ظل المسجد هو المكان المخصص للدراسة . فإن لم يكن المسجد ، فبيت الأستاذ نفسه . وقد حدثنا ابن بشكوال عن أستاذ كان يقصده الطلبة في داره وهم نيف على أربعين تلميذاً ، وأنهم كانوا يدخلون داره في شهر نونبر ودجنبر وينير في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، وفي وسط المجلس كانون في طول قامة الإنسان مملوءاً فحماً يأخذ دفئه كل من في المجلس ، فإذا فرغ من تدريسهم قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب أو ثرائد اللبن بالسمن أو بالزبد[2] .

وكان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الشيء الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين ، وهم في تدريسهم يعتمدون الكتاب المشرقي في الغالب ، ولذلك هاجرت كتب المشارقة إلى الأندلس بكثرة ، وكثرت رحلة الأندلسيين إلى المشرق في طلب العلم ، وكان الواحد منهم يشرف بين بني قومه حين يروي

١ الفصل ٤ : ١٩٩ — ٢٠٠
٢ الصلة ١ : ٤١

عن شيوخ مصر وبغداد وغيرهما من بلدان المشرق . وكتاب ابن الفرضي والصلة والتكملة وما أشبهها معرض لهذه الهجرات الأندلسية على مرّ الزمن . كما أن فيها صورة لما كان يهاجر من الكتب إلى البلاد الأندلسية تباعاً . وتستفيض هذه الناحية حتى تعز على الحصر ، وتجد النشاط إلى جمع الكتب المصححة المحررة عامّاً بين المسلمين في إسبانية، ولم تكن قرطبة وحدها مركزاً للمكتبات الكثيرة وإن تميزت عما عداها في ذلك بل كانت تلك المكتبات في المدن الأخرى مثل طليطلة وإشبيلية وفي القرى الصغيرة أيضاً . وقد ترك ابن خير في فهرسته أيضاً صورة أخرى للكتب التي هاجرت إلى الأندلس ، ويحسن بنا هنا أن نشير إلى رسالة ابن حزم التي قارن فيها بين بعض المؤلفات الأندلسية والمشرقية في بعض الفنون ، وكلها ممّا اطلع عليه ووقع في يديه[1] .

ولذلك وسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالاعتماد على المشرق والتقليد لأهله ، لأنه كان أرقى حضارة وأوسع ثقافة . وإليه يلتفت الأندلسيون في تجاربهم ويرونه منبع العلم والدين وموطن القداسة والحج . وقد تنمو روح المنافسة مع الزمن بين المشرق والمغرب ولكنها لن تستطيع أن تكمل استقلال الأندلس في شؤون الحضارة والأدب بل إنها ساعدت على توسيع دائرة التقليد . وقد حاول الحكم المستنصر ثم ابن حزم أن يرسما للأندلس حدوداً ثقافية ، وأن يقفا بها على مستوى المشرق ، ولكن تقديس الثقافة والأدب المشرقي ظل حاداً ساطعاً . ومن الخطإ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية لأنّا ندرس أدباً يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب . فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان

١ انظر عن اهتمام الأندلسيين بالمكتبات مقالة للأستاذ جولمان ريبيرا بمجلة معهد المخطوطات المجلد ٤ ، الجزء الأول والثاني

التشابه أيضاً محتوماً . نعم كان الشعور « بالأندلسية » أو « المغربية » ينمو مع الأيام ، وكانت البيئة تعمق خصائصها في الخلق وطرق الحياة ، وكان الاختلاط بأمم بعيدة يدعو إلى الابتعاد عن المشرق في الزي وروح الفروسية والعادات واللهجة والأمثال . ولكن التعبير — لكن صورة الأدب الذي ندرسه ظلت أوثق شيء صلة بالمشرق . وإذا كان من الخطإ أن نقف أبصارنا على صورة الاستقلال الذاتي في الشخصية الأندلسية ، فمن الخطإ أيضاً ألا نرى في الانتاج الأندلسي إلا صورة مشوهة من أدب المشارقة .

الشعر الأندلسي في هذا العصر

١

العوامل المؤثرة في نشأة الشعر الأندلسي

قد يذهب بعض الدارسين إلى أن لفظة «أندلسي» حين تتخذ صفة للأدب من شعر ونثر، تشير إلى نتاج أجيال ولدت في الأندلس، وتشربت خصائص البيئة الأندلسية بالولادة والنشأة، ونقلت إلى حدّ ما سمات تلك البيئة فيما قدّمته من صور التعبير. وليس هذا التحديد خاطئاً، ولكنّه حين يوضع موضع الاختبار يعجز عن استيعاب الحقيقة كاملة. ولو ألقينا على أنفسنا الأسئلة الآتية: هل يدرس ابن هانىء بين شعراء الأندلس؟ هل يعد نتاج أبي علي القالي مشرقياً؟ هل يعد الحشني قيروانياً؟ — لو فعلنا ذلك لاتضح لنا أن التحديد السابق للفظة «أندلسي» قاصرٌ تماماً عن الوفاء بمعنى «الأندلسية» في إحاطة وشمول، وبخاصة في هذا العصر الذي أطلقنا عليه اسم «عصر سيادة قرطبة».

وحين عرضت هذه المسألة لابن حزم الأندلسي قال: «وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين — دون محاشاة أحد — بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقرَّ بها ولم يرحل عنها رحيلَ تركٍ لسكناها إلى أن مات... فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه، ومن هاجر منّا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به، **فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم فكذلك لا نناز ع في محمد بن هانىء سوانا**، والعدلُ أولى ما حُرِصَ عليه، والنّصَفُ أفضلُ ما

دعي إليه . . . »[1] . ومهما يكن نصيب هذا التمسير الذي ارتآه ابن حزم من الوجاهة والسداد ، فإن اختياره له كان يحقق أمرين هامين في نظره : أولهما أنه كان يعلم أن الثقافة الأندلسية حتى عصره – ومن ضمنها الأدب – كانت نتاج جهود شارك فيها عدد غير قليل من المهاجرين الذين ألفوا في موضوعات أندلسية أو واكبوا أحداث الأندلس ، أو أرادوا بما كتبوه خدمة الطلاب الأندلسيين ، ولهذا كان استثناء هذه الحركة الثقافية أمراً غير طبيعي فضلاً عن أنه يحرم الأندلس جهودَ أناسٍ عاشوا فيها حتى وافاهم الأجل هنالك . وثاني الأمرين أن ابن حزم كان ينظر إلى بعيد ، وذلك أنه حين يعدّ المهاجرين إلى الأندلس – دون تركٍ لها – أندلسيين فإنّه يشمل بذلك جميع الداخلين إليها منذ بداية الفتح وبذلك يمنح الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي صفة من القدم والعراقة ويجعل للأدب الأندلسي خاصة « موروثاً » أصيلاً يفيء إليه . ولهذا فإنه حين تحدث عن شعراء الأندلس قال : « ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما . ولو أنصف لاستشهد بشعره **فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على** طريقة المحدثين »[2] وجعونة هذا الذي ذكره من الطارئين الأوائل ، وكان فارساً شجاعاً يلقبونه « عنترة الأندلس » . ولم يكن يقيم في مكان معين وإنما كان يتنقل في النواحي ويحلّ أكناف قرطبة . وقد هجا الصميل بن حاتم وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري – في عهد الولاة – وكان الصميل من شيوخ القيسية ومن ذوي النفوذ البعيد في الأندلس . فلما ظفر به الصميل عفا عنه فأصبح مدّاحاً له . فأقسم الصميل ألا يراه إلا أعطاه

١ من رسالته في فضل الأندلس ، انظر ملاحق هذا الكتاب

٢ النفح ٢ : ٧٧٥ وانظر ترجمة جعونة في جذوة المقتبس : ١٧٧ والمغرب ١ : ١٣١ ورسالة ابن حزم في الملاحق

ما حضره — مثلما كان يفعل هرم بن سنان مع زهير بن أبي سلمى — وهذا كان أبو الأجرب يعتمد إغباب لقائه فلا يزوره إلاّ في العيدين ، وقد توفي جعونة قبل قيام الدولة الأموية . ولم يبق لدينا من شعره ما يصوّر مذهبه العام وطريقته ولكن القليل الباقي يدل على أنه كان كما قال ابن حزم شعراً بدويّ السمات . فمن ذلك قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل　　عالٍ ورأسي ذو غدائر أفرعُ
والعيشُ أغيدُ ساقطٌ أفنانه　　والماء طيّبُهُ لنا والمرتعُ

ولم يذكر ابن حزم من واضعي أسس الموروث الشعريّ في الأندلس سوى جعونة الكلابي . ولا ندري لم أغفل ذكر شاعر آخر كان ايضاً من الطارئين في عصر الولاة وهو أبو المخشّى عاصم بن زيد[1] . وأصله من نصارى الحيرة ، ولذلك كان خصومه من الشعراء يعيرونه بالنصرانية في هجائهم له . وقد امتدّ به العمر حتّى أدرك الدولة الأموية ومدح سليمان بن عبد الرحمن الداخل فظن هشام بن عبد الرحمن أخوه أنه يعرّض به في بعض شعره فعاقبه عقاباً شديداً . قيل إنه قطع لسانه . وقيل إنه سمل عينيه ، والثاني أصحّ لأنه يتحدث في شعره عن العمى . وقد دفع له الأمير عبد الرحمن الداخل دية عينيه مضاعفة وأجازه بألفي دينار وعنف ابنه هشاماً على فعلته . ثم إن هشاماً نفسه عطف عليه ودفع له دية أخرى مضاعفة ؛ وشعره أيضاً من النسق البدوي . ومن نماذجه قوله :

وهمٍّ ضافني في جوف يمٍّ　　كلا موجيهما عندي كبيرُ
فبتنا والقلوبُ معلقاتٌ　　وأجنحةُ الرياح بنا تطيرُ

١ ترجمة أبي المخشي في المغرب ٢ : ١٢٣ والجذوة ٣٧٧ وابن القوطية ٣٥

ومن شعره في العمى :

خضعت أمُّ بَناتي للعِدا   أن قضى اللهُ قضاء فَمضى
ورأت أعمى ضريراً إنّما   مشيهُ في الأرض لمسٌ بالعصا
فاستكانتْ ثمَّ قالتْ قولة   – وهي حرَّى – بلغت مني المدى
ففؤادي قرحٌ مِن قولهـــا   ما من الأدواء داء كالعمى

وقد مات أبو المخشّى أيام الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦) وآخر شعره قوله :

أمُّ بنياتي الضعيفِ حويلهـــا   تعولُ امرءاً مثلي وكان يعولها
إذا ذكرت ما حالَ بَيْني وبينَها   بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

وكان لأبي المخشّى ابنة شاعرة اسمها حُسّانة تعدّ من أولى الشواعر اللواتي اشتهرن بالأندلس ، وقد أشبهت أباها في قوّة العارضة ، وكانت جريئة لا تقبل الضيم ، فاستغلت مقدرتها الشعرية في الدفاع عن حقوقها . فلمّا مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وكانت لم تتزوج بعد ، تخبره أنها أصبحت وحيدة ، وأنها تعتمد على رعاية الحكم لها :

أنتَ الإمام الذي انقاد الأنام لَهُ   وملّكته مقاليدَ النُّهى الأممُ
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً   آوي إليه ولا يعرونيَ العدمُ

فأمر الحكم بإجراء مرتب لها ، وكتب إلى عامله على البيرة فجهزها بجهاز حسن ؛ ووقع لها الحكم بخطه تحرير أملاكها ، فلمّا توفّي لحقها بعض الضيم من والي البيرة جابر بن لبيد ، فوفدت على الإمام عبد الرحمن بن الحكم وشكت إليه جابر بن لبيد ، وكان فيما قالته :

إلى ذي النّدى والمجد سارت ركائبي ... على شحط تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعي إنّهُ خيرُ جابر ... ويمنعني من ذي الطلامة جابر
فإنّي وأيتـــامي بقبضة كفّـه ... كذي ريش أضحى في مخالب كاسر
جَدير لمثلي أن يُقال مروعة ... لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاهُ الحيا لو كان حيّـاً لما اعتدى ... عليّ زمان باطش بطش قادر

وأبو العاصي هو الحكم الأمير ؛ ولمّا سمع عبد الرحمن شعرها ورأى خطّ والده أخذه فقبّله وقال : تعدّى ابن لبيد طوره حين رام نقض رأي الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، ووقّع لها بمثل توقيع أبيه وأمرَ ابن لبيد بتنفيذ ما أجراه[1] .

وإذا نحن تجاوزنا هذه النماذج المبكرة الطارئة ، وجدنا أن الشعر الأندلسي الذي رسّخ أصوله أناس نبتوا في البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا في حدود سنة ٢٠٠ هـ . وهذه حقيقة هامة في نشأة ذلك الشعر وفي النماذج التي احتذاها والمجالات التي كان يرودها ؛ فهو من الناحية الزمنية أخذ تكوّن حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس ، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفتون في كل شيء إلى المشرق فقد اتخذوا **شعر المحدثين** مثالاً يقلدونه ومناراً يهتدون به ، أي أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو الأنموذج الكبير الذي استوحوه في أشعارهم . وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي مستمرّ بأن الشعر العربي الذي وصلهم من المشرق يمثل مذهبين : المذهب

١ نفح الطيب ٥ : ٣٠٠ (ط . مصر ، ١٩٤٩) .

القديم والمذهب المحدث ، وذلك هو معنى قول ابن حزم في شعر جعونة : « فهو جارٍ على مذهب الأوائل » ، وقول الزبيدي إن الرباحي نظم قصيدة في الرثاء على مذاهب العرب[1] ، وقولهم إن قصيدة الزبيدي في رثاء شيخه القالي « جزلة الألفاظ كثيرة الغريب صاغها صوغ فحول العرب »[2]؛ ولو سألتهم تحديد الفرق بين مذهب الأوائل ومذهب المحدثين ، لم يكادوا يضعون فروقاً واضحة ، ولكنهم كانوا في أغلب الظن يعنون أن شعر الأوائل أكثر جرياناً على الطبيعة وأحفل بالجزالة العفوية وبالغريب وأن شعر المحدثين يعتمد كثيراً على الاستعارات والتشبيهات ويشوبه أحياناً تكلف لا يخفى في طبيعة الصياغة .

وحين أخذ الشعر الأندلسي في التكوّن كانت هناك عوامل كثيرة تسعف على تكوّنه على ذلك النحو ، وفي طبيعة التفاعل الثقافي المستمرّ بين المشرق والأندلس ما يفسّر كثيراً من مظاهر ذلك الشعر ، وفي حاجة البيئة نفسها عامل آخر ، ولكن البحث في مثل هذه العوامل العامة يشبه الضرب في تيهٍ لا حدود له ، فلنقتصر على ثلاثة عوامل كانت ذات أثر بالغ في تكوين ذلك الشعر وهي : جهود طبقة المؤدبين ، وحركة الغناء وتطوّره ، والنهضة الثقافية في الأندلس ، فمن خلال الحديث عن هذه العوامل سنلمّ بالتفاعل الثقافي بين الأندلس والمشرق ونتصوّر مدى انفتاح البيئة على ما تقبلته من ضروب ذلك الشعر .

(١) جهود طبقة المؤدبين وأثرها في نشأة الشعر والمقاييس النقدية :

وقد كان القائم بأمر هذا الشعر المحدث وتقريبه إلى دارسي الأدب طبقة من المؤدبين ، ارتحل أكثرهم إلى المشرق ، واغترف ممّا فيه من علم وأدب ، وعاد يدرّس في جامع قرطبة ، وقرطبة يومئذ « دار القوم » ، فإلى هؤلاء

١ طبقات الزبيدي : ٣٣٩

٢ اليتيمة ٢ : ٧١

وإلى المهاجرين من طلاب الحاجات ، وإلى تشجيع الحاكمين يومئذ . يعزى الفضل في إدخال ضروب الثقافة المشرقية بلاد الأندلس ، من حديث وفقه ولغة وشعر وسير . وكان من أوائل الكتب اللغوية التي هاجرت بصحبتهم كتب الأصمعي والكسائي والفراء والرياشي وأبي حاتم وابن الأعرابي وكتابا الفرش والمثال في العروض للخليل بن أحمد وكتاب يعقوب بن السكيت في إصلاح المنطق ومؤلفات ابن قتيبة وأبي عبيد القاسم بن سلام ، كما كان ثابت النحوي وابنه قاسم أول من أدخلا كتاب العين للخليل[1] . أمّا في الشعر فإن محمد بن عبد الله الغازي (ـ ٢٦٩) جلب الأشعار المشروحات كلها[2] . وهاجر عباس بن ناصح لما سمع بنجوم أبي نواس ، وروى شعره[3] . ويجب أن ننوه هنا بمقدار ما أحرزه شعر أبي تمام من قبول في البيئة الأندلسية ، فقد توفر على نقله اثنان من المؤدبين هاجرا إلى المشرق وروياه عن صاحبه وأقرءاه بالأندلس وهما عثمان بن المثنّى النحوي[4] . ومؤمن بن سعيد[5] . وللاول منهما قصة طريفة : فيقال إنّه اجتمع مع أبي تمام في مركب ببحر القلزم فأنشده أبو تمام شعره الذي يقول فيه :

اللهُ أكبرُ جاء أكبرُ مَنْ مَشَى   فتَعَثّرَتْ في كُنْهِهِ الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر . فقال له ابن المثنّى : شعر حسن لولا أنّه

١ راجع في هذا صفحات مختلفة من طبقات الزبيدي : ٢٧٥ – ٣٢١ وابن الفرضي ١ : ٧٤ ، ٢٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ و ٢ : ٣١
٢ طبقات الزبيدي : ٢٨٩ وابن الفرضي ٢ : ٢٤
٣ طبقات الزبيدي : ٢٨٤ – ٢٨٥
٤ طبقات الزبيدي : ٢٨٨ وابن الفرضي ١ : ٣٤٦
٥ المغرب ١ : ١٣٢

لا ابتداء له ، فوقذت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كَمْ حلَّ عُقْدَةَ صَبْرِهِ الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلى تمامه ، فقال له ابن المثنى : أنت أشعر الناس ، فعظم في نفس حبيب ، ثم لقيه حبيب في انصرافه وحبيب قد عظم قدره وجل خطره فكان يؤثره ويعرف له فضله ، وكان أول من أدخل شعره [1] وأقرأ أبو عبد الله الغابي ديوان أبي تمام وعنه أخذه أبو العباس الطبيخي [2] وهذا الثاني شرحه كما شرح شعر صريع الغواني [3] وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بانتساخ شعر حبيب وجمع لذلك جماعة من أدباء الأندلس يومئذ ، لتحقيق ذلك [4] ، وإزاء هذه العصبية لأبي تمام وجد أيضاً من يتعصب للبحتري ويدين بتفضيله . وهذا كلّه ينبىء عما كان للشعر المحدث من مقام بين عرب الأندلس ، ولم يمضِ وقت طويل حتّى كان الذوق الأندلسي قد ألف هذا النوع من الشعر ، وجعله مقياساً للجودة ، ولم يألف ما عداه كثيراً ، وأصبح المتأدبون هنالك يضعون خطاً فاصلاً بين طريقتين في الشعر : طريقة العرب وطريقة المحدثين ، فيقولون مثلاً إن فلاناً الشاعر كان أكثر أشعاره على مذاهب العرب [5] ، وكانوا هم أميل إلى تفضيل ما جرى على مثال الشعر المحدث ، حتّى إن الرباحي الشاعر (– ٣٥٨) حين نظم قصيدة في الرثاء ، وبناها على مذاهب العرب ، وحرج فيها على مذاهب المحدثين ، لم يرضها

١ التكملة : ١٠ – ١١
٢ طبقات الزبيدي : ٣١٥
٣ المصدر السابق : ٣٢٩ وابن الفرضي ٢ : ١٥٩
٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٦ – ٣٠٧
٥ طبقات الزبيدي : ٣٣١

العامة ولم يجد من يعجب بها إلاّ أبا علي القالي[1] ومن يذهب في طريقته .

فعلى أيدي هؤلاء المؤدبين تم ، إذن ، شيء من تبلور الذوق الأندلسي ، بقبول ما يقبل ورفض ما يرفض . وفي مجالس تدريسهم تكونت نواة حركة نقدية ساذجة ، فهم الذين كانوا يشرحون الشعر لطلبتهم ويتكلمون في معانيه ويقربونها ويضربون الأمثال فيها ، ويتتبعون ما فيها من المآخذ اللغوية والنحوية . ومما يلفت النظر أنهم كانوا يتدارسون شعر شعرائهم كما يتدارسون شعر المشارقة . فكان عباس بن ناصح ، وهو أحد هؤلاء المؤدبين ، ومذهبه في شعره مذهب العرب الأوّل في أشعارهم ، كلما ورد قرطبة ، جلس في جامعها يقرأ على الطلبة ما كان نظمه من شعر ووفد مرة على قرطبة فجاء أدباؤها للأخذ عنه فمرت عليهم قصيدته :

لعمرُكَ ما البلْوَى بعارٍ ولا العَدَمْ إذا المرء لم يَعْدَمْ تُقى اللهِ والكرمْ

حتى انتهى إلى قوله :

تجافَ عن الدنيا فما لِمُعَجِّزٍ ولا حازمٍ إلا الذي خُطَّ بالقلم

فاعترضه يحيى الغزال وقال : وما الذي يصنع مُفَعِّلٌ مع فاعل ؟ قال : فكيف تقول أنت ؟ قال : تجاف عن الدنيا فليس لعاجزٍ ، فاستحسن عباس ذلك منه وقال « والله لقد طلبها عملك لياليَ فما وجدها »[2] .

وأنكر على عباس أيضاً في مجلس أحد النحويين أنه خفّف ياء النسب في قوله[3] :

١ المصدر نفسه : ٣٣٩
٢ المغرب ١ : ٣٢٤
٣ طبقات الزبيدي ٢٧٨ — ٢٧٩

يشهدُ بالإخلاصِ نوتيّها لله فيها وهو نصرانيْ

فاحتج عباس على المنكرين بقول عمران بن حطان :

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ وإن لقيتُ معدّيّاً فعدنانيْ

وكاد الذوق في هذه البيئة يجمع على أن الشعر إنّما يتقدم لغرابته وحسن معناه ، وأن من خير الشعر وصف أبي تمام للقلم[1] لما فيه من غرابة . على أنّنا يجب ألا نغلو في تقدير ما كان يحسنه هؤلاء المؤدبون ، فإنّهم — في الأكثر — كانوا سطحيين حتى في ميدانهم من لغة ونحو . قال الزبيدي يصفهم : « وذلك أن المؤدبين إنّما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ولا تصريف ولا أبنية »[2] . وهذا كلام يصدق عليهم حتى منتصف القرن الرابع ، على وجه التقريب .

وقد ساعد بعض المهاجرين من غير الأندلسيين على ترسيخ أثر المحدثين في البيئة الأندلسية مثل إبراهيم بن سليمان الشامي الذي دخل الأندلس في أخريات أيام الحكم بن هشام ، وكان قد أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي العتاهية[3] . ومثل أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني الذي لقي من الشعراء أبا تمام والبحتري ودعبلاً وابن الجهم ، وقدم الأندلس في إمارة محمد بن

١ المصدر السابق : ٣٠٧ ووصفه للقلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات وأوله

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

٢ طبقات الزبيدي : ٣٣٦ — ٣٣٧

٣ النفح ٢ : ٧٤٨

عبد الرحمن ، وعنه رواية لشعر أبي تمام بالأندلس[1] .

(٢) حركة الغناء وأثرها في تكوّن الشعر الأندلسي[2] :

وكان الغناء من أكبر العوامل التي مكنت للنماذج المشرقية في البيئة الأندلسية ، فإن التفاعل بين الموسيقى والشعر ذو قدرة على توجيه الشعر وتحديد قوالبه ، وقد كاد اعتماد الأندلس يكون كلياً على التلاحين المشرقية ، وكان أمراؤهم يؤمنون بتفوق الجواري المشرقيات في هذه الناحية ، ويبذلون في استقدامهن الأموال الكثيرة ، فابتاع عبد الرحمن الداخل جارية تسمى العجفاء وكانت تغني بالمدينة عند أحد موالي بني زهرة ، كما اشترى عبد الرحمن نفسه جاريتين مدنيتين أيضاً هما فضل وعلم ، وأضاف إليهن جارية رابعة بشكنسية اسمها قلم ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدبهن . وهاجر في أيام الحكم بن هشام اثنان من المغنين المشارقة هما علون وزرقون[3] .

ويعد الحكم بن هشام من أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء . وكان لديه عدد من الجواري المغنيات منهن عزيز وبهجة (أو مهجة) وفاتن ، وكان هو يقترح عليهن الأشعار التي يغنين فيها . كما كان بعضهن ينظم الشعر ويلحنه ، وقد نظمت عزيز مرة هذه الأبيات :

قد تقضى النهار إلا بقايا ... من شُعاعٍ مخلّق للأصيل
وأتانا الظّلام من قبل الشر ... قِ فأهلاً منه بخير نزيل
دام هذا وذا بطول بقاء الـ ... حكم السّيد الفتى المأمول

١ المصدر السابق ٢ ٧٥٥ – ٧٥٦
٢ انظر بحثاً لنا عن أخبار الغناء والمغنين بالأندلس (مجلة الأبحاث السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣) .
٣ انظر النفح ٢ . ٧٥٨ – ٧٥٩ .

فأعجب الحكم بشعرها وأمرها فعملت فيه لحناً أجازها عليه بمال ومتاع .

وجمع الحكم يوماً جواريه وأمرهن أن يغنين في شعر الفرزدق :

فقالوا إن عرضت فأغنِ عنا دموعاً غير راقئة السجام
فكيف إذا مررت بدار قومٍ وجيران لنّا كانوا كرام
أكفكف عبرة العينين مني وما بعد المدامع من ملام

فعملن فيه أصواتاً وكانت مهجة أكثرهن إجادة فقال لها . اقترحي حكمك ، فقالت : ألا يغنين اليوم إلا من أصواتي . فأمرهن بذلك وأمرها بأن تلقي عليهن حتى حفظن ذلك عنها .

وكانت هجرة الكتب المشرقية ناشطة في أيام الحكم المذكور ، ومرة وصلت مجموعة من الكتب عرضت عليه فرمى بطرفه ديواناً منها قد ضمّ شعر المقلين الثلاثة الذين فضلوا في الجاهلية ومنهم المسيب بن علس . فأخذه الحكم بيده وقرأ فيه قصيدة للمسيب مطلعها :

بان الخليطُ ورقّعَ الحرقُ ففؤاده في الحيّ معتلقُ

فأمر سليماً مولى ابنه المغيرة أن يغني أبياتاً منها فصنع فيها صوتاً في مزموم الرمل فأجازه بمطرف خز بنفسجي كان عليه مبطناً بالفنك وأمر له بمائتي دينار .

وكان المغيرة بن الحكم يشبه أباه في حبه للغناء وفي الإقبال عليه وتشجيعه ، وكانت لديه من الجواري المغنيات واحدة تسمى رغد كما كان سليم مولاه من مشهوري المغنين .

ويستنتج من الأخبار التي وصلتنا عن هذه الطبقة من المغنين والمغنيات أن كل محسن منهم كان يستقل بطريقته في الغناء ، وأن كل واحد كان

يتقاضى جرايات محددة وجوائز أخرى في بعض المناسبات . ومن الطريف أن الإقبال على تلحين الأشعار القديمة — أشعار العرب الأوائل — كان أكثر من الإقبال على تلحين الأشعار المحدثة ، وقد عددت ما غناه جواري الحكم وابنه المغيرة فوجدته يتضمن أربعة أصوات لابن الرومي وصوتين لكل من جرير والقطامي وذي الرمة وعمر وأبي تمام وصوتاً في شعر كل من عروة ابن حزام ونصيب والبحتري والفرزدق ومسلم وابن الدمينة والحطيئة والمسيب والصمة القشيري وأبي دهبل الجمحي . ووجدت أن بعض الأصوات التي كانت تغنى بالأندلس قد غنيت بالمشرق — غناها معبد أو مالك أو ابن سريج . وأن جهد المغنين والجواري بالأندلس لم يتعدّ التقليد المتقن للصوت الأصلي أو التحوير الجزئي في بعض نغماته[1] .

ثم دخل زرياب الأندلس هو وأبناؤه وجواريه فعفّى على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه في الغناء والآداب العامة . وكان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلي فأبعده حسد أستاذه له عن بغداد . فطلب حظّ نفسه في بلاد بعيدة . وكاتب الحكم بن هشام بالقدوم عليه ، فسر الحكم بذلك وأرسل لتلقيه مغنياً يهودياً كان عنده اسمه منصور . ولكن الحكم توفّي قبل أن يصل زرياب . ولم يكن خليفته عبد الرحمن بأقلّ ميلاً منه إلى هذا المغني الجديد فحثّه على القدوم ، وأجرى عليه راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار ، وجعل له وظيفة سنوية أخرى ورسماً في كل عيد ، وكان كلّما غناه وأطربه وهبه مالاً غير الذي فرضه له ، وأقطعه أيضاً من الدور والمستغلات والضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار . وزاد زرياب في أوتار عوده وتراً خامساً . واخترع له مضراباً اتخذه من قوادم النسر معتاضاً به من مرهف الخشب . وجعل للغناء مراسيم .

[1] انظر البحث الذي أشرنا إليه في الغناء .

فكل مغنٍّ لا بد من أن يبدأ بالنشيد أول شدوه ، بأي نقر كان ، ويأتي إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهازيج ، وهذا ما يسمّى بالنوبة الغنائية وهي تعتمد على التنويع في الألحان . وأخذ في تعليم الغناء واختبار صلاحية الأصوات ، وتلقف أبناؤه وبناته وجواريه صناعته وأشاعوها في الأندلس ، وكان ابنه عبد الله خير أبنائه صوتاً ، ويتلوه عبد الرحمن ، أما قاسم فكان أحذقهم غناءً ، وعلّم[1] جارية له تسمى منفعة أحسن أغانيه ثم أهداها لعبد الرحمن ابن الحكم ، أما حمدونة ابنته فكانت محسنة لصناعتها متقدمة فيها على أختها علية ، لكن عمر علية طال بعد أختها حمدونة ولم يبق من أهل بيتها غيرها فكانت مرجعاً لمتعلمي الغناء ، وإليها يشير زيادة الله الطبني بقوله يصف طائراً مغرداً :

أدنت إليّ صباباتي مغرّدة　　أذكى الجوى بين أضلاعي ترنمها
كأنّما مكثت في عشّها زمناً　　علية بنت زرياب تعلمها[1]

وممن خرّجهن أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل وقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول هذا الغناء المشرقي فكان عباس بن فرناس الشاعر مجيداً له ، وكان لعقيل بن نصر الشاعر أغان يجري فيها مجرى الموصلي[3] . وألف أسلم بن أحمد بن سعيد كتاباً في أغاني زرياب[4] إذ أصبح لزرياب طرائق مخصوصة في هذا الفن يتناقلها الناس .

١ كتاب التشبيهات : ٦١ .
٢ انظر ترجمة زرياب في النفح ٢ : ٧٤٩ وما بعدها ، ويجد القارىء ما استحدثه زرياب في الآداب العامة والازياء هنا مفصلا .
٣ الجذوة : ٣٠٤
٤ الجذوة ١٣٧ ، ١٦٢ .

وتلقانا في هذه الفترة أيضاً شخصية الزام . وهو رجل لا يستغنى عنه في الحفلات والأعراس، وقد كان من مشهوري الزامرين النكوري الذي كان يزمر لعبد الرحمن الناصر . ومن زيه أن يلبس قلنسوة وشي وثوباً من الخز ، وموضعه من الناس في وسط الحفل[1]. ومنهم ابن مقيم الزامر وكان طيب المجلس صاحب نوادر[2]. ومن الطنبوريين زربوط الطنبوري الذي قتل هو وقنبوط الملهي في وقعة قنتيش (قنطيش) أيام فتنة البربر مع سليمان المستعين[3] ، وقد كان هؤلاء الزامرون ينغّمون الألحان السائرة في أحداث مشهورة لأنها تجد إقبالاً من الجماهير . وفي تلاحين زرياب وطرائقه في النوبة قد نجد الأساس الذي انبثق عنه الموشح من بعد . وفي التنغيمات الشعبية التي كان يرددها الزامرون قد نجد أصول الأزجال .

وقد وجد الغناء بالأندلس قبولاً يكاد يكون شاملاً ولم يتحرج فيه قوم حتى لقد توفّر عليه جماعة من أبناء الطبقة الارستقراطية . ويحدثنا ابن حزم أن المطرف ابن الأمير محمد كان عالماً بالغناء ، وكان له أخوان آخران عارفان بالغناء جداً[4] . ومن العسير أن نثبت أن رجال الدين هنالك كانوا يكرهون الغناء ، أو يشددون النكير على أهله ، بل لعلهم كانوا في هذه الناحية أقرب الناس شبهاً بفقهاء أهل المدينة ونساكها ، ومن الحكايات الدالة في هذا الباب قصة قاضي الجماعة محمد بن أبي عيسى وكان عند رجل من بني حدير وجارية للحديري تغنيهم هذه الأبيات :

طابتْ بطيبِ لِثاتِكَ الأقْداحُ ... وَزَهَتْ بحمرةِ خدّكَ التفاحُ

١ الجذوة . ١٣٤

٢ الجذوة : ٣٧٤

٣ الذخيرة ١/١ : ٣١

٤ جمهرة الأنساب : ٩١ (الطبعة الأولى) .

وإذا الربيعُ تنسمتْ أرواحُهُ طابتْ بطيبِ نسيمكَ الأرواحُ
وإذا الحنادسُ أُلْبِسَتْ طَلْماءها فضياء وجهكَ في الدُّجى مِصْباحُ

فكتب القاضي هذه الأبيات في يده ، وخرج للصلاة على جنازة ، والأبيات مكتوبة على باطن كفه[1] . وكان ابن عبد ربه — وهو ذو الديانة والصيانة — ماراً ذات يوم ببعض الأحياء فسمع مصابيح تغني ، فاستماله غناؤها ووقف تحت الروشن منصتاً . ثم مال إلى بعض المساجد وأخذ لوحاً لبعض الصبية وكتب عليه :

يا مَنْ يَضِنُّ بصوتِ الطائرِ الغَرِدِ ما كنتُ أحسبُ هذا البُخلَ من أحدِ
لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً أصغتْ إلى الصوتِ لم ينْقُصْ ولم يزِدِ

فلما قرأ سيدها الأبيات . خرج إليه مسرعاً . وأدخله بيته ورحب به[2] . ويصف لنا الإمام ابن حزم مجالسَ الغناء ويذكر الشعر الذي كان يغنّى به ويصور شدة تأثره بما يسمع[3] . وكلفته خُمْنَى العامرية إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر صُنْعَ أبياتٍ تلحنها ، ففعل . وذكر أن لها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً[4] . وتناول ابن حزمٍ الغناء من الناحية الفقهية في رسالته : الغناء الملهي وهل هو مباح أو محظور . ورد الأحاديث التي تقول بحظره جميعاً[5] . إلا أن هذا الميل ليس عاماً فقد وجد بين الناس من ينكر

١ الجذوة ، ٧٠
٢ الجذوة : ٩٥
٣ طوق الحمامة : ٣١ ، ١١٠
٤ طوق الحمامة ، ١١٤
٥ رسائل ابن حزم ، ٩٣ وما بعدها

هدا المذهب ، ولما شاء ابن حيان أن يثلب أحد الفقهاء قال فيه : « من رجل مرخص في السماع ، صبّ بإنشاد الأغاني الفاتنة »[1] فجعل ذلك بعض عيوبه .

ومهما يكن من شيء فقد شاع الغناء في البلاد الأندلسية عامة . ولم يقتصر احتفال الناس به على قرطبة ، بل لعل المدن الأخرى بذّتْها في هذا الشأن . وأحرزت إشبيلية بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه قصب السبق في كثرة الإقبال على اللهو وآلات الضرب والغناء ، حتى لقد قال فيها ابن رشد . « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت إلى إشبيلية »[2] . وفي سنة ٤٠٦ كان التجيبي شارح المختار من شعر بشار مريضاً بمدينة مالقة فقال يصف حاله في تلك المدينة : « وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية » . وقد أعجب بغناء جارية كانت تغني أبياتاً منها :

ما بالُ أنْجُمِ هذا الليلِ حائرةً أضَلّتِ القَصْدَ أمْ ليست على فَلَكِ
عادتْ سواريه وقفاً لا حراكَ لها كأنّها حُبُشٌ صَرْعى بِمُعْتَرَكِ

فلمّا سأل عنها عرف أنها جاريةٌ بغدادية من جواري المنصور بن أبي عامر ، صارت إلى أحد الوزراء[3] .

ويمكننا القول بأن الغناء من الناحية الفنية لم يتطوّر كثيراً بعد زرياب ، وقد عرفنا عدداً من المغنين الذين عاشوا بعده منهم وضيح بن عبد الأعلى الذي

١ الذخيرة ١ / ٢ : ١٠٠
٢ النفح ١ : ٧٦
٣ شرح المختار : ١٥ – ١٦

كان في زمن هشام المؤيد ومعاصره سعيد بن كامل ، وساعدة بن بريم الذي رحل إلى المشرق وزار مصر والشام والعراق ، وغير هؤلاء من المغنين ، ولكن الأصوات التي يغنونها كانت جميعها من الشعر المشرقي . وليس هناك من إشارة إلى أثر ألحان زرياب فيها ؛ وقد تغذى الغناء الأندلسي بالألحان والأشعار المشرقية لأن كثيراً من حملة ذلك الغناء كانوا من الطراء المهاجرين ، ولكن هل تلقى ذلك الغناء أثراً آخر غير مشرقيّ ؟ إنّنا لا نستبعد تأثره بالنغمات المحلية على نحو عفويّ خالص ، كذلك نقل صاحب مسالك الأبصار أن سليماً مولى المغيرة بن الحكم « أخذ الطرب عن رسل أتوه من قبل النصارى وأمر بتأخيرهم ووكل بهم إلى حين مسيرهم . وأتقن الفن وحقق الظن ، ثم أتى المغيرة بجارية عراقية وكانت تطارحه الغناء حتى برع . وجمع الغناء العراقي مع ما جمع »[1]. فهذا النص — إن صحّ — يدل على أن الغناء الأندلسي تلقى تأثيراً أجنبياً قبل دخول زرياب إلى الأندلس . وقد كانت عملية الاسترقاق تقوي من هذا الأثر الأجنبي ، كذلك ساعد على تقويته بعض المغامرين ، وشاهد ذلك قول صاحب المسالك أيضاً في ترجمة المغني حصين ابن عبد بن زياد : « ولج بلاد النصارى وتوغل في ولوجها ، وسكنها وسكن إلى علوجها . ثم عاد إلى حوزة المسلمين ، ورجع ما كسب إلا الغناء بعد طول سنين »[2] . والحق أن الأندلس أصبحت بوتقة انصهرت فيها التيارات الغنائية المختلفة ، وكما كان العرب يرتاحون إلى التلاحين الوافدة كانت الأغاني العربية تردّد في البلاطات الأجنبية ويجد سامعوها فيها متعة روحية . فقد وهب المستعين سليمان بن الحكم لشانجة بن غرسية عدداً من الجواري ، وذكر من

١ مسالك الأبصار ١٠ ٣٨٥ (مخطوطة آيا صوفيا رقم ٣٤٢٣)
٢ المصدر السابق : ٣٩٠

زار بلاط بنت شانجة ملك البشكنس (زوجة شانجة بن غرسية) أنها أمرت إحدى الجواري بالغناء ، فأخذت العود وغنت :

خليلي ما للريح تأتي كأنّما يخالطها عند الهبوب خلوقُ
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي فأحسبها ريح الحبيب تسوق[1]

وتكفينا هذه الأمثله في تصوير ما كان للغناء من شأن كبير لا في نشر النماذج الشعرية المشرقية وحسب بل في تقريب الشقة بين ضروب مختلفة من الصور الأدبية ، وفي رسم أسس جديدة للاتجاهات الشعرية في الأندلس .

وقد طلت « النوبة » التي استحدثها زرياب هي أكبر ما يلفت النظر في الغناء الأندلسي ، وهي ما يسمى أحياناً « التبديل » ، ولهذا نسمع الرمادي يقول في وصف الطائر المعروف بأم الحسن[2] :

مُسمعةٌ من غيرِ أوتارِ إلاّ ارتجالاً فوقَ أشجارِ
يقترح الناسُ عليها وما يقترحُ الناس على الطاري
تدلُّ إن قيلَ لها بدّلي طائعةً من غير إصغار
كأنّها في حين تبديلها تأخذ في أهزاج أشعار

فهذه المغردة تؤدي « النوبة » وتستجيب لاقتراح أهل الطرب بعكس الطراء — وأكثر المغنين من الطراء — فإنّهم يستكبرون ويدلون بفنّهم ولا يستجيبون لما يطلبه الناس ، وقد كرّر الرماديُّ هذا المعنى نفسه ، وغمز الطراء مرة أخرى فقال :

١ الذخيرة (القسم الثالث) ١٠٧ — ١٠٨
٢ كتاب التشبيهات ٥٥

تبدّلُ ألحاناً إذا قيلَ بدّلي ‏ ‏ كما بدلت ضرباً أكف الضواربِ
تغني علينا في عروضين شعرها ‏ ‏ ولكنّ شعراً في قوافٍ غرائبِ
إذا ابتدأت تنشدك رجزاً وان تقل ‏ ‏ لها بدلي تنشدك في المتقاربِ
وليس لها تيه الطراء بصوتها ‏ ‏ ولكن تغني كل صاحٍ وشاربِ

(٣) النهضة الثقافية وأثرها في الشعر الأندلسي :

في هذا الجو من جهود المؤدبين من القياس على الطرائق الغنائية المشرقية ، كان الشعر ما يزال في حاجة إلى ثالث هذه الأبعاد . أعني إلى العمق الثقافي ، لكي ينأى — ولو قليلاً — عن روح التقليد وعن سطحية الغناء وخفته . وقد قام أولو الأمر بتشجيع الثقافة وتقريب أصحابها من المقيمين والوافدين ، وهيأوا الأسباب التي تكفل تقدمها ونماءها ، فرعوا أمر الفقه واللغة والطب والتنجيم ، وشجعوا المؤلفين على التأليف . فقد رأينا كيف كانت هجرة الكتب المشرقية أيام الأمير الحكم ناشطة على أيدي تجار مشارقة كانوا يتكسبون ببيعها في الأندلس . وكان الحكم هو الذي عني بتخريج ابنه عبد الرحمن في العلوم الحديثة والقديمة ولذلك كان شغوفاً بالثقافة وجمع الكتب . وهو الذي وجه إلى المشرق عباس بن ناصح الجزيري في التماس الكتب القديمة فجاءه بالسند هند وغيره منها ، وهو أول من أدخلها الأندلس . وعرّف أهلها بها ونظر هو فيها[١] . وفي وسط المائة الثالثة ، أيام الأمير محمد ابنه ، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ولم يزالوا يظهرون ظهوراً غير شائع إلى أواسط المائة الرابعة[٢] ، وممّن اشتهر بطلب العلوم في هذه الفترة أبو عبيدة

١ المغرب ١ : ٤٥
٢ طبقات الأمم : ٧٣

البلنسي المعروف بصاحب القبلة وكان فلكياً دارساً للجغرافيا وقد هاجمه ابن عبد ربه واتهمه بأنه ينسب الرزق إلى الكواكب . وأنه يقول بكروية الأرض وتخالف الفصول في نصفيها الجنوبي والشمالي . واهتم بالمنطق والحساب محمد ابن إسماعيل الملقب بالحكيم . صديق القلفاط الشاعر النحوي . إلا أن الأندلسيين ظلوا ينظرون في ريبة إلى من يشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق والجدل ، ولا يتقبلون من علوم الأوائل إلا الطب والحساب حتى مضت عدة سنوات من حكم الناصر ، ونصب ابنه الحكم نفسه لتشجيع العلوم دون تفرقة وإليه يعود الفضل في ظهور نهضة علمية شاملة بالأندلس

كان الحكم شاباً مثقفاً واسع الاطلاع ذا لذة في شهود مجالس العلماء والسماع منهم والرواية عنهم، سمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد ابن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء . وكان نظاراً في الكتب كثير التعليق عليها ، وقلما تجد كتاباً في خزائنه إلا وفيه قراءته وتعليقاته عليه . ويكتب فيه بخطه إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر أنساب الرواة له ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن وكان موثوقاً به مأموناً عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه [1] . قال الحميدي في ترجمة ابن عبد ربه : « توفي أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة [وعين اليوم والعمر بالسنوات والأشهر والأيام] ومدح الأمير محمداً والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن الناصر . هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر . وخطه حجة عند أهل العلم عندنا » [2]

١ الحلة السيراء . الورقة ٤٨

٢ الجذوة : ٩٤

وذكر ابن الأبار أنّه اجتمع له جزء مفيد ممّا وجده بخطّه وأنّه وجده يشتمل على فوائد جمّة في أنواع شتى ، وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده [1] ، ومن تقييداته أمثلة منقولة في طبقات الزبيدي والمرقبة العليا للنباهي وغيرهما [2]

وقد كانت خطّة الحكم فيما يتأتى له من نهضة علمية ، تمتد إلى أمور متشابكة منها إغراء العلماء بالقدوم إلى الأندلس أو بالتأليف من أجل خزائن الكتب الأندلسية ، ونقل الكتب من الخارج ، وتشجيع الثقافات المختلفة من أدبية ودينية وفلسفية ، ودفع الملكات الأندلسية إلى جمع التراث الأندلسي ، قبل أن يتطاول عليه الزمن ويتحيفه النسيان .

فمن إغرائه للعلماء والأدباء أن قدم عليه كثير من المشارقة ، تميز من بينهم أبو علي القالي اللغوي ، ولا يستبعد أن يكون الحكم هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه ، فتلقاه مرحباً وبالغ في إكرامه ، وهو يومئذ ولي عهد إذ كان قدوم القالي في خلافة الناصر سنة ٣٣٠ ، وظل على تعهده له وتشجيعه بعد أن أصبحت الخلافة إليه ، وكان ينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام [3] وباسمه طرز أبو علي كتاب الأمالي وهو المسمى بكتاب النوادر وقد رواه عنه جماعة من العلماء منهم الزبيدي وحكم ابن منذر بن سعيد وأحمد بن أبان بن سيد والقزاز والقاضي ابن مغيث وغيرهم ، وكان أبو علي يمليه على طلبته من بني ملول وغيرهم بالزهراء كل يوم خميس ، ثم زاد فيه فجعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً للحكم

. . .

١ الحلة : الورقة : ٤٨

٢ انظر المرقبة : ٦٥ وابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٢ وابن الفرضي ١ : ١٥١ ، ٢٦٦ ، ٣٦٧ ، و ٢ : ١٤

٣ الجذوة : ١٥٦

المستنصر . ولا ريب في أن قدوم القالي إلى الأندلس كان يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية وعنه تلقى الأندلسيون واتخذوه حجة . ولم يكن قبله لديهم إلا ابن القوطية وثابت وابنه قاسم وإلا الزبيدي وهذا الأخير على علمه . تتلمذ على القالي وأفاد منه علماً جماً . وأثر القالي في الأندلس حاجة إلى دراسة مستقلة ، ليس هذا مكانها . ولكن يكفي أن أشير هنا إلى كثرة ما هاجر معه من كتب إلى الأندلس . فيها من الدواوين عدد جم وخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعريه الهامة كالمفضليات وشعر الهذليين والنقائض . فمما أدخله من دواوين الشعر : شعر ذي الرمة وعمرو ابن قميئة والحطيئه وجميل وأبي النجم والنابغه الذبياني وعلقمة بن عبدة والشماخ والأعشى وعروه بن الورد والنابغة الجعدي والمغيرة بن حبناء وكثيّر عزة وأوس بن حجر والقطامي والأخطل . وغير هؤلاء كثير . كما أنه نقل معه كتباً من الأخبار والفنون المختلفة[2] . وكل هذا يشير إلى قوة التيار الثقافي الذي أخذ يتجه بالمثقفين إلى التعمق في الدراسات القديمة والتقليل من الإعجاب بالمحدثين . ومن العلماء الذين أغراهم كرم الحكم وتشجيعه محمد بن يوسف أبو عبد الله التاريخي الوراق الذي ألف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها وألف في أخبار ملوكها وحروبهم والغالبين كتباً جمة[3] . ومنهم أيضاً أبو الحسين محمد بن العاص مولى هشام بن عبد الملك وقد أجرى عليه المستنصر رزقاً موسعاً . فقرأ عليه الناس كثيراً شيوخاً وشباناً . ومن تلامذته الزبيدي . وأهم ما رواه عنه الأندلسيون ديوان الصنوبري[4] .

١ الفهرسة ٠ ٣٢٥

٢ الفهرسه ٣٩٥ ٤٠٠

٣ الجذوة ٠ ٩٠ والنفح ٢ ٠ ٧٦٩

٤ الفهرسه ٤٠٨

وكذلك أكرم الحكم أندلسياً من الذين هاجروا إلى المشرق هو أبو سليمان الهواري وأنزله بالزهراء ووسع عليه وقرأ عليه ناس كثيرون[1] .

وأغدق الحكم العطايا على البعيدين من العلماء والأدباء والفقهاء لكي يؤلفوا من أجل خزائنه أو يضيفوا كتبهم إلى ما فيها . فممن وصلتهم صلاته أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي فيلسوف العرب وأبو الفرج الأصبهاني . وهذا الأخير تلقى منه ، فيما يقال ، ألف دينار ذهباً عيناً ليرسل إليه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، فأرسل أبو الفرج من كتابه هذا إلى الأندلس نسخة منقحة ، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم . وألف له أيضاً أنساب قومه بني أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم . وأنفذ معه قصيدة يمدحه بها ويذكر مجد قومه بني أمية وفخرهم على سائر قريش فجدد له عليه الصلة الجزيلة[2] .

أمّا في جمع الكتب من الأمصار فكان شأنه في ذلك عجيباً . إذ اتخذ له وراقين بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ووجّه رجالاً إلى الآفاق بحثاً عن الكتب . وكان من وراقيه ببغداد محمد بن طرخان . وكان يدفع فيها أثماناً عالية . فحملت إليه من كل جهة حتّى غصت بها بيوته وضاقت عنها خزائنه وحتّى جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله . وكاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة . وكان عدد فهارس مكتبته أربعاً وأربعين فهرسة في كل واحدة خمسون ورقة[3] وربما بلغ عدد الكتب أربعمائة ألف مجلد

١ الفهرسة : ٣٥٨
٢ الحلة السيراء : الورقة ٤٨
٣ هذا هو ما جاء في الحلة ٥٩ وكذلك جمهرة الأنساب : ٩٢ والرقم مختلف في مصادر أخرى .
انظر المغرب ١ : ١٨١

ولم يكن يفضل علماً على آخر . ولذلك امتلأت خزائنه بكتب الحكمة والفلسفة والمنطق والطب ، وأقبل الناس على قراءة علوم الأوائل[1] . وكانوا من قبل يفرون منها . وأصاب العمل في هذه الناحية العلمية شيء من التنظيم منذ أن وصلت الأندلس هدية رومانوس أمبراطور البيزنطيين (٣٣٧) وفيها كتاب ديسقوريدس في النبات مصوراً ، مكتوباً بالإغريقية . ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ هذه اللغة . فسأل الناصر — وهو الخليفة يومئذ — أمبراطور القسطنطينية أن يبعث إليه برجل يتكلم الإغريقية واللاتينية ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين . فبعث براهب يدعى نقولا (سنة ٣٤٠) تولى مع نفر من الأطباء بالأندلس البحث عن أسماء عقاقير ذلك الكتاب . والوقوف على أشخاصها . وتصحيح النطق بأسمائها . وعاش نقولا الراهب حتى صدر دولة الحكم[2] . وكان في هدية الأمبراطور كتاب آخر في التاريخ هو كتاب هروسيس أو هروشيوش (Paulus Orosius) واسم الكتاب : Historia adversus paganus وقد قال الأمبراطور حين أرسله مخاطباً عبد الرحمن : «أما كتاب هروسيس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني وإن كاشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي» . ويقول ابن خلدون إن هذا الكتاب ترجم للحكم المستنصر ، ترجمه قاضي النصارى وقاسم بن أصبغ[3] . وقاضي النصارى بقرطبة المعروف في أيام الحكم هو وليد ابن حيرون الذي كان ترجماناً للحكم عند وفود أردون

١ طبقات صاعد : ٧٥
٢ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٧
٣ ابن مقدمة طبقات ابن جلجل . وانظر ترجمة قاسم بن اصبغ في الجذوة ٣١٢ وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أي في خلافة الناصر ، ومن هذا يستبعد اشتراكه في الترجمة إلا أن تكون ترجمة كتاب هروسيس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب

ابن أذفونش[1] . ومما يلحق بهذا النشاط العلمي كثرة الأطباء وعلماء التنجيم الذين تجمعوا حول الناصر والمستنصر ، وكان الأسقف القرطبي ابن زيد مختصاً بالمستنصر وله ألف كتاب تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان[2] . أما الطبيب حسداي بن إسحاق اليهودي فقد استغل حظوته عند الحكم وتوصل من ذلك إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق ففتح بذلك يهود الأندلس باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك ، وكانوا من قبل يعتمدون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت أعيادهم على يهود بغداد[3] .

وخصص الحكم جانباً من دار الملك يجلس فيه العلماء للتأليف أو الترجمة أو مقارنة النسخ الوافدة ، وفي هذه الدار جمع مرة علماء اللغة وهم محمد ابن أبي الحسين وأبو علي القالي وابنا سيد وطلب إليهم أن يقابلوا نسخ كتاب العين للخليل بن أحمد ، وأحضر من الكتاب نسخاً كثيرة ، كان فيها النسخة التي كتبها القاضي منذر بن سعيد البلوطي رواية عن ابن ولاد بمصر[4] .

ولعل أبرز ما أداه الحكم في تاريخ الثقافة الأندلسية هو حفزه الملكات الأندلسية على التأليف وجمع التراث الأندلسي . فجمعت له كتب كثيرة في أخبار شعراء الأندلس ، رأى منها ابن حزم أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء[5] ، وأمر بجمع شعر ابن عبد ربه وقد رأى منه الحميدي نيفاً وعشرين جزءاً مما جمع للحكم[6] ، وأمر إسحاق بن سلمة وكان حافظاً لأخبار

١ النفح ١ : ١٨٤ ، وهناك يذكر مطران طليطلة باسم عبيد الله بن قاسم .
٢ النفح ٢ . ٧٧٨
٣ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٥٠
٤ الجذوة : ٤٧
٥ النفح ٢ : ٧٧٣
٦ الجذوة : ٩٤

الأندلس أن يجمع كتاباً في أخبارها [1]، وألف له ابن فرج كتاب الحدائق وضمنه شعر الأندلسيين فقط معارضاً فيه كتاب الزهرة لمحمد بن داود ، مربياً عليه في عدد الأبواب والأبيات [2]، وألف له أيضاً خالد بن سعد كتاباً في رجال الأندلس ، اتخذه ابن الفرضي مصدراً له في تاريخه [3]، وطلب إلى محمد بن الحارث الخشني (— ٣٦١) وكان الحكم ما يزال ولياً للعهد ، أن يؤلف كتاباً في قضاة الحاضرة العظمى — قرطبة، فكتب كتابه المعروف بـ « قضاة قرطبة » وأوضح في مقدمة ذلك الكتاب مدى رغبة الحكم في التذكير بالمنسيّ من الأنباء والإشارة للسالف من القصص وبخاصة ما كان في الأندلس قديماً وفي عصر الحكم حديثاً ، قال الخشني حاكياً عن غيره أيضاً : « فتحرك أهل العلوم بما حركهم إليه الأمير الموفق . فاستحفظوا ما أضاعوا من غرر الأخبار وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف » [4]. وللخشني كتب كثيرة ألفها للحكم [5] . ولم يكن الحكم يدع فرصة تفوته ، إذا أمكنته ، في تشجيع التأليف . وله في هذا الباب أخبار تدل على استغراق شديد واندماج نفسي في هذا الأمر، من ذلك أنه أراد الغزو مرة (٣٥٢ هـ) فاعتذر عن مصاحبته في تلك الغزوة ابنُ الصفار لضعف جسمه ، فأرسل إليه أحمد بن نصر وقال : قل له إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيته من الغزاة ، فلمّا اختار ابن الصفار التأليف على الغزو خيره بين أن يكتب الكتاب في بيته أو في دار الملك ، فاختار أن يكتبه في

١ ابن الفرضي ١ : ٨٩
٢ الجذوة : ٩٧ والمغرب ٢ : ٥٦
٣ ابن الفرضي ١ : ١٥٥ — ١٥٦
٤ قضاة قرطبة : ١٠ — ١١
٥ ابن الفرضي ٢ : ١١٥

دار الملك ليكفل الانقطاع والوحدة وينفرد دون الزائرين والمترددين إلى بيته . ولما كمل الكتاب في مجلد واحد لم يبقه أحمد بن نصر إلى حين عودة الحكم من غزاته بل حمله إليه ليسره به ، فلقيه بطليطلة عائداً ، وتلقى الحكم الكتاب مسروراً [1] . وليس بمستبعد أن يكون الحكم هو الذي شجّع الشطجيري على جمع شعر الغزال الشاعر الأندلسي وترتيبه على الحروف ، لأن الشطجيري هذا أدرك خلافة الحكم وتوفّي قريباً من الثلاثين وأربعمائة عن سن عالية [2] .

وكثيراً ما كان الحكم يتجاوز حدّ اقتراح الموضوع على المؤلف فيشاركه أو يرسم له طريقة تقسيمه ، كما فعل مع الزبيدي عندما طلب إليه أن يكتب كتاباً في طبقات النحويين ، وعرفه المنهج الذي يريده في تأليف الكتاب ؛ قال الزبيدي في مقدمته : « وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله — رضي الله عنه — لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم أو الإحاطة بصنوف الفنون ، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ، ثم من تلاهم من بعد إلى هلم جرّاً إلى زماننا هذا وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم . . . فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به . . . وأقمته على الشكل الذي حده ، وأمدني رضي الله عنه في ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعني من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذي لا تعبر أواذيّه ولا تدرك سواحله ولا ينزح غمره ولا تنضب مادته » [3] . ولم ينس الحكم أن يفرد للنحويين واللغويين الأندلسيين قسماً خاصاً في ذلك الكتاب . وَحرَصَ الحكم على الزبيدي الذي هاجر إليه من إشبيلية ، عندما استأذنه في العودة إلى أهله ، يدل

١ الجذوة : ٢٣٥
٢ الجذوة : ١٨٦ — ١٨٧
٣ طبقات الزبيدي : ٩ — ١٠

على مدى تعلقه بالعلماء . وفي ظل الحكم وربما بوحي منه كتب الزبيدي كتاب لحن العامة إذ يقول في مقدمة هذا الكتاب : « وكان الذي دعانا إلى تأليف هذا الكتاب ما أملناه إلى المولى الإمام الفاضل والخليفة العادل الذي لا إمام في الأرض غيره ولا خليفة لله على الخلق سواه . الحكم المستنصر أمير المؤمنين وسيد المسلمين محيي العلم وراعيه . الراسخ في فنونه . الموفي على دقيقه وجليله ، المشرف له ولحامليه . الحافظ لهم والذابّ عنهم »[1] .

وقد شجع الحكم أيضاً التأليف في الفقه والحديث ، فعهد إلى يعيش ابن سعيد بن محمد الوراق بتأليف مسند حديث ابن الأحمر وكان قد سمعه من صاحبه[2] ، وجمع له ابن المكوي بالتعاون مع المعيطي كتاباً سمياه الاستيعاب ، من مائة جزء ، جمعا فيه رأي مالك وأقاويله . فسر بذلك ووصلهما وقدمهما إلى الشورى في أيام القاضي محمد بن إسحاق السليم[3] وأمر من بوّب له مستخرجة العتبي في الحديث . وهي مجموعة كثّر فيها مؤلفها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة[4] ولم ينس أمر التعليم فاتخذ المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأنشأ لذلك حول المسجد الجامع وفي أرباض قرطبة سبعة وعشرين مكتباً وأجرى عليهم المرتبات . وعهد إليهم بالاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم[5] .

وفي ظل هذا التسامح الذي أشاعه الحكم استطاع الأندلسيون أن يدرسوا

١ لحن العامة . الورقة ٣
٢ الجذوة : ٣٦٤
٣ الصلة . ٣٨ ، وانظر الجذوة : ١٢٤ ، فإن الحميدي يذهب إلى أنهما كتباه للمنصور ابن أبي عامر .
٤ ابن الفرضي ٢ : ٧٦ ، ٨
٥ ابن عذاري ٢ . ٢٥٨

الفلسفة والمنطق ، وكان كل من درسهما قبل عهد الحكم مذموماً ملحداً خارجاً عن الملة في نظر الناس ، وممّن اتجه إلى هذا النوع من الدراسة ملحان الذي كان ذا نظر في حد المنطق كثير المطالعة لكتب الفلسفة [1]. وكذلك كان إدريس ابن ميثم بصيراً بحد المنطق كثير المطالعة لكتب الأوائل حاذقاً بعلم الحساب والتنجيم [2] . أمّا محمد بن يحيى الرباحي فإنّه كان قد طالع كتب أهل الكلام ونظر في المنطقيات فأحكمها إلا أنّه كان لا يتقلّد مذهباً من مذاهب المتكلمين ولا يقود أصلاً من أصولهم ، إنّما كان يقول على ما يميل إليه في الوقت ويؤثره في الحضرة [3]. وممّن عرف بالدراسات المنطقية والفلسفية في هذه الفترة ابن حفصون [4] ومحمد بن عبدون الجبلي الذي درس على أبي سليمان المنطقي ببغداد . وأبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي الملقب بالحمار . وقد ألف رسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سماها شجرة الحكمة . ورسالة في تعديل العلوم ، ونالته في أيام المنصور محنة شديدة حبس من أجلها وبعد انطلاقه من السجن غادر وطنه إلى صقلية [5] .

ويقول ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس إن أستاذه محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني كانت له رسائل في الفلسفة متداولة مشهورة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وبتأثير هذا الأستاذ نجد ابن حزم لم يتحرج من دراسة المنطق والفلسفة كما كان يفعل غيره من الفقهاء . بل إنّه ألف في المنطق كتاباً سماه « التقريب لحدّ المنطق » ليفيد من يقرؤه في إدراك

---

١ الزبيدي : ٣٢٧
٢ الزبيدي : ٣٣٢
٣ الزبيدي : ٣٣٦
٤ ابن أبي أصيبعة ٢ : ٤٦
٥ طبقات الأمم : ٦٧ (ط . اليسوعية) والجذوة : ٣١٦ ، وبغية الملتمس رقم : ٨٣١ .

الأسس التي قامت عليها أصول التشريع .

وكان للأندلسيين إسهام أوضح في علم الهندسة والعدد . وقد تميز في هذه الناحية أبو القاسم مسلمة المرجيطي (المجريطي) (– ٣٩٨) الذي كان إمام الرياضيين في وقته وأعلم من عرف بعلم الفلك ، وكان مشغوفاً بتفهم كتاب المجسطي وعلم العدد وله مؤلفات عديدة منها واحد في علم العدد يعرفه أهل الأندلس باسم « المعاملات »[1] ، وينسب إليه كتاب غاية الحكيم ، وهو خليط من العلم والسحر والخرافة ، ينقل فيه عن أفلاطون وأرسطو وجابر بن حيان وابن وحشية وغيرهم[2] . وليس ببعيد أن تصحّ نسبة كتاب مفاخرة الأحجار إلى مسلمة[3] ، ففيه يصوّر المؤلف كيف تجتمع أنواع المعادن في مجلس واحد . ويأخذ كل معدن بتعداد مزاياه . وهي طريقة استغلها الأندلسيون في الأزهار أيضاً .

وعلى يد مسلمة المجريطي تخرج عدد من التلامذة كان من أشهرهم :

١ – ابن السمح : (– ٤٢٦) وكان متحققاً بعلم العدد والهندسة والفلك مع عناية بالطب ، وله كتاب المدخل إلى الهندسة فسر به كتاب أوقليدس . وكتاب ثمار العدد وآخر في طبيعة العدد وكتاب كبير في الهندسة وغير ذلك من المؤلفات .

٢ – ابن الصفار : أحمد بن عبد الله بن عمر . عالم بالهندسة والنجوم ، وكان يعلم هذين العلمين بقرطبة ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند ، وكتاب في العمل بالاسطرلاب ، وقد أدرك الفتنة البربرية فغادر قرطبة إلى

١ طبقات الأمم : ٦٩ (ط . اليسوعية) .

٢ منه نسخة بمكتبة آيا صوفيا (رقم : ٢٤٤٣)

٣ منه نسخة رقم ٢٢٣٧ بمكتبة بغدادلي وهبي باستانبول في ٣٩ ورقة ، وهي ناقصة ، ومنه نسخة نور عثمانية رقم ٢٧٩٤ ومعها كتاب رتبة الحكيم المنسوب إليه أيضاً ؛ ومن هذا الثاني نسخة مستقلة رقم ٣٦٢٣ في المكتبة نفسها ، وتدل مقدمته على أنه ليس للمجريطي لأن المؤلف يذكر أنه كتبه بين سنتي ٤٣٩ – ٤٤٢ .

مدينة دانية وعاش فترة في كنف مجاهد العامري

ومن تلامذة المجريطي أيضاً الزهراوي الذي اتجه نحو الطب ، والكرماني الذي تميز في العدد والهندسة ، وقد رحل إلى المشرق ، وهو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس وعمّر فأدرك صدراً كبيراً من دول ملوك الطوائف وتوفّي سنة ٤٥٨ .

وأما الطبّ فقد كان الأندلسيون في بادىء الأمر يعولون فيه على كتاب مترجم يسمى « الإبريشم » أو Aphorismi (أي الفصول) . وكان المتخصصون بصناعة الطب جماعة من النصارى يقول فيهم القاضي صاعد إنّه لم يكن لديهم تحقق بالطب ولا بشيء من سائر العلوم[٢] ، حتّى كانت أيام عبد الرحمن الناصر ودخلت الكتب الطبية من المشرق وقامت الهمم . وظهر الأطباء المشهورون[٣] ومنهم ابن عبدون الجبلي ، وكان في زمانه وبعده إلى آخر الدولة العامرية جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب إلا أنّهم كانوا جميعاً مقصرين عن شأو ابن عبدون[٤] .

وفي أيام الحكم المستنصر أقام أحمد بن يونس الحراني خزانة بالقصر للطب ، ورتب لها اثني عشر صبياً صقالبة طباخين للأشربة ، صانعين للمعجونات ، واستأذن أمير المؤمنين أن يعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى فأباح له ذلك[١]

تلك صورة موجزة لذلك النشاط الثقافي الذي شهدته الأندلس أيام عبد

١ طبقات الأمم : ٧٠ (ط . اليسوعية)
٢ طبقات الأمم : ٧٨ (ط . اليسوعية)
٣ طبقات ابن جلجل : ٩٧ — ٩٨
٤ طبقات الأمم : ٨١ (ط . اليسوعية)
طبقات ابن جلجل : ١١٣

الرحمن الناصر وابنه الحكم ثم في أيام من بعده — على نحو أقل — ولا ريب في أن ما لقيته الدراسات اللغوية والفقهية وعلم التفسير والحديث وسائر العلوم العربية من تشجيع كان أوضح مما لقيته علوم الأوائل ، ولكن تأريخ هذا متعذر في هذا الموضع الذي توخينا فيه الإيجاز [1] .

واستمر الجانب الأدبي من هذه النهضة التي انتعشت في عهد الحكم فظل على انتعاشه أيام المنصور بن أبي عامر : أمّا جانبها العلمي فقد أصابه شيء من ركود ، وذلك أن المنصور أول توليه أمْرَ الحجابة عمد إلى خزائن الحكم فاستخرج جملة ما فيها من كتب بمحضر خواص من أهل الفقه ، ثم ميز من بينها الكتب التي تتعلق بعلوم الأوائل مستثنياً ما كان منها في الطب والحساب ، وأمر بإحراقها وإفسادها فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ولم ينج منها إلا القليل ، فعل ذلك تحبباً إلى العامة واستئلافاً لقلوبهم [2] ، ومحاولة للغض من شهرة الحكم في نفوسهم ، وقيل إن ذلك لم يكن إلا على أعين الناس . أما في حقيقة الأمر فقد ظل المنصور يشجع التوفر على هذه العلوم [3] . وفيما عدا هذه الحادثة استمر تشجيع المنصور للدراسة والتأليف ، في العلوم الدينية واللغوية والأدبية ، وكان يقرب العلماء والأدباء ويفرط في تكريمهم . وكان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم ، كلّما كان مقيماً بقرطبة ، لأن غزواته كانت تبعده عن قرطبة كثيراً [4] ، وله كتب زيادة الله ابن علي كتاب الحمام [5] . وضمت

١ راجع صورة موجزة لذلك في رسالة ابن حزم ، في ملاحق هذا الكتاب .
٢ طبقات الأمم : ٧٥
٣ النفح ١ : ١٠٤
٤ الجذوة : ٧٣ والمغرب ١ : ١٩٤
٥ الجذوة : ٢٠٥

دولته عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجمين فلم يكونوا أوفر عدداً ولا أسنى أرزاقاً منهم في أيامه[1]. وربما كانوا أكثر حرية في تصرفهم منهم في عهد الحكم المستنصر لأن المنصور انصرف كثيراً إلى التجنيد والعمل بالسلاح حفظاً للرسوم والتماساً لجميل الذكر[2] .

ودخل الحياة الأدبية في عهد المنصور شيء من تنظيم لم نسمع به قبل عهده ، فقد جعل للشعراء ديوان ، قيدت فيه أسماؤهم ، وقدرت أعطياتهم بحسب مراتبهم من الشعر ، وكان أمر الديوان موكولاً إلى واحد من النقاد ، هو عبد الله بن مسلمة ، فعلى يديه كانت تخرج الصلات وعلى حسب ترتيبه كانت تجري أمور الشعراء[3] ، ومن السهل أن يتخيل المرء كيف كان هذا التنظيم مثيراً للتنافس مؤرثاً لنار الحسد بين الأدباء أنفسهم ، مشيعاً لروح التذمر بينهم ، ولكن الرزق المنظم خير من ذلك الذي يجيء حسب البواعث والظروف ، غير أنّه من الصعب علينا أن نتخيّل المقاييس النقدية التي كانت تحكم لهذا الشاعر بالتقدم وعلى ذاك بالتأخر ، ويبدو أن المحاكاة أو المعارضة كانت تؤخر صاحبها أو تحرمه أحياناً من التسجيل في الديوان ، وحادثة ابن دراج قد تكون شاهداً على ذلك ، فإنّه عندما تقدم بأول قصيدة له في مدح المنصور وعارض بها صاعداً ، اتهم بالتقصير والانتحال والسرقة ولم يثبت اسمه في ديوان العطاء[4]، ويقوي هذا الظن أيضاً حال الشاعر أبي المطرف عبد الرحمن ابن أبي الفهد فإنّه كان شغوفاً بالمعارضة والمناقضة حتى إنّه لم يكد يبقي شعراً

١ أعمال الأعلام : ٨٤
٢ المصدر نفسه .
٣ الجذوة : ٢٣٩ ، ١٠٣
٤ الجذوة : ١٠٣

جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وكانت مرتبته في الشعراء دون مرتبة عبادة في الزمام[1] .

وتشاء الأقدار أن يفد على قرطبة صاعد بن الحسين البغدادي في أيام المنصور فيحاول المنصور أن يخمل به ذكر القالي ، وكانت هذه المحاولة مخفقة لسببين : الأول أن صاعداً كان نديماً حسناً ذا نوادر وحكايات وشعر ومعرفة بالموسيقى ولم يكن من طبقة أبي علي ، والثاني : أن القالي كان قد أحرز في قرطبة مكانة لا يستطاع طمسها أو التقليل منها ، وبخاصة أن صاعداً وقع بين تلامذة أبي علي ومحبيه وعارفي فضله ، ولذلك « دفعوه بالجملة عن العلم باللغة وأبعدوه عن الثقة في علمه وعقله ودينه ، ولذلك ما رضيه أحد من أهلها أيام دخوله إليها ولا رأوه أهلاً للأخذ عنه والاقتداء به »[2] ، ولم يخفق صاعد في تلمس دنياه ، ولكنه أخفق من الناحية اللغوية ، وفي محاولته أن يحاكي كتاب النوادر للقالي ، ومن هذا الوجه اتهم بالكذب ، ولم يصحح القرطبيون كلمة واحدة ممّا ضمنه كتاب الفصوص ، ومن يتتبع النوادر التي تقال عن كذبه يجدها منسوجة على غرار واحد لتدلّ على الجهل باللغة وعلى دعوى العلم[3] . ولا تخلو المسألة من قياس النادرة على النادرة ، ولكن من المستبعد أن نصدق احتفاء المنصور بأمره بعد أن يتكرّر منه الكذب مراراً ، إلاّ أن يكون صاعد قد عرف ذلك وجرى فيه مجرى التندر ، ليسرّ صاحبه ، ولقد حاول الأندلسيون أن يدعوا عليه سرقة الشعر ، فما أفلحوا في إسقاطه من هذه الناحية ، ولكن تهمة السرقة في الشعر لم تفارقه . ومقطع القول في وصفه أنّه كان « بديع الجواب حاضره طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً

١ الجذوة : ٢٥٨ — ٢٥٩
٢ من كلام ابن حيان في الذخيرة ٤ / ١ ٢ — ٣
٣ أمثلة ذلك مشورة في الذخيرة والنفح والجذوة في ترجمة صاعد .

محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال »[1] . وقد عرف المنصور حسن ندامته فأضافه إلى مجلس الندماء . وكتب – عدا الفصوص – اثنين من كتب الأسمار وهما أشبه بطريقته وقوة خياله وأولهما كتاب الهجفجف بن غدقان ابن يثربي مع الخنّوت بنت مخرمة بن أنيف والثاني كتاب الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمّه عفراء وكان المنصور شديد الشغف بالكتاب الثاني حتّى رتب له من يخرجه أمامه في كل ليلة[2] .

ويبدو أن المنصور كان يجد ارتياحاً في قراءة كتب الأسمار وأنّه كان يعجب بكتاب أبي السريّ الذي ألف في أيام هارون الرشيد . ودخل عليه حسان بن أبي عبدة ذات يوم فلمّا رأى إعجابه بكتاب السري ألف له كتاباً سماه « ربيعة وعقيل » وصفه ابن حزم بقوله : « وهو من أملح ما ألف في هذا المعنى »[3] .

ولم يكن عبد الملك كأبيه ولا مقارباً له بأي حال في تذوق الأدب وتقديره وتمييز جيده من رديئه . فقرب إليه الجلالقة والبرابرة . قال ابن حيان : « إلا أنّه مع زهده في الأدب تمسك بمن كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدّل وتاريخي وغيرهم حفظاً لصنائع والده وقياماً برسومه . فقررهم على مراتبهم . ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته . وكانت ترفع إليه بطائق أهل الشعر ويصلهم . على تساهلهم في مديحه لأمانهم من نظره فيها . وأحرز لهم مع الفائدة عفو القريحة . وذلك بيّن لمن تأمله في أشعار مادحيه لفتورها »[4]. والحق أن الشعراء من حيث الإنشاد

... .

١ الذخيرة ٤ / ١ . ١٦
٢ الجذوة : ٢٢٣
٣ الجذوة . ١٨٤
٤ الذخيرة ٤ / ١ : ٦٠

كانوا في أيامه فريقين : فريق رسمه إنشاد الشعر بين يديه وفريق يرفع إليه القصائد ولا ينشدها[1] وكلهم ينال من جوائزه ، ولكن يبدو أن منزلة الشعراء في أيامه كانت متأخرة عن طبقات معينة ، ففي ترتيب الدخول عليه كان يدخل المروانيون ثم القضاة والحكام والفقهاء والعدول ثم وجوه أهل الأرباض والأسواق من أهل قرطبة ثم الشعراء والأدباء[2] . وقد شجّع المظفر وصف الأزهار لإعجابه بهذا الفن كثيراً حتى كان يقترح على الشعراء أن ينظموا فيه لكي تغني فيه القيان ، وقدم إليه الشعراء كثيراً من المقطعات في وصف مختلف الأزاهير[3] .

ومن الطبيعي بعد هذه النهضة العلمية التي استغرقت في تطوّرها قرنين من الزمان على وجه التقريب ألا تبقى الأندلس عالة على الكتاب المشرقي والثقافة المشرقية . وإن هي لم تقطع صلتها بهما على مرّ الزمن ، فإنها في الفترة الواقعة بين عبد الرحمن الناصر وآخر الدولة العامرية وجدت ذاتها ، والتفتت لماضيها واهتمت بحاضرها ، وأدركها شيء يشبه الشعور القومي ، ودفعها الحكم المستنصر في هذه السبيل دفعة قوية ، فإذا المكتبة الأندلسية تزخر بالمؤلفات عن الأندلس بأقلام أهلها ، وهكذا وجدت الأندلس رجالها وتاريخها وعلمها وأدبها ، فتحدثت عنه وخلدته ، ولنترك جانباً ما كتب في التاريخ والتنجيم والطب وطبقات العلماء والقضاة والنحويين ، وما ألف في اللغة . ونتناول من الكتب ما يمس الأدب شعره ونثره وسير الأدباء والنقد الأدبي ، فنجد الكتب التالية من إنتاج تلك الفترة :

١ ابن عداري ٣ . ٩

٢ المصدر السابق .

٣ ابن عداري ٣ : ١٨

١ — طبقات الشعراء بالأندلس لعثمان بن ربيعة (— ٣١٠) .
٢ — طبقات الكتّاب بالأندلس للأفشتين (— ٣٠٩) .
٣ — أخبار شعراء الأندلس لمحمد بن هشام الأموي (أيام الناصر) .
٤ — اللفظ المختلس من بلاعه الكتّاب بالأندلس لعبيديس الجياني .
٥ — طبقات الكتّاب بالأندلس لسكن بن سعيد .
٦ — كتاب الحدائق لابن فرج الجياني .
٧ — كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لعلي بن أبي الحسين .
٨ — أخبار شعراء الأندلس (أو كتاب طبقات الشعراء) لابن الفرضي .
٩ — حانوت عطار لابن شهيد .
١٠ — أخبار شعراء الأندلس لعبادة بن ماء السماء .
١١ — كتاب في شعراء الأندلس لعثمان بن سعيد الكناني (— ٣٢٠)
١٢ — كتاب في شعراء الأندلس لمحمد بن عبد الرؤوف الأزدي (— ٣٤٣) .
١٣ — كتاب في شعراء البيرة لمطرف بن عيسى الغساني (— ٣٥٧) .
١٤ — كتاب الشعراء من الفقهاء بالأندلس لقاسم بن نصير (— ٣٣٨) .

هذا عدا الدواوين الشعرية المجموعة حينئذ ، كشعر ابن عبد ربه وديوان الغزال وديوان يحيى بن هذيل وديوان قاسم بن نصير وأكثر شعره في الزهد وذم الدنيا وفي شواهد الحكم والتذكير والوعظ [1] . وديوان النصائح وهو أيضاً مجموعة من الأشعار الزهدية لابن أبي زمنين . وغير ذلك من الدواوين والمجموعات الشعرية . فهذه المآثر كلّها تشير إلى تبلور الشعور « بالأندلسية » وإلى أن الأدب الأندلسي شعره ونثره أصبح موضوعاً يمكن أن تتوفر على تأريخه وتقويمه أقلام كثيرة .

١ ابن الفرضي ١ : ٤٠٦

ومن هذا — ومن مظاهر التأليف الغزير في الموضوعات الأخرى — يتبين لنا مدى بطلان تلك التهمة التي وجهها ابن الربيب القرويّ إلى الأندلس والأندلسيين حين ذكر أنّه ليست لديهم مؤلفات وأن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ومكارم ملوكهم ومحاسن فقهائهم ومناقب قضاتهم. واستدلّ على صحة رأيه بأن تلك التآليف لو كانت موجودة لوصلت إلى القيروان والمسافة بين البلدين قريبة والشقة غير نائية . وهذه التهمة دفعت الفقيه أبا محمد ابن حزم إلى كتابة رسالة يدوّن فيها « تاريخ الفكر الأندلسيّ » ويحصي في كل موضوع أهمّ الكتب المؤلفة فيه ، فجاءت رسالته فهرستاً حافلاً لا يستغني عن معرفته من شاء أن يتصوّر مدى ما أسهمت فيه القرائح الأندلسية في شتّى الموضوعات ، وهي رسالة كفيلة بأن تطلعنا على نمو الشخصية العلمية الأدبية في الأندلس نموّاً بالغاً يفردها في كثير من المظاهر عن المشرق ، بل يميزها عن كثير من الأقطار الإسلامية التي كانت مشاركتها العلمية يومئذ ما تزال ضعيفة أو ضئيلة .

وكانت السمات المميزة للشخصية الأندلسية في مدى ذينك القرنين قد اتضحت بقوة في كثير من النواحي ، ومن الطبيعي أن تستقل الأندلس — ذات السيادة الخاصة والنظم المتفردة — بكثير من العادات والأزياء وضروب الإدارة وطرق الحرب والجندية وأساليب الزراعة والصناعة والبناء وطرق التعليم وطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك من شئون ، ويكفينا هنا أن نلمح مظهرين من مظاهر ذلك الاستقلال ، هما أوثق شيء صلة بالأدب ولغة التعبير ، وأعني بهما استقلال الأندلس — بحكم التفاعل الطبيعي مع البيئة — في أمثالها ولغتها :

(١) وقد وصلنا قليل من الأمثال الأندلسية ، وهو يدل على أنّه نتاج بيئتهم ، لاتصاله بأشخاص وأحداث ومظاهر منها . فمن ذلك أنهم كانوا

يقولون حين يضربون المثل في الفصاحة : « ما هذا إلا أبو حَرْشَن » و « أفصح من بكر الكناني » و « أفصح من الرشاش »[1]. وكل هؤلاء من لغويي الأندلس وقدامى المؤدبين . ويقولون في تصوير اختلاف ما تجيء به الحال : « سنة عفص وسنة بلوط »[2] . ومن سائر أمثالهم : « شتان بين خلة وسعاد »[3] . وكانت خلّة زوجة أحد القضاة وهي قبيحة الشكل بينما كانت خادمتها واسمها سعاد فائقة الحسن . وجاء في أمثالهم : « ومن ثور حي لا يلبس هراكيس »[4] أي أنّه لا يمكن أن يستفاد من جلد الثور إلا بعد أن يذبح . وبعض أمثالهم يبين مميزات مدنهم كقولهم « من دخل شريش ولم يأكل بها المحنات فهو محروم »[5] . ومن أمثالهم أيضاً « غررت بي يا إسحاق » وكان إسحاق من رجال ابن حفصون فغلب مع صاحب له . فقال صاحبه له هذه الكلمة وهما يرفعان على الخشبة فذهبت مثلاً[6] .

(٢) أما ظاهرة الاستقلال اللغوي فلست أعني بها فحسب تميز اللهجة الأندلسية الدارجة ونموها مع الزمن . وإنّما أعني أيضاً ما نشأ في البيئة الأندلسية عامة من تعبيرات ومصطلحات لو سمعها أهل المشرق لما عرفوا مدلولها . وهذا شيء وإن لم يكن خاصاً بالأندلس فإنّه يستحق التمييز والتنويه . وتشمل تلك المصطلحات والتعبيرات شئون الإدارة والمال . والمسميات الجديدة . وأسماء النباتات . بل وما يدل على الأدوات والأمور اليومية . ويكفي أن يقرأ المرء كتاباً مثل « قضاة قرطبة » للخشني . حتى يجد أن هناك تعبيرات تختص بالبيئة

١ الزبيدي : ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
٢ قضاة قرطبة : ٧٧
٣ قضاة قرطبة . ٣٥
٤ التبيان . ٦١ ، أما كلمة « هراكيس » فإنها تعني المراكب ، أي الأحذيه .
٥ النفح ١ : ٨٧
٦ ابن عذاري ٢ : ٢١١

الأندلسية في الأحوال والهيئات والحركات . وأنّها غامضة على القارىء المشرقي . وقد أدرج دوزي في ملحق المعاجم العربية من تأليفه عدداً كبيراً من هذه الألفاظ والتعبيرات وهذه نماذج منها :

المسدد : هو القاضي أو الحاكم الذي يتولى شؤون بلدة صغيرة[1] .

الدرابون : هم الطوافون بالليل للعسس . وإنّما سموا بذلك لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه « دراب » له سراج معلق . وكلب يسهر . وسلاح معد[2] .

الأقروف والعفارة : قال الخشني يصف أحد القضاة : « فجلس للحكم . . وفي رأسه أقروف أبيض وغفارة بيضاء »[3] ويبدو أن الأقروف مخروطي الشكل . أما الغفارة فالأرجح أنها نوع من الكوفيات . وكانوا يلبسون غفائر الصوف حمراً وخضراً والصفر مخصوصة باليهود

الحزيب الرقيب العتيد في كلام أهل الأندلس[4] .

الفقيه المقلص: هو الذي يضع على رأسه القالص[5] . وهو « القالس » ويعرفها المشارقة باسم « القلنسوة » ولذلك يسمى القضاة في الشرق بذوي القلانس . أما في المغرب فيسمونهم « المقلصين » ولا يكون الفقيه مقلصاً إلاّ إذا حفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة .

١ النفح ١ ١٠٣
٢ المصدر نفسه .
٣ قضاة قرطبة ، ٩٤
٤ النفح ٢ . ٨٨٩
٥ النفح ١ . ٢١٦

الخطارة : قال الخشني : « فنظر بعض خواص الأمير إلى يحيى بن معمر وهو في جنان له يستقي الماء بخطارة ويسقي بقل الجنان »[١] . وقد عرفها المقري بأنها الاسم الذي يطلقه الأندلسيون على صنف من الدواليب يستقون به من الأودية .

خطة الرد : وهم يطلقون الخطة على ولاية الأمر ، فهناك خطة القضاء وخطة السوق وخطة الشورى وما إلى ذلك . فأما الرد . فإنها تعني رد المظالم على أصحابها ، أي انصافهم . وهي تقابل عند المشارقة « النظر في المظالم » ، قال الخشني في أحدهم ولاه الأمير الشرطة والرد[٢] .

المجشر : في اللسان أن الجشر هم القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يأوون البيوت . فهم يعزبون بدوابهم . ولعل المجشر في استعمال الأندلسيين هو المرعى : قال الخشني « حكم عمرو بن عبد الله على هاشم بن عبد العزيز في مجشر كان في يده بجانب جيان »[٣] وفي النفح « سلم إليه المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك »[٤] وقال ابن حزم : إن المجشرة عندهم هي ما يعرف بالدسكرة عند المشارقة[٥] .

التقطيع : الضريبة التي يؤديها المسلمون في بلاد الأندلس ، وبخاصة بعد الفتنة . قال ابن حزم : « وأما في زماننا هذا وبلادنا

١ قضاة قرطبة . ٧٦ ، وانظر النفح ٢ ٩١٢
٢ قضاة قرطبة · ١٣٧
٣ قضاة قرطبة : ١٠٢
٤ النفح ١ . ١٢٧
٥ الأحكام ٥ · ١٢٢

هذه . . . فإنّما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها القطيع ويؤدونها مشاهرة »[1] ويفهم من كلام ابن حزم أنها ضريبة على الرؤوس وأنها شيء آخر غير الضرائب على الأموال من الغنم والبقر والدواب والنحل .

والأمثلة كثيرة لمن شاء أن يتتبعها . وهي حقيقة بالدرس والجمع[2] . ويضاف إلى هذه المصطلحات، توسعهم في الاستعمال . كتسميتهم البريد « ركاضاً » . وتسميتهم أعيان الناس « بياض البلد » — قال الخشني : « وتشاهد عليه بياضُ البلد وشيوخ المصر عارفين على سفك دمه وقطع أثره »[3] . وقولهم « حلّف إلى هاهنا » يعني أقدم متجاوزاً الناس[4] . وإطلاقهم على الفدان من الثيران اسم « زوج » . قال الخشني : « فوافقه وهو يقف على « ازواج » له تحرث بفحص البلوط »[5] . وتسميتهم المحصول باسم « الرفع » أي لأنه هو ما يرتفع إليهم من الأرض : « ثم سألني عن رفعه في ذلك العام فقلت له : رفع القاضي سبعة أمداد من شعير وثلاثة أمداد من قمح[6] . وهكذا

أما اللغة المحكية فقد ظلّت مزدوجة إلى عهد طويل . وكان الناس في قرطبه يتكلمون اللغة اللاتينية في أحد أشكالها الرومانية إلى جانب العربية . والعرب يطلقون على اللغة السائدة في الأندلس اسم « الأعجمية » . ومنها ثلاث لهجات كبرى وهي الأرغونية والبلنسية والقشتالية ، كما كانت اللهجه

١ رسائل ابن حزم . الورقة ٢٥٠

٢ هناك قائمة بالألفاظ الأندلسية وهي تمثل عهوداً متباعدة استخرجها الدكتور عبد العزيز الأهواني من كتاب لحن العامة لابن هشام ونشرها بمجلة معهد المخطوطات (المجلد الثالث ، الجزء الأول والثاني) .

٣ قضاة قرطبة . ١٠٧

٤ قضاة قرطبة . ١٥٦

٥ قضاة قرطبة : ٩٣ — ٩٤

٦ قضاة قرطبة : ٩٣

البشقية لغة الأكثرية من أهالي بنبلونة والمنطقة الجبلية من حولها[1] . ولم تقص العربية على هذه اللهجات . بل ظلت هي الغالبة في بعض الأرياف والوادي . ويحدثنا ابن حزم في الجمهرة أن قبائل بلي لا تحسن الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم[2] . كأن شيوع اللاتينية بين القبائل الأخرى كان أمراً طبيعياً . وتعلم لغةَ السكان الأصليين كثيرٌ من العرب . حتى كان بعض القضاة يتكلمونها . حكى الخشني عن رجل من الشهود يدعى ابن عمار كانت له بغلة هزيلة تلوك لجامها طول النهار على باب المسجد . فتقدمت امرأة إلى القاضي فقالت له بالعجمية : يا قاضي انظر لشقيتك هذه (تعني نفسها) . فقال لها بالعجمية : لست أنت شقيتي إنّما شقيتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طول النهار[3] . ونقيض هذا أن والد نصر الفتى صاح بالعجمية على القاضي وهو منصرف ليقف . فقال القاضي . قولوا له بالعجمية إن القاضي قد أدركته الملالة والسآمة[4] . فقوله : قولوا له . يعني أنه لا يعرف العجمية . وكان بقرطبة شيخ أعجمي اللسان مقدماً عند القضاة مقبول الشهادة[5] . وعلى الرغم من تعرب السكان الأصليين تدريجاً فقد بقيت الألقاب اللاتينيه والأسماء تلحقهم كما تلحق بعض أبناء العرب أنفسهم مثل لقب . شجول ويوانش وبطرة شقة (أي الحجر الصلب) وغيرها .

وظهر أثر الاختلاط بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين في الشكل الجديد الذي اتخذته لهجة عرب الأندلس . وكان أكثرهم ابتعاداً عن العربية الصحيحة أقربهم إلى المناطق التي تغلب فيها غير العربية . ومع الزمن . أصبحت

١ انظر نكل : ٣ ، والروض : ٥٦
٢ الجمهرة . ٤١٥
٣ قضاة قرطبة : ١١٨
٤ المصدر نفسه : ٩٦
٥ المصدر نفسه : ٨٤

لغة التخاطب تمثل هذه التأثيرات المتباينة قوة وضعفاً . وأخذت الفصحى تنكمش فلا تمثل إلاّ الجانب الرسمي في الدولة . وغدت لغة أدبية لا يتذوقها إلا الطبقات المثقفة . إلا في جزائر صغيرة وسط هذا البحر من الاتجاه إلى اللغة الدارجة ، كما كانت الحال في شلب فإن سكانها وسكان قراها وأكثرهم من عرب اليمن ظلوا يحافظون على اللغة العربية الصريحة إلى عهود متأخرة[1] .

وقال ابن حزم يصف لهجة أهل فحص البلوط : « ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد . فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله »[2] . وقد سجل ابن حزم أيضاً شيئاً من تبديل العامة للغة الأصلية فقال[3] : « ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً . وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى . ولا فرق ، فنجدهم يقولون في العنب : العنيب . وفي السوط : أسطوط . وفي ثلاثة دنانير : ثلثدا . وإذا تعرب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال : السجرة . وإذا تعرب الجليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول : مهمداً . إذا أراد أن يقول محمداً »

وقد حاول المتمسكون بصحة اللغة أن يقفوا في وجه هذا التطور اللغوي . فألف الزبيدي كتابه لحن العامة ليوقف الناس على الصواب والخطأ . وربما تحمس لذلك لأنه رأى هذا اللحن يدخل في المكتوب . وهاجم ابن شهيد الأندلسيين فيما يكتبون وقال إن كتابتهم ليس للفراهيدي فيها عمل ولا لسيبويه إليها طريق ، وحاول الناثرون أن يلتزموا حدود الصحة والفصاحة

١ الروض ١٠٦
٢ الأحكام ١ : ٣١
٣ الأحكام ١ : ٣٢

ما أمكنهم في النثر الفني .

ويكفي في هذا المقام أن أضرب أمثلة قليلة تصوّر بعض مظاهر اللهجة الأندلسية : نقل صاحب تثقيف اللسان عن الزبيدي أن الأندلسيين يقولون في التين : تَيْن ، وفي النوتي : نَوْتي ، وفي القبيط : قُبَيْط ، وقال إن مثل هذا لا يخطىء فيه الناس في صقلية[1] ، وذكر أبو حيان الجياني في تفسيره البحر المحيط ، في موضع شذ عني الآن ، أن أهل بلدهم أي الأندلسيين عامة يرققون القاف حتّى تلحق بالكاف[2] . ومن الطريف أن نعلم أن بعض مدرسي اللغة والنحو — في عصر متأخر — كانوا يشرحون الدروس لطلبتهم باللهجة الدارجة .

وكانت الصورة الأدبية لهذا التبلور في الشخصية الأندلسية هي الموشحات والأزجال التي منحت الأندلس تميزاً خاصاً على الشعر المشرقي . ففي هذا العصر نبتت أصول الموشحات على نحو غامض ، ولا يزال النص الذي أورده ابن بسام عن نشأتها في حاجة إلى توضيح ، إذ قال : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها — فيما بلغني — محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا . ثم نشأ يوسف ابن هارون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . . . ثم نشأ عبادة هذا [ابن ماء السماء]

---

١ تثقيف اللسان ، الورقة ٤

٢ انظر النفح ١ : ٦٠١ ووصف فيه أبا حيان بقوله : عبارته فصيحة بلغة أهل الأندلس يعقد القاف قريباً من الكاف . . . وسمعته يقول : ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف .

فأحدث التعبير ، وذلك أنّه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها . كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز »[1] . ويحتاج هذا الكلام المغلق حلاً ، ويزيد من صعوبة الموقف أنّنا لا نملك أمثلة من موشحات القبري والرمادي . ولما كانت الموشحات مما استفاض بعد هذا العصر فمن الأنسب إرجاء الحديث عنها إلى جزء تال . ولكن الدارس لا يملك إلا أن يشك في هذه النشأة المبكرة للموشحات . غير أنّه لا يستبعد أن يكون الرمادي قد حاولها أولاً كما طوّر من تأليفها عبادة بن ماء السماء . وبعد الموشحات شاعت الأزجال في الأندلس باللغة المحكية ، وكان قبولها يعني منح اللغة الدارجة وجوداً أدبياً ، وفي الأزجال استطاع الأندلسيون أن يعبروا عن شئون حياتهم اليومية بطريقة قريبة إلى نفوسهم ، فجاءت أزجالهم أدقّ من الشعر الكلاسيكي في طابعها الأندلسي وتمثيلها للروح الأندلسية . غير أن للحديث عن الموشحات والأزجال موضعاً آخر ، فلنكتف بهذا القدر هنا للدلالة على أهم المظاهر التي اتضحت فيها السمات الفارقة للشخصية الأندلسية .

١ الذخيرة ١ / ٢ : ١ – ٢

٢

مجالات الشعر الأندلسي ومظاهره الكبرى

كان الشعر الأندلسي في هذا العصر وافراً غزيراً يحتل من نفوس الناس مقاماً عالياً على اختلاف طبقاتهم ، أما وفرته وغزارته فتعود إلى أنّه تغلغل في كل ناحية من نواحي الحياة الأندلسية على مستوى الأفراد والجماعات ، فحاول أن يكون شاملاً في نقل تلك الحياة والتعبير عنها . وأما إحرازه المقام العالي فيعود إلى رغبة طبيعية فيه لدى أناس تتربى أذواقهم على محبته والتغني به ، وإلى تقدير الحكام ورجال الدولة له ، لا لأنه يتغنى بأمجادهم وحسب بل لأن أكثرهم شعراء يعرفون مواقع الجمال في صور التعبير ويستمتعون بها ويحاولون الاستزادة منها .

فلقد كان كثير من الحكام الأمويين والأمراء بالأندلس شعراء ومنهم المتفوق المكثر ومنهم المقلّ ، ولكنّك قلما تجد من بين الأفراد المشهورين من لا يمارس قرض الشعر ، ابتداء من عبد الرحمن الداخل حتّى آخر العهد الأموي . ويعد كتاب الحلة السيراء معرضاً واسعاً لهذا النشاط ، وقد فعل مثل ذلك ابن فرج — من قبل — في كتاب الحدائق ، ومر بنا أن الحكم المستنصر قد طلب إلى أحدهم أن يؤلف كتاباً في شعر الأمويين بالمشرق والأندلس ، وزعم ابن فرج بعد أن أورد جملة من أشعار الخلفاء الأمويين أن منهم « من يجلّون عن الشعر في أقدارهم كما يرتفعون عن أن يروى عنهم أو يؤخذ من أفواههم . وإنّما ينبسطون في سرائرهم فليس يظهر عليهم منه

إلا الشيء القليل ولعل ما سقط عنا أفصل مما سقط إلينا »[1] . ويبدو أن ابن فرح كان يمهد بهذا للاعتذار عن أمير المؤمنين الناصر وعن قلة ما يعرفه هو من أشعاره .

وتتراوح أشعار هؤلاء الأمراء بين الغزل بجواريهم والشعر الحماسي . ويتميز منهم الشريف الطليق والمستعين . وهذا الثاني كان قبل أن يطمح إلى الخلافة ، شاعراً يمدح الخلفاء والكبراء . وذكر ابن أبي الفياض أن له قصائد طويلة في فنون كثيرة مع المعاني العجيبة والألفاظ الغريبة . . . قال : « وكأني أراه قائماً بين يدي ابن عمه المهديّ القائم على بني أبي عامر . والمهدي جالس على مقعد الخلافة ، وهو أمامه ، قد لبس ثوب خز . وعليه طاق خزّ ملوّن وأقروف وشي . وقد رمى بثيابه على عاتقه . وبيده سيف . وهو ينشد شعراً طويلاً يهنئه فيه بالخلافة »[2] . وكثير من أشعار هؤلاء الأمراء يتضاءل في صدق العاطفة إزاء مقطوعتين نظمهما عبد الرحمن الداخل في التشوق إلى معاهده والحنين إلى أوطانه وأولاهما :

أيها الراكبُ الميممُ أرضي ... اقرِ مِنْ بَعْضِيَ السلام لبعضي
إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قُدِّرَ البينُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونيَ غُمضي
قد قضى اللهُ بالفراقِ علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

والثانية قالها لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة ونظر فيها إلى نخلة ذكرته وطنه :

تَبَدّتْ لنا وَسْطَ الرصافةِ نَخْلَةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النخْلِ

١ الحلة السيراء : الورقة ٥٩
٢ الحلة السيراء ، الورقة ١٣٩

فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنوى وطولِ التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مِثْلي

ولم يكن سائر الأمراء والوزراء والحجاب بأقل من الأمراء الأمويين في هذه الناحية ، كهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد . وسعيد بن جوديّ أمير العرب الذي عرف في زمانه بعشر خصال لا يدفع عنها : الجود والشجاعة والفروسية والجمال والشعر والخطابة والشدة والطعن والضرب والرماية . وله شعر كثير ، وأكثره في جارية سمعها بقرطبة تغني للأمير عبد الله بن محمد فهام بها ، واشترى جارية سماها « جيجان » باسمها . فلم يُسْلِه ذلك عنها وهام بها دهراً[1] ، ومنهم أيضاً الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد . وجهور بن عبيد الله بن أبي عبدة وكان شاعراً مكثراً[2]. وجعفر بن عثمان المصحفي ، والمنصور بن أبي عامر ، وغيرهم ممّن يقصر دونهم العد . ولسنا نميزهم بشيء في هذا المقام ، فإن مراكزهم الاجتماعية ومنازلهم السياسية . وإن كانت ذات أثر في شعرهم ، وفي تقدير الناس له . لا تقوم بينهم مقام الرابطة الفنية ، إذ ليسوا هم أهل مدرسة أو مذهب خاص . ولكن هكذا نظر الأندلسيون إلى شعرهم حين صنفوه ، واهتموا — كما فعل ابن سعيد في المغرب — بتدريج الشعراء حسب المقامات الاجتماعية . على أن الإشارة إليهم في هذا السياق قد توضح مدى التجاوب بين الشعراء والطبقات الحاكمة بما ينتج أثراً في التحمس للشعر والتهيؤ له ، وقد تدل على أن الشعر كان من العناصر التي تقدم المرء في الحياة السياسية ، وترقى به إلى المناصب الرفيعة .

وقد عاش الشعر في هذه الفترة مع الحياة السياسية وغدا ظلاً لها ، لا يكاد

١ الحلة : الورقة ٤٥
٢ الحلة : ١٢٠

ينفك عنها ، ويمكن أن نتصوّر هذه الحياة السياسية في ألوان مختلفة : فهي صراع خارجي في صورة غزوات مستمرة ومرابطة وجهاد في الثغور . وهي صراع داخليّ يتمثل في الفتن والثورات التي يحاول أصحابها بها الانشقاق عن طاعة قرطبة . وهي أيضاً معارك بين العناصر المختلفة على أساس العصبية . وهي إلى ذلك كلّه معارضة أو نقد للحكم القائم أو محاولة للتآمر في سبيل غايات فردية . كذلك يجب أن لا ننسى أن من متممات هذه الحياة السياسية قيام الشعراء بين يدي الحاكم في الأعياد والمناسبات العامة وأيام استقبال الوفود والسفارات الخارجية .

(١) أما في الصراع الخارجي فإن الشاعر كان رفيق الأمير أو الخليفة في الجهاد . وبلغ الأمر بالمنذر بن محمد أنّه كان يستمع إلى الشعراء ينشدونه غازياً وراجعاً[١] . وإذا تذكرنا عدد غزوات الناصر مثلاً والمنصور بن أبي عامر — هذا عدا الغزوات الكثيرة الأخرى التي قام بها حكام الأمويين وقادتهم في مدى قرنين من الزمان — لاح لنا مقدار الشعر الذي مزج بين المدح ووصف المعارك والإشادة بالانتصارات والاعتذار عن الانكسارات ، والتمثيل على هذه الناحية إنّما يعد استئناساً ببعض النماذج الأندلسية ، وإلا فإن الشعر الممثل لهذه الناحية يكاد يعزّ على الحصر .

فمن ذلك غزوة وادي سليط وهي من أُمهات الوقائع في أيام الأمير محمد وفيها يقول عباس بن فرناس[٢] :

وَمُؤْتَلِفِ الأصواتِ مختلِفِ الزَّحْفِ   لهوم القَلا عَبْلِ القَبائِلِ مُلْتَفِّ
إذا أومضتْ فيه الصوارمُ خِلْتَها   بروقاً تراءى في العمام وَتَسْتَخفي
كأن ذُرَى الأعلامِ في مَيَلانِها   قراقيرُ في يَمٍّ عَجَزْنَ عن القَذْفِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٨٠
٢ ابن عذاري ٢ ١٦٦

وفيها يقول العتبي [1] :

سائلْ عن الثّغْرِ الصوارمَ تَصْدُقِ ... واستنطقِ السُّمرَ العواليَ تَنْطِقِ
تَركَتْ وقائعَ في الثغور وقد غدَتْ ... مَثَلاً بكلّ مغرّبٍ ومُشَرّقِ
وأداحَ أهلَ المشركينَ بوقعةٍ ... تركتهمُ مثل الأشاء المُحْرَقِ
جادتْ عليهم حَرْبُهُ بصواعقٍ ... تركتهمُ مِثْلَ الرّمادِ الأزْرقِ

ويقول صاعد مهنئاً المنصور وقد غزا سنة ٣٩٠ في صائفة . وكانت من أشد غزواته وأصعبها مقاماً ، وتعرف بغزوة جربيرة [2] :

جَدّدْتُ شُكري للهوى المتجدّدِ ... وَعَهِدْتُ عندكَ منه ما لمْ يُعْهَدِ
اليومَ عاش الدينُ وابتدأ الهُدى ... غَضّاً وعاد المُلْكُ عذبَ المورد
ووقفتُ في ثاني حُنَيْنٍ وقفةً ... فرأيتُ صُنْعَ الله يُؤْخَذُ باليد
من فاته بدرٌ وأدْرَك عُمْرُهُ ... جربيرَ فهو من الرّعيلِ الأسْعَد
فوددتُ لو حتَمَ القضاء بأنني ... في القوم أوّلُ طالعٍ مُسْتَشْهد
ما أستكينُ لروعةٍ ، ومحمدٌ ... وبنوهُ أنصارُ النبيّ محمد
عهدي به . واللهُ ينظر صبره ... والموتُ بين مُصَوّبٍ ومُصَعّد
غطّى عليه المشركون فلم يَكُنْ ... في القومِ إلا صخرةٌ في فَدْفَد
حتى تَحَصّنَ بالملائكة التي ... حفّته بينَ معفر ومردد

ولابن درّاج في هذه الغزوة نفسها [3] :

تبلّج عَنْ إشراقِ غرّتك الصبحُ ... وأسْفَرَ عن إقدامِكَ النّصرُ والفتحُ

١ ابن عذاري ٢ : ١٦٩
٢ أعمال الأعلام : ٧٢ — ٧٣
٣ ديوانه : ٣٨٧

وقرّت عيونُ المُسلمينَ بأوبةٍ مصادرها عزٌّ وموردها نُجح
كأنَّ شعاعَ الشمس من نور هديها وعرفُ نسيم الروض من طيبها نفح
ضربتَ بحزب الله في الأرض مقدماً إلى متجرٍ ، حنانُ عدنٍ له ربح
ورويّت من ماء الجماجم والطلى متون جياد نفّها الظمأ البرح

ونختم هذه الأمثلة بقول ابن درّاج في إحدى غزوات المنصور إلى منطقة ليون[1] :

وتركتَ أرضَ ليون وهيَ كأنها لم تغنَ بالأمسِ القريبِ ديارها
مرفوعة لكَ في العُلا أعلامهـا لمّا غدت بكَ عافياً آثارها
شيعٌ حواها حدُّ سيفك عنوة أضحت ، عقبى الانتقام قصارها
وفلول من فات الفرار بنَفْسِهِ جاءت يعاجلها إليكَ فرارها
من بعدِ ما عاذت بحفظ حياتها ببروج منع للنجوم جوارها
واستعصمتْ بمعاقل قَدْ أصبحت للحين وهي قيودها وإسارها
والخيلُ والأبطال تجهدُ خلفها ألا ينشط على الخليلِ مزارها
حتى عبرن خليجَ « دوير »[2] كأنها سفن ترامى بالحتوف بحارها
بقواضبٍ قضبت بهن حياتهـا وصوارم صرمت بهـا أعمارها

ويدخل في هذا اللون من الشعر التفنن في وصف الخيل ومناظر الفرار ووصف السفن الحربية وصور الخراب والتدمير وآلات الحرب . فمن ذلك قول الشاعر علي بن أبي الحسين في وصف الرماح[3] :

بروجٌ من الخطيّ فيها كواكب لها من قلوب المجرمين منازلُ

١ ديوانه . ٤٠٩
٢ يعني نهر الدويره . (Duero) .
٣ كتاب التشبيهات : ٢٠٠

تردّت نحول العاشقين كأنّما بها من تباريح الغرام بلابل
كأنّ ضراماً في الوغى متأججاً ومنها لهيب والدخان القساطل[1]
بها يكتب الفتح الذي صحفه العدا فأقلامه عند الكماة الذوابل
تخط خُطوطاً في الأعادي مِدادها نَجيعٌ ومخشيُّ الحِمام الرسائل
كأنّ شذا أطرافها إذ ترفعت شذا ألسن الحيات حينَ تصاول

ومن وصف السفن قول الرمادي[2] :

والسّفنُ قد جلّلها قارها كأنّها أعراء[3] حبشان
كأنّها في دار مضمارها خيل يصنّعن لميدان
كأنّها والماء ميدانها في الجو منقضّة عقبان
ترى المقاذيف بأحنائها كأنّما ترمي بنيران
لذاك تمشي مشي صاحٍ فلو جاوز أمست شبه نشوان
كالأعين الحور ، مجاذيفها من حولها أشفار أجفان
كأنّما أبراجها في الوغى ترمي من النفط ببركان

(٢) أما الأحداث الداخلية فالمشهور منها كثير ، والشعر الذي أثارته غزير كذلك ، فمنها وقعة الربض التي أوقع فيها الحكم بناسٍ من أهل قرطبة ثاروا عليه (١٨٩) و (٢٠٢) وللحكم نفسه في هذه الواقعة شعر كثير يسوّغ به ما قام به من قتل وتشريد ، كقوله :

ولما تَساقَيْنا سجالَ حُروبنا سقيتهمُ سُمّاً من الموتِ ناقعا

... .

١ القساطل : جمع قسطل وهو الغبار الساطع
٢ كتاب التشبيهات : ١٧٩
٣ الأعراء : الجماعات

وهل زدتُ أن وفّيْتهُم صاعَ قرْضِهِمْ فوافَوْا مسايا قُدِّرَتْ وَمَصارِعا
فهاكَ بلادي إنّي قد تركتُها مهاداً ولم أتركْ عليها مُنازِعا

وأكبر ثائر كاد يعجز الأمويين هو عمر بن حفصون زعيم العجم . وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة . وكان يتحصن بمدينة بشتر وأطاعه أكثر بلاد الموسطة بين رية والخضراء والبيرة . وخرجت جيوش قرطبة لإخضاعه مرات عديدة ، ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليه ، إلا في زمن عبد الرحمن الناصر ، وقد غزاه الأمير عبد الله في إحدى المرات وانتصر عليه فقال في ذلك ابن عبد ربه :

رام ابنُ حفصونَ النجاةَ فلم يَسِرْ والسيفُ طالبُهُ فليس بِناجِ
ما زالَ يلْقِحُ كلَّ حربٍ حائلٍ فالآن أنْتَجَها بِشَرّ نِتاج
ركبوا الفِرارَ بعصبةٍ قد جَرَّبُوا عِبَّ السُّرى وخوافتَ الإدلاج
وإذا سألتَهُمُ مواليَ مَنْ هُمُ قالوا : مواليَ كلّ ليلٍ داج

وهذا باب متسع ، تخصص فيه الشعراء الملتصقون بالخلفاء والأمراء ، كابن عبد ربه والعتبي والعكي وابن الشمر وعباس بن فرناس وكثير من الملتفين حول المنصور بن أبي عامر . وكانت فتنة المستعين التي انقضت بها الخلافة الأموية من أشد هذه الأحداث الداخلية أثراً في الأدب ، وسنفرد لها فصلاً خاصاً .

(٣) وفي وقفة الشعر مع العصبية كان يمثل صورة من النقائض المشرقية إذ انه عبّر عن الصراع الأدبي بين العرب والمولدين ، إلى جانب الصراع السياسي ، وفيه في الجانب العربي الفخر بالقبيلة ، وكان شعراء العرب هم قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسي الثائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه

بيوتات العرب من كورة البيرة وحيان ورية وغيرها فتغلب على المولدين .
وافتخر بنصره وامتداد سلطانه وبقومه قيس في قصيدة طويلة أولها :

حَرِمَ الغواني يا هُنَيْدُ مَوَدَّتي إذ شابَ مَفْرِقُ لِمَّتي وَقَذالي

ثم وجّه سوار همّته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم في وقعة المدينة ، وكان صاحبه سعيد بن جوديّ أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك الانتصار فقال :

يقولُ بنو الحمراء لو أنّ جُنْحَنا يطيرُ لغشّاكُمْ بشؤبوبِ وابلِ

وفيها يصف انهزام المولدين بقوله :

ولمّا رَأَوْنا زاحفينَ إليهمُ تولَّوْا سِراعاً خوفَ وَقْعِ المناصِلِ
فَصِرْنا إليهمْ والرِّماحُ تَنوشُهُمْ كوقعِ الصياصي تحتَ وَهْجِ القساطلِ
فلم يَبْقَ منهمْ غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ تَقادُ أسيراً موثقاً في السلاسلِ

ولسعيد قصائد أخرى في وصف تلك المعارك وفي مدح سوار . وكان للمولدين شاعرهم المحامي عنهم ويعرف بالعبلي ، واسمه عبد الرحمن بن أحمد وينسب إلى قرية عبلة ، ويناظره الشاعر الأسدي واسمه محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي . أسد بني خزيمة ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه ويصف ما يجري لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية ، ولهما في ذلك أشعار كثيرة ، فمن شعر العبلي يذكر أحد الانتصارات :

قَدِ انْقَصَفَتْ قناتُهُمُ وَذَلّوا وَزُعْزِعَ رُكْنُ عِزِّهِمُ الأذَلُّ

فأجابه الأسدي :

قد احْتَمَلَ الأحبّةُ واستقلّوا ... لطيّتهم بليلٍ واحزألّوا
فظلّ الدمعُ مِنْ جزَعٍ عليهمْ ... إذ احتملوا يَسيحُ ويَستَهِلُّ
سأصرفُ همّتي عَنْهُمْ وأسلو ... بهجوي مَعْشَراً كفروا وضلّوا

وقصيدة العلي ناقضها شاعر عربي آخر بقصيدة مطلعها :

لسوّارٍ على الأعداء سَيْفٌ ... أباد ذوى العداوةِ فاستقلوا

وتمخضت هذه العصبيات عن قصائد في التحريض والإثارة وقصائد في رثاء السادات الذين قتلوا في تلك الحروب ، وقد رثى الأسديّ سعيدَ ابن جوديّ أمير العرب بقصيدة منها :

لا ساغ الراحُ لي من كفّ ساقيها ... حتى تُقَرِّبَ نَفْسي مِنْ تَمَنّيها
وأن أرى الخيلَ تَرْدِي في أعنّتها ... بدارِ مَنْ كانَ قبلَ اليومِ يُرْضيها
يا قاسمَ بنَ عياصٍ دعوةٌ فَلَقَتْ ... صُمَّ الصخورِ فلم يُسْمَعْ مناديها
أبلغْ ربيعةَ والحيينِ مِنْ مُضَرٍ ... وآلَ عكّ إذا أحْلَلْتَ واديها
وآلَ سعدٍ فقد أضحت وليس لها ... راعٍ يحيطُ قَصاها بعد راعيها

ورثى سعيداً الشاعر مقدم بن معافى بقصيدة مطلعها :

مَنْ ذا الذي يُطْعِمُ أو يَكْسُو ... وقد حوَى حِلْفَ النَّدى رَمْسُ

وهذا الشعر مؤسس على القوة والجزالة . وهو يتميز بذلك عن كثير من ضروب الشعر الأندلسي لأن البداوة فيه أظهر .

(٤) وفي نقد الحكم القائم أو الإخفاق في الدور السياسي أو القيام بالمؤامرات في سبيل غايات فردية ، مثّل هذا الشعر الصراع بين الدولة من جهة وبين الناقمين عليها ، كما صوّر مدى الصراع بين الطامحين من الأفراد

للاستئثار بالمناصب العليا. وفي كل ذلك عبّر الشعر المتصل بهذه الأحداث عن آلام السجن - ونجد بين الذين تعرضوا لعقوبة السجن عدداً كبيراً من الشعراء لا لأنّهم كانوا دائماً في صفوف المعارضة ، وإنّما لأن الشاعر كان في الوقت نفسه شخصية سياسيه . يصيبه ما يصيب رجل السياسة عند تقلب الأوضاع واصطدام المطامع المتباينة ، واضطراب حبال الأهواء من حال إلى حال في فترات متقاربة . والأمثلة على ذلك كثيرة . وسندرس جانباً منها عند الحديث عن شعراء عانوا آلام السجن مثل الغزال والرمادي والطليق . ونورد هنا أمثلة أخرى على سبيل التوضيح لا الحصر : فقد حُبس الوزير هاشم بن عبد العزيز لأشياء حقدها عليه المنذر بن محمد بعد أن كان هو الحاجب المقدم في زمان الأمير محمد ثم أُخرج من سجنه وضرب ، وهدمت داره وقتل، ومن شعره، وكتب به من محبسه إلى جاريته عاج :

وأنّي عَداني أنْ أزورَكِ مُطْبَقٌ — وبابٌ منيعٌ بالحديدِ مُضَبَّبُ
فإن تعجبي يا عاجُ ممّـا أصابَني — ففي ريبِ هذا الدهر ما يتعجب
وفي النفسِ أشياء أبيتُ بغمّها — كأنّي على جَمْرِ الغَضا أتَقَلّبُ
تركتُ رشادَ الأمر إذ كنتُ قادراً — عليه فلاقيتُ الذي كنتُ أرهب
وكم قائلٍ قال انجُ ويحكَ سالماً — ففي الأرضِ عنهم مُسْتَرادٌ ومذهب
فقلتُ له : إنَّ الفرارَ مَذَلّةٌ — ونفسي على الأسواء أحلى وأطيب
سأرضى بحكم الله فيما يَنوبُني — وما مِنْ قضاء الله للمرء مهرب
فمن يكُ مسروراً بحـالي فإنّه — سينهلُ في كأسي وشيكاً ويشرب

وسجن أحمد بن محمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق لكلمة عامية نطق بها نقلت عنه وأقام في السجن بجيان أعواماً سبعة أو أزيد منها، وكانت له أشعار ورسائل في محبسه إلى الحكم إلاّ أنها لم تكن تصل إليه، فلمّا توفّي

الحكم أُطلق من سجنه . وكان أهل الطلب يدخلون إليه في السجن ويقرأون عليه اللغة وغيرها . ولم تصلنا أشعاره ورسائله أو شيء منها[1] . على أن أشد الناس خَوَراً عندما سجن ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، الذي أذلّه ابن أبي عامر ، ورماه بالمطبق لمنافسة بينهما . وأحداثه مشهورة مشروحة في كتب التاريخ[2] وقد استشفع كثيراً فلم ينل شفاعة . من قوله يخاطب المنصور بن أبي عامر :

عفا اللهُ عنكَ ألا رحمةٌ　　تجودُ بعَفْوِكَ إن أبْعَدا
لئنْ جلَّ ذنبٌ ولم أعتمدْهُ　　فأنت أجَلُّ وأعلى يَدا
ألمْ تَرَ عبداً عدَا طَوْرَهُ　　و ... عما ورشيداً هدى
أقِلْني أقالَكَ منْ لم يزَلْ　　يقيكَ ويصرفُ عنكَ الرّدى

وله أشعار كثيرة تتقلّب بين اليأس والأمل ، ومن قوله في ذلك :

صبرتُ على الأيام لما تولّتِ　　وألزمتُ نفسي صبْرَها فاستمرَّتِ
فيا عجباً للقلبِ كيف اصطبارُهُ　　وللنفسِ بعد العزّ كيف استذلّتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتى　　فإن طمعتْ تاقتْ وإلا تسلّتِ
وكانتْ على الأيامِ نفسي عزيزةً　　فلمّا رأتْ صبري على الذلّ ذلّتِ
وقلت لها يا نفسُ موتي كريمةً　　فقد كانتِ الدنيا لنا ثم ولّتِ

وحبس عبد الملك بن إدريس الجزيري الكاتب الشاعر ، ومن مشهور ما صدر عنه وهو في السجن قصيدة له في الآداب والسنّة ، كتب بها إلى

١ الصلة : ١١
٢ انظر ابن عذارى ٢ : ٣٩٩ وما بعدها ، والحلة : ١٢٣

بنيه (أو إلى ابنه عبد الرحمن)[1]، مطلعها :

ألْوى بعزمِ تَجلّدي وتَصَبّري ... نأيُ الأحبّةِ واعتيادُ تَذكّري

ويذكر فيها كيف فقد صبره، وذهب سروره وتلذذه بالعيش، ويتشوق إلى ابنه الأصغر، ويتذكر ساعة فراقه فيقول :

عجباً لقلبي يوم راعَتْنا النّوَى ... ودنا وداعُك كيف لمَ يتَفَطّرِ
ما خِلتُني أبقى خلافَكَ ساعةً ... لولا السكونُ إلى أخيك الأكبرِ

ومنها في النصائح والأمور التعليمية :

واعلم بأنّ العلمَ أرفعُ رتبةٍ ... وأجلُّ مكتسبٍ وأسنى مَفْخَرِ
فاسلكْ سبيلَ المقتنين له تَسُدْ ... إن السيادةَ تُقْتَنَى بالدفترِ
والعالم المدعوُّ حبراً إنّما ... سمّاه باسم الحبر حمْل المحبر
والعلمُ ليس بنافعٍ أربابَهُ ... ما لم يُفِدْ عَملاً وحسن تصَبُّر

ومنها أيضاً :

واخزنْ لسانَكَ واحترسْ من نطْقه ... واحذرْ بوادرَ غيّه ثم احذرِ
واصفحْ عن العوراء إن قيلتْ وعُدْ ... بالحلمِ منك على السفيه المُعْوِرِ
وَكِلِ المسيء إلى إساءتِه ولا ... تَتَعَقّبِ الباغي ببغيٍ، تُنْصَر
وإذا سُئلتَ فجُدْ وإن قلّ الجَدَا ... جُهْدُ المقلّ إزاء جُهْدِ المكثر

وإنّما أعرض هذه الأمثلة لأنها تدل على الجوانب التي أيقظها السجن ......

[1] انظر الجذوة : ٢٦١ ، ويتيمة الدهر ١ . ٤٣٧ . وقد وجدت هذه القصيدة إقبالا كثيراً من الأندلسيين وميزها بعضهم بأنها من مروياته . انظر التكملة : ٢٣١ وفهرسة ابن خير : ٤١٠

في حياة الشعر الأندلسي. فإلى جانب الحزن العميق ، والتشوق إلى الانطلاق ، والبكاء على الحياة ، نجد تعميق المشاعر بالحياة وقيمتها مع شيء من نغمه زهدية ، وفلسفة مستمدة من القلق والحيرة . وأثارة من الحكمة التعليمية كالذي نراه في قصيدة الجزيري ، وقد نجد أن الصبر أقوى من الثورة في هذا الشعر ، وأن الاستشفاع المتذلل أشيع من العزيمة العزيزة ، وأن الجزع من الموت أقوى من القدرة على استقباله ، وكل هذا يشير إلى صورة حزينة قلقة باكية .

(٥) أمّا في مواكبة الشعر للمقامات الكبرى في المواسم والأعياد وأيام استقبال الوفود فيكفينا إيراد مثل واحد على ذلك من عهد الحكم المستنصر ، وذلك في عيد الفطر سنة ٣٦٣ ، ويطنب المؤرخ ابن حيان [1] في وصف الترتيب الرسميّ الذي كان يجري في مثل هذه المناسبة ، وفي تصوير الإذن لمختلف الناس بحسب منازلهم للتسليم على الخليفة ثم يقول : « وقامت خلاله الخطباء والشعراء مرتجلين منشدين فأكثروا وأطالوا وأجادوا ، فكان من أحسن ما أنشد به الشعراء يومئذ قول مقدمهم طاهر بن محمد البغدادي المعروف بالمهند » [2] وهذا الشاعر هاجر إلى قرطبة من بغداد فوصلها بعد دخول القالي لها بحوالي عشر سنين (حوالي ٣٤٠) وكان عمره يومئذ يناهز الخامسة والعشرين ، وقد انقطع لمدح المستنصر وتقدّم عنده حتى إن ابن حيان يسميه شيخ الشعراء ، وكسب كثيراً من المال بمدائحه غير أنّه تزهد في آخر عمره وأنشأ شعراً ورسائل في معاني الزهد على مذهب المتصوفة واعتزل حياة المدينة وأخذ يلازم ضيعة له (توفّي في عهد المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٠) [3] ؛ وفي ذلك اليوم المشهود قام

١ انظر المقتبس : ١٥٥ وما بعدها (ط بيروت) .
٢ المقتبس : ١٥٦
٣ انظر الجذوة : ٢٢٩ والبغية رقم ٨٥٩ وابن الفرضي ١ ٢٤٥

ينشد قصيدة تلمح فيها معارضة لأبي العتاهية في مدح الرشيد ، يقول فيها :

تَولى الخِلافةَ في عَصْرها ... فأحسن تَقْواه إكمالها
وكانت ديانتهُ زينها ... وأيامه الزهر أشكالها
فلو رفعت خطّة فوقَها ... لما كانَ يصلح إلا لها
وما صفة حسنت في الهدى ... من الذكر إلا وقد نالها
فهنّأه اللهُ أعياده ... وبلّغه الله أمثالها

وهي قصيدة طويلة ؛ ثم قام بعده رسيله محمد بن شخيص منشداً شعراً له مطولاً أنحى فيه على بني حسن[1] الموقومين بقهر الخليفة لهم فأسرف في ذلك . وأول شعره :

أتم شعبان ما أبدا به رجبُ ... من قبل ما كانت الآمال ترتقبُ

ومنها يعرض بحسن بن قنون :

أشابةٌ تدعي في هاشم نسباً ... وما يصحّ لها في معشر نسبُ
عُمي البصائر لم يَسلس معاطفَها ... إلى مساعي التقى دين ولا حسب
ورادها في عماها أن أولها ... ألقى العصا حيث لا علمٌ ولا أدب

ثم قام بعده عبد العزيز بن حسين القروي فأطال أيضاً في ذكر حسن بن قنون ، ومن قصيدته :

لقد طلعت بالغرب شمسُ خلافة ... أضاء لها في المشرقين شروقُ
فتلك الشآم استشرفت لورودها ... وكانت لها قدماً عليه حقوق

[1] كان حسن بن قنون الحسني من الثائرين في هذه الفترة في المغرب ضد الدولة الأموية بالأندلس ، وقد وجه له الحكم المستنصر جيوشاً كثيرة حتى استطاع القضاء على حركته

ليجلوَ عنها ظلمة الكفر بالهدى   إمام على الدين الحنيف شفيق
أطلتْ على أهلِ العراقِ ومن بها   مذاهبُ فيهنّ الضلالُ عريق

وتلاه عبد القدوس بن عبد الوهاب بقصيدة أولها :

يا عصمةَ الدين والدّنيا وحافظها   وواحداً في التقى والمجد والكرم
قرت عيون بني الإسلام إذ سخت   بوقع بأسكَ عينا جاحد النعم

وقام ابن مجاهد الاستجي الشاعر منشداً تهنئه الخليفة بالظفر بحسن بن قنون في أرجوزة منها :

لمّا رأيت السعدَ قَدْ توالى   وعزَّ دين الله قد تعالى
وراق ملك الحكم اقتبالا   واعتدل الدين به اعتدالا
وعادَ صفوُ شُربهِ زُلالا   وانثال صنع البارىء انثيالا . . .

وهذا منظر نموذجيّ في تصوير تلك المواقف : فهؤلاء خمسة شعراء في نسق يهنئون الخليفة بالعيد ويشيدون بانتصاره على حسن بن قنون . ويتفننون في هجاء ذلك الثائر والشماتة به . بل إن بعضهم يحاول أن يخرجه من الانتساب إلى الحسنيين . ويذهب البعض مذهب العصبية المطلقة لهذه الخلافة الأندلسية فهو يعتبرها قضيته الكبرى ، ويرى أن هذه الخلافة المباركة ستنقذ الشام ، وتجلو ظلمة الضلال التي رانت على العراق ، وكلهم يحاول أن يشعرنا بأنّه لا يمدح ابتغاء رزق أو جائزة وإنّما هو نصير قضية مقدّسة ، وأن شعره إنّما ينبع من شدة ولائه لخليفة حريّ بالخلافة قادر على القيام بأعبائها في سبيل المسلمين وخيرهم ومصلحتهم الكبرى . كانوا جميعاً يشتركون في صنع التاريخ ولهذا فربما كانت الحاجة المادية هي أضعف الحوافزُ في إثارة ذلك الشعر الذي رافق حركات الغزو الخارجي والقضاء على الفتن الداخلية وشهد مجد الخلافة

وتزاحم الوفود على بابها طلباً لرصاها .

وهذا الإحساس بالتاريخ هو الذي حفز يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال على أن ينظم في فتح الأندلس أرجوزة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الأمراء عليها وأسماءهم[1] ، ولتمام بن عامر الثقفي أرجوزة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم[2]. ونظم ابن عبد ربه أرجوزة في غزوات الإمام عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠١ — ٣٢٢[3] وهي مدرجة في كتاب العقد ؛ وذلك كلّه يضاف إلى الشعور « بالأندلسية » ومحاولة تخليد كلّ ما يتصل بالجزيرة من أخبار ومآثر .

غير أن الحياة السياسية على تعدد جنباتها لم تستطع أن تستغرق جميع جهود الشعر الأندلسي ، بل ظلّ ذلك الشعر ذا علاقة وثيقة طبيعية بجوانب الحياة الأخرى كالتغني بالطبيعة والخمر والحبّ أو السخرية من أوضاع الناس والحياة أو التزهيد فيها وغير ذلك من شئون .

وقد كان الارتياح إلى الطبيعة ، من الموضوعات الكبرى التي سيطرت على الشعر في هذه الفترة ، ومن الخطإ أن ننظر فحسب في هذا الموضوع إلى شعر المشهورين فيه كابن خفاجة من بعد ، فإن شيوعه في الفترة الأموية ، يكاد يجعله أقرب أنواع الشعر إلى نفوس الأندلسيين ، ومعرضه كتاب الحدائق لابن فرج ، وكتاب البديع في فصل الربيع لحبيب ، والارتياح بوصف الراح لابن مسلمة ، وكتاب التشبيهات لابن الكتاني ، وكتاب الفرائد

١ النفح ١ : ١٣٣ و ٢ : ٧٧٧
٢ الحلة السيراء : ٤١
٣ ابن عذاري ٢ : ٣٣٦

في التشبيهات لعلي بن الحسين القرطبي ، فهي حافلة بصور الطبيعة في الشعر الأندلسي ، وربما كان وصف الخمر والغناء أقل منزلة في هذا الشعر من وصف الطبيعة وبخاصة وصف الربيع عامة . والغيم والمطر والبرد والخمائل . والنواعير ، والأزهار جملة وتفصيلاً ، ومما أكثروا من وصفه أزهار الورد والبهار والياسمين والنيلوفر . وإذا ميزنا هذا النوع من الشعر بالكثرة فليس معنى هذا أننا نميزه بالجودة ، فإن الغرام فيه « بالصورة » قد صرف الأندلسيين عن حب الموضوع نفسه . أما الصورة فيه فإنها شبيهة بأختها المشرقية في نواحي جمودها ، وحديثها عن الزهر الحي بالتشبيهات الجامدة المستمدة من الوشي والأحجار الكريمة وما أشبه ، من ذلك قول ابن النظام[1]

وقد بَدَتْ للبَهارِ ألْوِيَةٌ   تَعْبَقُ مِسْكاً طُلُوعُهاً عجَبُ
رؤوسُهــا فضّةٌ مُوَرَّقَــةٌ   تُشْرِقُ نوراً . عيونُها ذهَبُ
فهو أميرُ الرياضِ حَفَّ بهِ   من سائرِ النَّوْرِ عَسْكرٌ لجِبُ

أو كقول ابن القوطية[2] :

وكأنّما الروضُ الأنيقُ وقد بدتْ   متلونــاتٍ غَضَّــةً أنوارُهُ
بيضاً وصُفراً فاقعاتٍ ، صائغٌ   لم ينأ دِرْهَمُهُ ولا دينارُهُ
سَبَكَ الحميلةَ عسجداً ووذيلةً   لمّا غَدَتْ شمسَ الظّهيرةِ نارُهُ

وربما أدى الشعف بالصورة لديهم إلى استخراج صُوَرٍ غريبة ، كقول المصحفيّ في وصف سوسنة[3] :

١ الجذوة ٠ ٢٦٧
٢ الجذوة ٣٦٩
٣ الحلة . ١٢٤

يا رُبَّ سوسنةٍ قد بتُّ ألْثُمُها   وما لها غيرُ طَعْمِ المِسكِ من ريق
مصفرّةُ الوَسْطِ مبيَضّ جوانبُها   كأنها عاشقٌ في حِجْرِ مَعْشُوق

وقد تضرب بعض الأشعار بسهمٍ في الحيويه كقول ابن حصن في النيلوفر [١] :

كلّما أقبلَ الظّلامُ عليه   غَمّضَتْ أنجمُ السما عَيْنَيْهِ
فإذا عادَ للصباحِ ضياء   عادَ روحُ الحياةِ مِنْهُ إليهِ

وتزداد هذه الحيوية كلما اتصلت بفكرة زوال الورد سريعاً ، لاتصال ذلك بفكرة زوال الربيع وانتهاء اللذائذ ، من ذلك قول الوزير أبي عثمان ابن إدريس [٢] :

أقام كرَجْعِ الطرفِ لم يَشْفِ غُلّة   ولم يرْوِ مشتاقَ الجوانحِ شائِقُهْ
فما كان إلا الطيفَ زار مُسلّماً   فَسُرَّ ملاقيه وسيء مُفارِقُهْ
على الوردِ من إلف التصابي تحيّةٌ   وإن صرَمَتْ إلفَ التصابي علائقُهْ

وإذا اختلط الحديث عن الطبيعة ببعض المشاعر الإنسانية الأحرى وتوفرت له نغمة توحي بالانفعال لم يكن حظّه من الحيوية ضئيلاً ، وذلك كقول ابن هذيل يصف تعانق قضبان الرياض عند هبوب الرياح [٣] :

هبّتْ لنا ريحُ الصَّبا فتَعانَقَتْ   فذكرت جيدكَ في العِناقِ وجيدي
وإذا تألّف في أعاليها النّدى   مالَتْ بأعْناقٍ ولطفِ قدود

١ الجذوة : ٣٧١
٢ الجذوة . ٢٥١
٣ كتاب التشبيهات : ٤٤

وإذا التقَتْ بالريح لم تبصر بهـــا   إلاّ خُدوداً تلتقي بخُدود
فكأنَّ عذرةَ بيتها تحكي لَنا   صفةَ الخُضوعِ وحالَةَ المعمود
تيجانهـــا طلٌ وفي أعْناقِهـــا   منهُ نِظامُ قلائدٍ وعقود
فترشَّني منهُ الصَّبا فكأنّــهُ   مِنْ ماء وردٍ لَيْسَ للتصعيد

وقد يستعيضون عن طلب الاستطراف في الصور بتصوير المبالغة في حبّ الزهور كقول أحدهم[1] :

صاحبي إن كنت ترغبُ حَجّاً   طُفْ بعرشِ الياسمين مَلِيّا
واستلمْ أركانَهُ فهو حجٌّ   ليس يُخْطيهِ القبولُ لديّا

أو كقول آخر في وصف الياسمين ومبلغ حبه له :

ولو سَقَيْتُهُ من ماء وَجْهي   لما وَفَيْتُهُ مـــا يَسْتَحِقُّ

ولا يخطىء الناظر في هذا الفن كيف أكثر الأندلسيون من وصف الطبيعة في مقدمات قصائدهم مستعيضين به عن الغزل . وكيف أنّ إعلاءهم من شأنِ الوردِ بين الأزهار يَلْفت النظر حقاً . ومن ذلك قول الرمادي :

لـــلآس والسوسان واليـــاسمين   الغضّ والخيريِّ فضلٌ شَديدْ
سادت بهِ الأرض ومن بينهـــا   وبين فضل الورد بون بعيدْ
هل لك في الآسِ سوى شمة   تطرحه من بعدها في الوقودْ

وبعد أن يعدد الشاعر مساوىء كل زهر يختم بالفوز للورد قائلاً :

فالورد مولى الروضِ لكنّهُ   في قدره عبدٌ لورد الخدود

[1] الحدوه · ٣٦٣

والسبب في هذا الموقف أن شعراء الأندلس تأثروا في وصف الطبيعة — وفي الحديث عن الأزهار خاصة — بموقف ابن الرومي الذي افتتح باب المناظرة بين أنواع الأزهار . واستغل القضايا المنطقية في تحقيق المفاضلة بينها . وكان ابن الرومي يفضل النرجس على الورد فعارضه الشعراء الأندلسيون وأكثروا من القصائد التي يفضلون بها الورد على بقية الأزهار ، من ذلك قول أحد شعرائهم[1] :

تعاير السوسان والجُلَّنارْ ... والأقحوانُ الغَضُّ بينَ البهار
مبتسماً ذاك وذا مُوضِحاً ... عن حُسنِ توريد بدا واستتار
واستحكم الوردُ ببرهانه ... وانتحلَ الفضلَ معاً والفخار

ولسعيد بن محمد بن فرج أخي صاحب الحدائق قصيدة طويله يرد فيها على ابن الرومي في تفضيله النرجس جاء فيها[2] :

عنّي إليكَ فما القياسُ الفاسدُ ... إلا الذي ردَّ العيانُ الشّاهدُ
أزعَمْتَ أنَّ الوردَ من تفضيله ... خَجِلٌ وناحلُهُ الفضيلةَ عاند
إن كان يَسْتَحْيي لفضْلِ جماله ... فحياؤهُ فيهِ جمالٌ زائد
والنرجسُ المصفرُّ أعظمُ ريبةً ... من أنْ يحولَ عليه لونٌ واحد
لَبِسَ البياضَ بصفرةٍ في وجهه ... صفةٌ كما وُصِفَ الحزينُ الفاقد

وقد برزت روح المفاضلة والمناظرة بين الأزهار عندما شجع المظفر الشعراء على الإكثار من القول في أنواعها المختلفة ليطرح أشعارهم فيها للغناء ؛ فمن قول صاعد البغدادي يفاضل بين البهار والنرجس[3] :

١ الجذوة : ٣٦٣ .
٢ الجذوة ٢١٢
٣ ابن عذاري ٣ : ١٩

جُمِّلَ الفضيلةِ للبهارِ بسَبْقِه ولطالما خلَفَ البهارَ النرجسُ
أربى عليهِ طيبُهُ ونسيمُهُ لكنَّه عن نَشْرِه يتنفّسُ
كالحاجبِ الميمون شُبّهَ في العلا بأبيه لكنْ فعْلُ هذا أنفَسُ

ومن طريف الأمور أن المنصور كان قد سمى بناته بأسماء الزهور ، فنظم الشعراء في وصف الأزهار قصائد تبين فضيلة كل نوع منها . وهم في هذا يحكون خصائص بنات المنصور نفسه[1] .

ومن أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محركاً في وصف الطبيعة الأندلسية ، وأنموذجاً للأندلسيين في هذا المقام . وبخاصة قصيدته التي يصف فيها الربيع ومطلعها :

رَقّتْ حواشي الدهرِ فهي تَمَرْمَرُ وغدا الثرى في حَلْيِه يتكسّرُ

من ذلك قول أبي بكر ابن نصر الكاتب[2] :

انظرْ نسيمَ الزّهر رَقّ فوجهُهُ لك عن أسِرّتِه النّديّةِ يَسْفِرُ
خَضِلٌ بريعانِ الربيعِ وقد غدا للعينِ وهو من النضارةِ منظرُ
وكأنّما تلكَ الرياضُ عرائسٌ ملبوسُهُنّ مُعَصْفَرٌ ومُزَعْفَرُ
أو كالقيانِ لَبِسْنَ مَوْشيَّ الحُلى فلهنّ من وشْي اللباسِ تبخترُ

فالمشاركة ليست في المعارضة وحسب وانما هي أيضاً في جزئيات القصيدة كقوله « وقد غدا للعين وهو من النضارة منظر » فإنما هو ناظر فيه إلى قول أبي تمام :

١ الذخيرة ٤ / ١ : ٣٢ ، ٣٣ والنفح ٢ : ١٠٢٤
٢ الجذوة ٣٦٩

دُنيا معاشٍ للوَرَى حتّى إذا   جُلِـيَ الربيعُ فإنما هي منظر

وشتان بين ما ذهب إليه أبو تمام من فهم لطبيعة الحياة وترجح الإنسان بين العمل والمتعة ، وبين وصف الشاعر للربيع بأنه مظر . وكذلك تشبيهه الرياض بعرائسَ ذوات ملبوس معصفر أو مزعفر ، يذكر بقول أبي تمام :

مُصْفَرَّةٌ مُحْمَرَّةٌ فكأنّها   عُصَبٌ تَيَمَّنُ في الوغى وتَمضَّرُ

وكلام الشاعر الأندلسي أرق ، وصورة أبي تمام أغربُ .

ولابن قلبيل البجاني أبيات يعارض بها قصيدة أبي تمام وهي[1] :

ضَحكَ الربيعُ برَوْضةٍ وسميةٍ   وافترَّ عن نَوْرٍ أنيقٍ يَزهَرُ
فكأنه زُهْرُ النجوم إذا بَدَتْ   وكأنّها في التُّرْبِ وَشْيٌ أخضرُ
وكأن عَرْفَ نسيمِها عند الصَّبا   عَرْفُ العبيرِ يفوح فيه العَنْبرُ

وممّا يضاف إلى وصف الطبيعة اهتمامهم بوصف المباني والقصور الجميلة من مثل الزهراء والزاهرة ، وما يلحق بها من بساتين ومن تماثيل على هيئة الأسود تقذف الماء من أفواهها إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائفها ، فمن ذلك قول ابن هذيل يصف صفوف أشجار الصفصاف في أحد المصانع التي كانت للمنصور بن أبي عامر :

وكأن صف وصائف برزت إلى الـ   منصور عن كلل من الصفصاف
قامت إليكَ كأنّما أعناقُها   أعناق نافرة من الأخشاف
ريح الصَّبا منْ روحها فغُصونها   حركات أيدٍ بالسّلام لطاف

١ الجذوة : ٣٦٦

وتعلّقتْ أوراقها وتدافعَتْ إن السوالف ملعب الأسياف
عرضت عليكَ زمرداً وتحولت فأرتك لوناً كاللجين الصافي

ومن ذلك قول محمد بن شخيص يصف الزهراء :

فاتَتْ محاسنُها مجهودَ واصفها فالقولُ كالسّكْت والإيجازُ كالخطل
بلْ فضلها في مباني الأرض أجمعها كفضل دولة بانيها على الدول
كادتْ قسيّ الحنايا أن تضارعهـا أهلّة السعد لولا وصمةُ الأفل
تألّقَتْ فغَدا نُقصانهـا كمـلاً وربما تنقص الأشياء بالكمل
كم عاشقين من الأطيار ما فتئا فيها يرودان من روضٍ إلى غلل

ومثل ذلك أيضاً الحال في وصف الخمر ، إلا أن هذا الموضوع أدق من سابقه وأبين حدوداً ، وبخاصة وأنّه عند أبي نواس زعيم هذا الفن ينقسم من حيث شكله في صورتين : الوصف للخمر وما يتصل بها ، وقصة المغامرة مع الندمان في زيارة الحان ، وفي الأول من هذين القسمين يستأثر أبو نواس بمعان وتوليدات إذا اقتبسها غيره أعلنت عن نفسها ، كقول الشريف الطليق[1] :

رُبَّ كاسٍ قد كسَتْ جُنْحَ الدُّجى ثَوْبَ بُردٍ مِنْ سَناها يقَقا
قـام يَسْقيها رشاً في جَفْنِه سِنَةٌ تورثُ عيـني أرَقا
أشْرَقَتْ في ناصعٍ مِنْ كفّهِ كَشُعاعِ الشّمسِ وافى الفلَقا
خفيَتْ للعَينِ حتّى خِلْتُها تتّقي مِنْ لحظه ما يُتّقى
أصبحتْ شمْساً وفوهُ مَغْرِبـاً ويدُ الساقي المُحيّي مَشْرِقا
فإذا مـا غَرَبَتْ في فَمِهِ تركتْ في الخدّ منه شَفَقا

. . .

[1] اليتيمة ١ : ٤٠٢

فإن نورانية هذه الخمر . وسرّيّة « روحانيتها » التي خفيت وهي ظاهرة ، ثم هذه الصورة التي تجعل منها شمساً تغرب في الفم بعد أن تطلع من المشرق — الذي هو يد الساقي — لا تزال تستمد من شعر أبي نواس الشيء الكثير

وأبْيَنُ من هذا حكمنا على قصة المغامرة في الحانات . فهذا اتجاه نواسي لا ينازع فيه صاحبَه متقدم عليه ، فإذا قرأنا قصيدة يحيى الغزال[1]

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أكدَتْ سماؤهمْ　　تأبطتُ زِقّي واحتسبْتُ عَنائي
فلمّا أتيتُ الحانَ ناديتُ ربّــهُ　　فهبَّ خفيفُ الرُّوح نَحْوَ نِدائي
قليلُ هجوعِ العَيْنِ إلا تَعِلّةً　　على وَجَلٍ منّي ومن نُظَرائي
فقلتُ أذِقْنيهــا فلمّا أذاقَني　　طرَحْتُ إليه رَيْطَتَي ورِدائي
وقلتُ أعِرْني بِذْلةً أسْتَتِرْ بهــا　　بذَلْتُ له فيها طلاقَ نسائي
فوالله ما بَرَّت يميني ولا وَفَتْ　　لهُ غيرَ أنّي ضامنٌ بوفائي
وأبْتُ إلى صحبي ولم أكُ آيباً　　فكــلٌّ يُفدّيني وحُقَّ فِــدائي

وجدنا محاكاةً متعمدة لأبي نواس . وان لم تقلل هذه المحاكاة من إجادة يحيى الغزال وتفرده ببعض الجزئيات .

وافتتان الأندلسيين بأبي نواس قد يقوّي القول بعمق أثره في الشعر الأندلسي ، فقد رأينا كيف أن رواياتهم تنسب إلى عباس بن ناصح الرحلة للمشرق من أجل أن يلقاه حين سمع بنجومه . وهذا هو الغزال يحاكيه ، ويرى الأندلسيون في محاكاته شيئاً لا يقل مستواه عن شعر أبي نواس ، ومن الحكايات الدالة على افتتانهم به ، قول ابن شبلاق الإشبيلي : رأيت في النوم كأني في مقبرة ذات أزاهير ونواوير ، وفيها قبر حواليه الريحان الكثير ، وقوم

[1] المطرب : ١٣٨ والجذوة : ٢١٢ والريحان والريعان : ١٥٥

يشربون فكنت أقول لهم : والله ما زجرتكم الموعظة ولا وقرتم المقبرة ، قال : فكانوا يقولون لي : أوَما تعرف قبر من هو ؟ فكنت أقول لهم : لا . قال : فقالوا لي هذا قبر أبي علي الحكمي الحسن بن هانىء . قال : فكنت أولّي ، فيقولون والله لا تبرح أو ترثيه ، قال : فكنت أقول .

جادكَ يا قبرُ نَشاصُ الغَمامْ وعاد بالعفوِ عليكَ السلامْ
ففيكَ أضحى الظّرْفُ مُستَوْدَعاً واستترتْ عنّا عيونُ الكلامْ[1]

فاستعاروا بعض معانيه في الغزل بالمذكّر وفي وصف الخمر ، فمن المعاني التي اقتبسوها : ان الكأس تكون ثقيلة فإذا صبت فيها الخمر خفّتْ . قال إدريس بن اليمان[2] :

ثَقُلَتْ زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغاً حتى إذا مُلِئتْ بصَرْفِ الرّاح
خَفّتْ فكادتْ أن تطيرَ بما حوَتْ إن الجسومَ تَخِفُّ بالأرواح

ومنها قول آخر في وصف كأس[3] :

هواء صِيغَ مِنْ ضدّ الهواء وشكلٌ ماثلٌ في شَكْلِ ماء
إذا عايَنْتَهُ ملآنَ أخفى عليك إناؤهُ مـا في الإناء
وإن مُزِجَتْ به كأسٌ تَبَدّى كَنُور الشمسِ في ثوْبِ الهواء

وقد تصحّ لهم بعض صور فيها قسط من الجدة والابتكار كقول جعفر ابن عثمان المصحفي[4] :

. . .

١ الجذوة : ٢٥٥
٢ الجذوة : ١٦٠
٣ الجذوة : ٢٤٣
٤ كتاب التشبيهات . ٩٠

صفراء تطرقُ في الزجاج فإن سرت   في الجسم هبّتْ مثل صلّ لادغ

فإن اكتمال هذه الصورة بين إطراق الصل وانبعاثه وتشبيه الخمر به ، ليست من الصور التي نجدها في المشرق . ومن هذا القبيل قول الرمادي [1]

كأن الكوس إذ حثت بإثري   كواكب إثر شيطان رجيم

أما الحديث عن رقتها وقدمها ولونها وفعلها وهديرها . . . الخ ، فإنه كله متصل بما عرفه المشارقة ، وليس من فرق إلا في طرق التعبير عن المعنى الواحد ، وأكثر ما ينفرد به الشاعر الأندلسي لا يتعدى لمحة جزئية في الصورة .

أما شعر الزهد في الأندلس فقد ولد في أحضان الثورة على الحكم الربضي إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنون بها في الليل ويضمنونها التعريض به ، ثم أخذ هذا الأدب يقوى رداً على الحياة اللاهية في المدن أو انقياداً لداعي التقوى في النفس أيام الشيخوخة كما في زهديات الغزال وممحصات ابن عبد ربه وهي قصائد تكفيرية نظمها لينقض القصائد اللاهية التي قالها في أيام الشباب . ووجد من الأتقياء من تخصص في هذا النوع من الشعر مثل ابن أبي زمنين صاحب ديوان النصائح وقاسم بن نصير ، الذي ألف أيضاً كتابــاً في الشعراء من الفقهاء تكملة لهذا الاتجاه الذي كان قد انتهجه في شعره . وفي هذا الموضوع الزهدي نحسُّ بشخصية أبي العتاهية وأفكاره ونظراته في الحياة والموت ، ولكن هذا الموضوع مشترك بين أناس ينظرون إلى الحياة الدنيا من خلال نظرهم إلى الموت والحياة الخالدة . ومن العسير أن يحكم المرء بأن الأندلسيين استعاروا هذا الموضوع من أبي العتاهية أو اقتبسوا تماماً فنه الشعري ،

١ المصدر السابق : ٩٢

لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية وليست تجيء كلها اقتباساً ، ولكن أثر أبي العتاهية في تقوية النزعة والاتجاه الشعري لا يمكن إنكاره ، وإذا سمعنا الزبيدي يقول[1] :

لقَدْ فازَ المُوَفَّقُ للصَّوابِ وعاتبَ نَفْسَهُ قَبْلَ العِتابِ
وَمَنْ شَغَلَ الفؤادَ بحُبِّ مولى يُجازي بالجَزِيلِ مِنَ الثواب
فذاكَ يَنالُ عِزّاً لا كعِزٍّ من الدنيا يصيرُ إلى ذهاب
تفَكَّرْ في الممات فَعَنْ قريبٍ يُنادى بالرَّحيلِ إلى الحساب
وقَدِّمْ ما تُرَجِّي النفعَ منه لدارِ الخُلْدِ واعملْ بالكتاب
ولا تَغترَّ بالدنيا فعمّا قريبٍ سَوْفَ تؤذِنُ بالخراب

إذا سمعنا هذا الشعر وجدنا الموضوع والشكل قد اتفقا على النظر معاً إلى أبي العتاهية في مثل قوله :

لِدوا للموتِ وابْنوا للخرابِ فكلُّكمُ يَصيرُ إلى تَبابِ

وإذا راجعنا قول ابن أبي زمنين[2] :

أيها المرء إنّ دنياكَ بَحْرٌ طامحٌ مَوْجُهُ فلا تأمَنَنْها
وسبيلُ النجاةِ فيها مُبينٌ وهو أخْذُ الكفافِ والقوتِ منها

على أشعار أبي العتاهية أدركنا فرقاً بينهما ، وان اتفق الموضوع ، وهذا الفرق إنّما ينتج عن صورة الدنيا عند كليهما ، فأبو العتاهية يتصور الدنيا داراً أو ظلاً متقلصاً أو مرعىً أو سراباً وقلّما يتصورها بحراً في مثل قوله[3]

١ يتيمة الدهر ١ : ٤١٠
٢ المصدر السابق نفسه .
٣ ديوان أبي العتاهية ، ١٧١

كلٌّ أهْلِ الدنيا تعومُ على الغَفْلَةِ منها في غَمْرِ بَحْرٍ عَميقِ
يتبارَون في السّباحِ فَهُمْ مِنْ بينِ ناجٍ منهمْ وبَيْنَ غريقِ

فالصورة التي يرسمها ابن أبي زمنين للدنيا أقرب إلى أن تكون صورة أندلسية أصيلة من تلك الصور التي عرضها لنا الزبيدي في زهديته السابقة .

ويقابل هذا المظهر العابس الباكي ناحية فكهة ضاحكة ولكنها أضعف ظهوراً وتميزاً وإن قال صاحب النفح : « ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم وأجوبة بديهية مسكتة والظرف فيهمْ والأدب كالغريزة »[1] ، وقد يكون في هذا الكلام عن الأندلس عامة قسط من الحق غير قليل ، إلاّ أنّنا نتحدث في هذه الفترة عن قرطبة ، ولم تشتهر قرطبة كثيراً بهذه الروح مثلما اشتهرت إشبيلية مثلاً[2] . وتشير النوادر الأندلسية إلى الحدة وشيء من البذاءة اللفظية وكثير منها يعتمد على أساس عملي حركي لا لفظي ، وهي تبلغ في حدّها منطقة الهجاء نفسه ، وكان يمزجها بالهجاء كل من القلفاط والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر ، وهم أظهر الشعراء ميلاً إلى الدعابة في هذا العصر . وكان القلفاط وهو أحد المعلمين ذا ولوع بالمؤدبين يعبث بهم ، وكان الغزال ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبث تفوتهما ، وكثيراً ما تكون ضحاياهما من القضاة أنفسهم ، غير أن النادرة المروية سرداً أقوى مما هي في الشعر . ومن أمثلتها أن ابن الشمر طرح ذات يوم بين سحيات القاضي يخامر الشعباني سحاءة مكتوباً فيها : يونس بن متى والمسيح بن مريم . فخرجت السحاءة إلى يخامر فأمر أن يدعى بهما إلى مسجد القضاء ، فهتف الهاتف : يونس بن متى والمسيح بن مريم ، فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشراط

١ النفح ٢ : ٨٧٦
٢ النفح ٢ : ٧٩١

الساعة ؛ ثم أخذ سحاءة وكتب فيها :

يخامرُ ما تنفكُّ تأتي بفضحة دعوتَ ابنَ متّى والمسيحَ بنَ مريما
قفاكَ قَفا ضربٍ ووجهك مُظْلِمٌ وعقلُكَ ما يَسْوَى من البَعْرِ درْهما
فـلا عشتَ مودوداً ولا عشتَ سالماً ولا مُتَّ مَعْفواً ولا متَّ مُسْلما [1]

ومن نوادر مؤمن بن سعيد مع قاض آخر يلقب « قبعة » أن رجلاً أتى إلى مؤمن وسأله أن يكتب له اسمه في رقعة . فسأله عن اسمه فقال «عقبة»، فاستولى حب النادرة على مؤمن وكتب : « قبعة » وأعطاها للرجل ، فقدمها هذا إلى القاضي . فجعل القاضي يقدّم غيرها من الرقاع ويؤخرها . فلمّا خفّ الناس نادى : مَنْ عقبة ؟ فجاءه الرجل . فقال له : من كتب اسمك ؟ فوصف له صفة مؤمن فقال له : لا تقعد إليه ثانية [2] .

ومن الحكايات المروية في مداعباتهم أن الناصر مازح وزيره لبّاً أبا القاسم وقال له : يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور ، فأبى ، فقال لابن جهور : فاهجه أنت ، فتوقى ، فبدأ الناصر يهجوه بقوله :

لبٌّ أبو القاسمِ ذو لحيةٍ طويلةٍ في طولها ميلُ

ثم طلب إلى ابن جهور أن يزيد فقال :

وعَرْضُها ميلان إنْ كُسِّرَت والعقلُ مأفونٌ ومَدْخولُ
لو أنّه احتاج إلى غَسْلها لم يكْفِهِ في غَسْلِها النيلُ

ثم قال الناصر للب : إنّه قد سبّب لك القولَ فقُلْ . فقال لب :

١ قضاة قرطبة : ٨٣
٢ المصدر السابق ٠ ١٠٣

قال أمينُ اللهِ في خَلْقِهِ   لي لحيةٌ أزرى بها الطولْ
وابن عميرٍ قال قولَ الذي   مأكوله القَرْطيلُ والفولْ
لولا حيائي من إمام الهُدى   نَخَسْتُ بالمِنْخَسِ شُوْ .

فلمّا بلغ إلى قوله شو سكت فقال الناصر : قولوا ، فأتمّ له على نحو ما أضمر ، فقال له : أنت هجوته يا مولاي[1] .

وتدل هذه الحكايات على توفر الروح الفكاهية والاستعداد النفسي لها ، ولكن يبدو أن التعبير الشعريّ عنها لم يكن دائماً موفقاً لأن الشعر سرعان ما ينزلق إلى منطقة الهجاء ، وبين الحين والحين تلقانا صور ضاحكة تشيع في جوانبها سخرية جميلة سواء أكانت لاذعة أو خفيفة ، فمن ذلك قول مؤمن ابن سعيد يحنّ إلى عهد المصيف[2] :

لهفي على أنف المصيف وطيبهِ   وحصائدٍ منسوجةٍ بالسّنبلِ
أيّامَ أقبل والسفا في لحيتي   فتخالها ذنب الحصان الأشعلِ

أو كقول مؤمن أيضاً[3] :

فَها أنا ذا قد جيت أحملُ لحية   إليك لها خطْبٌ وشأن من الشان
كأنّيَ تيسٌ قد تطاول عمره   وأفنى فنوناً من تيوس وجديان

ولعبد الله بن فرح قصيدة في طفيلي يدعى ابن الإمام ، ويسمي أتباعه الإماميين — كأنه صاحب مذهب — يقول فيها[4] :

١ ابن عذاري ٢ : ٣٣٩ — ٣٤٠ ، وانظر النفح ٢ : ٩٩٢ ففيه تخريج خاص لمعنى هذه النادرة .
٢ كتاب التشبيهات : ٢٧٨
٣ المصدر السابق : ٢٦٣
٤ المصدر السابق : ٢٥٦

فترى الإماميينَ حولَ ركابهِ   كالخيل صائمةً ليوم رهان

ويذكرنا هجاء عبد الله بن كليب لأنف الزهيري ، بصور ابن الرومي وذلك في قوله[1] :

أنفُكَ يا زهريُّ في قبحه   كأنه في صورة البوق
يقعد في البيت لحاجاتهِ   وأنفه يمضي إلى السوق

وربما كنا نتوقع أن يرحب الشعر صدراً بالثقافات الجديدة وأن يتأثر بها ، ولا ريب في أننا لا ندفع هذا التأثر وإن خفيت مواطنه ودقّت مساربه ، ولكن الذي يلفت النظر حقاً هو ثورة الشعر على الثقافات الجديدة، ومواجهتها بالغضب والاستنكار ، والسخرية منها ومن أصحابها. وفي هذا المظهر كان الشعر يمثل روح المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو ما كان حينئذ يعد ضرباً من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا واقليدس والمجسطي وعلم النجوم والفلسفة ، ويمثل ابن عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل فقد أعلن سخطه على الذين يقولون بكروية الأرض ، وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخيّة المختلفة ، فمن ذلك قوله يسخر بمسلم بن أحمد بن أبي عبيدة وأصحابه[2] :

والأرضُ كُرِّيّةٌ حفَّ السماء بها   فوقاً وتحتاً وصارتْ نُقْطَةً مثلا
صَيفُ الجنوب شتاء للشّمالِ بها   قد صارَ بَيْنَهُما هذا وذا دوَلا

وقال ابن عبد ربه أيضاً في مهاجمة المشتغلين بالفلك والحساب

١ المصدر السابق : ٢٦٠
٢ طبقات الأمم ٦٤ - ٦٥ (ط. السوعية).

أينَ الزِّيجُ والقانو نُ والأرْكَنْدُ والكَمّهْ
وأين السِّنْدُ هِند البُطْ لُ والجَدْوَلُ هل ثمّه
سوى الإفكِ على اللهِ تعالى مُنْشِرِ الرِّمّه
إذا كان أخو النجمِ يَرى الغيب بما ضمّه
إلى مَ يطلبُ الرزق طِلابَ العاجز الهِمّه
وهذي الأرضُ قد وارتْ كنوزاً عدةً جَمّه
فلا واللهِ ما للهِ خَلْقٌ يَحتوي عِلْمَه

ودخل ابن عبد ربه ذات يوم على الوزير جهور بن الضيف ، وكان القحط قد ألحَّ والغيث قد احتبس ، واغتمَّ الناس لذلك . وتحدث المنجمون بتأخر الغيث مدةً طويلة ، ومن هؤلاء ابن عذراء وأصحابه ، فقال ابن عبد ربه للوزير : هذا من أمور الله المغيبة ، ورجا الله أن يخلف حساب المنجمين ، فما كان إلا قليل حتى نزل الماء ليلاً ، فأفاق ابن عبد ربه وقرّبَ المصباح ودعا بالدواةِ والقلمِ وكتب للوزير :

ما قدَّرَ اللهُ هوَ الغالِبُ ليسَ الذي يَحْسِبُهُ الحاسِبُ
قد صدَّقَ اللهُ رجاء الوَرَى وما رجاء عَبْدِهِ خائب
وأنزلَ الغيثَ على راغبٍ رَحْمَتَه إذ قَنِطَ الراغب
قل لابن عَذْراء السخيفِ الحِجى زَرَى عليك الكوكب الثّاقب
ما يعلمُ الشاهدُ مِنْ حُكْمِنا كيْفَ بحُكمٍ حُكْمُهُ غائب
فَقُلْ لعبّاسٍ وأشياعِهِ كيف ترى ؟ قولُكُمُ الكاذب
خانَكُمُ كيوانُ في قَرْسِهِ وغرَّكُم في لوْنِهِ الكاتب
فكلُّكم يكذب في عِلمِهِ وكلُّكمْ في أصْلِهِ كاذب
ما انتمُ شيء ولا علمكُمْ قد ضَعُفَ المطلوبُ والطالب

تغالبونَ اللهَ في حُكْمِهِ واللهُ لا يَغْلِبُهُ غالب

ولم يفرد ابن عبد ربه بهذا الموقف من الثقافة الجديدة بل شاركه فيه غيره من الشعراء . وكان أكثر هجومهم موجهاً إلى علم النجوم ، فمن ذلك قول عيسى بن قرلمان :

لو كانَ عندَ النّجومِ السابحاتِ بما يَجْري على الخَلْقِ من أنبائهم خبرُ
لم يَحْتَلِلْ بِذُراهمْ ريبُ حادثة بل كان يُنجيهِمُ الإنذارُ والحَذَرُ
ما كان يَنْجِلُ منهم عالمٌ ولداً في ساعةٍ ما بها نَحْسٌ ولا كدَرُ

ويقول سعيد بن العاص المرادي :

مُسْتَحيلٌ أن تُدْرِكَ الأوْهامُ عِلْمَ غَيْبٍ تغيبُ عنه الأنامُ
كلُّ مَنْ قالَ إن للنجمِ حُكْماً لم يَجُزْ ، فاعلمن ، عليه السّلام
سَطّرَ الأولونَ فيهِ أساطيرَ ولم يُلْهَمُوا الرّشادَ فَهامُوا
إذ أرادوا بالسّند هندَ وبالأرْكَنْدِ والزيجِ رَوْمَ ما لا يُرام
خَبطوا في أمورها خَبْطَ عَشْوا حينَ ضَلّتْ في كُنْهِها الأوهام
ليس يقضي كيوانُ أمراً كما قالوا ولا المشتري ولا البَهْرام
إنّما الأمرُ للذي خَلَقَ الخَلْقَ وتمضي بعَزْمِهِ الأحكام[1]

ومن ناحية ثانية نرى التعمق في العلوم قد أوصل صاحبه إلى ساحل الإيمان ، وعن هذه الحقيقة تحدث سعيد بن عبد ربه (وهو ابن أخي صاحب العقد) فقال[2] :

١ هذه الأمثلة مستخرجة من كتاب بهجة المجالس لابن عبد البر ، مخطوطة دار الكتب المصرية .
٢ طبقات ابن جلجل : ١٠٥

أمن بعد غوصي في علوم الحقائقِ ... وطول انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته ... أُرى طالباً رزقاً إلى غيرِ رازقي
فأيّام عمر المرء متعةُ ساعةٍ ... تمرُّ سريعاً مثلَ لمعة بارق
وقد آذنت نفسي بتقويض رحلها ... وأعنفَ في سَوقي إلى الموت سائقي
وإنّي وإن بقّيتُ أو رغت هارباً ... من الموت في الآفاق ، فالموتُ لاحقي

قد رأينا فيما تقدم عدداً من المجالات التي خاضها الشعر الأندلسي وشيئاً من مظاهره الكبرى في النواحي السياسية على اختلاف اتجاهاتها وفي حياة السلم من وصف للطبيعة والخمر وزهد وسخرية وثورة على الثقافة الجديدة ، وكنا نلمح في أثناء ذلك شيئاً من الصلة بين هذا الشعر الأندلسي والشعر المشرقي ، وخاصة المحدث ؛ ونحن نذكر القارىء مرة أخرى بالأساس النظري الذي تقوم عليه هذه الدراسة وهو : أن الشعر الأندلسي تأخر ظهوره عن الشعر المشرقي عشرات السنين ، فلمّا ظهر كانت النماذج المشرقية أمامه هي « الشعر المحدث » ، وأن الأندلسيين أحسوا منذ البداية بأن المشرق قد أعطاهم مذهبين أو طريقتين : طريقة تلتزم أصولاً معينة تسمى « الشعر المحدث » وطريقة تختلف عن الأولى في كثير من مظاهر الصنعة خاصة وتسمى « طريقة العرب الأوائل » ؛ وقد عاشت الطريقتان معاً في الأندلس ، وكان وفود القالي من عوامل تقوية الاتجاه الثاني ، ولكن ظل انحياز الشعر الأندلسي إلى طريقة المحدثين أوضح وأقوى ؛ ومعنى ذلك أن هذه الدراسة تتردد في قبول قول الأستاذ غرسية غومس : « وكذلك المحدثون لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد ، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين »[1] ، فقد حاولت في الصفحات السابقة أن أرسم شيئاً من أثر المحدثين في توجيه الشعر الأندلسي .

١ الشعر الأندلسي : ٥٠ ، وبالنثيا : ٤٢

وعلينا أن نتذكر منذ البداية أن الأثر يمتد في اتجاهين ، أولهما أثر في الموضوع والثاني أثر في الشكل والطريقة الشعرية ، وليس من السهل أن يقال إن الشركة في الموضوع تدلُّ على تقليد أو محاكاة لأن مواد الحياة في طور حضاري ما قد تكون متشابهة وهي التي تصنع الموضوع الشعري ، ولكن حين نجد التشابه في الشكل والطريقة ، وحين تكثر المعارضة أو الردّ ، وحين تستغل الصور نفسها في الموضوع الواحد ، فحينئذٍ يمكننا القول بالتقليد والمحاكاة ، وقد عرضنا لنماذج يسيرة من تأثير أبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي ؛ ولكن أبا تمام كان أعمقهم أثراً في الشعر الأندلسي من حيث المبنى الشعري والشكل ؛ ومن تأمل الشعر الأندلسي في هذا العصر حق التأمل وجد مبدأ «حب الغرابة» أو الاستطراف هو الدافع القوي فيه ، ثم يجيء المبنى بعد ذلك شديد الاعتماد على المطابقة ورسم المتقابلات المتضادة ، وبلوغ درجة الإحالة في تصيد المعنى ومتفرعاته وظلاله ، والإغراب بالاستعارة ، وإن لم يكن هذا شائعاً كثيراً ، واستعارة النبت والماء في صور بعيدة عن حياة الطبيعة ، وهذه الأخيرة من أشيع الصور عند أبي تمام . ومنها في الشعر الأندلسي قول محمد بن أحمد بن قادم :

قفْ بربَع البِلى وربْعِ الهُمُومِ   واسفح الدمعَ فيه سَفْحَ الغيومِ
غيّرَتْ آيَـهُ صروفُ اللّيـالي   ومحاهـا الغمامُ مَحْوَ الرقيم
ساء ما اعتاضَ بالسّحائِب مِن   نبت المعـالي بمنبت القيصوم
فالأسى حينَ يُعْدَمُ الشيء مَحْمُو   لٌ على قَـدْرِ جوْهر المعلوم

فقوله «نبت المعالي» استعارة تمامية ، والبيت الأخير أحجية ذهنية كالأشياء التي يعرضها أبو تمام من هذا القبيل . وصورة واحدة هي «تعمم صلع هامات الرُّبى» ، قد أصبحت في هذا الشعر الأندلسي تدور دوراناً غير قليل

ولا يقتصر أثر ابن الرومي على المناظرات الشعرية بين الأزهار ، وانما نجد طريقته التحليلية في أخذ المعنى والدوران حوله واستيفائه حتى لا يبقى فيه بقية لغيره ، ومثل هذا واضح في قول أحمد بن محمد بن فرج[1] :

بنفسي مَنْ يَصُدُّ بغير ذَنْبِ سوى إدلاله ثقـةً بحبي
عجبتُ لقلبـه قاسٍ كجسمي ويحكي جسمُه في اللينِ قلبي
فهلاّ بالتشاكل كان قاسٍ لقاسٍ ، واغتدى رطبٌ لِرَطْب
وإن لمْ ينعطفْ باللينِ فظّ فقولي بالقساوةِ : قلبُ صبّ

وأضعف الشعراء تأثيراً في البيئة الأندلسية في هذا العصر هو المتنبي ، لشموخه في الطريقة الشعرية وفي حكمته الفلسفية ، ولذلك قلما نجد محاولات واضحة للحاق بها مثل بعض معارضات ابن دراج القسطلي لـه في قصيدته الرائية[2] :

لبّيـك أسْمِعْنا نِـداكَ ودونَنا نَوْء الكواكب مُخْوِياً أوْ ممطرا

وفيها نسج على منوال قصيدة أبي الطيب في مدح ابن العميد :

بادٍ هواكَ صَبَرْتَ أم لم تَصْبرا وبُكاكَ إن لم يجرِ دَمْعُكَ أو جرى

أما ابن المعتز فإن صوره المستمدة من الجواهر والأحجار الكريمة قد تغلغلت أكثر شيء في شعر الطبيعة الأندلسية ، ونكتفي منها – وهي كثيرة – بهذا المثل الذي لحظه الثعالبي ، وهو قول سعيد بن محمد بن العاص المرواني[3]

١ يتيمة الدهر ١ : ٣٦٨
٢ الذخيرة ١/١ : ٥٦
٣ يتيمة الدهر ١ : ٣٩٨

والبدرُ في حوّ السّماء قد انْطوى طرَفاهُ حتى عاد مثلَ الزّوْرَقِ
فتراهُ من نَحْبِ المُحاق كأنّهُ غَرِقَ الكثيرُ وبَعْضُهُ لم يَغْرَقِ

وانه مأخوذ من قول ابن المعتز

انظرْ إليه كزورقٍ من فضّةٍ قد أثقلتهُ حمولةٌ من عنْبرِ

وصورةُ الشاعر الأندلسي فيها زيادة لطيفة ، وهي أدق وأجمل موقعاً من صورة ابن المعتز .

فإذا تذكرنا أن هؤلاء ليسوا كل المحدثين وان أشعاراً كثيرة أخرى دخلت الأندلس وتأثر بها الأندلسيون فحاكوها أو تغنوا بها ملحنة أدركنا أن تأثير الشعر المحدث في الشعر الأندلسي لم يكن مظهراً عابراً أو قليلاً ، وإنّما كان عاملاً قوياً دافقاً يسوق في طريقه أموراً كثيرة كالسيل المندفع .

ويجب أن نقرّر هنا أن التقليد للمشرق كان أمراً طبيعياً بل يكاد يكون حتمياً لعدة أسباب منها :

(١) أن الأندلس مهما تحرز استقلالاً عن المشرق في سياستها ونظمها فإنها بنت المشرق ، ولم تنقطع صلتها الثقافية به في يوم من الأيام ، وقد ظلّت الرحلة العلمية إلى المشرق هي منبع العلم والعرفان ، فكيف إذا أضفت إلى ذلك تلك الرابطة الدينية القوية التي تجعل وفود الأندلسيين تستهين بكل المصاعب البرية والبحرية في سبيل أداء فريضة الحج .

(٢) أن الأندلس كانت بحاجة إلى المشرق لأنه أرقى حضارة وأحفل بأسباب التقدّم العمراني .

(٣) أما إذا نظرنا إلى الموروث الأدبي وجدنا أن موروث الأندلسيين الأدبي ـ وهم عرب أو ذوو ثقافة عربية ـ إنما هو شعر العرب وأدبهم منذ الجاهلية حتى أبي تمام ، وليس من الطبيعي أن يجد الأندلسيون أسباب ذلك

الموروث . لأنهم لا يحملون للمشرق إلا كل تقدير وإكبار . زد على ذلك أنه من العسير على الإنسان أن يطرح جانباً المؤثرات التي تلقاها في الشعر ووجهت نظرته وطريقته في التعبير .

(٤) أن الوسيلة التعبيرية عند الأندلسيين والمشارقة واحدة بكل ما فيها من مظاهر القدرة أو العجز ، والاتحاد في وسيلة التعبير يوحّد أو يقرب صور الشكل . كما أن الاتحاد في مواد الحضارة يوحّد الموضوع الشعري .

(٥) أن الشعر المحدث — من بين جميع الموروث الشعريّ العربي — أحبّ إلى الأندلسيين ، لأنه يعبر عن مرحلة حضارية يعيشونها ، بينا يمثل الشعر القديم (أو البدويّ) مرحلة لم يعرفوها ، ولهذا تناولوا النماذج الجاهزة من الشعر المحدث وصبوا على قوالبها .

ولكن خطأ الأندلسيين أنهم أسرفوا في التقليد حتى اضطر ابن بسام أن يقول في مقدمة الذخيرة : « إلاّ أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ؛ يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً : وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرّف فيها لسان ولا يد »[1].

وربقة التقليد خانقة تحوّل القابليات عن طريق الابتكار ، وتقلّل الأصالة ؛ والظن قوي أن الأندلسيين لو نظروا من خلال أنفسهم إلى شعر الطبيعة — مثلاً — لاستغنوا عن مناظرات ابن الرومي وتشبيهات ابن المعتز . وإذن لاستوحوا أيضاً بيئتهم لا أشعار أبي نواس في وصف الخمر ، وهلمّ جرّاً . على أننا نزيد الأمر بياناً ونقول : هب أن الأندلسيين لم يعمدوا إلى تقليد الشعر المشرقي فإن اشتراك البيئتين المشرقية والأندلسية في المتكإ الحضاري ، سيجعل

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢

صور التشابه — ولا بد — أوضح تحت عيون الباحثين من صور التخالف والافتراق ؛ تلك حقيقة يجب أن نعيها تمام الوعي ، لا حين نتحدث عن الشعر الأندلسي وحسب ، بل حين نتحدث عن شعر كل قطر من الأقطار الإسلامية التي وجدت طريقها إلى الاستقلال السياسيّ في هذا العصر أو ذاك ؛ والمتكأ الحضاري لا يعني الشركة في موادّ العمران وحسب بل يمتدّ فيشمل الشركة في وسيلة التعبير والمقدسات الدينية والدوافع الأسطورية والمستوى العلمي وغير ذلك من شئون تسمى جميعاً « الموروث العام » .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الأندلسي — في هذه الفترة من الزمن — قد تنكب طريق التأمل النفسيّ أو العمق الفكري وتعلّق بالمحسوسات يدور حولها أو يتحدث عنها أو يصفها ، حتى مشكلة الموت لم تخلق فيه تأملاً من نوع عميق ؛ فإذا شاء التعبير المباشر عن العلاقات الإنسانية جاء جافياً غير مصقول ، ليست فيه حلاوة موسيقية ، وهذا ما يغلب على شعراء الفترة الأولى أي عهد الإمارة . فإذا تقدمنا في الزمن وجدنا الشعراء يزدادون حرصاً على الصقل للعبارة ، ولكن أهمّ ما يشغل خواطرهم إيراد الصور المتلاحقة دون توقف ، على نحو يخيل للقارىء أن الشاعر الأندلسي لا يرى الشعر إلا نقلاً متتابعاً للصور المتلاحقة ، كقول طاهر بن محمد المعروف بالمهند[1] :

وليل بتّ أكلؤه بهيم — كأن على مفارقه غرابا
كأن سماءه بحرٌ خضمٌ — كساهُ الموجُ ملتطِماً حبابا
كأن نجومه الزُّهرَ الهوادي — وجوه أخضلتْ تبغي الثوابا
كأن المستسرة في دراه — كمائن غارة رقبت نهابا
كأن النجم معترضاً وشاة — تسارق فيه لحظاً مستَرابا

١ كتاب التشبيهات : ٢٢

كأن كواكبَ الجوزاء شربٌ تعاطيهم ولائدهم شرابا
كأن الفرقدين ذوَا عِتاب أجالا طول ليلهما العتابا
كأن المشتري لما تعالى طليعة عسكر خنسوا ارتقابا
كأن الأحمر المريخ مغضٍ على حنق يشبُّ به شهابا
كأن بقية القمر المولّي كئيب مدنف يشكو اجتنابا

وليس هذا مثالاً واحداً ، بل الأمثلة متعددة ، وإنّما نكتفي بإيراد مثل آخر لابن هذيل يصف الزهراء[1] :

كأن حناياهـا جناحـا مصفق إذا ألهبته الشّمس أرخاهما نشرا
كأن سواريها شكت فترة الضنى فباتت هضيمات الحشا نُحّلاً صفرا
كأن الذي زانَ البياض نحورها يعذبها هجراً ويقطعها كبرا
كأن النخيل الباسقاتِ إلى العُلا عذارى حجال رجّلت لمماً شقرا
كأن غصون الآس والريح بينها متون نشاوى كلما اضطربت سكرا
كأن جني الجلّنار ووردِه عشيقان لما استجمعا أظهرا خفرا

وقد كان لطلب الصورة بهذا الإسراف آثار بالغة في ذلك منها : انحياز الشعر إلى جانب الصناعة التي تفرض على الشاعر أن يبتعد عن الصورة الكلية للمنظر وأن يتناول أجزاءه ويصفها عن طريق التشبيه ، وهذا أيضاً أضعفَ ما كان يمكن أن يتوفر في القصيدة من وحدة ، كما أن الشغف بالتصوير كثيراً ما أخرج الشاعر إلى الإحالة ، مثل قول الشاعر في وصف طول الليل وسكونه : « وليل كفكر في إقامة دولة »[2] أو كقول يوسف بن هارون[3] :

١ المصدر السابق : ٧٦
٢ كتاب التشبيهات : ١٦٠
٣ المصدر السابق : ١٦٤

أخفيتني وأريدُ أن أخفي الهوى أوَليس معْدوماً خفيٌّ في خفي

على أنه قد يصحّ للشاعر أحياناً أن يجمع بين الجزالة المتدفقة والتصوير في نطاق واحد ، فيخرج بشعره عن مستوى الصور المتلاحقة دون ترابط معنوي ؛ من ذلك قول عبادة يصف وفود الروم أمام أحد خلفاء بني مروان وكيف تقدموا بين صفوف من العساكر تحمل رايات متنوعة منها ما يمثل صور الحيات والأسود الفاغرة والنمور الجاثمة والعقبان الكاسرة ، فالمنظر أندلسي الصبغة ولكن الشاعر يستغل أية صورة تخدم غرضه في إظهار ذلك المنظر العام ولو كانت صورة بدوية[1] :

هذي وفودُ الروم نحوك بادرت أمَّ القطا للمنهل المورود
وصلوا على مثل الصراط إليك من هولٍ ، وأنفسهم بلا مجلود
في جحفل كالروض في ألوانه يهفو بأعلاه سحاب بنود
وكأنّما الحيات فاغرة بـه تومي إلى الأعداء بالتهديد
وكأنّما العقبان في نفحِ الصَّبا تهوي إلى صيد الكماة الصيد
والأرض تحسبها سلوكاً سطرت فيهـا لآلىء عـدةٍ وعديد

وأحياناً أخرى يبتعد الشاعر عن الصور ، وينطلق على سجيته تقوده المعاني أو يقودها في تعبير سهل بسيط كقول ابن عبد ربه في رثاء شبابه[2] :

فراقكَ عرَّفَ الأحزان قلبي وفرَّق بـين عيني والرقـاد
كأنّي منكَ لم أربع بربع ولم أرتد به أحلى مراد
سقَى ذاكَ الرُّبى وبل الثريا وغادى نبته صوب الغوادي

١ المصدر السابق : ٢١٠
٢ اليتيمة ١ : ٨٠

زمان كان فيه الرشد غيّاً وكان الغيّ فيه من رشادي
فكم لي من غليل فيكَ خاف وكم لي من عويل فيك بادي

وهكذا نجد أنه ليس من السهل أن ندرج الشعر الأندلسي في هذه الفترة تحت مقولة واحدة . فهناك الشعر الفج الجافي ، والآخر السهل السائغ المنبعث في يسر ، وهناك التصوير المتكلف المخفق ، والتصوير المبتدع الموفق ، وثمة توجد الإحالة كما يوجد الإغراب ، وتتوفر البساطة كما تتوفر الجزالة . ذلك نتاج مائتي عام ، فالفترة — على قصرها في عمر الأمم — طويلة ، والشعر — على قلة ما وصلنا منه — غزير وفير . ويشير كتاب التشبيهات لابن الكتاني ، وهو يقع في ختام هذه الفترة ، إلى أن الأندلسيين لم تفتهم المشاركة في جميع الموضوعات التي عرفها المشارقة سواء ما تعلق بمناظر الطبيعة أو بالجمال الإنساني أو بالحب والمشاعر الإنسانية أو بالصراع بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والإنسان ، أو وصف الأدوات الحضارية وعلاقة الإنسان بالفناء والهرم ، وبعض الحالات الأخلاقية . . . الخ . غير أن هذا الكتاب يمثل مختارات في التشبيه ، ولا يستطيع أن يدلنا على مدى استقلال كل موضوع بقصيدة أو بعدد من القصائد .

تلك هي مجالات الشعر الأندلسي وأهم سماته ومظاهره في هذا العصر عرضناها — بإيجاز — على قدر ما تسمح به الشواهد المتيسرة لدينا حتى اليوم ، ولعل استكشاف مصادر أخرى أن يغير من أجزاء هذه الصورة ومن ترتيبها وأن يضيف إليها أو ينقص منها .

٣

الفتنة البربرية وآثارها

كان من الممكن أن نجعل الفتنة البربرية أحد العوامل السياسية (لأنها صراع داخلي بين فئتين من مسلمي الأندلس) وندرسها في الفصل السابق ، حين درسنا مجالات الشعر وصلته بعوالم السياسة على اختلاف جوانبها ، ولكن طبيعة الفتنة البربرية — من حيث انها قضت على الدولة الأموية وأنهت عصراً سياسياً أدبياً وابتدأت عصراً جديداً في السياسة والأدب — تجعلنا نفرد الحديث عنها من حيث هي ظاهرة كبيرة وليست حادثة سياسية ذات نتائج عارضة ؛ كذلك فإن النتائج التي تمخضت عنها تلك الفتنة تختلف في طبيعتها ومدى تغلغلها في الأدب عن جميع النتائج التي نجمت عن الأحداث الأخرى ، وهذا وحده يكفي لإفرادها بالنظر والحديث عنها في فصل مستقل .

وقبل الحديث عن آثار الفتنة في الحياة الأندلسية عامة وفي الحياة الأدبية خاصة ، يحسن بنا أن نوجز الخبر عنها فنقول :

أراد محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الملقب بالمهدي أن يتخلص من الدولة العامرية ، وكان العامريون قد تسلموا زمام السلطة الفعلية طوال أيام الخليفة المستضعف هشام المؤيد . ونجح المهدي نجاحاً مؤقتاً ، وقتل عبد الرحمن بن أبي عامر ، وتسلم السلطة ولكن لم يمهله فيهـا أموي آخر هو سليمان — المستعين — الذي تزعم البرابرة ، وقصد أن ينتزع الخلافة من المهدي . واجتمع البرابرة مع سليمان لمحاربة قرطبة ونزلوا في سفح الجبل بها وبشرقيها (١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، واحتشد إليها الناس من

الكور والبادية فعسكروا بجموع كثيرة ، وتدانى الزحفان في الثالث عشر من الشهر المذكور ، واندفع أهل قرطبة نحو البربر فاستدرجهم البربر ثم عطفوا عليهم وأخذوا في تقتيلهم ، فانهزموا ليدخلوا المدينة من مسالك كانوا ضيقوها ضد عدوهم . فأصبحت حاجزاً دون هربهم بسهولة ، وكان البرابرة قد تحالفوا مع النصارى فأبادوا كثيراً من أهل قرطبة . وتسمى هذه الوقعة وقعة قنتيش ، وهرب المهدي بعد الوقعة إلى طليطلة ، مستعيناً بالإفرنجة وعساكر الثغور ، وجمع منهم جموعاً وعاد في شهر شوال من العام نفسه ، فانهزم سليمان ودخل المهدي قرطبة من جديد ، ولكن جيشه لم يتحمل بقاءه فقتلوه ، ونصبوا هشاماً المؤيد . ثم عاد سليمان فملك قرطبة . وكتب إلى المدن الأخرى يذكر فتحه المدينة وكيف قهر الناس وقتل من عصاه . فازداد نفور أهل المدن الأخرى منه بدلاً من أن يتألفهم . وقد أقام سليمان حوالي سبع سنوات وصفها ابن حيان بأنها « كانت كلها شداداً نكدات صعاباً مشئومات ، كريهات المبدإ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية وطعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاها ذماً ان أنشأها شانجة فقشعها ارمنقد وثبتتها الجلالقة ومزقتها الفرنجة ، ودبرها فاجر شقي ووزر لها خب دني . فتمخضت عن الفاقرة الكبرى وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى مما طوى بساط الدنيا . وعفّى رسمها وأهلك أهلها »[1] .

وتوفي المؤيد في بعض تلك الأيام ، واستقر الأمر لسليمان المستعين ، فانتقل إلى الزهراء وعين الولاة على الجهات فأعطى البيرة لبني زيري بن مناد وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى وولى علي بن حمود على سبتة ، وقسم

---

١ الذخيرة ١/١ : ٢٥

المدن الأخرى بين زعماء البربر الآخرين .

وأخذ الفتيان العامريون يجددون المحاولات لاستعادة دولتهم . وعملوا على تقويض ملك سليمان المستعين . فكاتبوا علي بن حمود صاحب سبتة وذكروا له أن المؤيد هشاماً قد ترك له عهداً بالخلافة ، فانشق ابن حمود على صاحبه المستعين ، واجتاز سنة ٤٠٤ إلى الأندلس وانضم إليه خيران العامري وحبوس الصنهاجي ، والتقت جيوشهم بالمستعين أوائل سنة ٤٠٧ فهزم سليمان وقبض عليه وقتل ، وصارت الدولة بقرطبة إلى علي بن حمود « فقهر البربر وأمضى الأحكام ، وأقام العدل . . . وكان مرفوع الحجاب يقيم الحدود ويقرب المتظلمين ، ثم ساء في الناس رأيه فألزمهم المغارم وانتزع منهم السلاح » ثم قتله خدمه الصقالبة سنة ٤٠٨ وخلفه أخوه .

في تلك الأثناء كان الموالي العامريون لا يزالون يطمعون في استعادة الدولة الأموية . فنصبوا المرتضى خليفة (وهو عبد الرحمن بن محمد من نسل الناصر) ونزلوا به بغرناطة فهزمهم زاوي بن زيري صاحبها . وخذل المرتضى أنصاره وقتل هو (٤٠٩) « وبعد هذه الوقعة ركدت ريح المروانية وتقطعوا في الأرض واستهينوا فلم تقم لهم قائمة » ، ولم ينجح الظافر بالله الذي بويع سنة ٤١٤ ولا المستكفي الذي جاء بعده في رد الخلافة الأموية . وأخرج المستكفي من قرطبة متنقباً في زي النساء (٤١٦) . وانتظم الأمر في قرطبة لبني حمود طوال تلك الفترة .

أما من تبقى من الفتيان العامريين فنجمل أمرهم فيما يلي :

١ ـــ كان خيران العامري زعيم الصقالبة في بلاط هشام المؤيد ، فاستولى على مرسية والمرية ، وكان داهية شجاعاً حسن التدبير ، وتسمى أحياناً بالخليفة وبالفتى الكبير . وخلفه على المرية أخوه زهير العامري سنة ٤١٩ .

٢ ـــ استولى مجاهد العامري على دانية والجزائر الشرقية ، وكان ميالاً

للعلم مكرماً للعلماء، فقصده كثيرون منهم ابن عبد البر وابن سيده، وكان فارساً لا ضريب له في الحذق بمعاني الفروسية، وتردد بين النسك والمذاكرة وبين البطالة واللهو.

٣ — استقل مبارك ومظفر العامريان ببلنسية، بعد أن كانا وكيلين للساقية، وتآلفا على اختلاف في طبعهما إذ كان مبارك صارماً ومظفر دمثاً متواضعاً.

ذلك باختصار هو الوضع الذي كان بعد انقضاء الدولة الأموية وزوال العامريين، ولذلك تعد الفتنة، وفترة الانتقال التي تلتها، نقطة تحول في التاريخ والأدب الأندلسي. ومعنى ذلك أن سيادة قرطبة قد اضمحلت، وارتخت الأسباب التي كانت تمسك جوانب البلاد الأندلسية إلى مركز واحد، وانتهى تمركز الحياة الأدبية في العاصمة، وكانت الفترة التي تلت الفتنة تمهيداً لقيام أمراء الطوائف واتساع النهضة الأدبية في مدن الأندلس الأخرى.

آثار الفتنة

(١) ومن الآثار المباشرة للفتنة التخريب والدمار الذي أصيبت به قرطبة، وقد وصف ابن حيان كيف أن أحدهم كان يتولى الإشراف على هدم قصور الأمويين فقال: «بيده بادت قصور بني أميّة الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحُطت أعلامهم المنيعة، قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة فاغتدى عليها أعظم آفة يبيع أشياء جليلة القدر رفيعة القيمة في طريق الأمانة... فعاث فيها عياث النار في يبيس العرفج، وباع آلاتها من رفيع المرمر ومثمن العمد ونضار الخشب وخالص النحاس وصافي الحديد والرصاص بيع الأدبار»[١]، وكذلك كان من آثارها الهلع

١ الذخيرة ١/٢. ١١١ وما بعدها.

الذي أصيبت به النفوس من تغلب البرابرة ، وترصدهم الحرم والدور بالهتك والسلب ، ولقد بلغ من إشفاق الناس يومئذ أنهم استفتوا شيوخ المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفاً من القتل . إذ كان متلصصة البرابرة يقفون لهم في الظلام ، في طرق المسجد . فربما آذوا أذى شديداً[1] . وقضت الفتنة على كثير من العلماء والأدباء بالموت والتشريد . ويكفي أن يراجع القارىء كتاب الصلة حتى يجد فيه كثيراً ممن ترجم لهم ابن بشكوال إما قتلوا في الفتنة أو آثروا الهجرة إلى إحدى المدن الأندلسية ، ومنهم من أبعد النجعة فبلغ مصر وغيرها . ومن أعلام الذين قتلوا أبو الوليد الفرضي صاحب كتاب تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . واضطربت موازين الأمور فأخملت الفتنة كثيراً من المشهورين ورفعت كثيراً من المغمورين ، وقد أرخ ابن حيان هذه الناحية بتفصيل مثلما أرخ الفتنة كلها ، وإن كانت قد منعته في أثنائها من الاستمرار فعطل كتابة التاريخ إلى أن مضى صدر منها . وهو يخبرنا أنّه أصيب في وقعة قنتيش نيف على ستين من المؤدبين خاصة « أُعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم »[2] . . . وربما كانت بشاعة الفتنة ترجع إلى التفصيل الشديد الذي سجله مؤرخ الأندلس لأحداثها ، على أنها كانت حدثاً جللاً في نفوس الناس يومئذ — لقضائها على عمران قرطبة أولاً ثم لقضائها على ما ألفه الناس من أمر الخلافة الأموية .

(٢) وقد هزت الفتنة قواعد النهضة العلمية الأدبية التي ازدهرت على عهد المستنصر والمنصور . ولكن هذا لم يلبث طويلاً ، بل استعاد الناس ثقتهم في أنفسهم واقبلوا على الانتاج . ومن الضارّ النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع الكتب التي كانت بقرطبة وبخاصة ما كان منها في مكتبة الحكم ، وكان

١ الأحكام ٣ : ٦٧
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٣١

بيعها سبباً في تسهيل انتشار العلوم ، وفيها عثر طلاب العلم على كتب لم يكونوا يستطيعون الحصول عليها ، وكان ذلك عاملاً في انتعاش الحركة العلمية ، والفلسفية على وجه الخصوص . وعرضت مكتبات أخرى للبيع ، منها مكتبة الإمام ابن فطيس ، وكان قد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وقيل إن كتبه بقيت تباع مدة عام كامل في مسجده وإن ثمنها بلغ أربعين ألف دينار قاسمية . وليس هذا كثيراً على رجل كان قد وظف ستة وراقين ينسخون له دائماً براتب مقرر [1] . وكان الشعراء قبيل الفتنة وفي أثنائها على حال سيئة ، ولا أبلغ من وصف ابن حيان لحالهم حين جاء سليمان المستعين إذ يقول : « واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية وقد نسجت على أفواههم ومحاربهم العناكب أيام الحرب والفتنة . واشتدت فاقتهم . وجمعت طباعهم ، وكانوا كالبزاة الفذة الجياع ، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة ، فلم يبل صداهم ، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشانه ، واشتداد حاجة سلطانه » [2] . وأصبح الشعراء موالي كل من تولى سلطة ، يمجدون اليوم هذا ، ثم يمجدون غداً قاهره ، وغدوا جوابين على أبواب أولئك الأمراء أمثال منذر وخيران ومظفر ومبارك ، وأصبحت مدائحهم جزافاً من القول في سبيل القوت . ولم تعد هناك انتصارات المنصور أو المظفر ليتغنوا بها ، فانصرفوا إلى ذكر المكايد الصغيرة والخلافات الداخلية .

(٣) والتفت الشعراء إلى معالم قرطبة ، فرأوا كيف حالت عن حالها ، وخربت دورها ، وانقضت معاهد صبوتهم فيها ، وانطفأت فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية ، فندبوها بمراثيهم ، وممن رثاها الوزير أبو عامر ابن شهيد ، فقال [3] :

١ الصلة : ٢٩٨ وما بعدها
٢ اعمال الأعلام : ١٢٢
٣ اعمال الأعلام : ١٠٥

ما في الطلول من الأحبة مُخبرُ فمَن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألنّ سوى الفراق فإنّه ينبيكَ عنهم أنجدُوا أم أغوَروا

ويصف حال أهلها فيقول :

فلمثل قرطبة يقلّ بكاء مَنْ يبكي بعينٍ دَمْعُها متفجّرُ
دارٌ أقالَ اللهُ عثرةَ أهلهـا فتبربرُوا وتغرّبوا وتمصّروا
في كلّ ناحيـة فريقٌ منهمُ متفطّرٌ لفراقِهـا متحيّر
عهْدي بها والشمْلُ فيها جامعٌ من أهلها والعيشُ فيها أخضَر
ورياحُ زَهرتها تفوحُ عليهمُ بروائحٍ يفترُّ منهـا العنبر
يا طيبَهُمْ بقصورها وخدورها وبدورها بقصورها تتخدّر
والقصرُ قصرُ بني أميّةَ وافرٌ من كل أمرٍ والخلافةُ أوفر
والزاهريّة بالمراكب تزهَر والعامريةُ بالكواكب تُعْمَر
والجامعُ الأعلى يغصّ بكلّ مَنْ يتلو ويسمعُ ما يشاء وينظر
ومسالكُ الأسواق تشهَدُ أنّها لا يستقل بسالكيها المحشَر
يا جنّةً عصفتْ بها وبأهلها ريحُ النوى فتدمّرتْ وتدمّروا
آسى عليكِ من المماتِ وحقّ لي إذ لم نَزَلْ بكِ في حياتكِ نفخر

ورثاها ابن حزم نثراً وشعراً حين وقف على منازل أهله ورآها : «وقد طمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران وفيافيَ موحشة بعد الأنس» ، فمن شعره فيها[1] :

سلامٌ على دارٍ رحلنا وغُودِرت خلاء من الأهلين موحشةً قفرا

1 اعمال الأعلام : ١٠٧

تراها كأنْ لم تَغْنَ بالأمسِ بلقعاً ولا عمرَتْ من أهلها قبلنا دَهْرا
فيا دارُ لم يُقْفِرْكِ منّا اختيارُنا ولو أننا نسطيعُ كنتِ لنا قبرا
ولكنَّ أقداراً من الله أُنْفِذَتْ تُدمّرنا طوعاً لما حلّ أوْ قهْرا
فيا خيرَ دارٍ قد تُركْتِ حميدةً سقتك الغوادي ما أجلَّ وما أسرى
ويا دهرَنا فيهـا متى أنتَ عائدٌ فنحمدَ منك العوْد إن عدت والكرا
سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

ورثاها آخر بقصيدة منها[1] :

بكِّ على قرطبةَ الزينِ فقد دَهَتْها نظرةُ العَيْنِ
أنظرهـا الدهرُ بأسـلافه ثم تقاضَى جُمْلَـةَ الدَّيْن
كانت على الغايةِ من حُسْنِها وعَيْشها المستعذبِ اللَّيْن
فانعكسَ الأمر فما إنْ ترى بهـا سروراً بينَ إثنين
فاغدُ وودّعْهـا وَسِرْ سالمـاً ان كنت أزمعتَ على البَيْن

ولابن عصفور الحضرمي في رثائها قصائد كثيرة[2] ، ورثاها آخر وجعل خرابها مسبباً عن تهاون أهلها وتقصيرهم في تدبير أمرهم فقال[3] :

أضَعْتُمُ الحزْمَ في تدبيرِ أمْرِكُمُ ستعلمونَ معاً عُقْبى البَوار غَدا
لكنَّ سُبْل العَمَى أعمتْ بصائرَكُمْ فألبستكُمْ ثياباً للبِلى جُدُدا
يا أمةً هتَكَتْ مستورَ سَوْءَتهـا ما كلُّ منْ ذلَّ أعطى بالصَّغار يدا

(٤) وربما لم يكن من البعيد عن الصواب أن نجعل زوال مجد قرطبة في

١ تعليق منتقى من فرحة الأنفس لابن غالب الورقة ١١٧ وابن عذاري ٣ : ١١٠
٢ الصلة ١ : ٣٥
٣ ابن عذاري ٣ : ١١٠

هذه الفتنة مسؤولاً عن نمو ظاهرتين أدبيتين ، الأولى : الميل إلى التراجم الذاتية ، فإن هذه التراجم إنما انبثقت من الشعور بجمال الماضي ، وتغير الحاضر ، وتقلب الأحوال في قرطبة ، ويمثل هذه الناحية كتاب طوق الحمامة لابن حزم ورسالة كتبها ابن شهيد إلى المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، عن ذكرياته في ظل الدولة العامرية [1] ، وكلاهما من أجمل الأدب الأندلسي الأصيل . والظاهرة الثانية هي استقواء النزعة النقدية بُعيد الفتنة ، لتخلخل المقاييس واضطرابها في الحياة الاجتماعية والأدبية معاً ، ومن الطريف أن الاثنين اللذين أبديا شيئاً من الوعي الذاتي في تراجمهما الذاتية هما اللذان أبرزا حركة النقد ، أعني ابن شهيد وابن حزم ، وقد مرّ النقد قبلهما بحلقات المؤدبين ، ووردت بعض النظرات النقدية في العقد لابن عبد ربه ، ثم أصبح الناقد الأول في الدولة أيام المنصور هو الحكم الذي ينزل الشعراء منازلهم ويصنفهم في مراتبهم ، وعاد النقد من جديد بعد الفتنة إلى حلقات المؤدبين أيضاً ، فحاول ابن شهيد بخاصة انتزاعه من تلك البيئة ، وكانت جهوده وجهود صديقه ابن حزم في هذه جواباً على مشكلتين : مشكلة عامة ، ومشكلة خاصة . أما العامة فهي : ما موقف الأندلس عامة من الحياة الأدبية وهل فيها من يمكن أن يوضع إزاء شعراء المشرق ؟ وكان جواب هذا السؤال أن كتب ابن حزم رسالة في فضل الأندلس ، وميز في جملة ما ميزه من أسباب فضلها الشعر والشعراء فيها ، وحكم على الشعراء أحكاماً متباينة ، وقدم من اعتقد أنه يستحق التقديم ، وكتب ابن شهيد كتابه حانوت عطار ، وترجم فيه ، مستغلاً مقدرته النقدية ، لشعراء معاصرين ، ولا تخلو نظراته في هذا الكتاب من بصر نافذ بالشعر ، حسب مقاييسه النقدية . وأما المشكلة الخاصة فهي مشكلة ابن شهيد نفسه ، ما منزلته بين أدباء بلده وأدباء المشرق ؟ وهل

[1] الذخيرة ١ / ١ : ١٦٣ ، وانظر الفصل الخاص بترجمة ابن شهيد في هذا الكتاب .

من الضروري لأديب مثله التوسع في القراءة أو هناك ما يغني عن ذلك ؟ وكانت هذه المشكلة هي التي دفعته إلى كتابة رسالة التوابع والزوابع ورسائل أخرى ، وربما كان كتابه كشف الدك وإيضاح الشك منبثقاً عن هذه المشكلة أيضاً

(أ) ابن شهيد والنقد

على أن العنصر النقدي في التوابع والزوابع محدود لا يتعدى مجال ما استحسنه ابن شهيد من شعر هذا الشاعر أو ذاك ، ثم نماذج يعتقد تقديمها من شعره هو نفسه ومن نثره ، ويقارن بين بعض المعاني المتشابهة عند الشعراء ويضع في رسالته قاعدة للأخذ فيقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته فأضرب عنه جملة وإن لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن تنشط طبيعتك وتقوى منتك »[1] . وقد كانت مشكلة الأخذ هذه — فيما يبدو — من أكبر المسائل التي شغلت ابن شهيد ، لأنها أساس من الأسس التي تعتمد عليها طريقته الشعرية ، فليس عجيباً إذن أن يمدح أبا المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد بقوله : « وهو غزير المادة واسع الصدر حتى إنه لم يكد يبقي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلا عارضه وناقضه ، وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد ، لا يني ولا يقصر ، وكان مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام ، فاعجب »[2] . وكان أيضاً شديد الإعجاب بالبديهة إلى جانب إعجابه بالمعارضة ، ولذلك وقف في حانوت عطار وقفات خاصة عند

1 الذخيرة 1/1 : 244

2 الجذوة : 258 — 259

الشعراء الذين ينظمون الشعر على البديهة . وما ذلك إلا لقدرته هو أيضاً على هذا الفرع من الشعر ومن ثم نسمعه يقول : « وإنما يتبين تقصير المقصر وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب وازدحمت الحلق واستعجل المقال ولم توجد فسحة لفكرة ولا أمكنت نظرة لروية

والمشكلة الكبرى عند ابن شهيد هي : هل من الميسور أن يُعلّم الناس البيان ؟ وإذا كان ذلك مستطاعاً ، فلم يتفاوت الناس فيما يتلقونه منه ؟ وموقف ابن شهيد من هذه المشكلة غير واضح ، فهو حيناً يرى البيان موهبة من الله ، ويعلي من قدر الموهبة ويجعلها تعويضاً عن الاطلاع ، وينشىء رسالة التوابع ليدل على قيمة هذه الموهبة ويتهكم بالمؤدبين ويدل على افتقارهم إليها . وحيناً آخر يزعم أن البيان قد يعلّم وإن كان ذلك أمراً صعباً ، ويشترط أن يكون تلامذته من أهل النجابة والمثابرة ، وحد هؤلاء عنده قابلية الطبع ، وطبع الإنسان متركب من نفس وجسم ، فغلبة الأولى على الثاني تجعل المرء مطبوعاً روحانياً ، وغلبة الجسم على النفس تضيق الفرصة في تعلم البيان . وكل امرىء محتاج في تعلم البيان إلى شيئين : الطبيعة والآلة ، وقد تكون الآلة متيسرة — كما هي عند المؤدبين — فإذا اختلت الطبيعة ظهر الاختلال في أصل البيان .

وهاهنا مقياس للروحانية التي يفترضها ابن شهيد ، وهو أن كل ما يصدر عنها يكون موشحاً بالحسن وإن لم يكن مبنياً على غرابة بل هذه هي الغرابة بعينها أي « أن يتركب الحسن من غير حسن » كقول امرىء القيس :

تنورتها من اذرعـات واهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

وكأن ابن شهيد ينظر هنا إلى حسن التأليف والتعبير ، وهذا — في رأيه — يعتمد على القرابة بين الحروف ، والمناسبة بين الكلمات ، فإذا راعى الأديب

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٩

هذه الصلات فإنّه يستطيع أن يأتي بشعر حسن المنظر والمخبر ، وعليه ألا يتهيب استعمال الغريب من الألفاظ ، وانما يتجافى عن الغريب النافر ، فإذا أحسن وضع الغريب في مواضعه اللائقة به تم به الكلام ، وكل هذا محتاج إلى تذوق ودربة . ولا يحسبن أحد أن تعليم البيان بعد هذا كله يصبح سهلاً ، إذ المدار على الفهم بعد الاستعداد النفسي عند المتعلم ، على أن يكون المعلم نفسه قادراً على « تفجير صفاة غيره » وذلك بفهمه التبيين والتبين وأن يكون واعياً بمدى الاستعداد عند كل تلميذ من تلامذته ، عارفاً بخصائص كل واحد فيهم .

ويعتقد ابن شهيد أن الأنموذج الواحد من الشعر أو من النثر لا يصلح أن يتخذ لكل العصور ، فأهل كل فترة يهشون إلى نوع من الأنواع . ومن الملاحظ أن الصنعة تزايدت على مر العصور ، حتى إذا كان عصر ابن شهيد ، أصبح الناس يتعشقون التجنيس كثيراً ويمجون كل ما عداه ، أما هو فيرى ضرورة الاعتدال والتوسط والأخذ من طريقة العرب وطريقة المحدثين معاً دون انحياز إلى إحداهما . ويجعل المنشئين أصنافاً ثلاثة ومن خرج عن نطاقهم لا يعد أديباً :

الأول : الذين يستطيعون توليد المعاني وابتكارها ثم يعجزهم الشكل فيسيئون التعبير ويقصرون دون إدراك « بهاء البهجة » .

الثاني : أصحاب الحدة البيانية الذين يبنون الكلام على الاندفاع والانصباب وهم يلائمون بين الفكرة الصعبة ومائية الشكل ويجترئون على ضرب هذه بتلك ، ويخلقون من امتزاجهما شيئاً عجباً .

الثالث : صنف ماهر في التلفيق والتلزيق ، ذو صنعة مقبولة وقريحة متحيلة تغطي على نقص الفكرة وتسد الخلل .

ولا ريب في أن ابن شهيد وضع هذه القواعد والمقاييس من نظره إلى قدرته وطريقته ، وهو يخرج كثيراً عن حدود الناقد النزيه إلى السخرية والذم وبخاصة إذا تذكر أنّه منقوص الحظ في عصره ، فيغمز هذا وذاك ، ويعيب أهل بلده جملة بقوله « ولكني عدمت ببلدي فرسان الكلام . ودهيت بغباوة أهل الزمان »[1] .

(ب) ابن حزم والنقد

وقد كانت أسباب النقد النزيه متوفرة عند ابن حزم أكثر من توفرها عند ابن شهيد ، لتحريه وجه العدالة ودقته في الحكم وسعة اطلاعه وغزارة معارفه ، إلا أن ثمة أمرين حدّا من جهوده في هذه الناحية : الأول ، مذهبه في الشعر جملة ، فهو وإن كان يميز فيه الجيد من الرديء ، إلا أنّه لا يضع له حدوداً ، فالشعر لديه يستطيع أن يستوعب كل شيء ، حتى شرح مذهبه الفقهي ، وتعاليمه الخلقية ، ومثل هذا الاتجاه لا يمكنه من تبين الحدود الجمالية له . والثاني : أن اشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ أبعده عن دائرة الأدب ، وخضع في نظرته للشعر إلى عوامل التوجيه الأخلاقي ، وإلى فلسفته الدينية ، التي كانت تقوّم العلوم بحسب تقريبها لصاحبها من الله ، فذلك هو مقياسه في النظرة إلى الأشياء والأعمال .

وكان من أثر العامل الأول أن أصبح ابن حزم غير جاد في بناء منهج نقدي واضح ، كالذي فعله ابن شهيد ، بل كان يتلقى بعض النظرات النقدية بالقبول ، دون محاكمتها ، مثال ذلك : إيمانه بأن الإكثار من عدد التشبيهات في البيت الواحد أمر يستحق أن يعنى به المتفنن ، فهو يقول في التعليق على هذا البيت من شعره :

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٢٩

فكأنـّها والليل نيرانُ الجـَوَى قد أُضرِمتْ في فكرتي من حِنْدِسِ

« وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين ، وهذا مستغرب في الشعر ، ولي ما هو أكمل منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد ... الخ »[1] .

وكان من أثر العامل الثاني أن أخضع الشعر للمقياس الخلقي ، وحكم عليه بغايته ونوع الاستثارة الصادرة عنه . فقال في رسالته مراتب العلوم : « وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير ، كأشعار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة ، رضي الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك فإنّها نعم العون على تنبيه النفس ، وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

أحدها : الأغزال والرقيق فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتّى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات . وإن سماع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتّى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لا سيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردي جملة .

والضرب الثاني : الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق وربما أدته إلى هلاك نفسه في غير حق وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات

[1] الطوق : ١٦

والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد المهامه فإنها تسهل التحول والتغرب وتشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى

والضرب الرابع : الهجاء فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة .

ثم صنفان من الشعر لا يُنهى عنهما نهياً تاماً ولا يُحَضّ عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء ، فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح ، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال ، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما في هذين النوعين الكذب ولا خير في الكذب »[1] .

ومع إعجابنا بهذا الكلام الصريح والتقسيم الواضح ، نرانا في دهشة لهذا الوضع الذي أحل فيه الشعر ، وهذا التقييد الذي ألزمه فنونه ، ومما يكمل موقف ابن حزم في النقد فقرتان وردتا في كتاب التقريب لحدّ المنطق تحدث فيهما عن البلاغة والشعر فقال في تحديد البلاغة :

« قد تكلم أرسطوطاليس في هذا الباب ، وتكلم الناس فيه كثيراً ، وقد أحكم فيه قدامة بن جعفر الكاتب كتاباً حسناً وبلغنا حين تأليفنا هذا [الكتاب] أن صديقنا أحمد بن عبد الملك بن شهيد ألف في ذلك كتاباً ، وهو من المتمكنين من علم البلاغة والأقوياء فيه جداً ، وقد كتب إلينا يخبرنا بذلك ، إلا أننا لم نر الكتاب بعد ، فغنينا بالكتب التي ذكرنا عن الإيغال في الكلام في هذا الشأن . ولكنا نتكلم فيه بإيجاز جامع فنقول ،

١ رسائل ابن حزم . ٦٥ — ٦٧

وبالله تعالى نتأيد : البلاغة قد تختلف في اللغات على قدر ما يستحسن أهل كل لغة من مواقع ألفاظها على المعاني التي تتفق في كل لغة ، وقد تكون معدودة في البلاغة ألفاظ مستغربة ، فإذا كثر استعمالهم لها لم تعد في البلاغة ولا استحسنت ، ونقول : البلاغة ما فهمه العامي كفهم الخاصي وكان بلفظ يتنبه له العامي لأنه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه . . . وهذا الذي ذكرنا ينقسم قسمين : أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ ،وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون ، ثم يحدث بينهما قسم ثالث آخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة كليلة ودمنة — ابن المقفع كان أو غيره — وأما نظم القرآن فإن منزله تعالى منع من القدرة على مثله وحال بين البلغاء وبين المجيء بما يشبهه ، وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل . وأما المتأخرون فإنا نقول إنهم مبعدون عن البلاغة ومقربون من الصلف والتزيّد ، حاشا الحاتمي وبديع الزمان ، فهما مائلان إلى طريقة سهل ابن هارون » .

ويقول في الشعر :

« الشعر ينقسم ثلاثة أقسام : صناعة وطبع وبراعة . فالصناعة هي التأليف الجامع للاستعارة بالأشياء والتحليق على المعاني والكتابة عنها ، وربُّ هذا الباب من المتقدمين زهير بن أبي سلمى ومن المحدثين حبيب بن أوس . والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف وكان لفظه عامياً لا فضل فيه عن معناه حتّى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهل ولا أوجز من ذلك اللفظ ، وربُّ هذا الباب من المتقدّمين جرير ومن المحدثين الحسن (بن هانيء) ، والبراعة هي التصرف في دقيق المعاني وبعيدها ، والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه ، وإصابة التشبيه وتحسين المعنى اللطيف ، وربُّ هذا

الباب من المتقدمين امرؤ القيس ومن المتأخرين علي بن عباس الرومي ومن أراد التمهر في أقسام الشعر ومختاره وأفانين التصرف في محاسنه ، فلينظر في كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر ، وفي كتب أبي علي الحاتمي »[1] .

وهذه الأحكام على ما فيها من بساطة وإيجاز لا تخلو من نظرات نقدية دقيقة ، فإن التفرقة بين بلاغة الجاحظ والحسن والاهتداء إلى السر في ذلك ، واشتقاق أسلوب ثالث من اجتماعهما مما لا يدركه إلا الناقد البصير ، ومن المدهش أيضاً الجمع بين امرىء القيس وابن الرومي ، وإغفال المتنبي من الأقسام الثلاثة .

ولابن حزم رأي أيضاً في اتفاق الشعراء في المعنى الواحد اتفاقاً لفظياً قال :

« والذي شاهدناه اتفاق شاعرين في نصف بيت ، شاهدنا ذلك مرتين من عمرنا فقط ، وأخبرني من لا أثق به أن خاطره وافق خاطر شاعر آخر في بيت كامل واحد ولست أعلم ذلك صحيحاً . . . والشعر نوع من أنواع الكلام ولكل كلام تأليف ما ، والذي ذكره المتكلمون في الأشعار من الفصل الذي سموه « المواردة » وذكروا أن خواطر الشعراء اتفقت في عدة أبيات فأحاديث مفتعلة لا تصح أصلاً ولا تتصل ، وما هي إلا سرقات وغارات من بعض الشعراء على بعض »[2] .

ولكن من هذا يتجلى لنا كيف أخطأ النقد طريقه مرتين : مرة حين كان مقياساً ذاتياً ، ومرة حين اتخذ مقياساً عاماً ، ولا علينا من هذا الخطأ ، فنحن إنما ننظر إلى قواعد نقدية تمخضت عنها الأندلس بُعيد الفتنة وزوال سيادة قرطبة ، وهي حركة أوسع من تلك النظرات النقدية العابرة التي كانت تمر

١ التقريب : ٢٠٤ — ٢٠٨

٢ الأحكام ١ : ١٠٨

بنا فيما سبق . وغني عن القول ان ابن شهيد كان أقوى أثراً من ابن حزم في توجيه الحياة الأدبية ، لأن الثاني جاء بمقاييس غير عملية ، تعدم أكثر فنون الشعر ، ولا تبقي إلا على الشعر التعليمي . ومع ذلك فإن ابن حزم كان قوة جديدة في تحقيق الشخصية الأندلسية مرتين : مرة بتسجيله لنواحي التمييز الأدبي فيها ، ومرة بإعطائها مذهباً يجعلها مستقلة تماماً عن المشرق ، فهو أقوى من تمم الاتجاه الذي بدأه الحكم المستنصر

هذا وقد تركت الفتنة آثارها في شعر ثلاثة من مشاهير شعراء الأندلس ، وهم ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابن حزم ، وسندرس كل شاعر منهم في الفصل الخاص بالشعراء

الشعراء الأندلسيون في هذا العصر

١

شعراء فترة الإمارة

(٢٠٠ — ٣٠٠)

أكثرهم من شعراء المؤدبين مثل عباس بن ناصح والقلفاط ومؤمن بن سعيد وعبيديس الكاتب ، ومنهم من يقع الشعر لديه موقعاً ثانوياً كابن الشمر المنجم وعباس بن فرناس التاكرني (— ٢٧٤) وكان متفلسفاً منجماً صاحب نيرنجات واختراعات كمحاولته الطيران واتخاذه الزجاج من الحجارة وفك الموسيقى والعروض[١] . ومع أن يحيى الغزال كان « عرّافاً » أيضاً فإن الشعر أبرز أدواته وهو أعلى من جميع معاصريه مرتبة في الشعر . وفي هذه الفترة تميز ابن عبد ربه ولكنه عاش حتى أدرك عصر الخلافة ولذلك سندرسه ممثلاً للفترة التالية .

وقد عدّ ابن حيان في المقتبس الشعراء الذين كانوا في عصر الأمير عبد الله فذكر ابن عبد ربه ثم قال : وكان المصلي في حلبة الشعراء أيام الأمير عبد الله بعد أحمد بن عبد ربه ، عبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالديّ أحد بيوتات الشرف المولدين في هذه الدولة المروانية ، وكان من سراة الناس وأدبائهم وعلمائهم ، مال به طبعه إلى صوغ القريض فأبدع فيه جداً ، وجارى ابن عبد ربه فلم يبعد عن تجويده وكان يعارضه كثيراً في حسان قصائده ولا يقصّر عن مداه[٢] . وأدرك عبيد الله هذا عهد الناصر والحكم وله شعر كثير

١ المغرب ١ : ٣٣٢ والجذوة : ٣٠٠

٢ المقتبس : ٤٤ (نشر انطونية) .

لم يصلنا . وعدّ ابن حيان أيضاً القلفاط وابن قلزم ومقدم بن معافى القبري وقاسم بن عبد الواحد العجلي وسعيد بن عبد ربه وإسحاق المنادي وزيد بن ربيع الحجري وعفير بن مسعود راوية شعر عباس بن ناصح وغيرهم . وأكثر هؤلاء أدرك عصر الخلافة أيضاً .

وأكثر هؤلاء الشعراء كان يتخذ قرطبة موطناً له لأنها أقدر على إظهار مواهبهم ، وفيها منتجع رزق لهم ، ومع ذلك فكانت هناك « بحيرات » صغيرة أو « جزائر » من النشاط الشعري تجذب إليها الشعراء .

ففي أيام الأمير عبد الله كان إبراهيم بن حجاج شخصية واسعة النفوذ بإشبيلية حتى حاول الاستقلال عن الدولة ، وأصبحت تلك المدينة تنافس قرطبة في اجتذاب الشعراء إليها ، فقصدوه من كل وجه ، وكان منهم ابن عبد ربه والقلفاط ، ولكنا لا نعرف شيئاً عن شعراء من إشبيلية نفسها . وفي تلك الأيام أيضاً كان ذلك النشاط الواضح للشعر في الصراع بين المولدين والعرب بمنطقة البيرة . وفي جبل شمنتان (سمنتان في المغرب) أقام عبيد الله ابن أمية ابن الشالية (الشمالية في المغرب) إمارة مستقلة أيام الأمير عبد الله أيضاً ، وكان عبيديس بن محمود الشاعر مكثراً من مدحه واصفاً لمبانيه ومغازيه ، ومن ذلك قصيدته التي هنأه فيها ببعض الفتوح وأولها [1]:

جاء البشيرُ بما عمّ السرورُ به عن الأمير أبي مروانَ في السفَرِ

قال ابن حيان في ذكر ابن الشالية : له أفضال على الشعراء والأدباء قلهم فيه مديح سائر ، وكان من أحمدهم لانتجاعه وأنطقهم بشكره عبيديس ابن محمود الشاعر ، وشعره فيه كثير مستحسن [2] . وكان عبيديس في أول

١ المقتبس : ١٠ (نشر انطونية) وانظر ترجمة عبيديس في المغرب ٢ : ٦٩ والجذوة : ٢٧٨ والبغية رقم : ١١٣٥ والحلة : الورقة ١١٥

٢ المقتبس : ٩ (انطونية) .

أمره من جملة كتّاب القصر بقرطبة . وفي أول عهده كان مداحاً للأمير عبد الله نفسه ثم هاجر إلى جوار ابن الشالية وفارقه حين أحسّ بتغيره عليه ولجأ إلى ابن حفصون[1]، وله انتجاع إلى سعيد بن جودي أمير العرب ومدائح فيه[2]، ويمثل عبيديس الشاعر الذي ربط مصيره بغير واحد من الثائرين المنتزين على الدولة الأموية .

وأكثر شعر هذه الطبقة ما يزال يحمل علامات الفجاجة والتعبير المرسل عفو الخاطر دون صقل ، وليس يتضح لديهم الافتتان بالصور . وإن لم يبعدوا عن تقليد الشعر المحدث ؛ على أن بعضهم اختار طريقة العرب الأوائل في نظمه . وفي مقدمة هؤلاء عباس بن ناصح الجزيري المكني بأبي العلاء أو أبي المعلى،وهو ثقفي بالولاء إذ كان والده عبداً لمزاحمة بنت مزاحم الثقفي ، وهو مصمودي الأصل ، رحل به أبوه صغيراً فنشأ بمصر ، وتردد بالحجاز يطلب اللغة ، ثم ارتحل به أبوه إلى العراق فلقي الأصمعي وغيره من علماء البصريين والكوفيين ، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس . ويقال إنه عندما سمع بظهور أبي نواس ارتحل مرّة أخرى إلى العراق للقائه ، وقد شرح الزبيدي قصة هذا اللقاء وكيف أن أبا نواس استنشد عباساً وشهد له بالتقدم في الشعر . وبعد عودته إلى الأندلس أخذ يتردد إلى قرطبة مادحاً للأمير الحكم بن هشام ، كما كان يجلس أحياناً في مسجد قرطبة حيث يجتمع حوله طلاب الأدب يستمعون إلى شعره أو إلى بعض الفوائد اللغوية ؛ ولعباس أخبار تدل على حميته وجانب من نشاطه السياسي ، إذ يروى أنه كان بمدينة الفرج من وادي الحجارة فسمع امرأة تستغيث قائلة : « واغوثاه يا حكم » ، فلما سألها عن أمرها ذكرت أن كتيبة للأعداء أغارت عليهم فقتلت وأسرت ، فصنع عباس قصيدة مطلعها :

---

١ المقتبس : ٤٥ والمغرب ٢ : ٦٩

٢ المقتبس : ١٢٥ (انطونية) .

تململتُ في وادي الحجارة مسهرا أراعي نجوماً ما يردن تغوّرا

وذكر فيها القصة ، فأثارت قصيدته الحكم إلى الجهاد وإغاثة المرأة وقومها سنة ١٩٤[1] . وفي مرة أخرى نجم بالجزيرة الخضراء جماعة من الخوارج فكتب عباس شعراً إلى الحكم يغري بهم[2]، ولما تعرض عباس للخدمة ولاه الحكم قضاء الجزيرة الخضراء وشذونة ؛ وقد عدّه الرازي فحل شعراء الأندلس في عصره[3]، واعتنى عفير بن مسعود بجمع شعره ، أخذه عن بعض ولده، وكان الأمير عبد الله يحفظه ويعرف ما قيل منه بالمشرق وما قيل بالأندلس ويحكي من أخبار عباس ما لا يحكيه أهله ولا رواته[4] ؛ وعنوان شعره قوله في وصف الشعر[5] :

متقارب متُباعد أبياتُـــهُ رُجُحٌ مثقفة البناء رزان
وسماعهنّ كطعم ماء بارد عذبٍ أغيث ببرده ظمآن
بنيتْ مباديها عـلى أعجازها فتنظّمت يسمو بهـا البنيان
كقداح مصطنع أعدّ قذاذهـا لنصالها قدراً وهنّ متـان
متلظيات ما يبلّ رميها ذُلُقٌ كأنّ ظباتها الشّهبان

ولعلّ من المصادفات أن يجتمع في هذا العصر ثلاثة من شعراء الفكاهة الساخرة وهم الغزال ومؤمن بن سعيد والقلفاط ، وهم الذين سنتولى دراستهم بشيء من التفصيل .

١ ذكر بلاد الأندلس : ١٠٨ (مخطوط) والنفح ١ : ٣٢١ (ط . عبد الحميد) وابن عذاري ٢ : ١٠٩

٢ ابن القوطية : ٧١

٣ ترجمته في ابن الفرضي ١ : ٣٤٠ وطبقات الزبيدي : ٢٨٤ والمغرب ١ : ٣٢٤ وبغية الوعاة ٢ : ٢٨

٤ المقتبس : ٣٦ (انطونية)

٥ كتاب التشبيهات : ١١١

١ – يحيى بن حكم الجياني
الملقب بالغزال

١٥٦ – ٢٥٠ هـ

المطرب : ١٢٥ – ١٤١ ، والجذوة : ٣٥١ ، والنفح ١ : ٤٤٩ ، والمغرب ٢ : ٥٧ ، وبغية الملتمس رقم : ١٤٦٧ .

كان عمره حين توفي عبد الرحمن الداخل ستة عشر عاماً ، ثم شهد عهد هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ – ١٨٠) والحكم ابنه (١٨٠ – ٢٠٦) وعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨) وصدراً من امارة محمد بن عبد الرحمن ، ويبدو أنه ذكر ذلك في أرجوزته التاريخية فقال[١] :

أدركت بالمصر ملوكاً أربعه ... وخامساً هذا الذي نحن معه

ومعنى ذلك أنه عاصر كثيراً من أحداث الأندلس ، وربما تمرس ببعض الحوادث ، وكان عمره يوم الهيج الثاني لأهل الربض (٢٠٢) ستاً وأربعين سنة . ولكن الأخبار عنه قبل مجيء عبد الرحمن بن الحكم إلى الحكم مجهولة على نحو غريب يبعث على الدهشة ، وفي مطلع إمارة عبد الرحمن قدم زرياب إلى الأندلس ، وتقول الروايات إن الغزال لم يرتح إلى هذا القادم فهجاه هجاء مقذعاً ، لسبب لا ندريه ، فغضب منه عبد الرحمن عندما شكاه إليه زرياب فأمر بنفيه عن الأندلس فكلمه فيه أكابر دولته فعفا عنه ، وتضيف

١ النفح ١ : ٤٤٩

حدى الروايات أنّه لم يطب نفساً بالمقام في بلده فهاجر إلى المشرق ، بُعيد وفاة أبي نواس . وأنّه أقام مدة يتجول في البلاد المشرقية ثمّ حنّ إلى وطنه فعاد وهو قد شارف الستين . ولكن ليس هناك من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نعتقد صحة هذه الرواية أو أن الغزال رأى المشرق أبداً .

وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها في الأهراء استجابة لرغبة عبر عنها في إحدى قصائده[1] . وفي ذلك العام ارتفعت الأسعار فباع الغزال كل ما لديه من مخزون ، ثم نزل المطر ورخص الطعام ، فلما علم الأمير بما فعله الغزال أنكره وقال : « انما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها في الجهد ، فماذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعاماً » ، وأبى الغزال أن يدفع ثمن ما باعه وقال : « إنما أشتري لكم من الطعام عدد ما بعث من الأمداد » ، فأمر الأمير بحمله مقيداً وسجنه بقرطبة ، ومن السجن رفع الغزال إلى الأمير قصيدته التي مطلعها :

بعض تصابيكَ على زَيْنَبِ لا خيرَ في الصَّبْوَةِ للأشْيبِ

وقد مدح فيها الأمير بالعدالة والهيبة فقال :

مَنْ مُبْلِغٌ عنّي إمامَ الهُدى ألوارثَ المجـدِ أباً عَنْ أبِ
أني إذا أطْنَبَ مُدّاحُـهُ قَصَدْتُ في القَوْلِ فلم أطنِبِ
لا فكَّ عني اللهُ إن لم تَكُنْ أذْكَرْتَنا مِنْ عُمَرَ الطيِّبِ
وأصبحَ المَشْرِقُ مِنْ شَوْقِهِ إليكَ قد حنَّ إلى المغربِ
مِنْبرُهُ يهتِفُ من شوقِهِ إليكَ بالسّهْلِ وبالمَرْحبِ
أطربهُ الوقتُ الذي قد دنا وكان من قبلك لمْ يَطْرَبِ

[1] راجع المطرب : ١٢٨ وفيه أيضاً تفصيل لسفارة الغزال عند ملك النورمانديين ١٣٠ - ١٣٦

هفا به الوجدُ فلوْ مِنبرٌ طارَ لوافى خَطْفَةَ الكوكب
إلى جميلِ الوَجْهِ ذي هيبةٍ ليستْ لحامي الغابةِ المُغْضَب
لا يُمْكِنُ النـاظرَ من رؤيةٍ إلا التماحَ الخـائفِ المذنب

ثم تعرض لذكر الطعام وبيعه والمال الذي قبضه فقال :

إن تُردِ المـال فإني امرؤ لم أجْمَعِ المال ولم أكْسِبِ
إذا أخذتَ الحقَّ منّي فـلا تلتمسِ الربحَ ولا تَرْغَبِ
قـد أحسنَ اللهُ إلينـا معاً أنْ كان رأسُ المالِ لم يَذْهبِ

وواضح من هذا كيف أن الغزال لا يستعمل التذلل للاستشفاع ؛ وإنما يعتمد على شاعريته في المدح وعلى روحه الفكاهية .

غير أن تأريخ هذه القصة بأنها حدثت في أيام عبد الرحمن مما يستدعي شيئاً من التوقف ، فإنا لا نعلم قحطاً حدث في أيامه ، لكن هناك مجاعة حدثت سنة ١٩٩ في أيام الحكم والد عبد الرحمن ، فلعل للحكاية صلة بها ، أو لعل هناك قحطاً حدث في أيام عبد الرحمن نفسه ولم تحدثنا عنه كتب التاريخ التي وصلت إلينا .

ومن أخباره في أيام عبد الرحمن صلته بقاضيين أخوين من بلده جيان ، وهما يخامر الشعباني وأخوه معاذ ، أما الأول فقد ولي القضاء سنة ٢٢٠ ، فعامل الناس بخلق صعب ومذهب وعر فانبرى له الغزال يهجوه ويصفه بالبله والجهل ، ومن شعره يشير إليه[١] :

فسبحان من أعطاكَ بطشاً وقُوَّةً وسبحانَ مَنْ وَلّى القضاء يُخامِرا

١ قضاة قرطبة : ٨٣

ثم ولي معاذ القضاء سنة ٢٣٢ وكان طيباً ولّى أحباسَ قرطبةَ رجلاً ظن فيه خيراً فخاب ظنه فقال الغزال[١] :

يقولُ ليَ القاضي مُعاذٌ مُشاوِراً ... وولى امرءاً فيما يرى من ذوي الفضلِ
فديتُكَ ماذا تَحْسبُ المرء صانعاً ... فقلتُ وماذا يصْنعُ الدبُّ بالنّحْلِ
يدقُّ خلاياها ويأكلُ شَهْدها ... ويترُكُ للذبّانِ ما كانَ من فضْلِ

كان الغزال حينئذ قد تجاوز الخامسة والسبعين وتهكمه بالقاضي وصاحب الأحباس ممزوج بالحكمة . وفي هذه السن أو في قريب منها كان ما يزال يروح ويجيء إلى عبد الرحمن في قصره ، وذات يوم دخل على الأمير فحياه هذا بقوله[٢] :

جاء الغزال بحسنه وجماله .

وطلب إليه أن يجيز فقال :

قال الأميرُ مداعباً بمقاله ... جـاء الغزالُ بحُسْنِهِ وجَمالهِ
أينَ الجمالُ من امرىءٍ أرْبى على ... مُتَعَدِّدِ السبعينَ من أحواله
أين الجمالُ له الجمالُ من امرىءٍ ... ألقاهُ ريبُ الدهر في أغلاله
وأعاره من بعد جِدّتِهِ بِلًى ... وأحال رَوْنَقَ وجْهِهِ عن حاله

وهي قصيدةٌ طويلة ، لم يبق منها إلا هذه الأبيات التي تدل على نسق جميل .

١ قضاة قرطبة : ٨٦ والتكملة : ٧٣٢ والعقد ١ : ٣٩٣ (ط . ١٢٩٣)
٢ ابن عذاري ٢ : ١٣٩

سفارة الغزال إلى بلاد النورمان (أو إلى القسطنطينية)

ومن أبرز الحوادث في حياة الغزال سفارته عن الأمير الأندلسي، وقد قال ابن سعيد إنّه دهب إلى ملك القسطنطينية [1] ، وأول من دوّن خبر هذه الرحلة هو تمام بن علقمة ، معاصر الغزال ، في تاريخ له ألفه ، وذكرها ابن حيان في كتاب المقتبس ، وعن أحدهما ، فيما يبدو ، نقل ابن دحية شيئاً من خبر تلك الرحلة مفصلاً في كتاب المطرب ، ولكنه جعل أحداث الرحلة تتصل بسفارة الغزال إلى بلاد المجوس (النورمان) واستغرقت هذه الرحلة بين سفر وإقامة مدة عشرين شهراً .

ففي سنة ٢٣٠ هـ هاجم النورمانديون في نحو ثمانين مركباً شبه جزيرة البيرة سالكين الطريق البحرية من أشبونة إلى قادس ثم إلى شذونة ثم توغلوا حتّى إشبيلية ودخلوها قسراً وقتلوا كثيراً من أهلها واستمروا على ذلك سبعة أيام، فلمّا سمع الأمير عبد الرحمن بذلك بعث بالجيوش لمهاجمتهم، وتزايدت قوة المجوس بقدوم عدد جديد من السفن ، وتغلغلوا إلى قرى أخرى في عمالة إشبيلية ، وبعد أن فتكوا بالناس فتكاً ذريعاً عاد قسم كبير منهم إلى شذونة ثم إلى قادس . وفي أواخر صفر استطاعت جيوش عبد الرحمن أن تصيب في من بقي منهم مقتلاً عند قرية طلياطة ، وقتل قائد أسطولهم وصلب بعض من أُخذ منهم على جذوع النخل بإشبيلية ، كل ذلك حدث في خلال اثنين وأربعين يوماً ، ويبدو أنهم أحبوا الصلح بعد هذه المعارك ، فوفد رسول منهم على عبد الرحمن ، فوافق هذا على الصلح وانتدب الغزال ليذهب إلى بلادهم ، وبعث معه بهدية ثمينة ، وهُيِّىء له مركب حاذى به مركب الرسول ، وذهبوا جميعاً إلى بلاد المجوس . وفي عودته ، مرَّ بشنت يعقوب ، ثم صدر

[1] المغرب ٢ : ٥٧

على قشتالة ومنها إلى طليطلة ومنها إلى قرطبة .

إذن فإن هذه الرحلة قد تمت بُعيد سنة ٢٣٠ وعمر الغزال يومئذ ، إذا حسبنا أنّه ولد سنة ١٥٦ ، كان يناهز الخامسة والسبعين . إلا أن تمام بن علقمة الذي سجل تاريخ هذه الرحلة يقول إنّه كان قد شارف الخمسين ، وعلى هذا فهناك خطأ ما في هذا الموقف . إما في حقيقة سن الغزال أو في التاريخ الذي ذهب فيه إلى بلاد المجوس ؛ وللخروج من هذا الاضطراب علينا أن نفترض أن هناك سفارتين : السفارة الأولى كانت إلى القسطنطينية وعمر الغزال خمسون سنة ، والثانية كانت إلى بلاد المجوس وعمره قد تجاوز السبعين .

والرحلة كما وصفها صاحب المطرب تتلخص في أن الغزال ذهب مع جماعة لم تذكر منهم المصادر إلا واحداً هو يحيى بن حبيب ، وهيأت له رحلته تجارب جديدة في الحياة ، واستخرجت كثيراً من الشعر ، ففي البحر قابلته العواصف ، فوصفها الغزال ووصف تعلقهم بين الحياة والموت ، وقدم لذلك بمطلع غزلي ثم قال :

قال لي يحيى وَصِرْنا بينَ موجٍ كالجبالِ
وتولتنا رياحٌ من دَبُورٍ وشَمال
شَقّتِ القَلْعَيْنِ وانبتّتْ عُرى تلكَ الحبال
وتَمَطّى مَلَكُ المو تِ إلينا عن حيال
فرأينا الموتَ رأيَ الـ عَيْنِ حالاً بعد حال
لم يكنْ للقومِ فينا يا صديقي رأسُ مال

وفي هذه القطعة التحليلية الرقيقة تجد الغزال لا يزال في أشد حالات الكرب تشف نفسه عن الفكاهة العذبة في قوله : «لم يكن للقوم فينا يا صديقي رأس مال» ، وعرفته هذه الرحلات على بلاد غريبة وناس غرباء وعادات

يراها لأول مرة ، والحكايات التي تروى في هذه الرحلة ليست كلها من نسج الخيال وبخاصة رفض الغزال أن يسجد لملك المجوس ، ثم إعجاب ملك المجوس برأيه وحكمته ، ومجادلته للعلماء والحكماء هنالك . إلا أن العنصر النسائي غالب على قصص تلك الرحلة . وافتتان الغزال بزوجة الملك واسمها تود أو نود[1] — تصنعاً لا حقيقة — يدل على دهائه في التقرب إلى القلوب ، وإجادته السفارة السياسية ، وقد سئل الغزال : هل كانت الملكة من الجمال بالقدر الذي أطنبت فيه؟ فقال لمحدثه تمام بن علقمة نفسه : « وأبيك لقد كان فيها حلاوة ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . وقد خشي أصحاب الغزال عليه من كثرة تردده إلى الملكة أن يثير هذا الغيرة في نفس زوجها ، فلمّا قيل لها في ذلك قالت : « ليس في ديننا نحن هذا ولا عندنا غيرة ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن تقيم المرأة معه ما أحبت وتفارقه إذا كرهت » .

ونوادره مع الملكة مبنية على خفة ظله وميله إلى الدعابة ، كأن تسأله عن سنه فيقول لها : عشرون ، فإذا أبدت دهشتها قال لها : وما تنكرين من هذا ؟ ألم تري مهراً ينتج وهو أشهب ؟ وربما تدخل في هذه الحكايات شيء من الخيال المشرقي عن الختان والخضاب وما أشبه . ويروي ابن سعيد أنها قد جاءته ذات مرة بخمر ، وطلبت إليه أن يشربها ، فأبى لأن ذلك لا يجوز في دينه ، ثم أدركته ندامة فقال من قصيدة يعبر عن ذلك[2] :

فقلتُ حماقــةً مني ونَوْكاً فديتكِ لستُ من أهلِ الشَّمول
فأية غيرَةٍ سبحــانَ ربّي لو انّي كنتُ من أهلِ العقول

---

١ يعتقد الأستاذ برومنسال انها هي Theodora زوج توفلس وابنها هو الأمير الطفل ميشيل .
٢ المغرب ٢ : ٥٨

كان يحيى بن الحكم في صباه جميلاً ومن أجل جماله لقب بالغزال ، ويبدو أنّه كان فارع الطول ، قوي البنية ، وقد احتفظ بقوة بنيته هذه وهو في سن عالية ، وقد وصفه معاصره تمام بن علقمة بأنه كان في اكتهاله وسيماً ، وأنّه حين سفر إلى بلاد المجوس كان ما يزال مجتمع الأشد ضرب الجسم حسن الصورة ، وأنّه كان قد وخطه الشيب ، وفي شيخوخته ما يزال الأمير عبد الرحمن يداعبه بذكر جماله ، فينكر هذا ويؤكد أن الزمن قد غيره ، وأحاله عن الحال الأولى به ولا ريب في أن اختياره للسفارة في بلاد أجنبية كان يشير إلى الجانبين البارزين من شخصيته : خَلْقِه وخُلُقِه ، فأما الخُلُق فهو موصوف بحدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام والحنكة السياسية ، هذا إلى ثقافة جيدة ، وبخاصة معرفته بعلم النجوم ، كمعاصره ابن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ، وقد شهد الحميدي بأنّه كان جليلاً في نفسه وعلمه ، وسماه المقريُّ « عرّافاً » .

ويشهد معاصروه أنه كان قليل المال مهملاً في الأمور المادية ، وتدل حادثة بيعه للطعام أيام المجاعة حين ولي قبض الأعشار على انتهاز الفرص ليجد المال ، وعلى تصرفه بما ليس له ، وعلى تبديده المال الذي قبضه في وقت سريع . ويقولون إنّه كان مقبلاً على اللهو ثم أقلع عن شرب الخمر بعد عودته من المشرق وكانت يومئذ قد علت به السن وشارف الستين ، واتجه إلى الزهد عملاً وقولاً . وقد أورد له ابن عبد ربه قصيدةً تدلُّ على أنّه كان بعيداً من اللهو وأنّه لم ينقد للذاته أبداً ، مطلعها[1] :

لعمريَ ما مَلّكتُ مِقْوَديَ الصِّبا فأمْطوَ للذّات في السهل والوعرِ

....

١ العقد ٥ : ٣٥٢ (ط . اللجنة) .

وفيها يتحدث عن قناعته بشربة ماء وبخبز وبقل دون لحم وأنّه لو عمّر تسعين حجة — وقد عمر — ما اشتاق إلى الخمر والمزاهر ، بل إنّه سمع من الناس أن الخمر مرة ، ولم يذق لها طعماً :

وبالله لو عمّرتُ تسعين حِجّةً — إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خَمْرِ
ولا طَرِبَتْ نفسي إلى مِزْهَرٍ ولا — تَحَنَّنَ قلبي نحو عُودٍ ولا زَمْرِ
وقد حدّثوني أنّ فيها مرارةً — وما حاجة الإنسانِ في الشّرْبِ للمُرّ

فإن كانت هذه القصيدة للغزال حقاً ، فإنها قد تغير النظرة إلى سيرته ، وإلاّ فإنها ممّا قاله بعد أن نسك ، على أنّنا نراه في رحلته يعتذر للملكة بأن الخمر حرام في دينه ، ولا يعتذر بكبر السن أو بما يقارب ذلك ، ولا بد من أن نذكر دائماً أنّه كان ميالاً للمداعبة والفكاهة في كل أدوار حياته .

شعره

شاعر الأندلس المقدم — في نظري — على جميع شعراء هذه الفترة ، وربما كان ابن شهيد أعمق منه ثقافة وأبصر بالنقد ، وكلامه أشد أسراً وأجزل جزالة ، ولكن الغزال أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف ، وأعمق تجربة وأنفذ نظراً ، وأغور حكمة ، ومن قلة احتفاله بصقل المبنى الشعري تجد على شعره آثار الجفاء وقلة التحلية اللفظية ، وطلب المعنى في قالب مستوٍ وإن لم يكن شديد الرصانة ، وهو ميال إلى الجانب التحليلي أكثر من ميله إلى التركيز ، ولذلك اعتقد أن اتقانه للقصص الشعري كان من سماته الشعرية البارزة كما في قطعته التي يصف فيها ركوب البحر مع يحيى بن حبيب ، وكما في تصويره لهذه المشكلة القديمة الحديثة : تخيير الفتاة بين شيخ غني أو شاب

فقير ، إذ يقول[١] :

وخيّرَها أبوها بينَ شيخٍ . كثيرِ المالِ أوْ حدَثٍ فقيرِ
فقالتْ خطّتا خَسْفٍ وما إنْ أرى من خطوةٍ للمستخيرِ
ولكنْ إنْ عزمْتَ فكلُّ شيء أحبُّ إليَّ مِنْ وَجْهِ الكبيرِ
لأن المرء بعد الفقْرِ يُثْري وهـذا لا يصيرُ إلى صغيرِ

ومما يميزه بين شعراء الأندلس ميزتان كبيرتان ، الأولى : قيام شعره على النظرة الساخرة ، ووضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربته ، وهما خاصيتان عزيزتان في الشعر الأندلسي . فأما السخرية فإنها القاعدة الصلبة المتصلة بروحه الفكاهية ، وهي لا تفارقه في أحرج المواقف أو في أشدها جدية ، حتى في الغزل ، في مثل قوله :

وَهْيَ أدرى فلمـاذا دافعتني بمُحـالِ
أترَى أنّا اقتضينا بَعْدُ شيئاً مِنْ نوالِ

وقد ترتفع هذه السخرية إلى مستوى المرارة في النظر إلى حقائق الحياة كقوله :

قالتْ : أُحبّكَ ، قلتُ : كاذبةٌ غُرّي بذا مَنْ ليسَ ينْتقدُ
هـذا كلامٌ لستُ أقبلُهُ الشيخُ ليسَ يُحبّهُ أحـد
سيّان قَوْلُكِ ذا وَقَوْ لكِ إنّ الريحَ نعقدُها فتنْعقِد
أوْ أنْ تقولي : النارُ باردةٌ أو أن تقولي : الماء يتّقِد

وحين تبلغ سخريته هذا المستوى تلتقي بفلسفته الشكية الجانحة إلى

١ الجذوة : ٢٥٢

التشاؤم وسوء الظن ، وهذا هو حصاد تجربة طويلة جعلته يقول [1] :

إذا أُخبِرْتَ عن رجُلٍ بريءٍ ... من الآفاتِ ظاهرُهُ صحيحُ
فسَلْهمُ عنه هلْ هوَ آدميّ ... فإن قالوا نعَمْ ، فالقولُ ريح
ولكنْ بعضُنا أهلُ استتارٍ ... وعند الله أجمعنا جريح
ومِنْ إنعام خالقِنا علينا ... بأنّ ذنوبَنا ليستْ تَفوح
فلو فاحتْ لأصبحنا هُرُوباً ... فُرادى بالفلا ما نستَريح
وضاقَ بكل مُنْتَحلٍ صلاحاً ... لنتْنِ ذُنوبِهِ البَلَدُ الفسيخ

وهذه الفلسفة هي التي جعلته يرى العلاقة الاجتماعية شيئاً شبيهاً بعلاقة القط والفأر والثعلب والدجاج في قوله :

لا ومَنْ أعْملَ المطايا إليهِ ... كلُّ من يرتجي إليه نَصيبا
ما أرى هاهُنا من الناس إلا ... ثعلباً يطلبُ الدجاجَ وذِيبا
أو شبيهاً بالقطّ ألقى بعينيـ ... ـهِ إلى فأرةٍ يريدُ الوثوبا

ويغرق في هذه النظرة الشكية الكافرة بالخير إذا هو استحضر ذكر المرأة ، فالمرأة سرج للتداول ، أو خان يتعاقب عليه النازلون ، أو ثمرة يأكلها أول مارّ بها [2] :

إن النساء لكالسروجِ حقيقةً ... فالسرجُ سرْجُكَ ريثما لا تنزلُ
فإذا نزلتَ فإن غيرَكَ نازلٌ ... ذاك المكانَ وفاعلٌ ما تفعلُ
أو منزلِ المجتازِ أصْبحَ غادياً ... عنه ، وينزلُ بعده مَنْ ينزلُ
أو كالثمارِ مباحةٌ أغصانُها ... تدنو لأوّلِ مَنْ يَمرُّ فيأكلُ

١ الجلوة : ٢٥٢
٢ المطرب : ١٣٦

وخلاصة فلسفة الغزال أن الناس جميعاً متساوون لأنهم يتساوون في العيوب ولا يتفاوتون في الفضائل ، وكل واحد يرى عيب أخيه ولو كان صغيراً ويعمى عن عيب نفسه :

يَسْتَثْقِلُ اللَّمَمَ الخفيف بغيره وعليه من أمثال ذاك جبالُ

ويبدو أن الشيخوخة فعلت فعلها في نفس الغزال ومزجت نظرته إلى الحياة بمرارة شديدة، وبعد أن كانت سخريته تريحه، ثقلت عليه وطأة السنين ، وكان من جراء ذلك أن امتزج شعره بالموعظة . واتجه اتجاهاً زهدياً فأخذ ينعى على أهل اليسار احتفالهم ببناء قبورهم كأنهم غافلون عمّا خرب من مدائن وقصور ، ويذكر الموت ، وأنّه لم يفرق بين من يلبس الصوف ومن يلبس الحرير :

إذا أكلَ الثّرَى هـذا وهـذا فما فضلُ الكبيرِ على الحقير

وأخذ يرثي نفسه ويستشعرُ الغربة بين أجيال لا تعرفه ، بل ربما حسدته على طول عمره[1] :

أصبحتُ واللهِ محسوداً على أمَدٍ من الحيـاةِ قصيرٍ غيرِ مُمْتَدّ
حتى بقيتُ بحمدِ اللهِ في خَلَفٍ كأنني بينهمْ مِنْ خشيَةٍ وحدي
وما أفارقُ يوماً مَنْ أفارِقُهُ إلا حسبتُ فراقي آخرَ العهـد
أنْظُرْ إليَّ إذا أُدْرِجْتُ في كفنٍ وانظرْ إليَّ إذا أُدْرِجْتُ في اللحد
واقعدْ قليلاً وعاينْ من يقيمُ معي ممّن يُشيّعُ نَعشي منْ ذوي ودي
هيهاتِ كُلّهُمُ في شأنه لَعِبٌ يرمي الترابَ ويحثوهُ على خدّي

١ العقد ٣ : ٥٨ ، ١٩٠ (ط. اللجنة) .

وحتى في هذا الفن لا نحسّ أن الغزال كان يصطنع هذه الحكمة ليقال إنه مجرب ، وإنّما هي تفيض عن نفسه طبيعية معقولة — وإن كانت مريرة — وفي بعض أشعار الزهد هذه تصح له ابتكارات المستغرق في ذات موضوعه كقوله[1] :

ولو كانت الأسماء يدخلُها البِلى   لقد بَلِيَ اسمي لامتدادِ زماني
وما ليَ لا أبلى لسبعين حجّةً   وسبعٍ أتت من بعدها سنتان
إذا عنّ لي شَخصٌ تخيّلَ دونه   شبيهُ ضبابٍ أو شبيهُ دُخان

تلك هي النهاية التي انتهى إليها الغزال في الشعر ، أما بدايته فكانت بصراً نافذاً بالنقد في شبابه أيام كان يدرس في مسجد قرطبة ، وعبثاً لاذعاً بمن حوله من الأشخاص الذين لا يعجبونه ، ومحاكاة لأبي نواس في خمرياته ومجونياته ، وهجاء مقذعاً ، وغزلاً لا يتميز بالرقة ، وربما كان أضعف فنونه ، ثم حكمة قائمة على السخرية تنتهي إلى فلسفة شكية مريرة متشائمة ، ورثاء لشيخوخته وضعفه .

١ المطرب : ١٤١

٢ ـ أبو مروان

مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس

ـ ٢٦٧ هـ

المغرب ١ : ١٣٢ ـ ١٣٤ الجذوة : ٣٢٠ المقتبس : ١٣٨
الخشني : ١٠٣ ـ ١٠٥ ، ١٢١ النفح ٢ : ٨٧٣ ابن القوطية : ٧٢ ، ٨٥
اليتيمة ١ : ٣٧١ ـ ٣٧٢

جده إبراهيم بن قيس من موالي الأمير عبد الرحمن الداخل، اتخذ قرطبة موطناً له ، وفيها ولد مؤمن ونشأ وعلا نجمه في الشعر أيام الأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣) واختص بمدحه مسلمة ابن الأمير المذكور[١] والقائد هاشم ابن عبد العزيز ، ولكنه كان كثير التندر والتهكم حادّ الجواب لاذع التعليقات ، يتتبع زلاّت الناس ويكثر من الهجاء وينبز خصومه بالألقاب التي تدور على الألسنة بسرعة، وهذا جرّ عليه عداوات كثيرة ، ولعلّه خرج عن قرطبة في رحلة إلى المشرق لكي يغيب عن أرض لم تعد تطيق وجوده ، وفي رحلته هذه لقي أبا تمام وروى عنه شعره ، وعاد إلى الأندلس بعد ذلك يقرىء شعر أبي تمام ويدرس الأحداث بجامع قرطبة[٢] ، وعلى مقربة منه مجلس القاضي ، ولذلك كان مؤمن عارفاً بما يجري من أمور في مجالس القضاء فكان كثير العبث بالقضاة وقد مرت بنا مداعبته للقاضي قبعة عمرو بن

. . . .

١ المغرب ١ : ١٣٤
٢ قضاة قرطبة : ١٠٤

عبد الله وتعريضه به واضحاك الناس بدلك [1] . وكان لهذا القاضي ابن يدعى أبا عمرو كثرت فيه القالة ونسب إلى اختيان بعض المال المستودع فهجاه مؤمن ومدح أباه [2] . فلمّا بلغت الأبيات سَمْعَ الأمير محمد قال : قد أكثر الناس في عمرو وفي ولده وعزل الأب عن القضاء [3] .

وكان مؤمن لا يدع موقع نادرة أبداً حتى مع الطلاب الذين يقرأون عليه . سأله مرة أحدهم بعد أن قرأ بيت أبي تمام :

أرْضٌ خلعتُ اللهوَ خَلْعي خاتمي   فيها وطلّقْتُ السّرورَ ثلاثا

مَنْ سرورٌ هذه أصلحك الله ؟ فقال مؤمن : هي امرأة حبيب وقد رأيتها ببغداد [4] . وكانت تعليقاته تشيع بين الناس فيرددونها فتكون سبباً لتنكر الناس له وحقدهم عليه وتربصهم به . قيل له مرة : ما بالك لا تسامر الوزير حامداً (الزجالي) حسبما نراك تفعله مع الوزراء من أصحابه مع قديم اتصالك به ؟ فقال : ذاك جنازة غريب لا يصحبها من صحبها إلا لله . فبلغت كلمته حامداً فحقدها عليه . وبعد أيام ذهب مؤمن يشيعه وهو ذاهب من قصر السلطان إلى داره ، فلمّا أراد مؤمن الانصراف قال له حامد : أعظم الله أجرك أبا مروان وكتب خطاك (وهو دعاء يقال لمن يشيع الموتى) [5] ، هذا كلّه مع سابق صحبة ومسامرة ، حتى إن مؤمناً كان من مداحي حامد ، ولما ولي الكتابة مدحه بقصيدة مطلعها [6] :

١ قضاة قرطبة : ١٠٥
٢ قضاة قرطبة : ١٢١ واس القوطية . ٧٢
٣ قضاة قرطبة : ١٢١.
٤ المعرب ١ : ١٣٢
٥ المعرب ١ : ٣٣١
٦ اس القوطية : ٨٥

أيُّ الأمورِ برأيِ حامدٌ   لم تنتظمْ نَظْمَ القلائدْ

وإذا كان حامد قد اكتفى بمعاتبته على هذا النحو فإن غيره لم تكن تهدأ ثائرته إلا بالانتقام . وكانت نقطة التحول في حياة مؤمن حين فسد ما بينه وبين القائد هاشم بن عبد العزيز . ففي سنة ٢٦٢ توجه هاشم في غزو في ناحية ابن مروان الجليقي الثائر ببطليوس ، وتقدم مبعداً عن معظم عسكره في فئة قليلة فأخذت عليه المضايق وقتل جماعة من أصحابه ووقع هو في الأسر [١] فشمت به مؤمن وتوجه بعواطفه صوب عمر ابن عم هاشم وعدوه وقال يخاطبه في قصيدة صنعها سراً :

تصبّحْ أبا حفصٍ على أسْرِ هاشمٍ   ثلاثَ زجاجاتٍ وخَمْسَ رواطمِ
وَبُحْ بالذي قد كنتَ تُخْفيهِ خفيةً   فقد قَطَعَ الرحمنُ دَوْلَةَ هاشمِ

وصنع على وزن هذه القصيدة قصيدة أخرى يمدح بها هاشماً لكي يظهر بمظهر البريء من الشماتة به .

وفي سنة ٢٦٤ خلص هاشم من الأسر ، وبلغته شماتة مؤمن وتغيرت عليه نفسه فأخذ يكيد له عند الأمير محمد . ومن السهل إيقاع شخص مثل مؤمن منطلق اللسان لا يتحفظ في أقواله . ويبدو أن هاشماً نجح في سعايته ، وكان من ذلك أن أُلقي مؤمن في السجن ، فأخذ يرسل القصائد والرسائل المطولات من حبسه إلى هاشم لعله يعطف عليه ، وتشفع لديه بجده محمد بن جهور فما أفاده ذلك شيئاً ، فلما يئس من عطفه أخذ يهجوه بالمقذعات [٢] .

١ ابن عذاري : ١٥٤
٢ المغرب ١ : ١٣٣

ولبث مؤمن في سجنه حتى عام ٢٦٧ . ثم إن أهل السجن ذات يوم كسروا السجن وفروا منه ، وربما كان سبب ذلك مجاعة حدثت حينئذ وتطاول فيها المفسدون وكثرت السرقات والتعديات [١] ، وأبى مؤمن أن يفر حين سمع أن هاشماً قدم لمعاينة السجن ظناً منه أن ذلك قد يرقق قلبه عليه ، ولما دخل هاشم قام إليه مؤمن واستعطفه فلم يلتفت إليه بل أوصى السجان أن يوصد عليه ، فأدركه كمد ويأس لم يمهلاه أكثر من ستة أيام ، وتوفي ليلة الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة ٢٦٧ [٢] .

شعره

قال فيه ابن حيان : إنه فحل شعراء قرطبة ، ولقبه الحجاري « دعبل الأندلس » لأنه تميز في الهجاء حتى كان يهاجي ثمانية عشر شاعراً ويتفوق عليهم ، وممن كان يهاجيه ديك تيس الجن أحمد بن محمد الكتاني (الجياني) [٣] والعتبي المختص بمدح الأمير القاسم بن محمد [٤] وعباس بن فرناس ، وكان مؤمن يتندر عليه في محاولته الطيران ويقول :

يَطُمُّ على العنْقاء في طَيَرانِها ... إذا ما كسا جثمانَهُ ريش قشعمِ

وصنع عباس في بيته هيئة السماء وخيّلَ للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق فهجاه مؤمن عابثاً . وكان أيضاً يتعقبه في شعره ، فلما أنشد قول عباس في مدح الأمير محمد :

١ قضاة قرطبة : ١٥١ .
٢ المغرب ١ : ١٣٣
٣ المغرب ٢ : ١٥٨
٤ المغرب ١ : ١٣٤

رأيتُ أميرَ المؤمنين محمداً   وفي وجهه بَذْرُ المَحبَّةِ يثمر

قال له مؤمن : قبحاً لما ارتكبته ، جعلتَ وجه الخليفة مَحرَثاً يثمر فيه البذر ! فخجل عباس وسبّه[1] .

وقد قال الحميدي إنه كثير الشعر ولكن لم يصلنا إلا مقطعات قليلة منه . وأقل ما تبقّى من شعره هو الهجاء . فنه الذي كان فيه ظاهراً على معاصريه من الشعراء ، وقد كان هو والغزال مسلطين على هجاء زرياب ، وربما كان ذلك غيرة ممّا ناله ذلك المغني من حظوة لدى صاحب السلطان ، فمن أهاجيه فيه[2] :

تَبارَكَ من أذلَّ الحرَّ حتى   تمعك فيهِ أفواه الكلاب
ومن جعل الغواليَ سائلاتٍ   على أصداغ أسود كالغراب

ووردت له مقطعات في الغزل لأن ابن فرج ذكره في الحدائق وأورد له أمثلة من شعره الغزلي . وذكر له ابن حيان في المقتبس قطعة من الغزل بالمذكر[3] . ومن أصدق شعره تصويراً لحاله قطعة يصور فيها نظرة الناس إليه واستثقالهم له وتحاميهم لقاءه ، وفيها يقول[4] :

إنما أزْرى بقدري أنّني   لستُ من بابةِ أهْلِ البَلَدِ
ليس منهم غيرُ ذي مَقْلية   لذوي الألباب أو ذي حسدِ
يتحامونَ لقائي مثلما   يتحامونَ لقاء الأسَدِ

١ النفح ٢ : ٨٧٣
٢ كتاب التشبيهات : ٢٨٥ وانظر ص : ٢٧٨ أيضاً .
٣ المقتبس : ١٣٨
٤ اليتيمة ١ : ٣٧٢

طَلْعَتِي أثقلُ في أعينهمْ وعلى أنفسهِمْ مِنْ أحُدِ
لو رأوني قَعْرَ بحرٍ لم يكُنْ أحَدٌ يأخذ منهمْ بيدي

وكان الأمر شبيهاً بما قال ، ومن صوره المستملحة قوله يصف نفسه وهو مبترد ويسخر من حالته[1] :

ليسَ عندي من آلةِ البرد إلا حسن صبري ورعدتي وقنوعي
فكأنّي مِن شدّة البرد هرٌّ يرقبُ الشمس عند وقت الطلوع

وله قطعة ذات سخرية عميقة يتغزل فيها بالدرهم ويقول[2] :

تيَّمني حبّـك يا درْهمُ فالقلبُ من برح الهوى مغرمُ
يا مشبه النجمِ إذا مـا بدا منـك استعارت حسنها الأنجم
إن كنت لا أهواكَ كنت الذي في عين مهران إذاً يلطم[3]

١ كتاب التشبيهات . ١٧١
٢ كتاب التشبيهات : ٢٦٥
٣ يشير إلى شخص مجنون بذلك الموضع المسمى « عين مهران » .

٣ – محمد بن يحيى القلفاط

٣٠٢ هـ

طبقات النحويين : ٣٠١	واليتيمة ١ : ٣٩٥	والجذوة : ٩١
وبغية الملتمس : ١٣٤	والنفح ٢ : ٨٣٢	والمغرب ١ : ١١١
انباه الرواة ٣ : ٢٢١	بغية الوعاة : ١١٤	ابن عذاري ٢ : ١٩٣
الحلة : ١٩٣	المقتبس : ٤٢ ، ٤٨	

قرطبيّ كنيته أبو عبد الله ، سكتت جميع المصادر عن تعين ميلاده ، ولكنا نعلم أنّه كان حياً في أيام الأمير عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠) وأيام عبد الرحمن الناصر ، ورجح الحميدي أنّه عاش إلى أيام الحكم المستنصر ، وهذا مستبعد . وكان سلطان الأمويين أيام عبد الله قد تقلص ، فهناك ابن حفصون كبير الثوار بالأندلس ، وابن حجاج الذي استقل بإشبيلية ، وسعيد بن جودي بغرناطة وغيرهم كثيرون ، وكل واحد منهم يتصرف في شئون منطقته ، وكل شيء ينذر بانتكاس ، وفي هذه الغمرة من الفوضى نسمع القلفاط يهجو الأمير عبد الله نفسه بقوله من قصيدة[١] :

ما يَرْتَجي العاقلُ في مُدّةٍ ... ألرِّجْلُ فيها مَوْضِعُ الراسِ

ولعله في هذه الفترة ارتحل عن قرطبة وقصد عبيد الله بن الشالية بمنطقة سمنتان وكاتبه يومئذ عبيديس الجياني ، ولمّا وصل القلفاط إلى جبل سمنتان كان عبيد الله غائباً فرحب به الكاتب عبيديس وأكرمه ، لكن غيبة عبيد

١ المغرب ١ : ١١١

الله طالت . فعزم القلفاط على الخروج فكتب عيديس قصيدة إلى ابن الشالية يقدم له فيها القلفاط ويسأله أن يمنحه البر والإكرام .

ولما نجم إبراهيم بن حجاج بإشبيلية قصده القلفاط ، كما قصده غيره من الشعراء ، ومدحه بقصيدة أولها :

أرّقتْ رحلتي فأهمتْ جفُونا

وفي تلك القصيدة أنحى بالهجاء على أهل بلده قرطبة ، وأفحش في ذكر كبرائها وعظماء دولتها ، فتوجس منه إبراهيم ريبةً ولم يرق في عينه ، وأبغضه لذلك وصرفه دون نوال ، فعاد إلى قرطبة محنقاً وأخذ يهجو إبراهيم ابن حجاج ، وقال فيه قصيدة مطلعها :

لا تنكري للبينِ طول بُكائي

ومنها البيت :

أبْغي نوالَ الأكرمينَ معاً ولا أبغي نوالَ البُومَةِ البَكْماء

وبلغت القصيدة مسامع إبراهيم فغضب وحلف إن عاد القلفاط إلى الهجاء أنّه سيرسل إليه من يأخذ رأسه بقرطبة على فراشه ، ودسّ إليه من يعلمه ذلك ، فخاف القلفاط على نفسه وسكت . وحمد الناس بقرطبة لإبراهيم هذه الفعلة لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلفاط [1] ، ومعنى ذلك أنّه هدده إذا لم يكف عن الهجاء جملة .

هكذا كاد هجاؤه أن يجني عليه وكذلك كان ميله إلى العبث سبباً في

---

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٣ والمغرب ١ : ١١١ قال إبراهيم بن حجاج : «والله الذي لا إله غيره لئن لم تكف عما أخذت فيه لآمرن من يأخذ رأسك فوق فراشك» .

مآزق كادت تودي بحياته ، ذلك أنّه كان يحب التهكم بالمؤدبين ويحتال بصنوف الحيل ليعبث بهم – تنكر ذات مرة ودخل على مؤدب اسمه صالح ابن معافى وأظهر له أنّه يريد أن يتلقى العلم على يديه وانتسب له إلى البادية ، فاجتهد صالح في تأديبه وتبصيره ثم دُلّ صالح على حقيقته فلما جاءه ذات يوم أمر تلاميذه بربطه إلى أحد أعمدة المسجد وضربه وتداول تلامذته ضربه كذلك حتى كادوا يأتون عليه[1] .

وتعرض مرة أخرى للموت بسبب الهجاء، فقد كان في قرطبة رجل اسمه حرقوص وعد القلفاط أن يصحبه إلى كرم له بالجبل ، وطالت المدة وحرقوص لا يفي بوعده ، فلجّ القلفاط في هجائه ، فلما سمع بذلك والد حرقوص لاطفه وأخذه إلى الكرم وجنى له من فواكهه شيئاً حمله إلى منزله ، ولكن القلفاط لم يسكت عن الهجاء وعندئذ ضاق حرقوص به ذرعاً ، وأخذ سكيناً – وقد عرف أنّه في داره – وتسور عليه الدار ، فلحظه القلفاط وأدرك الشر ، فعمد إلى مصلاه واستقبل القبلة ودخل في الصلاة ، فأمسك عنه حرقوص وقال : يا فاسق والله لولا أنّك عذت بمعاذ للقيتُ الله بدمك فإنك زنديق حلال الدم[2] .

ولم تكن حاله مع الشعراء خيراً من هذا لأنه كان شديد التعرض كثير المهاجاة لهم[3] ، حتى إن أصدقاءه منهم لم يسلموا من لسانه ، وكان بينه وبين ابن عبد ربه سبب من صداقة ثم تغيرت الحال وتهاجيا هجاء مقذعاً ، كان من جملته قول القلفاط يهجوه[4] :

يا عِرْسَ أحمد إني مزمعٌ سَفَرا   فودعيني سِرّاً من أبي عُمَرا

١ طقبات الزبيدي : ٢٩٩
٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٣ – ٣٠٤
٣ المصدر السابق : ٣٠٣
٤ النفح ٢ : ٨٣٢ والمقتبس : ٤٢

ومن أصدقائه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الملقب بالحكيم وكان الغايةَ في علم العربية والحساب ، بات عنده القلفاط مرّة حتى تبلج الصبح وكادت الشمس تطلع عليهما فانتبه القلفاط فقال للحكيم :

يا ديكُ ما لكَ لم تَصْرُخْ لتُنْبِهَنا   لقد أسأتَ بنا ديكَ الدجاجاتِ
يا آكلاً للقذى يا سالحاً عبثاً   على الحصيرِ بهيميَّ البهيماتِ

فأجابه الحكيم :

لقد صرختُ مراراً جمةً عدداً   قبلَ الصباحِ وبعد الصبحِ تاراتِ
لكن علمتُكَ نوّاماً وذا كَسَلٍ   قليلَ ذِكْرٍ لجبّار السماواتِ[1]

وممّن تولّع بهم وآذاهم بهجائه أبو زيد الأديب[2] .

ومن كل هذا يتجلى لنا أن الإسراع إلى الهجاء والذم كان طبعاً متأصلاً في القلفاط لا ينفك عنه .

وكان القلفاط من حيث مظهره وسخ الثياب رذل الهيئة .

وكان يجمع إلى قدرته في الشعر ، قدرة فائقة في اللغة ، ولم يكن أحد يقارن الحكيم – صديقه – في علمه وثقابة ذهنه في نظره غيره ، ولذلك عدّ القلفاط في النحويين . وأورد له الزبيدي قصيدة جمع فيها بعض المسائل والأحاجي النحوية[3] ، ويبدو أنّه لم يؤلف في النحو وإنّما اكتفى بالإقراء والتدريس ، وقد دلّلَ الزبيدي على اطلاعه اللغوي بحديث رواه أحدهم «لا يسجي المسلم في عرض أخيه» فاعترضه آخر وقال « لا يسحي المسلم . . . »

١ طبقات الزبيدي ٠ ٣٠٠
٢ التكملة : ٣٣٢
٣ طبقات الزبيدي : ٣٠٤

بمعنى يقشر . فلما عرضت الكلمة على القلفاط قال : بل صوابها «لا يشحي» أي يفتح فاه سبه من قولهم : «شحا الحمار فاه بالنهيق»[1]. وكان محمد بن يحيى في النفر الذين جمعهم عبد الرحمن الناصر لانتساخ شعر أبي تمام وترتيبه[2] .

شعره

قال الزبيدي في القلفاط : كان شاعراً مجوداً مطبوعاً ، وكان يقصد فيطيل ويحسن . وعدّه ابن حيان من شعراء المعلمين[3] ولكن لم يصلنا من شعره قصيدة واحدة بطولها ، حتى هجاؤه الذي كان سيفاً مسلولاً في وجوه الناس بقرطبة لا نعرف منه إلا أبياتاً . على أن غلبة الهجاء عليه لم تحرمه من المشاركة في موضوعات شعرية أخرى ، وبخاصة الغزل . وغزله رقيق سهل الانسياب ، من ذلك قوله :

يا غزالاً عنَّ لي فابـ ـتزَّ قلبي ثمَّ ولّى
أنتَ منّي بفـؤادي يا مُـنى نفسيَ أوْلى

وقد أنشد أحد الأندلسيين قصيدته هذه لأحد البغداديين فأعجب بها وفضّلها على ما سمعه من شعر ابن عبد ربه وقال : «هذا الشعر بختمه ، لا ما أنشدتني به آنفاً»[4] . وأورد له الثعالبي في اليتيمة قطعتين في الغزل لعلهما

١ طبقات الزبيدي : ٣٠٢
٢ طبقات الزبيدي : ٣٠٦
٣ المقتبس . ٤٨
٤ طبقات الزبيدي : ٣٠٢

من قصيدة واحدة ، والأولى منهما[1] :

طوى عنّي مَودَّتَهُ غزالٌ　طوى قلبي على الأحزانِ طيّا
إذا ما قلتُ يسلاهُ فؤادي　تَجدّدَ حبّهُ فازددتُ غيّا
أحبّيهِ وأفديه بنفسي　وذاكَ الوجهُ أهلٌ أنْ يُحبّا

والثانية :

أيا طيفاً سما وهفا إليّا　لقد جدّدْتَ لوعاتي عليّا
ألمْ مواصلاً كأخي غرامٍ　سيذكرُ وصله ما دامَ حيّا
غزالٌ لو رأى غيْلانُ يوماً　محاسِنَهُ إذَنْ أنساهُ ميّا

وذكره أبو عامر ابن مسلمة في كتاب الارتياح بوصف الراح ونقل عنه الحميدي له شعراً في الرياض :

مُزْنٌ تُغنّيهِ الصَّبا فإذا همى　لبّتْ حياهُ رَوْضةٌ غنّاءُ
فالأرضُ من ذاك الحيا مَوْشيّةٌ　والروضُ من تلك السماء سماء
ما إن وَشتْ كفّا صناعٍ ما وشى　ذاك الغناء بها وذاكَ الماء
زهرٌ لها مُقَلٌ جواحظُ تارةً　ترنو ، وتاراتٍ لها إغضاء

وشعره في الغزل رقيق حقاً، وفيه من الحيوية والحرارة ما يفتقد في هذه المقطوعة التي يصف فيها الروض . على أنه بعد ذلك أنموذج فذ للشاعر الأندلسي الهجّاء ، المثقف بثقافة لغوية نحوية ، البعيد بعض الشيء عن حياة البلاط ، الملابس لحياة الناس في قرطبة

[1] اليتيمة ١ : ٣٩٥

٢

شعراء عهد الخلافة

٣٠٠ – ٣٩٩

يشغل هذه الفترة ثلاثة من الخلفاء الأمويين هم الناصر والمستنصر وهشام المؤيد ، إلا أن المؤيد كان ضعيفاً وكانت السلطة الفعلية في يد الحاجب ، وقد تولّى الحجابة المنصور بن أبي عامر والمظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول ، ولهذا يمكن أن تسمى الفترة الثانية (بعد ٣٦٦) باسم الدولة العامرية . على أنه ليس هناك انفصال في الحركة الأدبية ، فإن كثيراً من الشعراء الذين عاشوا في الفترة الأولى استمروا أحياء في الدولة العامرية . ويُعد ابن عبد ربه صلة بين هذه الفترة والتي سبقتها ، وبعد وفاته بعامين قدم القالي إلى الأندلس ، وهنا يبدأ عصر النهضة الأندلسية في اللغة والنحو والأدب وغير ذلك ، وفي تلك الفترة عاش أحمد بن فرج الجياني صاحب الحدائق وقد ذكر في كتابه مختارات لمعاصريه ولمن كان قبلهم ، ويمكن أن نستعيد جزءاً من هذا الكتاب الذي لا يزال مفقوداً مما نقله الحميدي وابن سعيد وابن الأبار في الحلة السيراء ؛ وشعراء هذه الفترة كثيرون منهم مقدم بن معافى القبري وابن هذيل والرمادي وعبد الملك بن إدريس الجزيري وجعفر بن عثمان المصحفي والشريف الطليق وابن درّاج .

ومع أن ابن درّاج عاش طويلاً في ظلّ الدولة العامرية إلا أننا سنجعله أحد الأمثلة على ما أحدثته الفتنة البربرية من تأثير ، ونكتفي بدراسة ثلاثة شعراء يمثلون عهد الخلافة هم : ابن عبد ربه والرمادي والشريف الطليق .

١ ـ أبو عمر

أحمد بن محمد بن عبد ربه

١٠ رمضان ٢٤٦ هـ ـ ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ

المطمح : ٥١ — والجذوة : ٩٤ — وبغية الملتمس رقم : ٣٢٧
ومعجم الأدباء ٢ . ٦٧ — وابن خلكان رقم : ٤٥ — والرايات : ٤٧
والمطرب : ١٤١ — وابن الفرضي ١ : ٤٩
وأشعاره في العقد واليتيمة ١ · (٣٦٠ ، ٤١٢) ، والنفح ، والشريشي ، وابن عذاري ، وتاريخ الناصر ، والمقتبس : ٤١ وصفحات أخرى ، وابن عبد ربه وعقده للدكتور جبرائيل جبور.

كان سالم ـ أحد أجداده ـ مولى من موالي الأمويين ، وقد نشأ أحمد حفيده بقرطبة ، وكان في نشأته فقيراً خاملاً ، فطلب العلم على شيوخ عصره في جامع المدينة ، ومن أهم شيوخه بقي بن مخلد وابن وضاح والخشني . وأول هؤلاء كان ذا فضل كبير على الثقافة الأندلسية الفقهية لأنّه بالإضافة إلى سعة علمه ، وكثرة تواليفه ، أدخل إلى الأندلس كثيراً من كتب المشارقة كمصنف ابن أبي شيبة وفقه الشافعي والتاريخ لخليفة بن خياط ، والطبقات له أيضاً ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي ونسخة من كتاب العين سمعها على ابن ولاد بمصر . وأمّا ابن وضاح فإنه كان عالماً بالحديث ، بصيراً بطرقه ، متكلماً على علله . وأمّا الخشني فإنّه لقي لغويي المشرق في رحلته فأخذ عنهم كثيراً من كتب اللغة ، رواية الأصمعي ، ودخل بغداد وكتب بها كتب أبي عبيد القاسم بن سلام، وأدخل الى الأندلس كثيراً من حديث الأئمة وكثيراً من اللغة والشعر الجاهلي رواية . فالثقافة التي تلقاها ابن عبد ربه

عن هؤلاء الأعلام تشمل الفقه والحديث واللغة والسير والأخبار . ومعرض هذه الثقافة كتاب العقـــد ، لأن فيه نقولاً من كتب المشارقة وفي رأسها كتب ابن قتيبة وكتب ابن سلام وبخاصة كتاب الأمثـــال . فإنّه قد اقتبسه في كتاب العقد . بشيء من الاختصار . هذا عدا اطلاعه الواسع على دواوين شعراء المشرق ومؤلفات اللغويين . ولهذه الثقافة أثرها في شعره . كما سأبين من بعد .

وقد اكتسب ابن عبد ربه بعلمه أولاً وبشعره ثانياً مكانة كبيرة بين علماء الأندلس وأدبائها وفي بلاط أمرائها ، واغتنى بعد فقر وسادَ بعد خمول حين اتفقت له أيام كان للعلم فيها نفاق[1] ، إلا أنّه جنح إلى الشعر فغلب عليه .

وكان متصاوناً متديناً آخذاً بحظّه من المتع المباحة ، وقد مرَّ بنا كيف كان مغرماً بالغناء يدافع عنه ويرى إباحته ، أما الخمر فلا أظنه كان يشربها وإن أكثر من ذكرها في شعره . على أنّه قد يستشف من ندمه عندما كبر أنّه كان مقبلاً على اللذات ، ولكني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرج لا توبة اللاهي العابث ، وأعني بالفقيه المتحرج من يدركه الخوف من صغائر الذنوب في شيخوخته ومن ينظر إلى الغزل أو القول في الخمر أو إلى استماع الغناء والنظر إلى الجواري الجميلات نظرة مخالفة لما كان يستبيحه من ذلك في شبابه ، ولعله أن يتوهم ذنوباً لم يقترفها . وربما بدا لي أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمت منه إلى الانطلاق ، فقد أورثته ثقافته الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كلّ جديد وتعادي العلوم الدنيوية – إذا صحت التسمية – ويكفي أن نذكر صلته بمسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي ، الذي كان عالماً بالحساب والنجوم ، وكيف عابه لاهتمامه بهذه العلوم ووصفه بأنّه شاذ عن رأي الجماعة ،

---

١ الجذوة : ٩٤

وتهكم بمعارفه الفلكية والجغرافية . وأعلمه بأنّه لا يصدق ما تضمنته علومه ، في قوله[1] :

زعمتَ بهرامَ أو بيدختَ يرزقنا	لا بل عطاردَ أو مريخ أو زُحلا
وقلت إن جميع الخلق في فَلَكٍ	بهم يحيطُ وفيهم يَقْسِمُ الأجلا
والأرضُ كوريةٌ حفَّ السماءُ بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطةً مثلا
صَيْفُ الجنوبِ شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دُوَلا
كما استمرَّ ابنُ موسى في غوايتهِ	فوعّر السهلَ حتى خِلْتُهُ جبلا
أبلغْ معاويةَ المصغي لقولهما	أني كفرتُ بما قالا وما فعلا

وابن موسى هو الأقشتين ومعاوية هو ابن الشبانسي . ومن صور العداء بينه وبين العلوم الجديدة أنّه ربما كره ابن أخيه سعيداً من أجلها ، لا لأن هذا كان ثقيل الظل ، كما يقول صاحب المغرب[2] .

وعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، لما شهر عنه من تقوى وديانة ، فقد كان ، فيما يبدو ، ضيق العطن ، حاد الطبع ، سريعاً إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ، كثير الشكوى من الزمان ، سيء الظن بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات دون الحسنات في زمانه وأهله . وإذا عادى صديقاً اندفع في هجائه ، وقصته مع القلفاط الشاعر الذي كان من أقرب أصدقائه إليه قد تصور حدته وسلاطة لسانه إذا هجا . على أن علاقته بغير القلفاط من شعراء عصره كانت طيبة ، فكان بينه وبين محمد بن عبيد الله بن أبي عبدة الليثي مقارضات شعرية ؛ كتب إليه ابن أبي عبدة يقول[3] :

١ طبقات صاعد : ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٢٦

٢ انظر المغرب ١ : ١٢٠ ، وطبقات صاعد : ١٢١ ، وابن أبي أصيبعة ٢ . ٤٤ ، واليتيمة ١ : ٤٠٤ ، والتكملة : ٧١٠

٣ الجذوة : ٦٢

أعِدْها في تصابيها جِذاعا فقد فُضَّتْ خواتِمُها نِزاعا
قلوبٌ يَسْتَخِفُّ بها التصابي إذا سُكِبَتْ لها طارتْ شَعاعا

فأجابه ابن عبد ربه بأبيات قال فيها :

متى يَمْشي الصديق إليَّ فتراً مشيتُ إليه مِنْ كرَمٍ ذراعا

ومن هذه الإخوانيات ما حكاه الحميدي أيضاً عن صديق له أرسل إليه طبقاً فيه أنابيب من قصب السكر ، فكتب ابن عبد ربه إليه ، مرفقاً قصيدته بهدية[1] :

بعثتَ يا سيّدي حُلْوَ الأنابيبِ عَذْبَ المَذاقةِ مُخْضَرَّ الجلابيبِ

وهو يخاطب في بعض أشعاره صديقاً له يكنى بأبي صالح وينعى إليه الكرم وانعدام الكرام في عصره . ولا نعرف شيئاً أدق عن علاقاته أو عن حياته الخاصة إلا أنّه فقد اثنين من أبنائه وكان أحدهما طفلاً والآخر كبيراً يكنى بأبي بكر ويسمى يحيى ورثاهما بقصائد كثيرة منها[2] :

بَلِيَتْ عِظامُكَ والأسَى يتَجَدَّدُ والصبرُ يَنْفَدُ والبُكا لا يَنْفَدُ
يا غائباً لا يُرْتَجى لإيابِهِ ولقائهِ دونَ القيامةِ مَوْعِدُ
ما كان أحسنَ مَلْحَداً ضُمِّنْتَهُ لو كان ضَمَّ أباكَ ذاكَ الملحدُ
باليأس أسلو عنك لا بتَجَلُّدي هيهاتِ أين مِنَ الحزينِ تَجَلُّدُ

ومنها :

. ...

١ الجذوة : ٣٧٦
٢ العقد : ٢٥٠ – ٢٥٣

واكبدا قد تقطّعتْ كبدي وحرّقتْها لواعجُ الكَمدِ
ما مـات حيٌّ لميّتٍ أسفاً أعْذَرُ مِنْ والدٍ على ولدِ

ومن قصائده في رثاء ابنه الطفل[1] :

على مثلها مِنْ فجعة خانني الصَّبْرُ فراقُ حبيبٍ دونَ أوْبَتِهِ الحَشْرُ
ولي كَبِدٌ مَشْطورَةٌ في يدِ الأسى فتحتَ الثرى شَطْرٌ وفوق الثرى شطر
يقولون لي صبْرٌ فؤادكَ بَعْدَهُ فقلتُ لهمْ : ما لي فؤادٌ ولا صبر
فُرَيْخٌ من الحمرِ الحواصلِ ما اكتسى من الريشِ حتى ضَمّهُ الموتُ والقبر
إذا قلتُ أسلو عنه هاجتْ بَلابِلٌ يجدّدُهـا فكرٌ يجدّدُهُ ذكر
وأنظرُ حولي لا أرى غـيرَ قبرهِ كأنّ جميعَ الأرضِ عندي له قبر

وفي أواخر عمره أصيب بالفالج ، ولما توفي سنة ٣٢٨ ﻫ (قبل قدوم القالي بعامين) تجمع في جنازته جمع عظيم وتكاثر الناس تكاثراً راع يحيى ابن هذيل ، وكان يومئذ صغير السن ، فسأل : لمن هذه الجنازة ؟ فقيل له: لشاعر البلد[2] ، وفي هذا دليل بيّن على ما كان يتمتع به هذا الشاعر من مكانة في قرطبة ، وقد أثر ذلك في نفسية اليافع يحيى بن هذيل ، فاتجه إلى دراسة الأدب ، ليحرز مثل مكانة ابن عبد ربه .

صلته بأمراء عصره[3]

كان عمره حين توفي الأمير محمد (٢٧٣) سبعة وعشرين عاماً ، ويبدو

١ العقد ٣ : ٢٥٨ .
٢ الجذوة : ٣٥٨
٣ في هذه الفقرة عرض لبعض مدائح ابن عبد ربه ، جاءت متفرقة في المصادر ، وليس فيها إلا هذا ، فيستطيع القارىء أن يفعلها إذا شاء .

أن صلته به لم تكن وثيقة ، لأنه يروي صفاته عن أستاذه بقي بن مخلد ، فلما تولى المنذر إمارة الأندلس أصبح من شعرائه المقربين ، وله فيه قصيدة طويلة بقي منها البيتان[1] :

بالمنـذرِ بنِ مُحَمّدِ شرُفَتْ بلادُ الأندلُسْ
فالطيرُ فيهـا ساكنٌ والوحشُ فيها قد أنِسْ

وكأنّه في هذا القول كان ما يزال يتعلق بأهداب المشهورين من شعراء المنذر كالعكي الذي يقول[2] :

بالمنذرِ المأمون طابَ زمـانُنا وبطيبِ دَوْلتِهِ تطيبُ الأنفُسُ

ولم يطل العهد بالمنذر حتى توفي وخلفه عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠) فظل ابن عبد ربه يسير في ركابه ويقول في خلافته[3] :

خلافةُ عبدِ اللهِ حجٌّ على الورى فلا رَفَثٌ في عَصْرِهِ وفُسُوقُ
تجلّتْ دياجي الحيفِ عن نُورِ عَدْلِهِ كما ذرَّ في جُنْحِ الظلامِ شروقُ
وثَقّفَ سَهمَ الدين بالعدلِ والتُّقى فهـذا له نَصْلٌ وذلك فُوقُ

ومدح من قواد هذا الأمير عبد الله بن محمد بن أبي عبدة ، ولا ريب في أنّه أيضاً تتبع في شعره انتصارات عبد الله وقواده على المتنزين الثائرين في نواحي الأندلس وبخاصة ابن حفصون . فلمّا نجم ابن حجاج بإشبيلية شد إليه الرحال ومدحه بقصائد كثيرة ، ولا يعد تحرمه بابن حجاج خيانة

١ ابن خلكان (ترجمة رقم : ٤٥)
٢ ابن عذاري ٢ : ١٨٠
٣ ابن عذاري ٢ : ١٨٣

لمواليه الأمويين لأن ابن حجاج لم يباطن ابن حفصون إلا مدّة يسيرة ثم عاد إلى مهادنة الأمير الأموي ، ومن مدائحه في إبراهيم بن حجاج[1] :

كتابُ الشوقِ يَطْويه الفؤادْ ومن فَيْضِ الدموعِ له مِدادُ
تخطُّ يدُ البكاء به سُطُوراً على كَبدي ويُمْليها السُّهادُ
وكيف وبي فؤادٌ مُسْتَطيرٌ بمَنْ لا يُسْتَطارُ له فؤادُ
أمِنْ بمَنْ يكونُ الجودُ خِلْواً وإبراهيمُ حاتِمُها الجوادُ
وبارَكهُ بمَنْ يأتيهِ حَجٌّ ومِدْحَتُهُ رباطٌ أوْ جِهادُ
وما لي في التخلّفِ عنه عُذْرٌ ولي في الأرضِ راحلةٌ وزادُ

ومضى في عهد عبد الله يشيد بكفاحه ضد الثائر ابن حفصون ، ومن أشهر الرجال الذين مدحهم في أيام عبد الله وصدر خلافة الناصر القائد أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، ومن مدائحه فيه[2] :

نفسي فداؤكَ والأبطالُ واقفةٌ والموتُ يَقْسِمُ في أرواحها النِّقَما
شاركتَ صَرْفَ المَنايا في نفوسِهِمُ حتى تحكّمْتَ فيها مثلما احتكَما
لو تستطيعُ العُلا جاءتْكَ خاضعةً حتى تُقَبّلَ منك الكفَّ والقَدَما

ومنها قوله[3] :

الله جَرَّدَ للنَّدى والباسِ سيفاً فقلّدَهُ أبا العباسِ
مَلِكٌ إذا استقبلتَ غُرَّةَ وجهِهِ قَبَضَ الرجاءُ إليكَ روحَ الياسِ
وجهٌ عليه من الحياءِ سكينةٌ ومَحبّةٌ تجري مع الأنفاسِ

١ ابن عذاري ٢ : ١٩٢
٢ العقد ١ : ١٢٩
٣ العقد ١ : ٣١٢

وإذا أحبَّ اللهُ يومـاً عبده ألقى عليه محبّةً للنـاس

وقد اتصل أيضاً من رجال الأمير عبد الله بالوزير الكاتب عبد الله بن محمد الزجالي ، وكان هذا محبباً إلى الناس ، إلا أن الأمير عزله مدة ثم أعاده إلى خطته ، ففرح الناس لرجوعه ، وعبّر ابن عبد ربه عن فرحه في قوله[1] :

يا ملكـاً يزدهي به المِنْبَرْ والمسجدُ الجـامعُ الذي عَمَرْ
خليفـةُ اللهِ في بَرِيَّتـهِ يُسِرُّ للناسِ مثلما يَجْهَرْ
يا قمرَ الأرضِ إنْ تغبْ فلقد أقمتَ للناس كوكباً يَزْهَرْ
ما فَرِحَ الناسُ مثلَ فَرْحتهِم لمّا أُقيلَ الأديبُ واستُوزِرْ
وابتهج المُلْكُ حين دَبَّرَهُ عينُ الإمامِ التي بها يُبْصِرْ

وقال أيضاً في تلك الحادثة :

تجدَّدَتِ الدنيا وأبْدَتْ جمالها وردَّتْ إلينا شَمْسَها وهلالها
عشيةَ يومِ السبتِ جاءتْ ببَيْعَةٍ من الله لا يرجو العدوُّ زوالهـا
بها جبر اللهُ الكسيرَ من العُـلا وأدرك منه عَثْرةً فأقـالها
فأشرقتِ الآفاقُ نوراً وبهجةً ومدَّتْ علينا بالنعيمِ ظـلالها
بتجديدِ عبد الله أعظمَ دولـةٍ لمولاهُ عبـدُ الله كان أزالها
ولما تولّت نَضْرةُ العيشِ رَدَّها فآلتْ إلى العبدِ القويمِ مآلهـا

وعاش في أيام الناصر ثمانية وعشرين عاماً لم يتوقف فيها عن الإنتاج حتى آخر عمره ، وهي أكثر فترات حياته غنى بالشعر واهتماماً به ، فقد افتتح عهد الناصر بقوله له يوم البيعة[2] :

١ اعتاب الكتاب : ٦٠
٢ تاريخ الناصر : ٤٠

يا مَنْ عليهِ رداء البـــأسِ والجودِ	مِنْ جودِ كفكَ يجري الماء في العُودِ
لما تطلعتَ في يوم الخميسِ لنـــا	والناسُ حولكَ في عيدٍ بـلا عيـدِ
وبادرتْ نحوك الأبصارُ واكتحلت	بحسنِ يوسفَ في محرابِ داودِ

وقال في تلك المناسبة أيضاً[1] :

بدا الهـلالُ جديـداً	والملكُ غَضٌّ جديـدُ
يا نعمةَ الله زيــدي	ما كان فيكِ مزيــدُ
إمـامُ عَـدْلٍ عليـه	تاجانِ : بأسٌ وجودُ
يومَ الخميسِ تَبَدّى	لنـا الهـلالُ السعيدُ
فـكلُّ يـومِ خميسٍ	يـكونُ للنـاسِ عيـدُ

وتابع انتصاراته المتتالية وبخاصة الغزوة الأولى (٣٠٠) وهي غزوة المنتلون وقد أكثر ابن عبد ربه من ذكرها ، ومن أولى قصائده فيهـا ، وقد فصَلَ الناصر لها[2] :

فصَلْتَ والنصرُ والتأييدُ جُنْداكا	والعزُّ أولاك والتمكـينُ أخْراكا
ورحمةُ الله في الآفاقِ قد نُشِرَتْ	والأرضُ تُبدي تباشيراً لمبداكا
قد اكتستْ حلَلاً مِن وَشْيِ زَهرَتِها	كأنَّ زُخْرُفَها في الحُسْنِ حاكاكا
طلَعْتَ بينَ الندى والبأسِ مبتهجاً	هـذا بيمناك بل هـذا بيسراكا
ضدّانِ في قبضَتَيْ كفّيكَ قد جُمِعا	لولاهما لم يَطِبْ عَيْشٌ ولولاكا
يمضي أمامَكَ نصرُ اللهِ مُنْصَلِتاً	بالفتحِ يقصِمُ مَن في الأرضِ ناواكا
والناسُ يدعونَ والآمـالُ راغبةٌ	والطَّوْعُ يرجوك والعصيانُ يخشاكا

١ تاريخ الناصر : ٤٠ – ٤١ وابن عذاري ٢ : ٢٣٦
٢ تاريخ الناصر ٣٤ – ٣٥

وانتهت فتوح الناصر في هذه الغزوة إلى أن ملك سبعين حصناً من أمهات الحصون ، وقد ذكر ابن عبد ربّه ذلك فقال [1]

في غزوةٍ ماثتا حصنٍ ظَفِرْتَ بها ... في كلّ حصن غَزَاةٌ للعناجيجِ
ما كان ملك سليمانٌ ليُدْرِكهُ ... والمبني سدَّ ياجوج وماجوجِ

وقضى الناصر أيضاً على ثورة مدينة استجة (٣٠٠) وفي ذلك يقول [2]

ألا إنّه فَتْحٌ يُقِرُّ له الفَتْحُ ... فأوّلُهُ سعدٌ وآخره نُجْحُ
سرى القائدُ الميمون خيرَ سريّةٍ ... تَقَدَّمها نَصْرٌ وتابعَها فَتْح
ألم ترهُ أردى باستجّةَ العدا ... فلُقّوا عذاباً كان موعدَهُ الصُبْح
فلا عَهْدَ للمُرّاقِ من بعدِ هذه ... بِمُ له عند الإمام ولا صُلْح
فولّوْا عباديداً بكلّ ثنيّةٍ ... وقد مسّهُم قَرْحٌ وما مسّنا قرْح

ونظم في غزوات الناصر أرجوزة انتهى بها إلى سنة ٣٢٢ ولا ندري لم توقف عند هذه السنة [3] . ولعل لمرضه أثراً في ذلك . إلا أنّه لم يتوقف عن قول الشعر ، لأن له قصيدة قالها قبل وفاته بأحد عشر يوماً . بيّن فيها مبلغ سنه [4] :

كِلاني لما بيَ عاذلِيٌّ كفاني ... طويتُ زماني برهةً وطواني
بَلِيتُ وأبلَتْني الليالي وكرّها ... وصرفان للأيام مُعْتَوِران

١ تاريخ الناصر : ٣٨
٢ الروض المعطار : ١٥
٣ جاء في التكملة : ٢٩٣ ما يدل على أن لابن عبد ربه أرجوزة في خلفاء الإسلام وانه جعل فيها معاوية الخليفة الرابع ولم يذكر علياً . وهذا أمر مستبعد ، ولم يقل أحد بوجود أرجوزة لابن عبد ربه في غير غزوات الناصر
٤ الجذوة : ٩٦

وما ليَ لا أبْلَى لسبعين حِجّةً   وعشرٍ أتتْ من بعدِها سنتان

وله في الناصر مدائح كثيرة ، منها قوله في ذكر غزاة المنتلون [1] ، وهي أوّل غزاة له :

غادَرْتَ في عِقْوتَيْ جيّانَ ملْحمَةً   أبكَيْتَ منها بأرضِ الشّرْكِ أعلاجا
في نصْفِ شهرٍ تركْتَ الأرض ساكنة   من بعدِ ما كان فيها الجوْرُ قد ماجا
وُجِدْتَ في الحبرِ المأثور مُنْصلتاً   من الخلائفِ خرّاجاً وَوَلاّجا
تُملا بك الأرضُ عدلاً مثلما مُلئتْ   جوراً وتُوضِحُ للمعروفِ مِنْهاجا
يا بدرَ ظُلْمَتِها يا شَمْسَ صُبْحتِها   يا ليثَ حَوْمَتِها إنْ هائجٌ هاجا
إنّ الخلافةَ لن تَرْضى ولا رضِيَتْ   حتّى عقَدْتَ لها في رأسكَ التاجا

وإلى هذه الغزوة نفسها أشار في أرجوزته بقوله [2] :

ثم انتحى جيّانَ في غَزاتِه   بعسكرٍ يَسْعَرُ مِنْ حُماتِه
فاستنْزَلَ الوَحْشَ من الهضابِ   كأنّما حُطّتْ من السّحابِ
فأذْعنَتْ مُرّاقُها سِراعا   وأقبلتْ حُصُونُها تَداعى
لمّا رماها بسيوفِ العَزْمِ   مشحودةً على دُرُوعِ الحزْمِ
كادت لها أنفُسُهُمْ تجودُ   وكادتِ الأرضُ بهمْ تَميدُ
لولا الإلهُ زُلزِلَتْ زِلْزالَها   وأخرَجَتْ مِنْ رهبةٍ أثْقالَها

ولما رُزق الناصر ابنه الحكم (٣٠٢) هنّأهُ الشعراء ، وممّا قاله ابن عبد ربه قصيدته [3] :

....

١ العقد ٤ : ٤٩٩ وتاريخ الناصر ٣٩
٢ العقد ٤ : ٥٠٣
٣ تاريخ الناصر : ٤٩

هلالٌ نماهُ المجدُ واختـارهُ الفَخْرُ تَلَقَّتْ به شمسٌ وأنْجبَهُ بَدْرُ
على وجههِ سيما المـكارمِ والعُـلا فضاءتْ به الآمال وابتهجَ الشِّعْرُ
سلالةُ أمـلاكٍ ربيبُ خـلائفٍ أكُفُهُمُ بِرّ ونائِلُهُمْ غَمْرُ
بدا لِصلاةِ الظهرِ نَجْمُ مَكارِمٍ تَحُفُّ به العَلْيا ويَكْنُفُه الفَخْرُ

شعره

يقع شعره بين قطبين ويشغل مرحلتين : أما القطبان فهما البديهة والكد الذهني . ففي كثير من أخباره ما يدل على أنّه كان ينظم على البديهة ، ويتناول أقرب سَحابةٍ إليه ويكتب عليها دون تنقيح ؛ كذلك فعل حين سمع غناء الجارية مصابيح . وكذلك فعل أيضاً حين دخل على القائد أبي العباس ابن أبي عبدة يتنجزه حاجةً . فكتب إليه [1] :

ما ضَرّ عندكَ حاجتي ما ضَرَّهـا عُذْراً إذا أعْطَيْتَ نَفْسَكَ قدرها
انظُرْ إلى عرْضِ البـلاد وطولهـا أوَلستَ أكرمَ أهلِها وأبرَّها
حاشا لجودِكَ أن يُوَعّرَ حاجتي ثِقَتي بجودِكَ سَهّلَتْ لي وَعْرَها

ولكن ليس كل شعره يحمل طابع الخفة الارتجالية ، ففيه مـا يدل على أنّه كان يتعب في حوكه ؛ ويتعمد فيه الإعمال ليحصل على الطرافة والغرابة . ولكني أعتقد أنّه مرن على النظم حتّى أصبح لا يعييه القول ، أعني أصبح النظم يطاوعه على نحوٍ لا يحتاج فيه إلى استثارة عاطفية عميقة أو شديدة . ولذلك تراه غسيل الشعر . لا من حيث أنّه لا يعنى بالمبنى الشعري وما يحتاجه أحياناً من بديع . ولكن من حيث أن التيار العاطفي في شعره مفقود أو مختنق ؛

١ العقد ١ : ٣١٢

حتى في أشد الحالات التي يمكن أن تثور فيها عاطفة . كموت أبنائه . وقد يجيء شعره رقيقاً في الظاهر ، ولكن الجفاء أغلب عليه . ومن عجب أن الأندلسيين سموه مليح الأندلس . ونسبوا إلى المتنبي الإعجاب به . فهذا أمر مستغرب . وبخاصة وأن النوع الذي أنشدوه له نموذجاً للملاحة ليس فيه ملاحة ولا عليه طلاوة .

وأما المرحلتان فهما مرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة . وقد شاء هو أن يحدث هذه القسمة في شعره ، فأكثر في المرحلة الأولى من الشعر الغزلي . ثم عاد ينقض على نفسه ما قاله بأشعار يقولها في الزهد والتذكير بالموت وذم الحياة الدنيا . وهذا النوع الثاني سماه « الممحصات » . فقد يقول في الشباب مثلاً ذاكراً بعض صبوته[1] :

هلاّ ابتكرتَ لبينٍ أنت مُبتَكِرِ ... هيهاتِ يأبى عليكَ اللهُ والقَدَرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ البينِ مُلْتَهِباً ... حتى رَثى ليَ فيكَ الريحُ والمطرْ

(وذكر الريح والمطر لأن السماء أمطرت وهبت الريح فحالت بين محبوبه وبين الرحيل) . فيمحص هذه القطعة بقوله :

يا عاجزاً ليس يَعفو حينَ يَقْتَدِرُ ... ولا يُقَضّى له من عيشةٍ وطَرْ
عاينْ بقلبكَ إنّ العَيْنَ غافلةٌ ... عن الحقيقة واعلم أنّها سَقَرُ

فإذا عرفنا أنه عارض كل قطعة قالها في صباه بقطعة من الممحصات . وجدنا كيف أنه ضاعف كمية شعره . في المرحلتين . فهما مرحلتان تمثلان نزعتين طبيعيتين ، ولكني لا أرى فرقاً بينهما من وجهة النظر الفنية . لأن ابن عبد ربه لم ينتشل نفسه في المرحلة الثانية من ذنوب وآثام أقضّت مضجعه

[1] الجذوة : ٩٤ – ٩٥ والمطمح : ٥١ ، ٥٣

في المرحلة الأولى ، أعني أن تجربته في الحالين كانت تجربة كلامية ، وكانت صورتها هذا الفيض الكثير من النظم ، ونقرأ شعره في الزهد وذم الحياة فلا نجد إحساساً حقيقياً بمعنى الخوف ، ولا تشفُّ إلا قطعٌ قليلة عن الصدق العاطفي في هذه الناحية كقوله[1] :

ألا إنّما الدنيـا غَضارَةُ أيْكَـةٍ إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائـعٌ عليهـــا ولا اللذاتُ إلا مصائبُ
وكم سَخِنَتْ بالأمسِ عـينٌ قريرةٌ وقرَّتْ عيونٌ دمْعُها اليوم ساكبُ
فلا تكتحلْ عينـاكَ فيها بِعَبْرَةٍ على ذاهبٍ منهـا ، فإنّك ذاهبُ

وبين هاتين المرحلتين تقع مرحلة البكاء على الشباب ووصف المشيب ، وربما كان شعره في هذه الناحية أصدق وأحفل بالشعور كما في قوله[2] :

قالوا شبابُكَ قد مَضَتْ أيامُـهُ بالعيشِ ، قلتُ وقد مضَتْ أيامي
للهِ أيّةُ نعمةٍ كان الصِّبا لو أنها وُصِلَتْ بطولِ دوام
حسَرَ المشيبُ قناعَه عن رأسِهِ وصحا العواذلُ بعد طولِ ملام
فكأنَّ ذاكَ العيش ظلُّ غمـامةٍ وكأنَّ ذاك اللهو طيفُ منام

ومن ثم لا نجد لابن عبد ربه فلسفة في الحياة ، عدا نظرته إلى الأشياء من الزاوية الدينية ، أو ممّا قد يستوحيه من خلقية أساسها الدين نفسه — لقد حالت روحـه المحافظة بينه وبين كثير من العمق ، ومبلغ ما لديه من هذا مستمد من طبيعته المتشائمة المشمولة بسوء الظن ، الناظرة إلى الدنيا من طرف الموت والآخرة ، فالحياة مزارع والناس إنّما يقاس فضلهم بما يخلفونه

١ الجذوة ٩٦ والعقد ٣ : ١٧٥
٢ العقد ٣ : ٤٧

من ذكر [1] :

إنَّ الحيـــاةَ مزارعٌ فازرعْ بها ما شئتَ تحْصُدْ
والنــاسُ لا يبقى سوى آثارِهم ، والعـينُ تُفْقَدْ

وهذه الحياة لا يَغْنى فيها إلا اللئيم [2] :

أرى كلَّ فَدْمٍ قد تبجّحَ في الغنى ودو الظَّرف لا تلقـاهُ غيرَ عديم

والحياة تنتقل من سيء إلى أسوأ ، ولا يتبقى فيها إلا حثالة تضم أهل اللؤم والبخل ، أما الكرماء فقد ذهب عصرهم الذهبي [3] :

أبا صالحٍ جاءت على الناسِ غَفْلَةٌ على غفـلةٍ بانَتْ بكلّ كريم
فليتَ الأُلى بانوا يُفادَوْنَ بالأُلى أقاموا ، فَيُفْدى ظاعـنٌ بمقيم
ويا ليتها الكُبرى فَتُطْوى سماؤنا لها وتُمَدُّ الأرضُ مَـدَّ أديم
فما الموتُ إلا عيشُ كلٍّ مُبَخَّلٍ ومـا العيشُ إلا موتُ كلّ ذميم
وأعذر ما أدْمى الجفونَ من البكا كريمٌ رأى الدنيـا بكفّ لئيم

حتى الله يرزق الأنْوك ويحرم العاقل [4] :

رزقٌ من الله أرضاهُمْ وأسْخَطَني واللهُ للأنْوكِ المعتوهِ رَزّاقُ

إذن فالحياة ليس فيهـا إخوان ، وقيمتك فيها إنما هي بمـا تملك .

١ العقد ١ : ٢٧٠
٢ العقد ٣ . ٣٥
٣ العقد ٢ : ٣٤٩
٤ العقد ٢ : ٣٥٠

فمالكَ وحده أخوك[1] :

قالوا نأيتَ عن الإخوانِ قلتُ لهمْ   ما لي أخٌ غيرُ ما تُطْوى عليه يدي

وهذا غير مستغرب من ابن عبد ربه ، وإن مال به قليلاً عن مُثله العليا الدينية ، لما في نفسيته من استعداد لرؤية السيئات . فهو سريع الغضب ، حاد الطبع ، ميال إلى الذم ، وحسبك أن تجده حين مطله أحد الناس قد خصص في هجائه لتلك الحادثة وحدها ، وقال فيها قطعاً كثيرة من الشعر أثبتها في العقد[2] . فتلك النفسية هي التي كان يرى بها الحياة خالية من كل خير وأن من فيها كلاب[3] :

وأيامْ خلَتْ من كلّ خيْرٍ   ودنيا قد توزّعَها الكلابُ
كلابٌ لو سألتهمُ ترابـاً   لقالوا عندنا انقطعَ الترابْ

وصورةُ الناس الغالبة أنهم صمٌّ صلاب ، وتتدخل عصا موسى في الصورة فلا تفلح في أن تفجر منهم شيئاً[4] :

حجارةُ بخلٍ ما تجودُ وربما   تفجّرَ من صُمّ الحجارةِ ماء
ولو أنّ موسى جاء يضربُ بالعصا   لما انبجَسَتْ من ضربِهِ البُخلاء

والصورة نفسها مرة أخرى[5] :

١ العقد ٣ : ٣١
٢ انظر ١ : ٢٩٢ وما بعدها .
٣ العقد ٢ : ٣٤٢
٤ العقد ١ : ٢٩٢
٥ العقد ١ : ١٣١

يراعةٌ غَرَّني منهـــا وميضُ سناً حتى مددْتُ إليها الكفَّ مُقْتَبِسا
فصادفتْ حجراً لو كنتَ تضربه من لؤمهِ بعصا موسى لما انبجسا

فالهجاء هو الموضوع الذي كان ابن عبد ربه مهيأ له بطبعه . وغايته الفنية فيه أن يولِّدَ معنى جديداً ، أما الموضوع الذي راض طبعه عليه وأسرف فيه ولم يقصر عن بلوغ الإجادة فيه . فذلك هو وصف المعارك والحروب . وقد أورد له أمثلة كثيرة منه في العقد ، وما يزال غايته فيه أيضاً التجديد في المعاني . قال[1] : وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتَقَدَّمْ إليه ومعنى بديع لا نظير له وذلك قولنا :

وجيشٍ كظهرِ اليمّ تنفحُـهُ الصَّبـا يعب حُبـــاباً من قناً وقنابل
فتنزلُ أولاه وليسَ بنـــازلٍ وترحـلُ أخـراه وليس براحل

وعلى أن هذا معنى فيه شيء من الابتكـار والتوجيـه فإن وصفه للحروب حـين يجيء في نغمة قوية منحدرة خير من تطلبه المعنى والاحتفال به .
وأبرز ما في شعر ابن عبد ربه أنه متحلٍّ لثقافته واطلاعه في نواحٍ متعددة . فثقافته الفقهية تجعله يقول – مثلاً[2] – :

وما بعتُ الهوى بيعاً بشَرْطٍ ولا استثنيتُ فيـه بالخيـار

واطلاعه الواسع في الأمثال هو الذي يدفعه لتحويل كلّ بيت أحياناً إلى مثل ، أو ليضمن شعره أمثالاً ، كقوله[3] :

١ العقد ٣ . ٤٣
٢ العقد ٣ : ١٣٧ – ١٣٨
٣ العقد ١ . ٤٦

قد صرَّحَ الأعداء بالبينِ وأشْرَقَ الصبحُ لدي عينِ

ومنها ، وجعل في كل بيت مثلاً :

وعاد من أهواه بعد القلى شقيقَ روحٍ بين جسمين
وأصبح الداخل في بيننا كساقط بين فِراشين
قد ألْبِسَ البِعْضَةَ هذا وذا لا يصلُحُ الغمدُ لسيفين

والنحو يملي عليه أن يقول[١] :

أضحى لك التدبيرُ مُطَّرِداً مثلَ اطّرادِ الفعلِ للإسم

وهذه أمور ظاهرة على السطح ، غير أن من تدبر تأثير ثقافته وجد روحها متغلغلة في شعره ، متدخلة في كيانه . وشعره مبنيّ على أمثال سابقة . ويتضح هذا في محاولته أن ينظم أمثلة العروض ، فهو يختار بيتاً من المحفوظ ويجعله أساس بضعة أبيات من نظمه ، فعلى هذا البيت[٢] :

« ربَّ نارٍ بتُّ أرمقُها تَقْضِمُ الهنديَّ والغارا »

يبني مقطوعته :

زادني لومُكَ إصرارا إنَّ لي في الحبّ أنصارا
طارَ قلبي مِنْ هوى رشإٍ لو دنا للقلبِ ما طارا
خُذْ بكفّي لا أمُتْ غرَقاً إنَّ بحرَ الحبِّ قد فارا

١ العقد ١ : ٤٦
٢ انظر العقد ٥ . ٤٤٧

أنْضَجَتْ نارُ الهوى كبدي ودموعي تُطْفىء النـارا
ربَّ نارٍ . . . . (البيت)

ومن هذا يتضح مدى انشغاله بالمعارضة حتى إنّه حين شبع من معارضة الآخرين أخذ يعارض نفسه بالممحصات . فهو يعارض قصيدة مسلم ابن الوليد :

أديرا عليَّ الراحَ لا تشربا قَبْلي ولا تَطْلُبا من عندِ قاتلَتي ذَحْلي

بقصيدة مطلعها :

أتَقْتلني ظُلْماً وتجحدني قَتْلي وقد قام من عينيك لي شاهدا عَدْلِ

وطريقته في المعارضة التزام المعاني الأصلية ومحاولة عكسها أو الزيادة فيها . فإذا قال مسلم : لا تطلب ذحلي ، قال ابن عبد ربه :

أطلاّب ذَحْلي ليس بي غيرُ شادنٍ بعينيه سحرٌ فاطلبوا عنده ذَحلي

فعكس المعنى عند صريع الغواني . وإذا تحدث مسلم أنّه كتم الحب عن عاذله فاستراح من العذل قال ابن عبد ربه إنّه يحب العذل لكي يذكر اسمها ولا شيء أحب إليه من العذل . وإنّه حقّاً كتم الحب كما كتمه مسلم ولكن الأسى هو الذي أخذ يعلنه بماء البكاء :

وأحببتُ فيها العذلَ حُبّاً لذكرها فلا شيء أشهى في فؤادي من العَذْلِ
كتمتُ الهوى جهدي فجرّدَهُ الأسى بماء البُكا . هذا يَخُطُّ وذا يُملي

ويزهى بهذا الذي فعله ويقول مفتخراً : « فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضله شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل

التقدم »[1] . وتعجبه صورة يعثر عليها فيفتخر بأنّه جاء بالغريب الذي لم يُسبق إليه في مثل قوله :

حوراء داعبها الهوى في حورِ   حكمَتْ لواحظُها على المقدورِ
نظرتْ إليَّ بمقلتيْ أُدْمانَةٍ   وتلفّتَتْ بسوالفِ اليَعْفُورِ
فكأنّما عاصَ الأسى بجفونِها   حتّى أتاك بلؤلؤٍ منْثُورِ

والصورة التي يعنيها هي التي في البيت الثالث حين رأى في الأسى صورة صائد اللؤلؤ فغاص بين جفونها واستخرج لؤلؤاً منثوراً هو دموعها . والصورة بالنسبة لأذواقنا اليوم قد تكون نابية وبخاصة اقتران الغوص بالعين ، ولكنها كانت مما يعجب الأندلسيين حتى تداولها من بعد ابن عبد ربه غير واحد منهم . والحق أن هذه الأبيات تدل جيداً على مذهب ابن عبد ربه في الشعر ، وإن كانت كل الأبيات التي أوردها لنفسه في العقد هي فيما كان يراه من مختار شعره ، ولكن يرى في هذه الأبيات ونظائر لها « رقة التشبيب وحسن التشبيه البديع الغريب الذي لم يُسبق إليه » ، وهذا هو مقياسه الفني لما يستحسنه من شعره .

وهناك معارضة لا تلتزم رويَّ القصيدة التي يعارضها وإنما هو ينظر فيها إلى معاني قصيدة سابقة ثم ينشىء قصيدة تتضمن هذه المعاني مع شيء من التقليب والتغيير والعكس والإسهاب . وأبرز مثل على ذلك قصيدة له يصف فيها القلم ، فإنّه قد نسخ فيها بعض معاني أبي تمام في وصف القلم ، ذلك الوصف الذي أدهش الأندلسيين ، ومن المعاني التي استعارها قوله :

يَنْطِقُ في عُجْمَةٍ بلفظته   تصمّ عنها وتُسْمِعُ البصرا

[1] العقد ٤ : ٣٩٨ وما بعدها

إذا امتطى الخنْصرينِ أذكرَ مِن   سحبانَ فيما أطالَ واختَصرا
شَخَتْ ضئيلُ لفعلِه خَطَرٌ   أعْظِمْ به في مُلِمّةٍ خَطَرا
تمجُّ فكّاه ريقةً صَغُرَتْ   وخطبُها في القلوب قد كَبُرا

وهذا شيء أخفى من المعارضة التي تتم مع الاحتفاظ بالوزن والروي .

وهناك نقطة جديرة بالنظر وهي أن ابن عبد ربه خلد بعض شعره في العقد . ووقف في بعض المواطن معجباً وهو يضع أشعاره إزاء أشعار المشارقة . ولكنه ، فيما يبدو ، لم يكن يعترف للأندلسيين بكثير من الحظ في الإجادة . وكانت الموضوعات المتنوعة التي طرقها كفيلة أن تجعله يستشهد عليها بشعر أهل بلده — لم يعترف إلا للغزال بأنه يستحق أن يوضع في صف المشارقة ، بعد اعترافه الكبير بنفسه ، وإلا عرضاً لشاعر أو لآخر ، مثل مؤمن بن سعيد . ثم إنه لم يختر للغزال أجود قطعه ؛ أتراه كان يحس إحساساً خفياً بأنه لا يتنازل عن مرتبة التقدم في الشعر للغزال أو لغيره ؟ أكبر الظن أن تقديره لنفسه قد حجب عنه حقيقة من تقدمه من الشعراء ، وربما لم يحاول أن يبرز مكانة الغزال في اختياره ، لئلا يقلل من شأن الصورة الأندلسية التي رسمها لنفسه .

وقد كان ابن عبد ربه محط إعجاب الناس في عصره وبعده . ويقول فيه ابن شرف : « وأما ابن عبد ربه القرطبي ، وإن بعدت عنا دياره فقد صاقبتنا أشعاره ، ووقفنا على أشعار صبوته الأنيقة ، ومكفرات توبته الصدوقة ، ومدائحه المروانية . ومطاعنه في العباسية ، وهو في كل ذلك فارس ممارس وطاعن مداعس . واطلعنا في شعره على علم واسع ومادة فهم مضيء ناصع ، ومن تلك الجواهر نظم عقده وتركه لمن تجمل بعده »[1] . وتفيدنا هذه الكلمات

[1] الذخيرة ٤ / ١ : ١٦٤

حقيقة جديدة واحدة نضيفها إلى ما تقدم وهي أن هناك مطاعن لابن عبد ربه في الدولة العباسية ، ولكن هذا الشعر لم يصلنا ، وما وصلنا من شعر ابن عبد ربه ، على أنّه نسبيّاً كثير ، ليس شيئاً بالنسبة لمجموع شعره كله، فقد كان شعره كثيراً بشهادة الحميدي، وقد رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً ممّا جمع للحكم المستنصر [1] .

وخلاصة القول فيه أن المتقدمين من النقاد والمتذوقين كانوا يعجبون به ، وبخاصة قدرته على النظم ، ومحاولته الاهتداء إلى المعاني الجديدة ، وكانوا يطربون إذا سمعوه يقول [2] :

يا ذا الذي خطّ العذارُ بِخَدّه ... خطّين هاجا لوعةً وبلابلا
ما كنتُ أعلم أنّ لحظَكَ صارم ... حتى لبستَ بعارِضَيْكَ حمائلا

يطربون للموضوع وللصورة التي ولدها فيه ، وكانوا يتناقلون قوله [3] :

الجسمُ في بَلَدٍ والروحُ في بَلَدِ ... يا وحشةَ الروح بل يا غُرْبَةَ الجسَدِ
إن تَبْكِ عيناكَ لي يا مَن كَلِفْتُ به ... من رحمةٍ فهما سَهْماكَ في كبدي

كانت تعجبهم الأناقة في التفسير والتسويغ، والطرافة في التلاعب بالصور والمعاني . أعني كانوا مأخوذين بالحيلة الفنية أكثر من إعجابهم بالكيان الفني . ولكنّ تغير نظرتنا إلى الشعر في جانب من موضوعاته وفي الطريقة الفنية لا يجعل من ابن عبد ربه شاعراً مقدماً .

١ الجذوة : ٩٤
٢ المطمح : ٥٢
٣ الجذوة : ٩٥

٢ — أبو عمر
يوسف بن هارون الرمادي الكندي

٤٠٣ هـ

الجذوة ٣٤٦ — وبغية الملتمس رقم : ١٤٥١ — والصلة : ٦٣٧
والمطرب : ٤ — والنفح ٢ : ٤٤٠ — والمغرب ١ : ٣٩٢
ومسالك الأبصار ١١ : ١٧٥ — والمطمح : ٦٩ — وابن خلكان رقم : ٨١٩
واليتيمة ١ : ٤٣٥

في تلقيبه بالرمادي رأيان ، أحدهما أنه كان يلقب بالإسبانية بأبي جنيش — كما يقول ابن بشكوال — فعرب هذا اللقب إلى الرمادي . والثاني أن هناك قرية تسمى رمادة عدها ابن سعيد من قرى شلب . وعدها الحميدي من بلاد المغرب — دون تحديد — وقطع ابن سعيد بنسبته إليها ورجح الحميدي أن يكون أحد آبائه منها .

عاش أكثر أيامه في قرطبة ، ويبدو أنه قصدها للدراسة ثم أصبح مدرساً فيها ، قال ابن سعيد في ترجمة الأمير أرقم بن عبد الرحمن من بني ذي النون : إنه قرأ في قرطبة على الرمادي الشاعر [١] . كذلك روى عنه مصعب ابن الفرضي [٢] ، وأخذ عنه ابن عبد البر قطعة من شعره وضمنها بعض كتبه ، أما هو فقد اكتسب صناعة الأدب عن شيخه أبي بكر ابن هذيل الكفيف ،

١ المغرب ٢ : ١٤
٢ الجذوة : ٣٤٧ ، ٣٤٨

عالم أدباء الأندلس في عصره . ويمثل ابن هذيل الحلقة التي تصل بين ابن عبد ربه والرمادي لأنه تأثر بالأول وأثر في الثاني في المذهب الشعري . ولما ورد القالي (٣٣٠) في أيام عبد الرحمن الناصر تلقاه الرمادي ومدحه بقصيدة مطلعها[١] :

مَنْ حاكمٌ بَيْني وبين عذولي ... الشجوُ شَجْوي والعويلُ عويلي

ثم انضم إلى جماعة المستفيدين منه ، فقرأ عليه كتاب النوادر .

وارتفع شأن الرمادي في أيام الحكم وأصبح مقدماً على سائر الشعراء ، وربما غادر قرطبة بعض الوقت في هذه الفترة من حياته وقصد عبد الرحمن ابن محمد التجيبي صاحب سرقسطة ومدحه بقصيدة أولها[٢] :

قِفوا تَشْهدوا بثي وإنكارَ لائمي ... عليَّ بكائي في الدّيار الطّواسِمِ

ووراء هذه الرحلة قصة حب ، فقد رأى الرّمادي ذات يوم ، وهو يتنزه في رياض بني مروان ، امرأة جميلة علقها قلبه ، وحادثته وحادثها وأخبرته أنها أمة ، وأن ثمنها على صاحبها ثلاثمائة دينار . فلما قصد الرمادي ممدوحه التجيبي بسرقسطة ذكر له حاله وشبب في القصيدة بخلوة — وهو اسمها — فأعطاه الممدوح ثلاثمائة دينار ذهباً سوى ما زوده به من نفقة الطريق مقبلاً وراجعاً . وعاد الشاعر إلى قرطبة يبحث عن هواه في كلّ مكان حتى كاد ييأس ، وذات يوم دعاه بعض إخوانه لزيارته ، فلبّى الدعوة ، ولما دخل عليه أجلسه في صدر مجلسه ، ثم قام لبعض شأنه ، فلم يشعر الرمادي إلا بالستارة

---

١ الجذوة : ٣٤٧ والقصيدة مثبت أكثرها في اليتيمة ١ : ٤٣٥ وبعضها في المعجب : ١٦ والنفح ٢ : ٧٢٦

٢ الجذوة : ٣٤٨

المقابلة له قد رُفعت ، وإذا هي خلوة أمامه ، فقال لها : أأنت مملوكة أبي فلان ؟ (يعني صديقه) قالت : لا والله ولكني أُخته . قال الرمادي : « فكأنّ الله تعالى محا حبها من قلبي ، وقمت من فوري واعتذرت إلى صاحب المنزل بعارضٍ طرقني وانصرفت » [1] .

ولما أمر الحكم الأندلسي بإراقة الخمر في سائر جهات الأندلس ، أبدى الرمادي أسفه لذلك وتوجع لشاربيها ، وذكر الحكم بقصة أبي حنيفة الذي شفع في جارٍ له سكير ، وقال [2] :

بِخَطْبِ الشاربين يضيقُ صَدْري ... وتُرْمضني بليّتُهُمْ لعَمْري
وهل هُمْ غيرُ عُشّاقٍ أصيبوا ... بِفَقْدِ حبائبٍ وَمُنوا بهَجْرِ

ثم تقلبت الأحوال بالرمادي ، فاتهم في أيام الحكم أيضاً مع جماعة من الشعراء بشعر ظهر في ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يُوَلّي ويعزلُ مِنْ يَوْمِـهِ ... فلا ذا يتمُّ ولا ذا يَتِمْ

قال صاحب المطمح [3] : « وشاعت عنه أشعار في دولة الخليفة وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ، وسقاهم كؤوس مُهْلها ، أوغرت عليه الصدور ، وفغرت عليه المنايا ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهراً ، وأسلكه من النكبات وعراً » . وأخذ الرمادي في سجنه يَنظم الأشعار الكثيرة متشوقاً إلى التحرر والخلاص حيناً ، وعمل وهو مسجون كتاباً سماه « كتاب الطير » في أجزاء ، وكلّه من شعره ، وصف فيه كلّ طائر

١ الجذوة : ٣٤٧ ، وطوق الحمامة : ٢٢ — ٢٣
٢ الجذوة : ١٤ والمعجب : ١٤
٣ المطمح : ٧٢

معروف ، وذكر خواصّه ، وذيّل كل قطعة بمدح ولي العهد هشام بن الحكم ، ليشفع فيه لدى أبيه[1] ، وقد رأى الحميدي هذا الكتاب بخط الرمادي ونسخ منه شيئاً من الشعر . إننا لا نرتاب في رواية الحميدي لأنّه ثقة دقيق في ما يقوله ويرويه ، ولكن كيف نوفق بين هذه الرواية السابقة وقول ابن حيان في المقتبس (حوادث : ٣٦١) « وفي يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة منها أوقع صاحب المدينة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصبة البطّراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة العاملين بذرب الألسنة ، أنبههم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأخ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم . رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوع في أعراض الناس ونشر مثالبهم ، في أشعار يجتمعون على صوغها ويتبارون فيها ، فرأى أمير المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلاغ في إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم وما زوّرت ألسنتهم ، وما الله بظلاّم للعبيد . فأحفى الطلب عنهم وأودع السجن من ظفر به منهم ، وفات بعضهم ، فكان ممّن ألصق الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسي الشاعر المعروف بأبي جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث والنداء عليه متصل ؛ فلمّا أن أيقن أن البقاع لا تليقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستبسلاً لحتفه ، فأقبل مغيّراً طلعته ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبداً له فوق رأسه كيما يتوطأه في السجن ، فلم يؤبه له حتّى انتهى إلى باب السجن بالزهراء ، فقال لبوابه : أنا فلان المطلوب الذي تعلمون خبره ، قد أتيتكم بنفسي ولا مرحب بي ، فضمّوني في

[1] الجذوة : ٣٤٩

الدرك الأسفل . وعرّفوا صاحب المدينة بحصولي . فابتدروه وأوصدوه وعجلوا إلى صاحب المدينة محمد بن أفلح بخبره . فأمرهم بتقديمه إلى مجلسه بكرسي الشرطة بقصر الزهراء ، مغلولاً بحبلٍ في عنقه ؛ ففعلوا ذلك وقيد برمته من باب السجن إلى كرسي المدينة . وكتب صاحب المدينة محمد بن أفلح إلى الخليفة الحكم يعرفه بمكان يوسف وما كان من إذعانه ومجيئه من ذاته خاضعاً محكماً في نفسه . **فرق له الخليفة وعهد بإطلاق سبيله** . وبعد أيام من قصة يوسف بن هارون أمر الخليفة الحكم باطلاق سبيل عيسى بن قرلمان الكاتب الشاعر وأصحابه الذين تقدم سجنهم بمثل جريرته ، فتقدم إليهم بخزن ألسنتهم والاتقاء لمعاودة قرفتهم . وخلّى سبيلهم وذلك في عقب شعبان من هذه السنة »[1] .

فهذه الرواية تقول إن أبا جنيش لم يسجن ولكنه هام على وجهه مدة أيام ثم سلّم نفسه إلى صاحب المدينة . وإن الخليفة لما عرف ذلك أطلق سراحه . بل إن المتهمين الآخرين لم يبقوا في السجن إلا شهراً وأسبوعاً أو قريباً من ذلك ؛ وهي مدة لو فرضنا أنّ الرمادي أقامها في السجن لما كانت كافية لتأليف كتاب الطير فكيف وهو لم يقم في السجن ولا عُشر هذه المدة ؟ هل معنى ذلك أننا إزاء روايتين منفصلتين وأن كل رواية منهما تتحدث عن واقعة معينة في حياة الرمادي ؟ ذلك هو ما نرجحه لأن الدقة التفصيلية في رواية ابن حيان لا تدع لنا مجالاً لمناقشتها .

ويبدو أن هذه الأحداث أو ما شابهها اضطرته إلى مغادرة قرطبة ، فغادرها إلى شنتّرين بغرب الأندلس ، وواليها يومئذ فرحون بن عبد الله بن عبد الواحد ، فأمر بإنزاله فقصّر به متولّي ذلك ، فكتب إليه الرمادي[2] :

١ المقتبس : ٧٣ – ٧٥ (ط . بيروت) .
٢ الحلة . ١٢٩

أيها العارض والمُهدي لمستقيه وَبْلا
حين لا يُهدي إذا ما استُسقيَ العارض طَلاً
قائداً أفْنَتْ مغازيه العدى سبياً وقتلا
إنّ ضيفاً قاصداً قلتَ له أهلاً وسهلا
ما له فَرْشٌ على الأرض سوى وَجْهِ مُصَلّى
فأنا لولا [ ] ردّ منه الوعر سَهْلا
لم تجد عَيْني لنوم بمبيتِ السوء كُحْلا

فوردت الأبيات على فرحون وهو خارج إلى الغزو ، فخجل من ذلك وأمر له بما طلب ، وقرن بذلك جارية وكتب إليه معتذراً ممّا حدث .

وكان من ممدوحيه في هذه الفترة ابن القرشية وهو عبد العزيز بن المنذر أخي الحكم المستنصر ، وله فيه قصيدة ذكرها حبيب العامري في كتابه البديع في فصل الربيع لأنه وصف فيها الأزهار ، ومنها[1] :

تأمّل بإثرِ الغيم مِنْ زَهْرَةِ الثّرى ... حياةَ عيونٍ مِتْنَ قبلَ التَّغَيُّمِ
كأنّ الربيع الطّلْق أقبلَ مُعْرِباً ... بطلعةِ معشوقٍ إلى عينِ مُغْرَمِ
تعجبتُ من غوْص الحيا في حشا الثرى ... فأفْشَى الذي فيه ولم يتَكَلّم
كأنّ الذي يَسقي الثرى صِرْفُ قهْوَةٍ ... تنمُّ عليه بالضميرِ المُكتَّم
أرَى حُسُناً في صَفْحَةٍ قد تَغَيّرَتْ ... كَبِشْرٍ بَدا في الوَجْهِ بعد التَّجَهّم
ألا يا سماء الأرضِ أُعْطِيت بَهْجةً ... تطالِعُنا منها بِوَجْهٍ مُقَسَّم
وإنْ قالتِ الأرضُ المنعَّمُ رَوْضُها ... ليَ الفضلُ في فَخري عليكِ فسَلّمي
فخُضْرَةُ ما فيها تَفوقُك خُضْرَةً ... ونُوّارُها فيها ثَواقِبُ أنْجُم

وإن جِئْتِها بالشمسِ والبدرِ والحيا   مُفاخِرَةً جاءتْ بأسنى وأكرم
بعبدِ العزيز ابنِ الخلائف والذي   جميعُ المعالي تَنْتَمي حيثُ يَنْتمي

وأصبح الرمادي في أيام المنصور بن أبي عامر من الشعراء الذين يترددون إليه ، ولم تصلنا أمداحه فيه ، ولكن ممّا يدلنا على قرب منزلته منه ما حدثنا به المقّري ؛ فقد روى أن المنصور قال له يوماً : كيف ترى حالك معي ؟ فقال الرمادي : « فوق قدري ودون قدرك » ، فأطرق المنصور كالغضبان ، وانسلّ الرمادي خارجاً وقد استشعر الندامة ، وأخذ يؤنب نفسه ويقول : أخطأتُ ، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرّني لو قلت « إنّي بلغت السماء وتمنطقت بالجوزاء . . . . لا حول ولا قوة إلاّ بالله » وانتهز هذه الفرصة بعض حساده فأخذ يغري به المنصور ويقول : « هذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون نعمة ، ولا يَرْعَوْن إلاًّ ولا ذمة ، كلابُ من غلب وأصحابُ من أخصب ، وأعداء من أجدب » ، فاستاء المنصور من هذا الحسود الباغي وألقى عليه درساً خلقياً قاسياً ، وأفهمه أنّه ما أطرق غضباً وإنما أطرق تعجباً من كلام الرمادي « لأنه رأى كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة » ، ثم أمر بالرمادي فرُد إلى المجلس وقال له : أعِدْ علي كلامك ، فارتاع ، فطمأنه المنصور وقال له : الأمر على خلاف ما قدرت . الثواب أولى بكلامك من العقاب . ثم أجازه بمالٍ وخِلَعٍ وموضعٍ يتعيش منه[1] .

ويذهب صاحب المعجب[2] إلى أن هذه العلاقة الطيبة ساءت بعد نكبة المصحفي ، لأن الرمادي ، فيما يزعمه ، كان مشايعاً للمصحفي وأغراه هذا بهجاء المنصور . فلمّا حدثت نكبة المصحفي ، واستصفيت أمواله ، التفت

١ باختصار عن النفح ٢ : ٨٦٨
٢ المعجب : ١٦

المنصور إلى الرمادي وأوسعه عقوبة ونكالاً . وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده ، كما شفع للغزال عند عبد الرحمن ، فأقرّه في بلده ، ولكنّه بدّله بالتغريب عقوبة أنكى وأشد حين أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد في جميع جهات قرطبة . فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن أدركته منيته في أواخر أيام المنصور بن أبي عامر .

وهذا كلام يستحق التوقف والنظر ، ذلك لأن نكبة المصحفي تمت في سنة ٣٦٧ أي بعد سنة من وفاة الحكم تقريباً ، فعلاقة الرمادي بالمصحفي لا تؤهله ليكون مقرّباً من ابن أبي عامر كما تقول الروايات الأخرى ، ولا تجعل ابن سعيد يقول في وصف له : إنّه كان من مُدّاح المنصور بن أبي عامر [1] . ثم لو فرضنا أن المنصور غضب فعلاً على الرماديّ ، فلا يزال هناك خطآن واضحان في هذه الرواية : الأول أنّه من غير المعقول أن يظل الحرمان سارياً على الرمادي حتّى حوالي سنة ٣٩٣ أي أن تظل الصلة بينه وبين الناس مقطوعة طوال هذه المدة ، وكان من الخير له لو نفي أو هاجر من قرطبة ، فشفاعة الناس فيه كانت ضرراً وبيلاً عليه . والثاني أن الرمادي لم يمت في أواخر أيام المنصور بل من المؤكد أن العمر امتد به ، فشهد عهد المظفر وحضر الفتنة ؛ قال صاحب المطمح في أسجاعه : « وتمادى بأبي عمر طلق العمر ، حتّى أفرده صاحبه ونديمه ، وهريق شبابه واستشنّ أديمه ، ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فخاض لجّتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ، شرقاً بأشجانها ، لحقته فيها فاقة نهكته ، وبعدت عنه الافاقة حتّى أهلكته » [2] . ومعنى هذا الكلام أنّه كبرت سنه ، وأدرك عام ٤٠٠ وافتقر في أواخر أيامه ، وهذا يصدقه

١ المغرب ١ : ٣٩٢
٢ المطمح : ٧٠

قول ابن بشكوال إنّه توفي يوم عيد العنصرة (٤ حزيران) سنة ٤٠٣ . وكان حينئذ فقيراً معدماً ، ودفن بمقبرة كلع [1] .

شعره

شعره كثير ، متعدد الفنون ، كسب له شهرة عامة في عصره بين الخاصة والعامة، ونفق به عند الكل حتّى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون: فتح الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس والمتنبي والرمادي [2] ، لأن الرمادي كندي النسبة أيضاً ، ومعاصر للمتنبي . وليس لدينا خبر يفيد أن شعره كان مجموعاً في ديوان . ولكن نقل بعضهم عن الرمادي عدداً من قصائده مباشرة ، منها ما نقله ابن عبد البر — كما تقدم — ومنها سبع قصائد أنشدها أبو بكر ابن الفرضي رواية عن الرمادي ، هذا عدا ما ضمنه من شعره كتاب الطير الذي رآه الحميدي . ويقول الحميـــدي أيضاً إنّه سريع القول [3] . كأنّه يعني أنّه يعتمد على ما يشبه البديهة . ولكن الناظر في كثير ممّا بقي من شعره يحس بالجهد والتروي . والغوص والتعمق .

وقد انتهى إليه الموروث الشعري كما يمثله الغزال من ناحية وابن عبد ربه من ناحية أخرى ، من خلال أستاذه ابن هذيل . فنزع فيه وأغرق . وتجاوز حدود هؤلاء الثلاثة الكبار خطوة جديدة في المغالاة . ويبدو أن صلته بابن هذيل ترجع إلى أوائل عهـــده بالشعر . وأنّه كان إذا أعجبته قطعة لأستاذه عارضها أو ناقضها ؛ وهو يحكي عن نفسه أنّه بكّر ذات يوم إلى

١ الصلة : ٦٣٨ ، وانظر أيضاً المطرب : ٤ ؛ وذكرت المصادر ابنين من أبناء الرمادى هما أحمد وعلي وكلاهما شاعر إلا أن الثاني أشهر في الشعر من الأول (انظر التكملة ١٨٠ – ١٩) .

٢ الجذوة : ٣٤٦

٣ المصدر نفسه

باب أبي المطرف بقرطبة ، فلقي يحيى بن هذيل قد بكر قبله . فسأله ابن هذيل عمّا جدّ له من شعر فقال له : ليس عندي كبير معنى ولكن ما عندك أنت ؟ فأخرج ابن هذيل قصيدة منها :

ومُرنّةٍ والدَّجْنُ يَنْسجُ فوقها … بُرْدين من حَلَكٍ ونوءٍ باكي
مالتْ على طيّ الجناحِ وإنما … جعلَتْ أريكتَها قضيبَ أراكِ
وترَنّمَتْ لَحنْين قد خلتْهُما … كغناء ،سمعة وأنّةِ شاكي
ففقدتُ من نفسي لفرطِ صبابَتي … نَفْسَ الحياة وقلتُ : مَن أبكاكِ ؟

فأعجب بها الرمادي . فقال له ابن هذيل : انصرف إلى المكتب وتأدب حتّى تحسن مثل هذا . قال الرمادي : فحركني كلامه ، ثم بكر إليه وأنشده :

أحمامةً فوقَ الأراكةِ بَيّني … بحيـاةِ من أبكاكِ ما أبكاك
أمّا أنا فبكيتُ مِنْ حُرَقِ الهوى … وفراقِ مَن أهوى ، أأنت كذاك ؟

فلمّا سمعها ابن هذيل قال له : أعارضتني ؟ فقال : لا ، إنّما ناقضتك . فقال ابن هذيل : اذهب فقد أخرجتك من المكتب [1] .

فمن هو ابن هذيل الذي تتلمذ عليه الرمادي وما هي طريقته ؟

هو يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل ، تميمي النسب قرطبي يكنى أبا بكر ، ولد سنة ٣٠٥ وتتلمذ على قاسم بن أصبغ وابن أيمن وأحمد بن خالد ثم غلب عليه الشعر . وكان الذي لفته إلى الإمعان في الوجهة الأدبية حضوره جنازة ابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) وهو يومئذ شاب ، فراعه ما رأى من احتشاد الناس وسأل عن الجنازة فقيل له : إنها لشاعر البلد . قال : « فوقع في نفسي

١ نثار الأزهار : ٨٢ وبعض أبيات ابن هذيل في اليتيمة ١ : ٣٦٧ كما أن بيتي الرمادي في المطرب : ٦

الرغبة في الشعر واشتغل فكري بذلك» . وقدجعلته مثابرته على إحراز الشهرة الشعرية شاعر وقته أيضاً حتى قال فيه ابن الفرضي : «كان شاعر وقته غير مدافَع» ؛ وقد كان له ديوان أجاز روايته لابن الفرضي الذي كتب عنه شيئاً من الحديث والشعر ، وقد طال عمره وكف بصره ، وكانت وفاته ليلة الأربعاء ١٣ ذي القعدة سنة ٣٨٩[1] .

وكانت علاقته طيبة بأستاذه ابن القوطية ، وقد ذهب مرة لزيارته في ضيعة له فألفاه خارجاً منها ، فاستبشر بلقائه وابتدأه ببيت حضره على البديهة فقـال :

من أينَ أقبلتَ يا من لا شَبيهَ لهُ ومن هو الشمس والدنيا له فلكُ

فأجابه مسرعاً :

من منزلٍ يعجب النُسّاك خلوته وفيه ستر على الفُتّاك إن فتكوا

قال ابن هذيل : فما تمالكت أن قبّلت يده . إذ كان شيخي وأستاذي[2] .

وقد أقام ابن هذيل شعره على الصنعة المنحوتة وطلب الصورة الغريبة مجانباً طريقة الغزال في قلة الاحتفال بالصقال ، فممّا يلتزم ابن هذيل فيه المطابقات وحب التصوير قوله[3] :

فأنا الطائعُ المشوقُ لمَنْ صا رَ يُريني الهوانَ في عِصْيانِه

١ ترجمته في الجذوة : ٣٥٨ والبغية رقم . ١٩٤٥ وابن الفرضي ٢ : ١٩٣ ونكت الهميان . ٣٠٧ وله شعر كثير في التشبيهات وبعض مقطعات في اليتيمة ٢ : ١٤ ومسالك الأبصار ١١ . ١٧٣

٢ اليتيمة ٢ : ٧٤

٣ اليتيمة ١ . ٣٦٦

مرَّ بي خاطراً يكادُ من العجْـ ... بِ به أنْ يُراعَ في رَيعانِـهْ
في مُـــلاء كأنّه وهْو فيهـا ... وردُ خدّيْه في جنى سَوْسانِـهْ
يتَشكّى الفتورَ من كَسَلِ المشْـ ... ي ولا يَشْتكيه من أجفانِـهْ

فمقابلة الطاعة بالعصيان واشتكاء الفتور في المشي دون الفتور في الأجفان ، ثم هذه الصور الغريبة : صورة الذي يكاد أن يراع من عجبه وصورة المحبوب في ملاءة كالورد الذي قد التف من حوله السوسن ، كلّ ذلك يدل على هذه الصنعة الشعرية المشوبة بطلب الإغراب ، ثم هنالك الإغراق الذي يشارف حدود الإحالة ، كقوله[1] :

يكادُ يضيقُ الجوُّ من عِظَمِ زَفْرتي ... وتهفو نجُومُ الليلِ من فَرْطِ إعوالي
أبى غَيْرَ تَعْذيبي ولو أمرَ الرّدى ... أطاع ، ولكن فعلُهُ هـو إنكالي

ومن شغفه بالرسم المستغرب المستطرف نجده يقول[2] :

والثريّا دنتْ من البـدرِ حتّى ... خِلْتُها دارعاً يُديرُ مِجَنّا

وهي من أغرب الصور التي يرسمها شخص أعمى ، ولذلك فإن كثيراً من تصويره مبنيّ على نوع من الوهم الغريب ، كتصويره أحبته يرحلون وقد بلّهم الرذاذ والندى فلما تحركت جمالهم تساقطت القطرات على الأرض ، وبكى هو فاختلطت دموعه بتلك القطرات ، فما عاد تمييزها ميسوراً[3] :

لم يَرْحَلوا إلاّ وفوقَ رحـــالهم ... غَيْمٌ حَكى غَبَشَ الظّلامِ المُقبلِ

---

١ اليتيمة ١ : ٣٦٧
٢ المصدر نفسه
٣ الجدوة : ٣٥٨

وعلَتْ مطارِفَهُمْ مُجاجاتُ النّدى فكأنّما مُطِرَتْ بِدُرٍّ مُرْسلِ
لمّا تَحرّكتِ الحُمولُ تَناثرَتْ مِنْ فوقِهِم في الأرضِ تحتَ الأرجلِ
فبكيتُ لو عرفوا دموعي بينَها لكنها اختلطتْ بشَكْلٍ مُشْكلِ

تلك هي طريقة ابن هذيل من وجهة عامة ، وإن كنا نجد في شعره ما يمثل السهولة والجزالة والإتقان للصور ، والقدرة على خوض مختلف الموضوعات الشعرية ، فلما تأدت هذه الطريقة الشعرية إلى الرمادي تقدم بها خطوة ، فاعتمد كثيراً على الإحالة في المبالغة ومحاولة الإيهام ، واتكأ على طلب المعنى المبتكر ، وأنفق فيه جهداً عظيماً ، وتردد بين الأطراف الجدلية للموضوع يلحمها ويسديها ، فمن إحالاته المجتلبة قوله :

لا تُنْكروا غُزْرَ الدُّموعِ فكلُّ ما يَنْحَلُّ مِنْ جِسْمي يصير دُموعا

وقوله في العاذل :

أيأمَنُ أن يغدو حريقَ تنفُّسي وإلا غريقاً في الدموع السواجم
فهذا حمامُ الأيكِ يبكي هديلَهُ بكائيَ عليفزعْ للوْمِ الحمائم

وله قطعة كاملة نحا فيها هذا المنحى فقال [1] :

غداً يرحلونَ فيا يومُ رِسْلَكَ كُنْ بالظّلامِ بطيءَ اللحاقِ
ويا دَمْعَ عينيَ سُدَّ الطريقَ وأفْرِغْ عليهم نجيعَ المآقي
ويا نَفَسي جِئْهُمُ من أمامٍ وقابِلْهُمُ بنسيمِ احتراق
ويا همَّ نفسي بهِم كُنْ ظلاماً وقيِّدهُمُ عن نوًى وانطلاق

[1] الجذوة : ١٦٥

ويا ليلُ من بعدِ ذا إنْ ظفِرْتَ بالصُّبْح فاقذفْ به في وِثاق
سيدرون كيفَ يبينُونَ عنّي إلا على جهةِ الإستْراق .

فهو يريد من اليوم أن يتمهّل فلا يلحق بالظلام سريعاً ، ويطلب إلى دمع عينه أن يكون بحراً من دم يسد على الراحلين الطريق ، وإلى نَفَسه أن يكون هبوة نار ، وإلى همّه أن يصبح ظلاماً يقيدهم عن السفر ، وإلى الليل أن يقيد الصبح فلا يريم ، عندئذ تتضافر عليهم كل هذه المعوقات ، فلا يستطيعون السفر العمد ، وإنما قد يفارقون استراقاً . والشأن في هذه الإحالة كلها الاستطراف ، إلا أن عنصر الإغراق يضيف إلى هذه الأبيات من ناحية الطرافة لينقصها من الناحية المعقولة الداخلة في حدود الإمكان .

واستبقى الرمادي من مذهب الغزال الأثر النواسي في الخمر ، وشيئاً من السخرية ، إلا أنّه نقل السخرية من حقائق الحياة ومتناقضاتها إلى العبث بالمواضعات الدينية والاجتماعية ، ولا ريب في أن فزعه من إراقة الخمور في أيام الحكم يدل على أن شعره كان ينبع من نزعته اللاهية أول الأمر ؛ وأشعاره في الخمر تذكّرنا بروح التحدي عند أبي نواس وبإصراره ومجاهرته في شربها ، ومن ذلك قوله[1] :

أفي الخمرِ لامتْ خُلّتي مُسْتَهامَها كفرتُ بكأسي إن أطَعْتُ ملامَها
لمحمولةٍ في الفُلْكِ في جنّةِ المُنى قد اوْحى لنوحٍ غَرْسَها وضِمامها
فخادَعَهُ إبليسُ عنها لعِلْمِهِ بها فرأى كِتْمانها واغتنامَها
ففازَ بثلثيهـا ونوحٌ بثلثهـا ولولا مُضِيٌّ عنه لم يكُ رامَها
لـه حظُّ أُنثى وهو حظٌّ مُذكّرٍ قليلٌ لعيني أنْ أُطيلَ انسجامَها

[1] الشريشي ٢ : ٢١ — ٢٢

فقوله كفرت بكأسي . وسبته الخمر إلى القدم . والخصومة عليها بين إبليس ونوح وفوز إبليس بثلثيها وهو حظ الذكر . وفوز نوح بثلثها ، يرينا مبلغ فنائه في الخمر . كما تشير أبياته في روحها الأسطورية إلى الميل القصصي الأصيل عنده . ذلك الميل الذي كان يبعد به عن الإغراب ويسلمه إلى السرد والتحليل ، كما في قصيدته الرائية التي قالها في حادثة إراقة الخمر وفيها يقول مخاطباً الآمرين بإراقتها :

تَحَرَّيْتُمْ بذاك العدلَ فيها بزعمكُمُ فإن يكُ عن تحرّي
فإنّ أبا حنيفة وهو عَدْلٌ وَقَرَّ عن القضاءِ مسيرَ شهرِ
فقيهٌ لا يدانيهِ فقيهٌ إذا جاء القياسُ أتى بدُرِّ
وكان من الصلاةِ طويلَ ليلٍ يُقَطِّعُهُ بلا تغميضِ شُفْرِ
وكان لهُ من الشُّرَّاب جارٌ يواصلُ مَغْرِباً فيها بفَجْرِ
وكان إذا انتشى غَنَّى بصو ت المُضاع بسجنهِ من آل عمرو
« أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ »
فغَيَّبَ صوتَ ذاك الجارِ سجنٌ ولم يكنِ الفقيهُ بذاك يَدْري
فقال وقد مضى ليلٌ وثانٍ ولم يسمعه غنّى : ليت شعري !
أجاري المؤنسي ليلاً غناءً لخيرٍ قَطْعُ ذلك أم لشَرِّ
فقالوا إنّهُ في سجنِ عيسى أتاه به المُحارِسُ وهو يسري

وهكذا إلى نهاية القصة . وهو نفس قصصي جيد يذكرنا بالغزال وميله إلى البسط والتحليل .

أما سخريته التي نقلها إلى الهزء بالمواضعات العامة فتدل على أنّه كان فقيراً إلى النظرة الشاملة ، وأنّه لم تكن لديه التجربة العميقة التي كانت للغزال . وإنما تشير إلى استهتار وانخلاع مجوني عابث . جاءه من تهالكه على

الخمر ، ولذلك استعمل صور القداسة ، ساخراً ، حتى تحدث عن الخمر ، فقال :

تُسْرِعُ الناسُ نحوها بازدحامٍ كازدحامِ الحجيجِ في عرَفات

وقال :

فإذا ما انقضى دنانٌ على اللهو اعتمدْنا مواضعَ الصلوات

وأنفق كثيراً من طاقته الشعرية في التغزل بالغلمان ، حتى إن السجن لم يشغله عن هذا الموضوع ، بل ظل سادراً فيه ، ومن الإنصاف له أن نسجل له مزجه بين التهتك والتعفف في مقام واحد ، ذهاباً مع ما يسميه هو المروة أو الفتوة .

ومع ذلك فإن السجن كان من أقوى الدوافع التي كادت أن تحطم عليه طريقته الشعرية التي قامت على المجانة واللهو في الموضوع وعلى الإغراق والإحالة في تعقب الصور والمعاني ، وانطلقت أشعاره في السجن من خلجات الحزن العميق ودوافعه ، وردّه وضعه إلى شيء من التأمل في نفسه وفي نهايته ، وملأ أبياته بالبكاء حيناً وبالتشوق إلى الانطلاق حيناً آخر ، وحلّت العاطفة الجيّاشة في شعره محل التصنيع الذهني ، ومن أمثلة ذلك قوله [١] :

وقالتْ تظنُّ الدهرَ يجمعُ بيننا فقلتُ لها مَنْ لي بظنٍّ مُحقَّقِ
ولكنني فيما زجرتُ بمُقْلتي زجرتُ اجتماعَ الشملِ بعد التفرُّقِ
أباكيةً يوماً ولم يأنِ وَقْتُهُ سيَنْفدُ قبلَ اليوم دمعُكِ فارْفُقي

ومن قصائده التي انبعثت من المَحبس أيضاً [٢] :

١ المطمح : ٧٢
٢ المطمح : ٧٣

على كِبَرِي تَهْمي السحابُ وتَذْرِفُ وعن جَزَعي تبكي الحمامُ وتَهْتِفُ
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي وتلك على فَقْدي نوائحُ هُتَّفُ

ولو أنّا قارنّا هذه الانطلاقات العاطفية بأبياته التي أوردتها من قبل في وصف الأزهار والربيع لتبين لنا الفرق واضحاً ، فهنالك اهتدى إلى معنيين جميلين بعد الكد والإجهاد ، حين زعم أولاً أن الماء قد غاص في حشا الثرى فأظهر أسراره ، كأنه ليس ماء على التحقيق ، بل خمرة تخرج المكنون في النفوس ثم توهم أنّ السماء افتخرت على الأرض . فنصر الأرض عليها وقال : إن خضرة الأرض تفوق خضرة السماء والنوار يقوم مقام النجوم . أما الشمس والبدر والغيث فكلها قد تجمعت في شخص واحد هو شخص الممدوح ، ولكن حكايته عن عواطفه الحزينة في أيام السجن أقل احتفالاً بالاستطراف في المعنى وأكثر اتصالاً بالحال النفسية ، على وجهها الطبيعي .

ومن الخطإ أن نظن أن الرمادي كان دائماً شديد الغوص كثير الكد في استخراج المعاني وتوليدها ، فإن له شعراً تلمح عليه رونق الطبع كقوله[1] :

صدَّ عنّي وليس يعلمُ أني كنتُ في كُرْبَةٍ ففرَّجَ عني
وتجنّى عليَّ من غيرِ ذنبٍ فتجنّى على كثيرِ التجني
حُسْنُ ظنّي قَضى عليَّ بهذا حَكَمَ اللهُ لي على حُسْنِ ظَني

وبينا نقرأ له هذا اللون السهل المنساب نراه يمعن في التكلف حين يقول[2] :

عزَمْتَ على قتلي بغيرِ تَحَرُّجٍ شَجًى بكَ حتى تقتلَ الهائمَ الشجي
. . . .

١ الجذوة ٣٤٩
٢ اليتيمة ١ : ٤٣٦

ولم يُبدِ سرّي فيكَ رأيي وإنّما تَبَدّى فِراراً من حشًى مُتَوَهّج
نُحولي ودَمْعي دَبّجا وجنتي بما رأتْ مقلتي من خدِّك المُتَدَبّج
بهاراً ودرّاً هبّتِ الريحُ فوقه بقرو فغَطّتْ وَرْدَهُ بالبنفسج

فهو على هذا يتعاوره تياران — كابن عبد ربه — ولكنّه إلى الثاني أمْيل ، وبه عرفه قومه ، وقدموه ، وشهدوا له بالتفوق .

ولو وصلنا من شعره الكثير لاستطعنا أن نستكشف فيه على وجه أوضح مدى دينه لأستاذيه ابن عبد ربه وابن هذيل ، وقد ذهب ابن بسام إلى أن قوله[1] :

ولم أرَ أحلى من تَبَسُّمِ أعيُنٍ غداةَ النوى عن لؤلؤٍ كان كامنا

مأخوذ من قول ابن عبد ربه :

وكأنّما غاصَ الأسى بجفونها حتى أتاكَ بلؤلؤ منثور

فاحتال الرمادي حتى أتى باللؤلؤ وعوض من الغائص التبسم ، ووقعت له استعارة التبسم موقعاً لطيفاً .

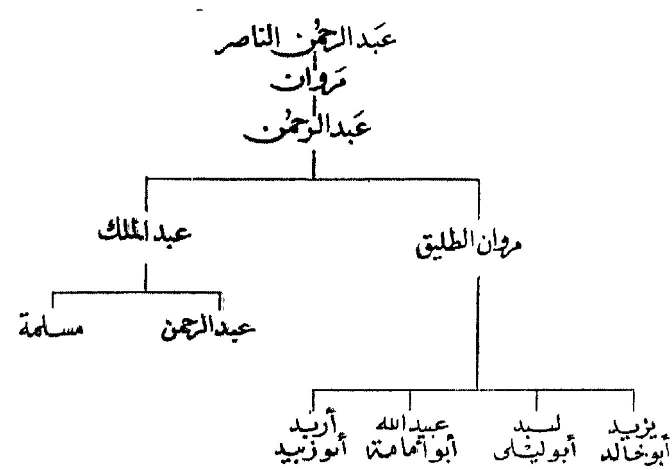
ويختلط البيتان التاليان لهما ، فبعضهم ينسبهما لابن هذيل وبعضهم للرمادي[2] :

لا تَلُمْني على الوقوفِ بدارٍ أهلُها صيّروا السقامَ ضجيعي
جعلوا لي إلى هواهمْ طريقاً ثمَّ سَدّوا عليَّ بابَ الرجوعِ

وهما يربطان بين الطريقتين ، وتصحُّ نسبتهما لكلّ من الرجلين .

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٧٦
٢ النفح ٢ : ١٠٠٨

٣ – الشريف الطليق



عدّ ابن حزم للخليفة عبد الرحمن الناصر أحد عشر ولداً من الذكور ، منهم مروان الذي رزق ولداً اسمه عبد الرحمن ؛ وكان لعبد الرحمن هذا ولدان هما مروان الذي شهر من بعد بلقب « الطليق » وأخوه عبد الملك ، وكان الثاني في أيام ابن حزم يسكن مدينة دروقة[1] ؛ وعلى هذا فإن النسب الصحيح للطليق هو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ؛ وقد أخطأ المقّري في النفح فذكر أنّه « مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك ابن الناصر »[2] . وكان مروان هذا يكنى أبا عبد الملك وهي كنية اكتسبها من

١ الجمهرة : ١٠٣ (الطبعة الثانية)
٢ النفح ٢ : ٢٩٨ (ط. أوروبة) .

اسمه فقط وإلا فإن أولاده الأربعة الذين عدهم ابن حزم لم يكن فيهم من يحمل هذا الاسم .

عاش مروان ثمانية وأربعين عاماً وتوفي قريباً من سنة ٤٠٠ (ولعله توفي على الأرجح سنة ٣٩٦) ؛ وهذا يجعلنا نقدر أنّه ربما ولد قبل وفاة جده الأعلى الخليفة الناصر بمدة غير طويلة (أي حوالي ٣٤٧ أو ٣٤٨) . وتقدير سنّه قد يخضع لحكم المفارقة ، فقد قيل إنّه عاش قبل أن يسجن ست عشرة سنة ثم مثلها في السجن ، ثم مثلها بعد خروجه منه ؛ ومثل هذه الملاحظة قد تكون مدعاة للوقوف فيها ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما استوقفت النظر وأثارت التأمّل .

لماذا سجن الشريف المرواني ؟ يذكر الحميدي رواية لا يقطع بتعيين راويها ، فهو : إما محمد بن إدريس أو غيره ، حدثه فيها أن مروان بن عبد الرحمن هذا كان يحب جارية نشأت معه في بيتهم ، وكان يظنّ أنها ستكون من نصيبه غير أن أباه استأثر بها دونه ، فداخلته من ذلك غيرة شديدة جعلته يفقد توازنه ويقدم على قتل أبيه[1] ، فاجأه في بعض خلواته مع تلك الجارية نفسها فقضى عليه ، فأُخذ بجرمه ذلك وسجن ؛ ولعلّ القضاء راعى سنّه يومئذ ولكنّا لا ندري كم كانت المدة التي حُكم عليه أن يقضيها في السجن ؛ وإذا كانت تلك الحادثة قد تمت وعمره ١٦ عاماً فمعنى ذلك أنّه أقدم عليها حوالي عام ٣٦٣ أو العام التالي ، ومن ثم يصدق القول بأن الذي سجنه هو المنصور بن أبي عامر الذي كان ذا سلطات كثيرة قبيل وفاة الحكم المستنصر (٣٦٦) وبعد وفاته .

كانت الغيرة العمياء ونزق الشباب وعدم التفكر في عواقب الأمور

١ الجذوة : ٣٢٢ والنفح ٢ . ٣٩٩ والحلة ١ : ٢٢٠ – ٢٢١

طريق الشريف المرواني إلى السجن ، وكان ما يزال يومئذ فتى جميل المحيّا ، تعشقه العين ؛ وكان حظّه من الثقافة ضئيلاً لا يعدو مبادىء القراءة والكتابة . ولذلك أثبت السجن من بعد أنّه كان المدرسة التي علّمته الأدب والشعر ، وعمقت في نفسه الرغبة في الإقبال على التعلّم ، كما فتحت لديه قريحته الشعرية ، ودربته على الصبر وتحمُّل الألم . فقد قيّض له حين سجن أن يجتمع في المطبق إلى عدد من رؤساء الأدباء : « فلم يزل الطليق يأخذ عنهم ويستمد منهم حتّى ثري تربه وطلع عشبه وسما ذكره وطار شعره »[1] وأخذ ينظم في السجن قصائد تصل إلى أسماع الناس ويرددونها ، وكان المنصور بن أبي عامر إذا سمع أشعاره لم يصدق أنها من نظمه ، وقد يظن أن بعض الشعراء المسجونين معه كان يعينه بها أو يعاونه على نظمها .

ولا نعرف من أولئك الشعراء زملاء الطليق يومئذ إلا شاعراً واحداً هو محمد بن مسعود البجاني المنتسب إلى غسّان ، ويصفه ابن بسام بقوله : « كان شاعراً مجوداً جزل المقاطع حسن المطالع ، جيد الابتداع لطيف الاختراع ، كثير الغوص على دقيق المعاني . حسن الاستخراج للألفاظ الرائقة والتصريف لمستعمل الكلام »[2] . ويقول الحميدي : إنّه كان مليح الغزل طيب الهزل[3] ؛ ويبدو أن السبب الذي أدّى إلى سجنه اتّهامه بالزندقة[4] ، ومن السهل أن تعلق به هذه التهمة لأن إقباله على الهزل كان يؤدي به إلى شيء من الاستهتار ؛ وقد كلف البجاني هذا بالطليق حين وجده غلاماً وسيماً . فتصوّر نفسه أحد

١ الذخيرة ١ / ٢ : ٨٠
٢ الذخيرة ١ / ٢ : ٧٩
٣ الجذوة : ٨٦ ؛ وانظر المغرب ٢ : ١٩١ — ١٩٢ في ترجمته ، والمسالك ١١ : ٤٠٠
٤ النفح ٢ : ٢٦٤ والذخيرة ١ / ٢ : ٧٩ — ٨٠

اثنين دخلا السجن مع يوسف الصدّيق، رمز الجمال، فقال يذكر ذلك في شعره[1] :

غَدوتُ في السجنِ خدناً لابن يعقوبِ وكنت أحسب هذا في التكاذيبِ
رامت عداتيَ تعذيبي وما شعرت أن الذي فعلوه ضدّ تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها فكان ذلك إدنائي وتقريبي
لم يعلموا أن سجني لا أبا لهمُ قد كانَ غايةَ مأمولي ومرغوبي

والأبيات لا تدلّ على عشق بمقدار ما تدلّ على إعجاب بجمال الطليق، وتهوين من وقع السجن على النفس. وهذا الحكم لا ينتقض بقوله فيها :

وفيكَ ما يتسلى العاشقون بهِ من حسن خلق ومن ظرفٍ ومن طيب

ففي هذا البيت شهادة بما كان عليه الطليق من صفات الجمال والظرف وحسن العشرة والخلق ؛ ثم إنّ البجاني انصرف بعد ذلك عن مثل هذا القول في قصيدته إلى التحدث عن آلام السجن وإلى الحنين لشخص غائب عن عينيه، لا إلى الطليق. ومهما يكن من شيء، فإن اتصال الطليق بتلك الجماعة من الشعراء في حبسه ومنهم البجاني هو الذي يهمنا من ناحية التأثير في توجيهه الوجهة الأدبية.

وكانت السنوات التي قضاها مروان معتقلاً خصبة بالنتاج الشعريّ حتى ذكرت المصادر أن أكثر شعره في السجن[2]، إلا أن هذا «الأكثر» لم يتبق منه إلا القليل ؛ وهذا الذي تبقى فيه تصوير للسجن نفسه، ذلك المكان المظلم إزاء مدينة الزهراء التي تتلألأ أنوارها :

في منزلٍ كالليل أسودَ فاحم داجي النواحي مظلم الأثْباجِ

١ النفح ٢ : ٢٦٤
٢ الحلة ١ : ٢٢١

يسودّ والزّهراء تشرقُ حولهُ   كالحبر أودع في دواة العاجِ

وفيه إلى ذلك استشعار بالحزن والفناء في لحظة من لحظات الضيق التي لا تستطيع رغم إرهاقها وعسرها أن تحجب عن عيني ممارسها شعاع التفاؤل[1] :

ألا إنّ دهراً هادماً كلّ ما نَبْني   سيَبلى كما يُبلي ويفنى كما يفني
وما الفوزُ في الدُّنيا هو الفوز إنّما   يَفوزُ الفتى بالربحِ فيها مع الغبن
يجازى ببؤسٍ عن لذيذ نَعيمها   ويجني الردى ممّا غدَتْ كفه تجني
ولا شكّ أن الحزن يجري لغايةٍ   ولكنّ نفسَ المرء سيئة الظن

الحزنُ إلى أجل ؛ ولكن النفس تسيء الظنون حتى يغيب عنها وجه الأمل ؛ وبعد ستة عشر عاماً – فيما تقول الرواية – لاح وجه الأمل ، وانطلق الشريف المرواني من سجنه إلى الحياة في المدينة الكبيرة – قرطبة – .

متى أُطلق الشريف من الاعتقال ولماذا أُطلق ؟ يقول الذين ترجموا له إنّه خرج قبل خروج صديقه البجاني ، ويجعل ابن سعيد عام ٣٧٩ تاريخاً لانطلاق البجاني[2] ؛ وهذا قد يحدّد تاريخ إطلاق الشريف المروانيّ، فهو إما تمّ في ذلك العام نفسه أو قبله بقليل ؛ ولما خرج من سجنه كانت علاقته بالبجاني قد انقلبت إلى كره ، ولذلك هجاه البجاني بما يشير إلى تبرمه واستثقاله ، فمن ذلك قوله فيه[3] :

قد قذيتْ من لحظهِ مُقلتي   وقرحت من لفظه أُذني
نادمني في السجن مَنْ قُربه   أشدّ في السجن من السجنِ

١ الحلة ١ : ٢٢١
٢ المغرب ٢ : ١٩٢
٣ الذخيرة ١ / ٢ : ٨١ والنفح ٢ : ٢٦٤

ولا ندري هل قابله المرواني بمثل هجائه ، فما تبقى من شعره ليس فيه إشارة إلى ذلك الصديق الذي انقلب عدوّاً ، والمعجب الذي فقد إعجابه . أما سبب إطلاقه فتختلف فيه الروايات ، فهو إمّا عطفٌ تلقائي من المنصور عليه لأنه قد قضى من السنين ما يكفي . فلمّا أطلقه بعد تلك المدة لقبه الناس بالطليق إحساساً منهم بمقدار ما أقام معتقَلاً . وقيل إنّ هذا الإطلاق لم يكن عفوياً بل تدخّل فيه توجيه القدر ، وفي تعليل ذلك التوجيه وردت روايتان : إحداهما تقول إن المنصور رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يأمره بإطلاقه[1]، والأخرى تعزو الفضل إلى النعامة، وقصة ذلك أنّ الشريف المرواني ضاق ذرعاً بالسجن فكتب بطاقة إلى المنصور يسترحم فيها ويستعطف ، فأخذ ابن أبي عامر البطاقة وأدرجها مع رقاع أخرى ودخل إلى داره ، فجاءت نعامة كانت هناك ، فجعل يلقي إليها الرقاع فتبتلع شيئاً وتلقي شيئاً، فلما ألقى لها رقعة الشريف ــ دون أن يقرأها ــ أخذتها ودارت بها وألقتها في حجره ، فردّها إليها ، وتكرّر ذلك مراراً . فعجب المنصور وأخذ الرقعة وقرأها وخيل إليه كأن النعامة تحدثه بلسان القدر ، فأمر بإطلاق الرجل ؛ ولذا لم يلقب الشريف ــ حسب هذه الرواية ــ بالطليق وحسب ، وإنما لقب « طليق النعامة »[2] .

كان الطليق يوم فكاكه قد دخل سن الكهولة ، وأصبح في الثانية والثلاثين من عمره ، وفي الثلث الثالث من حياته ــ فيما أقدّر ــ تزوّج ؛ إلا أن نفترض أنّه تزوج وهو في السجن . وهو شيء غير مستبعَد ولكنّه غير طبيعي . ورزق من زواجه أربعة أبناء هم يزيد ولبيد وعبيد الله وأربد ؛ وفي

---

١ النفح ٢ : ٣٩٩
٢ المعجب : ٢٨٥ ــ ٢٨٦

هذه الفترة نفسها عاد إقباله إلى حياة اللهو بعد أن فطمه السجن عنها مدة طويلة . ونراه في أحد مواقفه عند بعض الرؤساء من أسرته المروانية . والرائس يقدم إليه قدحاً من فضة فيه راح صفراء ويقول له : اشرب وصف ، فداك ابن عمك ؛ فيقف الطليق إجلالاً ويشرب معبراً بصياحه عن سروره ثم يقول : الدواة والقرطاس . فإذا أحضرا إليه كتب[1] :

اشرب هنيئاً لا عداكَ الطرب   سرَّ كريم في العلا منتخب
وافاكَ بالراح وقد ألبست   بُرد أصيل معلماً بالحبب
في قدح لم يكُ يسقى بـه   غيرُ أولي المجد وأهل الحسب
ما جار إذ سقّاك من كفّه   في جامد الفضة ذوب الذهب
فقم على رأسك برّاً بـه   واشرب على ذكراه طول الحقب

شعره

كان الطليق عند نقاد الأندلس مقدّماً في الشعر ؛ فابن حزم يقول فيه: « كان مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين »[2] كما يقول في موضع آخر : « أبو عبد الملك هذا في بني أمية كابن المعتز في بني العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه »[3] ؛ ولم ينس الشقندي وهو يفتخر بأجود ما لدى الأندلس أن يذكره في رسالته فيقول : « وهل منكم من وصف ما تحدثه الحمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول الشريف الطليق :

أصبحتْ شمساً وفوه مغرباً   ويدُ الساقي المحيي مشرقا

١ النفح ٢ : ٣٩٩
٢ جمهرة الأنساب : ١٠٢
٣ جذوة المقتبس : ٣٢١ والحلة ١ : ٢٢١

فإذا ما غربت في وجهه تركت في الخدّ منه شفقا »

وكان هناك إحساس لدى ابن بسام وابن الأبار بأن إغفاله لا يجوز ، رغم أنّه لا يقع ضمن شرط هذين المؤلفين في كلّ من الذخيرة والحلة السيراء .

وقد وصف بأنّه شاعر مكثر [١] ؛ ولكن ما تبقّى من شعره يعد — إلى جانب تلك الكثرة — قليلاً ؛ وقد لمح ابن حزم الصفة الغالبة عليه وهي شدة ميله إلى التصوير ، ولذلك اهتمت بشعره الكتب التي تعنى بالتشبيهات مثل الفرائد في التشبيه من الأشعار الأندلسية لأبي الحسن علي بن محمد القرطبي وكتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني الطبيب . ولكن المقارنة بينه وبين ابن المعتز ربما لم تكن موفقة كثيراً . صحيح أنّنا قد نلمح في مثل قوله مقارناً بين سواد السجن وتلألؤ الأضواء في الزاهرة :

يسودُّ والزهراء تشرقُ حولهُ كالحبرِ أُودع في دواة العاج

أنّه يستعمل أدوات ابن المعتز في التشبيه ، ولكنّه لا يملك تلك القريحة التركيبية التي كانت تجمع في صور ابن المعتز عناصرَ لا رابطة بينها في واقع الحياة ، وتكاد أغلب صور الطليق أن تكون من الأشياء المألوفة ، فإذا سمع البرق والرعد ، تمثل صورة محبّ وأن الرعد أنينه والبرق نار حرقته والمطر دموعه :

فكأنّ الغمام صبٌّ عميد أنّ بالرعد حرقة واشتكاء
وكأنّ البروق نار جواه والحيا دمعه يسيل بكاء

وإذا وقف وحيداً في ديار حبيبته تمثل أنّه يشبه غيلان ذا الرمة وأن ديار

١ الحلة ١ : ٢٢١ والجذوة : ٣٢١

حبيبته هي ديار مية :

فبقيت في العرصات وحدي بعدهم حيران بينَ معاهد ما تعهد
فكأنّهنّ ديار ميّ إذ خلت وكأنّني غيلانُ فيها ينشد

وهو يرى — ما يراه أيُّ شاعر تقليدي — في جريان المياه ثعابين فضة منبعثة في السواقي ، والحصباء كالدرّ على اللبّات :

وكأنّ المياهَ فيها ثعابيـ نُ لجينٍ تبعث في السواقي
وكأن الحصباء في رونق الما ء سنا الدرّ في بياض التراقي

هنالك حقيقة نقررها : وهي أنه حقاً شغوف بالتشبيه ، غير أنّه لا يشذ في ذلك عن المقدّمين في قرطبة من شعراء عصره كابن هذيل والرمادي وغيرهما ، وهو أيضاً مثلهم ضحية الإسراف في طلب الصورة ، ثم العودة من تلك الرحلة الشاقة بصور مألوفة موضوعة في صياغة جديدة .

وقد استطاع أحياناً أن يخفّف من التعمّد البيّن لاقتناص الصور حين مزج صوره بموسيقى عذبة . وخير ما تبقّى لنا من هذا اللون في شعره قصيدته القافية التي اشتهرت عند الأقدمين ، واقتبسوا منها شواهد على قدرته في الشعر ووصفها ابن الأبار بأنها قصيدة فريدة ، ومطلعها :

غصُن يهتز في دعص نقا يجتني منهُ فؤادي حُرَقا

وهي قصيدة طويلة ، فقد بقي ممّا اختير منها ثمانية وثلاثون بيتاً ، وتدلُّ الأجزاء الباقية على أنه أرادها جامعة لعدة ظواهر ، فهو يصف الساقي والخمر وما يتصل بها ثم يعرّج على وصف يوم عاصف ماطر ، ثم يتحدث عن حلول الصحو ومنظر الأزهار غبّ المطر ؛ وكل هذا يبدو في نسق واحد في نظر

الشاعر الأندلسي حينئذ . وتعد هذه القصيدة — من هذا المنحى — مقدمة لوصفيات ابن حمديس؛ ولكن الطليق يختم قصيدته في الفخر بنفسه وبقومه .

ومن أجزائها اللافتة حقاً وصفه للخمر وشاربها الجميل ، وذلك حيث يقول :

ربَّ كاس قد كست جنح الدجى ثوب نورٍ من سَنَاها أشرقا
بتُّ أسقيها رشا في طرفـه سِنة تورث عيـني أرقـا
خَفيتْ للعـينِ حـتّى خلتُها تتقي من لحظه ما يتقى
أشرقت في ناصـع من كفـّه كشعاع الشمس لاقى الفلقـا
وكـأن الـكاس في أنملـهِ صفرة النـرجس تعلو الورقا
أصبحتْ شَمْساً وفوه مغرباً ويدُ الساقي المحيي مشرقا
فإذا مـا غـربت في وجهـهِ تركت في الخدّ منه شفقا

وقد تكون المعاني في هذه الأبيات ترديداً لما ألفناه في شعر أبي نواس ، وقد تكون بعض الصور — إذا أُخذت كل واحدة على حدة — ممّا لا يمثل أية جدة في التصوير ، ولكنها جميعاً في هذا النسق الموسيقي الجميل الذي يخيل إلينا أن الألفاظ تتدافع تدافعاً عفوياً تحدث أثراً عميقاً حين مزجت بين الناحيتين التصويرية والموسيقية .

وربما لفت انتباهنا في حديثه عن المطر تشبيهه الأرض بأنها سجن وأنّ ما يغيب في جوفها من ماء المطر هو الجاني المعتقل :

فكأن الأرض منهـا مطبق وكأن الهضب جانٍ أُطبقـا

فإذا انتهى الشاعر من رسم تلك اللوحة الكبيرة للطبيعة بين مطر وصحو وهي تحفّ بمجلس الشراب توصَّل إلى الفخر بنفسه ، وهذا الفخر ربما لم

يستوقف اهتمامنا إلا من ناحيتين : الأولى غرابة صلته ببقية أجزاء القصيدة ، والثانية التعرّف إلى ناحية شخصية عند الطليق بعد إذ لم يبق من شعر الفخر لديه إلا هذه الأبيات ، وفيها يقول :

من فتى مثلي لبأس وندًى — ومقالٍ وفعالٍ وتقى
شرفي نفسي وحليي أدبي — وحسامي مقولي عند اللقا
ولساني عند من يخبره — أفعوان ليس تثنيه الرُّقى
ويميني يمن عافٍ معسر — جمعت حمداً غدا مفترقا
جدّيَ الناصر للدين الذي — فرّقت كفّاه عنه الفرقا
أشرفُ الأشرافِ نفساً وأباً — حيز يعلوه وأعلى مرتقى
أنا فخرُ العبشميين وبي — جدّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفا من مجدهم — بحلى رونقِ شعري رونقا

ومن المفارقة أن نسمع في هذا الحديث الكثير عن اللهو والساقي والخمر ذكراً للتقوى ، غير أن الشاعر الذي يفتخر بنفسه وبجده الناصر لا ينسى أن يتحدث عمّا يحسّه صفة مميّزة له ، وهي شعره الذي يجدّد ما درس من مجد بني عبد شمس ويكسوه رونقاً .

وكأن هذا النسق الموسيقي أعجب الشاعر لإعجاب الناس به يوم شاع بينهم القصيدة فنظم قصيدة أخرى على غرارها شينية القافية يقول فيها :

قمريّ الوجه أبدى بضحى — وجهه خط الغوالي غبشا

ولم يبق من هذه القصيدة — حسبما احتفظ بها ابن بسام[1] — إلا التغزل ، ولكنها جاءت أقلّ حفة من القصيدة السابقة ، لأنها توحي بالبناء المصنوع

[1] الذخيرة ١ / ٢ ٨٢ - ٨٣

وذلك أن القافية التي اختارها الشاعر تحدّد طبيعة كل بيت قبل أن يهم بصياغته، مثل قوله :

جمشت ألحاظ عيني خدّه   مثلما باللحظ قلبي جمشا
نقشت عيني عليه أسطراً   أعربت عمّا بقلبي نقشا

فلولا التأسيس على لفظتي « جمشت » و « نقشت » لما كان للبيتين وجود . كذلك فإن السياق العام الذي استدعى قافية « القاف » كان أخف وقعاً من الشينات .

ومهما يكن من شيء فإن الطليق حاول أن يتميز بهذا اللون التصويري الراقص النغم في الشعر، وقد تنبه النقاد الأقدمون إلى ذلك، حتى ذكر المقّري أن بعض النقاد قالوا : « وهذا النمط قد فات به أهل عصره »[1] ؛ وهذا الحكم قد يكون غير بعيد عن الصواب ، ولكن شتان بينه وبين حكم آخر أورده المقّري نفسه مقدّمة لأبيات له ، فقال : « ويظن أنّه لا يوجد لأحد منهم أحلى وأكثر أخذاً بمجامع القلوب من قوله :

ودّعتُ من أهوى أصيلاً ليتني   ذقت الحِمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده   والوُرق تندبُ شجوها بهواه
وعلى الأصائل رقة من بعده   فكأنّها تلقى الذي ألقاه »

فقد كان الحديث عن تأثر الطبيعة لفراق المحبوب موضوعاً جميلاً ولكن حين تناوله هنا وضعه وضعاً مبتذلاً ، وحاول أن يستنقذ موضوعه من براثن الابتذال حين ناقض بين الجانبين : أعطى للطبيعة إحساساً إنسانياً ، وأعطى للمحبوب صورة الروضة (أو الطبيعة) :

١ النفح ٢ : ٣٩٨

الزهرُ مبسمُهُ ونكهته الصّبا والورد أخضله الندى خدّاه
فلذاك أولع بالرياض لأنهـا أبداً تذكرني الذي أهواه

ولكنه لم ينجح في رسم هذا التعاكس ، لأن جمع مفارقتين مبتذلتين لا يثير طرافة جديدة .

وإذا استثنينا أبيات الطليق في الفخر استطعنا أن نقول إن قصائده التي وصلتنا تتجه نحو تصوير الناحية البهيجة في حياة الحب والطبيعة والخمر ، وإن مقطعاته منتزعة من قصائد لتكون أمثلة على القدرة التصويرية عنده ، وقلّما نجد في ما تبقى من شعره ما يمكن أن يُتخذ سنداً تاريخياً ؛ ولعل صورة الشاعر تزداد وضوحاً لو وصلنا ديوانه[1] .

١ نقدر أنه صنع لنفسه ديواناً جمع فيه شعره الكثير ، وإن لم تحدثنا المصادر بشيء عن هذه الناحية

٣

الشعراء المتأثرون بالفتنة البربرية

قد اخترنا ثلاثة شعراء شهدوا عهد الفتنة البربرية ، وعاشوا بعدها ، مدداً متفاوتة ، وانعكست لها في نفسياتهم آثار متفاوتة كذلك ، وهم : ابن دراج وابن شهيد وابن حزم . أما الأول فقد حولته الفتنة إلى متسكع على الأبواب هارب من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل ، وأما الثاني فقد أصيب بما يشبه « توقف النموّ » ، فعكف على لذائذ الحياة لينسى ما أحدثته الفتنة وليعيش في ذكريات الطفولة ، وأما الثالث فانتفض كأنّما كان نائماً ، وهبّ من رقدته يجري لاهثاً ليشرب من نهر النجاة ، بعد أن أدرك أنّه ضيع قطعاً من العمر في طلب الدنيا . وهكذا فإن تبين أثر الفتنة يعد دراسة لنفسيات هؤلاء الناس أكثر مما هو دراسة لأشعارهم . وبسبب هذه الصلة القوية بفعل الفتنة في نفوسهم تجوزنا بعض الشيء في النظر إلى الناحية الزمنية ؛ فابن دراج عاش أكثر حياته قبل الفتنة ، وابن حزم عاش مدّة طويلة في عصر ملوك الطوائف ؛ ومع ذلك فإن نقطة التحول في حياة الفرد تستطيع أن ترسم حدود ما قبلها وما بعدها ، لأنها ذات إشعاعات على ما كان وما سيكون . وكذلك كانت الحال في دراسة هؤلاء الشعراء الثلاثة .

١ – أبو عمر
أحمد بن محمد بن دراج القسطلي

المحرم ٣٤٧ – ٤٢١ / مارس ٩٥٨ – ٢١ يونيه ١٠٣٠

الذخيرة ١ / ١ : ٤٣ – ٧٨	والجذوة : ١٠٢ والصلة : ٤٤
والنجوم الزاهرة ٤ ٢٧٢	والمطرب : ١٤٥
ومسالك الأبصار ١١ . ٢٠١	وشذرات الذهب ٣ ٢١٧
والمعرب ٢ : ٦٠	والتتمة ١ : ٤٣٨
والنفح ٢ : ٧٨٢، ٨٠٠، ٨٥٦، ٩٠٦	
والروض المعطار : ١١٥ ، ١٦٠	والرايات : ٧٣
وأعمال الأعلام : ١٢٣، ١٩٧، ٢١٢، ٢٢٣	
والشريشي ١ : ٤٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٣	وابن خلكان رقم . ٥٥

كان قد تجاوز الخمسين عندما نشبت الفتنة . ولكن تلك الحادثة أثرت في نفسيته وشعره ، وتحولت به تحولاً لم تستطع أن تحدثه تلك السنوات الطوال التي عاشها قبلها .

وأول ما نرى أحمد بن محمد هذا المنتسب إلى بني دراج – وهم فرع من صنهاجة[1] المنسوب لقسطلة دراج من أعمال جيان[2] – يحاول التماس منزلة عند المنصور بن أبي عامر ، ولعل الحظوة التي نالها صاعد عند المنصور بشعره ..

١ جمهرة الأنساب : ٤٦٦

٢ وهناك قسطله أخرى تسمى اليوم Cacella وهي في البرتغال وكانت تعرف عند العرب باسم قسطلة الغرب ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها هي بلدة ابن دراج ولكن يبدو أن قسطلة المعدودة من أعمال جيان هي موطنه (راجع مقدمة ديوانه ٢٨ – ٣٢) .

قد أثرت في نفسه فأراد لنفسه شيئاً شبيهاً بها ، فنظم قصيدة عارض فيها صاعداً، منهـا [1] :

أضاء لها فَجْرُ النُّهى فَنَهاها   عن الدَّنِفِ المُضْنى بحرّ هواها
وضَلّلها صُبْحٌ جـلا ليلة الدجى   وقد كان يهديهـا إلي دُجاها

وأراد أن يكون له بها اسم مقيد في ديوان الشعراء . فتألب عليه النقاد فيما يبدو ، ودفعوه عن مرتبة الإجادة ، وربما اتّهموه بأنّه لا يستطيع إلا المعارضة ، وادعوا عليه عند المنصور أنّه منتحل سارق لا يستحق أن يكون له عطاء منظم ، وفي نفس المنصور من ذلك شيء لأنّه لم يغب عنه أن القصيدة جيدة ، ومع ذلك عقد له مجلس امتحان في ٣ شوال سنة ٣٨٢ (وسن ابن دراج يومئذ لا تقل عن ٣٥ سنة) واقترح عليه النظم في موضوع معين ، فنظم ما أعجب المنصور ، فأعطاه مائة دينار وأجرى عليه الرزق . وكتب اسمه في ديوان العطاء ، واتعظ ابن دراج بهذه الحادثة ، فأخذ يدأب على تجويد الشعر ويسهر في حوكه ، وفي ذلك المجلس نفسه عبر للمنصور عن المعنى الذي استحضر من أجله . وكذب دعوى الذين اتّهموه بالسرقة ، ودافع عن نفسه بقصيدة مشهورة عند الأندلسيين مطلعها [2] :

حَسْبي رضاكَ من الدَّهْرِ الذي عَتِبا   وعَطْفُ نُعْماك للحظّ الذي انقلبا

ومنها يذكر كيف أن الناس قد اعتادوا انّهام أجود المجيدين من الشعراء :

ولستُ أوّلَ مَنْ أعْيَتْ بدائعُهُ   فاستدعتِ القولَ ممّنْ ظنّ أو حَسِبا
ان امرأ القيس في بعضٍ لَمُتّهَمٌ   وفي يديه لواء الشعر إن ركبا

١ الجذوة : ١٠٣ والديوان : ١٠
٢ الجذوة : ١٠٣ والديوان : ٣٦٣

والشعرُ قد أسر الأعشى وقيّده دهراً وقد قيلَ : والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبحري زاخرٌ فِطَناً إلى خيالٍ من الضّحْضاحِ قد نَضَبا

مشيراً بذلك إلى القول الشائع «أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، والأعشى إذا شرب» ودافعاً عن نفسه تهمة الأخذ لأن خياله واسع ، وخيال من يتهم بالأخذ عنهم ضحضاح قد قارب النضوب . ثم يمضي طلقاً في الثقة بنفسه مستمدّاً ذلك من تعصب المنصور له وانحيازه لجانبه :

عبدٌ لنُعْماكَ في فكّيْهِ نجمُ هُدًى سارٍ بمدحكَ يجلو الشكَّ والرِّيَبا
إن شئتَ أملى بديعَ الشعر أوْ كَتَبا أو شئتَ خاطبَ بالمنثورِ أو خَطَبا
كروضةِ الحَزْنِ أهدى الوشيَ منظرُها والمدَّ والزهرَ والأنوارَ والعُشُبا
أو سابقِ الخيلِ أعطى الحُضْرَ مُتّئِداً والشدَّ والكرَّ والتقريبَ والخَبَبا

وظل في ظل المنصور على هذه الحال من التقديم . فأطنب في مدحه بطوال القصائد ، معترفاً بالجميل شاكراً لذلك الرضى . فمن مدائحه فيه[1] :

ما كُفْرُ نُعْماكَ مِنْ شاني فيَثْنيني عَمّنْ توالى لنصرِ المُلْكِ والدّينِ
ولا ثَنائي وشُكْري بالوفاء بما أوليتني دونَ بذْلِ النفسِ يكْفيني
حقٌّ على النفسِ أن تَبْلى ولو فنيَتْ في شكرِ أيْسَرِ ما أضْحَيْتَ توليني
ها إنها نعمةٌ ما زال كوكبُها إليكَ في ظلماتِ الخَطْبِ يَهْديني

وأكثر القصيدة في ذكر حاله وشكره ورضى المنصور عنه لا في مدح المنصور مباشرة ، وربما استوقفنا منها قوله :

وحاشَ للخيلِ أنْ تُزْهى عليَّ بها والبيضِ والسُّمرِ أنْ تحظى بها دوني

[1] اليتيمة ١ : ٤٣٨

وربما كنت أمضي في مكارهها قِدْماً وأثبُتُ في أهْوالها الجونِ
لكنْ سهام من الأقدارِ ما برحَتْ على مراصد ذاكَ الماء ترميني

فما هي سهام الأقدار التي كانت تحول بينه وبين المشاركة في الحرب ، أكان لديه عجز جسماني عن ذلك ؟ أكبر الظن أن هذا هو الذي يعنيه . وإلا فإنّه كان أحياناً يصاحب المنصور إلى الغزو ، دون أن يكون في المحاربين ، ونراه في غزوة شنت ياقب (٣٩٢) مع المنصور ، ومن هناك يكتب رسالة إلى هشام المؤيد ليخبره بالفتح ، ويذكر الوقعة ويصف الكنيسة وصفاً دقيقاً ، ويقول صاحب الروض المعطار [١] إن له في هذه الوقعة قصيدة مشهورة ، ولعلها هي القصيدة التي مطلعها [٢] :

اليوم أنكص إبليس على عقبه مبرءاً سبب الغاوين من سببه

وتحدثنا بعض الروايات أن المنصور هو الذي طلب إليه أن يعارض قصيدة أبي نواس الرائية في مدح الخصيب [٣] . ويهمنا منها في هذا المقام أنّه ما يزال يلح على صاحبه بأن يمنحه كل ثقته ، وأن لا يأخذه بجريرة ظروفه القاسية [٤] :

أثِرْني لخطبِ الدهرِ، والدهرُ مُعضِلٌ وكِلْني لليثِ الغابِ وهو هصور
فقد تُخْفَضُ الأسماء وَهْيَ سواكنٌ ويَعْمَلُ في الفعلِ الصحيحِ ضمير
وتنبو الرُّدَيْنيّاتُ والطولُ وافرٌ ويُبْعِدُ وقْعُ السهمِ وهو قصير

وفي هذه التلميحات ما يشير إلى أن سكونه قد يجر عليه الانخفاض ، فهو يريد استثارة ودفعاً ، وثقة تجعله يقابل الدهر ويقتل الليث ، وهو أيضاً

١ الروض المعطار : ١١٦ ٢ الديوان : ٤٤٠
٣ ابن خلكان : (الترجمة رقم : ٥٥) .
٤ اليتيمة ١ : ٤٤٨ والذخيرة ١ / ١ . ٦٦ والنفح ٢ : ٨٠٠ والديوان : ٣٠٢

يشبه نفسه بالسهم القصير ، الذي إذا استغله صاحبه وأحسن استغلاله أبعد وقعه وأثره حيث تعجز الردينيات الطويلة ، ومرة أخرى تستوقفنا هذه التلميحات : أهي تدل على عجز جسماني ؟ أم هي تدل على مجرد حالة نفسية ؟ أم هي حكمة ليس لها مدلول وراءها أكثر منها ؟

والحقيقة التي يجب أن نتذكرها في هذا المقام هي أن ابن درّاج في أول عهده بالمنصور لم يكن مطمئنّاً إلى ثبوت منزلته عنده واستقراره في ظلّه ، ولذلك عمد في قصائده الأولى إلى الاستكثار من معنيين أولهما ذكر مفارقته لزوجته وابنته وصعوبة الفراق ثم تأميله في أن ينال الحظوة لدى المنصور — ذكر هذا في أول قصيدة تقدَّم بها إليه[1] :

ولله عزمي يوم ودَّعت نحوه	نفوساً شجاني بينها وشجاها
وربّة خدرٍ كالجمان دُموعها	عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان ما يزال يروعني	على النأي تذكاري خفوقَ حشاها
وموقفها والبين قد جدَّ جدّه	منوطاً بحبلي عاتقيَّ يداها
تشكّى حفاء الأقربين إذا النوى	ترامت برحلي في البلاد فتاها
وأقسم جود العامريّ ليرجعنْ	حفيّاً بها من كان قبلُ جفاها

وعاد إلى هذا الموضوع بإطناب كثير في معارضته لرائية أبي نواس ، ثم ذكره في قصيدته التي مطلعها : « ما كفر نعماك من شأني فيثنيني . . . » فقال[2] :

أُجاهدُ الصبرَ عنّها وهيَ غافلة	عن لوعة في الحشا منها تناجيني
يا هذه كيف أعطي الشوق طاعته	وهذه طاعة المنصور تدعوني
شدّي عليَّ نجادَ السيف أجعله	ضجيعَ جنب نبا عن مضجع الهون

١ الديوان : ١٣ — ١٤

٢ الديوان : ٥٣٦

رضيتُ منها وشيك الشوق لي عوضاً   وقلت فيها للوعات الأسى : بيني

أما المعنى الثاني فهو حاجته إلى الرضى والثقة لكي يطمئن إلى أنّه أصبح في منزلة لا يخشى معها صروف الأيام . وفي هذه القصائد الأولى كان – في الأغلب – تقليديَّ المنزع ، يتحرّى المقدمات الغزلية حين لا يجد سبيلاً إلى ذكر الزوجة وفراقها ، حتى إنّنا لنستطيع أن نحدّد تاريخ بعض القصائد – على وجه تقريبي – من هذه العناصر التي تسيطر عليها ، أعني ذكر فراق الزوجة ، والإلحاح على الثقة والرضى واختيار المقدمة الغزلية ، فهذه القصيدة[1] :

إذا شئت كان النجمُ عندك شاهدي   بلَوْعَةِ مُشتاقٍ ومقلةِ ساهدِ

وهي في مدح المنصور ، لا يبعد أن تكون من أوائل قصائده فيه ؛ على أنّا يجب أن نحذر من تضليل هذه العناصر أحياناً ، فقد أورد صاحب اليتيمة قصيدة قالها في مدح المنصور وهي[2] :

أصخ نحوي لدعوة مستقيلٍ   يُنادي من غيابات الخمولِ
رهينة كلّ همّ مستكنّ   ونهزة كلّ خطبٍ مستطيلِ

وفيها يعود إلى نغمة الرضى وحب الانتشال من « غيابات الخمول » ، ولكن القرائن الداخلية في القصيدة تدلُّ على أنها ليست في المنصور بن أبي عامر وإنما هي في مدح منذر بن يحيى التجيبي الذي كان يلقب بالمنصور أيضاً ، وهي من ثَمَّ تمثل مرحلة تالية في حياة ابن درّاج .

فلمّا اطمأن بجنبه إلى المهاد الدمث لم يعد بحاجة إلى كلّ هذه المعاني ، بل أصبح يعيش تجربة الشعور الجماعيّ بروعة الانتقال من نصر إلى نصر – أصبح جزءاً حيّاً نابضاً من ذلك التاريخ المجيد الذي كان يصنعه المنصور وابنه

[1] الديوان : ٤٠٥   [2] اليتيمة ١ : ٤٤٠

عبد الملك المظفر ؛ فالانتصارات متوالية ، وهذا عدو يؤسر ، وذاك يفد طائعاً موالياً ، ولهذا حفلت قصائده بالاستبشار ، وارتفعت فيها النغمة الدينية ، ووصف أدوات الجهاد من خيل وسيوف ورماح ، ووصف العدو بالفرار أو بالاستئسار ، ولم يعد الموضوع الجليل بحاجة إلى تمهيد من نسيب أو شكوى أو غزل ، فأخذ ابن درّاج يهجم على موضوعه بثقة كبيرة ، ولهذا جاءت مطالعه على مثل :

هوَ النصر والتمكين أدرك طالبه ... ولاحت وشيكاً بالسعود كواكبه

شهدت لكَ الأبطال يوم كفاحها ... والحرب بـين غدوِّها ورواحها

تبلَّج عن إشراق غرّتك الصبح ... وأسفر عن إقدامك النصر والفتح

سر سار صنع الله حيث تسير ... قدماً وساعد عزمك المقدور

النصر حزبك في الضلالة فاحتكم ... واغضب لدين اللهِ منها وانتقم

اللهُ جارُكَ ظاعنــاً ومُقيمــا ... ومثيبك التبجيل والتّعظيمــا

أهــلاً بمن نَصَـرَ الإلـه وأيّـدا ... وحمى من الإشراك أمَّةَ أحمدا

وهذه المطالع ليست في مدح المنصور وحسب ، بل إن بعضها في مدح ابنه المظفر ؛ وقد كان ابن دراج مهـّد للحظوة أيام المظفر منذ عهد بعيد إذ كان كلما مدح أباه عرَّج على مدحه ومدح أخيه عبد الرحمن شنجول ، فبقيت مكانته على حالها بعد وفاة المنصور ؛ ولا تقلُّ قصائده في العامريين ورجال

دولتهم عن ستين من القصائد وأكثرها من المطوّلات .

ومدح من رجال الدولة العامرية ، الوزير المشهور أبا الأصبغ عيسى ابن سعيد بن القطاع « قيم دولة ابن أبي عامر وحامل لوائها والمستقل بأعبائها ومالك زمام إعادتها وإبدائها » بقصيدة مطلعها[1] :

أفي مثْلِها تَنْبو أيادِيكَ عن مثْلي وهذي الأماني فيكَ جامعةُ الشَّمْلِ

وقد مدحه بها في أيام المظفر لا في أيام المنصور ، أي حين « تناهى عيسى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس ضياعاً ودوراً فات الناس إحصاؤها ، واشتمل على الملك هو وولده وصنائعه » . وهو يشكو إلى أبي الأصبغ فقره وحاجته إلى مركب ، مع أن الركبان إنّما يحتقبون غرائب شعره ، وينتقلون بدائعه على شرابهم ولا شراب له ، ويستغيثه بقوله :

أبا الأصبغ المغنيَّ هل أنتَ مُصْرِخي وهل أنتَ لي مُغْنٍ وهل أنتَ لي مُعلي

وقد قُتِلَ هذا الوزير في أيام عبد الملك المظفر ، لأنّه فيما يقول أخذ يميل إلى الأموية على العامرية ، ومن المواقف المؤسفة أن يجد ابن دراج نفسه مهنئاً المظفر بالتخلص من وزيره عيسى بن سعيد ، في قصيدة له مطلعها[2] :

شُكْراً لمَنْ أعطاكَ ما أعطاكا مَلِكٌ أذلَّ لمُلْكِكَ الأمْلاكا

حتّى إذا هبت ريح الفتنة على قرطبة وعصفت بدورها وقصورها وشردت أدباءها وعلماءها ، وقضت بالموت على فريق منهم ، بقي ابن دراج مع فريق الشعراء الذين « نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب » كما يقول ابن حيان ، فقيراً معدماً منكوباً معيلاً كبير المسؤولية تجاه الأهل

١ الديوان : ٤٣

٢ ابن عذاري ٣ : ٢٥ والديوان : ٣٢

والأولاد ، حائراً مبلساً في أمره ، ولقد ظن أن انتصار المستعين يحقق له عودة الحياة الطيبة التي كان يحياها في ظل العامريين ، فما كاد المستعين يدخل قرطبة حتّى خف إليه ابن دراج ، يهنئه بالملك بل يهنىء الملك به ، ويشمت بالمهدي ويسميه قعيد الخزي[1] :

هنيئاً لهـذا المُلْك رَوْحٌ وَرَيْحانُ ... وللدِّينِ والدُّنْيا أمانٌ وإيمانُ

فإنَّ قعيدَ الخزيِ قـد ثُلَّ عَرْشُـهُ ... وإن أمـيرَ المؤمنينَ سليمانُ

ودخل عليه أول مجلس له بالقصر فأنشده[2] :

شَهِدَتْ لك الأيامُ أنّك عيدُها ... لك حنَّ مُوحِشُها وآبَ بعيدُها

وأضاء مُظلِمُها وأفرَخَ رَوْعُها ... وأطاع عاصيها ولانَ شديدُها

وأطنب في وصف المعارك التي انتصر فيها ، وفي وصف رجال حربه ، وباء من سليمان بالإخفاق ، فإن سليمان كان مشغولاً عن الشعر والشعراء ، لم يجبر لهم عثرة ، ولا عطف عليهم بنظرة ، فعزم ابن دراج على الرحيل في طلب الرزق ، وكتب في ذلك إلى سليمان يستـأذنه[3] : « حاشا لله أن أستشف الحسيَ قبل جمومه ، وأستكره الدَّرَّ قبل حفوله ، أو أتعامى عن سراج المعذرة ، وأرغب عن أدب الله في نَظِرَةٍ إلى ميسرة ، ولـكن :

« ماذا تقولُ لأفراخٍ بـذي مَرَخٍ ... حُمْرِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجَرُ »

ما أوْضحَ العَقْدَ لي لو أنهم عذرُوا ... وأجمـلَ الصبرَ بي لو أنهم صبروا

١ أعمال الأعلام : ١٢٣ والذخيرة ١ / ١ : ٥٣ والديوان : ٥٤
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٥١ والديوان : ٦٠
٣ الذخيرة ١ / ١ : ٤٦

لكنّهمْ صَغُروا عن أزْمَةٍ كبُرَتْ فما اعتذاريَ عمَّن عُذْرُهُ الصِّغَرُ

وقد قلبتُ لهم ظهر الأمور ، وميزتُ بين المعسور والميسور . فما وجدتُ أحسن بدءاً ولا أحمد عوداً مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمرهم أرضه وسخر لهم بره وبحره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه . وحيث نتقلب ففي كرمك وأين نأمن ففي حرمك » .

وليس ببعيد أن يكون قد كتب هذه الرسالة إلى المستعين ليذكره بنفسه ، رجاء أن يجد لديه ما يعوضه الرحلة والمشي في مناكب الأرض . ولكن النتيجة تدل على أن المستعين لم يلتفت إليه . وهنا تبدأ سلسلة من التجوال وقرع الأبواب . والوقوف على الأمراء الذين اقتسموا الأندلس بعد الفتنة . قال ابن حيان : « فاستقرى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى يهز كلاً بمديحه ويستعيمهم على نكبته وليس منهم من يصغي له ولا يحفظ ما أُضيع من حقه وأرخص من علقه »[1] .

١ — فأول من قصد منهم خيران العامري صاحب المرية ، ومدحه صدر سنة ٤٠٧ بقصيدة عارض فيها قصيدته النونية التي قالها في المستعين[2] :

لكَ الخيرُ قد أوفى بعهدكَ خيرانُ وبُشْراكَ قد آواكَ عزٌّ وسلطانُ

وكان قد ركب البحر إليه مع أهله وبنيه فوصف في هذه القصيدة سيره والأهوال التي لاقاها في البحر :

إليك شحنّا الفُلْكَ تهوي كأنّها وقد ذعرَتْ من مغربِ الشمس غربانُ
على لُجَجٍ خُضْرٍ إذا هبّتِ الصَّبا ترامى بنا فيها ثبيرٌ وثهلانُ

١ الذخيرة ١ / ١ : ٤٤
٢ أعمال الأعلام : ٢١٢ والذخيرة ١ / ١ . ٧٤ والديوان ٨٦

وفي طيّ أسمالِ الغريبِ غرائبٌ سكنّ شغافَ القلب ، شيبٌ وولدانُ
إذا غيضَ ماءُ البحر منها مَدَدْنَه بدمعِ عيونٍ تمتريهنّ أشجانُ
يقلنَ وموجُ البحرِ والهمُّ والدُّجى تموجُ بنا فيها عيونٌ وآذانُ
ألا هل إلى الدنيا مَعادٌ وهل لنا سوى البحرِ قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ
وهبنا رأينا مَعْلَمَ الأرضِ هل لنا من َالأرض مأوى أو من الإنسِ عرفانُ

ويأسى في القصيدة على أن بلاد الغرب قد ضيعته ، ويزعم أن بغداد ترحب بمقدمه ، ويقدر قيمة نفسه وهو يستعطف الملوك لأولاده :

فإن غرَّبَتْ أرضُ المغاربِ موطني وأنكرني فيها خليطٌ وخلاّنُ
فكم رَحبَتْ أرضُ العراقِ بمقدمي وأجزَتِ البُشرى عليّ خراسانُ
فإنّ بلاداً أخرجتني لَعُطّلٌ وإنّ زماناً خانَ عهدي لخوّانُ

ويتذكر أصدقاءه وأهله الذين طواهم الموت ، ثم يمني أولاده بالخير حين ينزلون قصر المرية لأنهم ينزلون « ببحر ندى يمناه در ومرجان » ، ويطنب في مدح هذا البحر ، وقد شهرت هذه القصيدة حتى عارضتها إحدى شواعر الأندلس عندما مدحت خيران العامري نفسه[1] :

أتجزعُ أنْ قالوا ستَظْعَنُ أظعانُ وكيف تطيق الصبرَ ويحك إنْ بانوا

ولم يكافىء خيران هذا النفَس الطويل بما يستحق فبخسه حظه في الجائزة ، وسمع بذلك طبيب فاضل اسمه أبو جعفر ابن جواد فقصد ابن دراج بخمسة عشر مثقالاً ودفعها إليه وقال له : اعذر أخاك فإنّه في دار غربة[2] .

---

١ الجذوة : ٣٨٩
٢ الجذوة : ٣٧٠

٢ — ثم مدح المرتضى الذي حاول فتيان العامريين أن يعيدوا ببيعته سلطان الدولة الأموية بقصيدته[١] :

جهادُكَ حُكْمُ اللهِ مَنْ ذا يَرُدُّهُ وعزمُكَ أمرُ اللهِ من ذا يصُدُّهُ
وطائرُكَ اليُمْنُ الذي أنتَ يُمْنُهُ وطالعُكَ السَّعْدُ الذي أنتَ سعدُهُ

وما بقي من هذه القصيدة ليس فيه استعطاف للأهل والأولاد .

٣ — وقصد مظفراً ومباركاً العامريين صاحبي بلنسية ، وجمع مدحهما في قصيدة كاجتماع سلطانهما[٢] :

أنورُكِ أم أوقدتِ في الليلِ نارَكِ لباغي قِراكِ أم لباغي جوارِكِ
وريّاكِ أم عَرْفُ المجامرِ أشعَلَتْ بعودِ الكباء والألُوَّةِ نارَكِ
ومَبْسِمُكِ الوضّاحُ أم ضوء بارقٍ حداهُ دعائي أن يجودَ ديارَكِ
وَطُرَّةُ صبحٍ أم جبينُكِ سافراً أعرتِ الصباحَ نوره أم أعارَكِ

وبعد مقدمة غزلية طويلة انتقل إلى مدح مظفر ومبارك فقال :

وأرْضي سيولٌ من خيولِ مُظَفَّرٍ وليلي نجومٌ من سيوفِ مُبارَكِ
فحيثُ وجدتِ الأمنَ يهتفُ بالمُنى هلمّي إلى غيثينِ جادا سِرارَكِ
هلمّي إلى سيفينِ والحدُّ واحدٌ يجيرانِ من صَرْفِ الحوادثِ جارَكِ
هلمّي إلى طِرْفَيْ رهانٍ تقدما إلى الأمد الجالي عليكِ اختيارَكِ
هلمّي إلى قُطْبَيْ نجومِ كتائبٍ تنادي نجومَ التّعْسِ غُوري مغارَكِ

ويحاول أن يقنع نفسه ، كما بشرها حين وفد على خيران ، بأن الأمل

١ الذخيرة ١ / ١ : ٦٤ والديوان : ٨١
٢ أعمال الأعلام : ٢٢٣ والديوان : ١٠١

لا بد متحقق ببلنسية ، ولكن ارتحاله عنهما إلى غيرهما يدل على أن الحفاوة التي لقيها لم تكن لترضيه بالبقاء .

٤ — ويبدو أنّه عاد في بعض تلك الأيام إلى قرطبة ، مجدداً العهد بها ، لعله يجد عند ابن حمود صاحبها الجديد ما يغنيه عن الضرب في الأرض ، وربما زاره قبل زيارته لمبارك ومظفر ، ومدحه بقصيدة مطلعها[١] :

لعلّكِ يا شمسُ عند الأصيلِ شَجيتِ لشجوِ الغريب الذليلِ

وذكّر ابن حمود بما لقيته قرطبة من عناء وشدة :

ومن دوننا آنساتُ الديارِ نِهاب الحمى موحشاتُ الطلول
مغاني السرورِ لبسنَ الحدادَ على لابساتِ ثيابِ الذهول
خطيباتُ خَطْبِ النّوى والمُهورِ مَهارى عليها رحالُ الرحيل
فمن حُرّةٍ جُلِيَتْ بالجلاء وعذراء نَصَّتْ بنصٍّ الذميل
ولا حَلْيَ إلا جُمانُ الدموعِ تسيلُ على كلّ خدّ أسيل

ثم أطنب في مدح ابن حمود ، وخاصة بنسبه العلوي .

٥ — وأخيراً استقر به المطاف عند منذر بن يحيى صاحب سرقسطة الملقب بذي الرياستين ، وبشر نفسه في رحابه بانتهاء عهد الفقر والتعاسة . ولدينا من قصائده في منذر ما يزيد على ثلاثين قصيدة منها[٢] :

بشراكَ من طول الترحُّلِ والسُّرى صُبْحٌ بروح السفر لاح فأسفرا

وفيها تعرض لذكر أبنائه وللصعوبات الجمة التي لقيها قبل أن يصل إلى منذر :

١ الذخيرة ١ / ١ : ٧٠ وابن عذاري ٣ · ١٢٤ والديوان : ٧٥
٢ أعمال الأعلام : ١٩٨ والذخيرة ١ / ١ . ٥٦ والديوان : ١٢٤

فلئن صفا ماءُ الحياةِ لديك لي   فَبِما شَرِقْتُ إليك بالماء الصَّرى
ولئن خلعتَ عليَّ بُرداً أخضرا   فلقد لبستُ إليك عيشاً أغبرا
ولئن مددتَ عليَّ ظلاً بارداً   فلكم صَلِيتُ إليكَ حَرّاً مُسْعِرا

وهو في هذا يعارض المتنبي في قصيدة مدح بها ابن العميد أبا الفضل ، ويتتبع سياق تلك القصيدة في مثل قوله :

ولتعلم الأملاكُ أنّيَ بعدَهُمْ   ألفيتُ كلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا

. . . .

كلا وقد آنستُ من هودٍ هُدى   ولقيتُ يعربَ في القَبول وحِميرا
والحارثَ الجفنيَّ ممنوع الحمَى   بالخيلِ والآسادِ مبذولَ القِرى
وحططتُ رحلي بين نارَيْ حاتمٍ   أيامَ يَقْري مُوسراً أو مُعْسرا
ولقيتُ زيدَ الخيلِ تحت عجاجةٍ   تكسو غلائلُها الجيادَ الضُّمَّرا

ومنها قصيدة قالها فيه حين ورد عليه صاعد اللغوي ، ومنها[1] :

علا فحوى ميراثَ عادٍ وتُبّعٍ   بهمّتِهِ العَلْيا ونِسْبَتِهِ الدُّنْيا

ومدح فيها صاعداً وقارن بين نفسه وبين منذر في قوله :

وقد لاذَ أبطالُ الجلادِ بعطفهِ   كما لاذ أطفالُ الجلاء بعطفيّا
وقد قصُرَتْ عنهم رماحُ عُداته   كما قصُرَتْ عنهم رياش جناحيّا

وبكى ضياعه وتأسف لمصيره ، وأنّه مدفون في الحياة :

فيا لك من ذكرى سناء ورفعةٍ   إذا وضعوا في الترب أيْمَنَ شِقّيّا

. . .

١ الذخيرة ١/١ : ٥٤ والديوان : ١٧٣

وفاحت ليالي الدهرِ ميَ ميّتاً   فأخزين أياماً دُفنْتُ بها حيّا

. . . .

فيا عَبرتي سِحّي لعلّي مُبَلّلٌ   بجَرْيِكِ ما أنزفتُ من ماء خدّيّا
ويا خلّتي إن سوّفَ الغوثُ بالمنى   ويا غُلّتي إنْ أبطأ الغيثُ بالسقيا
فقوما إلى ربّ السماء فأسعدا   تقلُّبَ وجهي في السماء وكفّيّا

فهو يحسُّ في أسًى أنّه أنزف ماء وجهه ، وأن حلته لم تسد وغلته لم تروَ ، وأنّه لا يزال يدعو الله أن ينزل عليه الرحمة ، ومعنى هذا أنّه في ظل منذر لا يزال يحس بالفقر ، دع عنك إحساسه بالغربة .

وثالثة عدها الحميدي من مذهبات أشعاره في منذر وهي[1] :

قلْ للربيعِ اسحبْ مُلاءَ سحائبي   واجرُرْ ذيولَكَ في مجَرّ ذوائبي

وفيها يتشوق إلى قرطبة ويقول مخاطباً الربيع أيضاً :

واجنح لقرطبةٍ فعانقْ تُرْبَها   عني بمثلِ جوانحي وتَرائبي
وانشرْ على تلكَ الأباطحِ والرُّبى   زهراً يخبِّرُ عنك أنك كاتبي

وهذا التشوق يدل على أن شيئاً من الاستقرار قد أخذ يصرفه عن بكاء نفسه والاستجداء لأولاده ، وأخذ يستعيد ذكرياته في الوطن ، ويلتفت عن حاضره إلى ماضيه وكان كثير الانهماك في تصوير ذلك الحاضر .

أما الرابعة فقد بقي منها قوله[2] :

يا عاكفينَ على المُدامِ تَنَبّهُوا   وَسلوا لساني عن مكارمِ مُنْذِرِ

١ الجذوة : ١٠٥ والديوان : ١٦٧
٢ الجذوة ١٠٥ والمطرب ١٠٦

مَلِكٌ لو استنهبتُ حَبّةَ قلبهِ كرَماً لجاء بها ولم يتَعَذّرِ

ومن ممدوحي ابن دراج في هذه الفترة شخص يدعى ابن أزرق (أو ابن أرزق) وأظنه أبا عامر ابن أرزق أحد من استكتبهم منذر بن يحيى[1] ، ومدحه لأحد الكتّاب معناه أن شيخوخته حالت بينه وبين العمل في الكتابة عند منذر ، فظلّ يتكسب بشعره من منذر ورجاله .

ومن قصيدته في ابن أرزق يذكر حاله وحال أطفاله أيضاً[2] :

أخو ظمإ يمصُّ حشاهُ سَبْعٌ وأربعةٌ وكلُّهُمُ ظِماء
كأنْجُمِ يوسفٍ عدداً ولكن برؤيا هذه بَرِحَ الخفاء
خطوبٌ خاطبتهمْ من دواهٍ يموتُ الحزمُ فيها والدهاء

ونقل صاحب الذخيرة عن ابن حيان[3] أن ابن درّاج وجد ترحيباً عند منذر وأنّه لم يزل عنده وعند ابنه من بعده مادحاً لهما مثنياً عليهما رافعاً من ذكرهما غير باغ بدلاً بجوارهما ؛ وقد كان هذا النصّ قبل نشر ديوان ابن درّاج محيراً حقّاً ، لأن المصادر التاريخية لم تذكر إلا منذر بن يحيى التجيبي حتى خيل للباحث أن منذراً هذا حكم من سنة ٤٠٨ — ٤٣٠ وأنّ ابن درّاج توفي قريباً من ٤٢٠ ، فهو إذن لم يشهد إلا ولاية والٍ واحد من التجيبيين في سرقسطة ، ولكن الديوان احتوى على ٢٦ قصيدة في مدح يحيى بن المنذر ، مما يدلُّ على أنّ الشاعر شهد عهد والٍ آخر بعد المنذر الأول . وقد جلا الدكتور محمود مكي هذا الغموض[4] حين بيّن أن المنذر الأول حكم من

١ انظر الذخيرة ١/١ : ١٥٤
٢ الذخيرة ١/١ : ٦٧ والديوان : ٣٢٧
٣ الذخيرة ١/١ : ٤٤
٤ مقدمة الديوان ، هامش : ٧٥

٤٠٨ — ٤١٢ وخلفه ابنه يحيى الذي حكم من ٤١٢ — ٤٢٧ وتلاه في الحكم ابنه المنذر الثاني الذي قتل سنة ٤٣٠ على يد عبد الله بن حكم أحد أقربائه، وبقي ابن حكم هذا في سرقسطة حتى جاء سليمان بن هود سنة ٤٣١ فتملكها [١]. وهكذا يكون ابن درّاج قد عاصر الواليين الأولين ، على أن له مدائح في الثالث منهم وهو المنذر الثاني ، إلا أن تلك المدائح قيلت فيه يوم كان وليّاً للعهد .

وتبلغ بعض قصائده في المنذر بن يحيى وابنه يحيى أحياناً حدّاً كبيراً من الطول ، ونراه في بعضها قد عاد إلى الغزل وأطال فيه على نحو بالغ . مما يصوّر مدى الناحية التقليدية إذ هو في عمرٍ لم يعد يسمح بمثل هذا الغزل عن تجربة ، كذلك يكثر الإشارة إلى ما حباه به المنذر من عطف وما يرجوه لديه من استقرار ، ويتحدث عن أبنائه فيطيل الحديث ، ويصف في تضاعيف ذلك ما لقوه جميعاً من مصاعب في التنقل والاغتراب ، كقوله في إحدى تلك القصائد [٢] :

وبينَ ضلوعي بضع عشرة مهجة ظماء إلى جدوى يديك حوائمُ
تلذ الليالي لحمها ودماءها وطعم الليالي عندهنّ علاقم
قطعت بهن الليل والليل جامد وخضت بهن الآل والآل جاحم
إذا ملأ الهولُ المميتُ صدورَها تحرك من ذكراك فيها تمائم

وتعود به الذاكرة أحياناً إلى الفتنة التي كانت سبب غربته وإدبار حظوظه فيتحدث عنها متصوّراً أنها كانت « عهد جاهلية » تستقسم فيه الأزلام وأن المهجات كانت هي الجزور المجزأ لضرب القداح وأن النفوس كانت هي

١ انظر تفصيل الخبر عن منذر الثاني ومقتله في الذخيرة ١/١ . ١٥٢ — ١٥٨
٢ الديوان ١٦٥

القربان المدمّى على الأنصاب ، ولكنه لا يحمّل مسئوليتها إنساناً بعينه ، لأنّه حام حول جميع الذين أرّثوا نارها أو حاولوا الإفادة منها[1] :

نسكرت والأيام تسلبُ جدتي والدهر ينسجُ لي ثيابَ سلابي
سكرين من خمر كأن خُمارها فقدُ الشباب وفرقةُ الأحباب
لمدى تناهى في الغواية فانتهى فينا إلى أمدٍ له وكتاب
وهوًى تقاصر بالمنى فأطال بي همّاً إلى قلبي سرى فسرى بي
في جاهليةِ فتنةٍ عبدت بها دونَ الإله مضلة الأرباب
تستقسم الأزلام في مهجاتنا وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غيراً من الأيام أصبح ماؤها غوراً وأعقب صفوها بعقاب
وبوارقاً للغي أضرم نورها ناراً وصاب غمامها بالصاب

وهي قطعة فريدة في تصوير حادث الفتنة البربرية .

ويسرف في قصيدة أخرى في وصف حاله وحال أولاده حتى يبلغ ما نظمه في هذا الموضوع ٤٦ بيتاً (عدا ما سقط من القصيدة في هذا الموضوع من أبيات)[2]؛ على أنّه في هذه الفترة مثال الشّكور العارف بالجميل لا يزال في كل حين يذكر صنيع المنذر لديه ، وما لقيه من راحة وأمن في ظله[3] :

وجزاء ما آويت وحش تغربي وفسحت روضك لارتقاء سوامي
وفعمت لي بحرَ الحياةِ مبادراً بحياة ذابلة الكبود ظوامي
وبسطت لي وجهاً كسفت بنوره كرب الجلاء وخلّة الإعدام

---

١ الديوان : ١٨٤
٢ انظر القصيدة رقم : ٤٧
٣ الديوان : ٢١٥

ووجدت ظلك بعد يأس تقلّبي وطن الرّجاء ومنزل الإكرام
فكأن وجهك غرّة الفطر الذي وافى بفطريَ بعدَ طول صيامي

وتظل قصائده في يحيى بن المنذر حافلة بالتفاؤل ، إلى أن نجده في إحدى القصائد – ولعلها من القصائد المتأخرة في مدح يحيى – يعاتبه لإهماله له ويشكو له العوز وكيد الواشي وعدوان العادي ، ويطلب إليه أن « يقسم له سهماً » لقاء حمده وشكره وينزع سهم الأسى من فؤاده[1] :

أيَغْرب عندكَ نجمُ اغتّرابي ومطلعه لكَ في الأرضِ بادِ
وأسقي الورى عنكَ ماء الحياة وأرشف منكَ حميءَ الثّماد
وزرعيَ فيكَ حصيد الخلود وحصيَ منك لقيطُ الحصاد
سداداً من العوز المستجار وأكثره عَوَزٌ من سداد
قضاء له في يد الاقتضاء زمامٌ ومن سابق البغي حاد
كعلمك من خطب دهرٍ رماني بأسهمِ واشٍ وغاوٍ وعاد
يسلّون بين الأماني وبيني سيوفَ القلى ورماحَ البعاد
زمان كأنْ قد تغذّى لسعيٍ لعابَ أفاعٍ وحيّاتِ واد

وممّا يدلّ على أن الحال تغيّرت أنّه يشكو إلى ابن باق – أحد رجال الدولة التجيبية بسرقسطة – ما يلقاه من إهمال ، ويذكر فضله[2] :

ونكرتَ من جور الحوادث أنّني ظامٍ وبحرُ الجودِ فوقيَ طامِ
وبصرت من خلل التجمل خلّتي وفهمت من صمت الحياء كلامي

...

١ الديوان : ٢٩١
٢ الديوان : ٤٩٢

ثم يعود إلى ابن باق هذا نفسه بقصيدة تدل على انهيار معنويّ تام ، حتى ليطلب حق ابن السبيل والجار والمستضام[1] :

بما خُطّ للجار وابن السبيل وأوجب للمستضام الغريب

ثم يقول :

فتلكَ نقائضُ سعيي وسعدي يُنادين يا للعجاب العجيب
وتلكَ بضائع نثري ونظمي ضوارب في الأرض هل من ضريب

حتى ابن باق نفسه قد تغيّر :

فحينَ افتتحتَ بنصر عزيز يبشر عنكَ بفتح قريب
ترقيتَ في هضبة العزّ عني وأهويتَ بي لمهيلٍ كثيب
ولفّتْك دوني غصونُ النّعيم وأسلمت ضاحيَ مرعًى جديب

على أنّه لا يزال يرجو أن يتذكره وأن يذكره لسيده الأمير :

فإن تُنْهِ عنّي فأولى مجابٍ دعا للمكارم أهدى مجيبِ

وفي آخر القصيدة يهدّد — وهو لم يعد ذا قدرة على التهديد — بأن عدم الترحيب بالضيف يعني رحيله :

ومن يمنع الضيْفَ رحبَ الفِناء فقَدْ قاده للفضاء الرحيب

والظنّ قويّ بأن ابن باق أصمّ سمعه عنه وأن يحيى شغل عن برّه ، أو لعلهما معاً سئما هذا الإلحاح المتوالي ، وأصبح ابن درّاج في سرقسطة مقيماً

[1] الديوان : ٤٦٩

مملولاً لا ضيفاً « خفيف الظلّ » ، وهل يمكن أن يظلّ ضيفاً من أقام حوالي أحد عشر عاماً يوالي المدائح رجاء أن يصيب رزقاً ؟ وعاد ابن الثانية والسبعين يجدّد التنقل ، ولعله في هذه الفترة مدح المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر ، وهو ابن شنحول ، وقد أصبح صاحب بلنسية فترة طويلة من الزمن (امتدت من ٤١٢ – ٤٥٢) ومن المقطوع به حسب رواية الديوان أنّه مدح مجاهداً العامري سنة ٤١٩ [1] بدانية ؛ ولعله توفي هنالك ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الثانية سنة ٤٢١ (٢٧ يونية ١٠٣٠) [2] . لقد أكثر الشاعر طرق الأبواب بعد الفتنة ، ولكن أطول إقامة له كانت في سرقسطة وفيها روى عنه أناس منهم : محمد بن ميمون القرشي – وهو من أهل العلم بالأدب والعربية – ومظفر الكاتب السرقسطي [3] .

من كل ما تقدم يتجلى لنا كيف وقع ابن دراج ضحية للفتنة ، كما وقعت قرطبة نفسها ضحية لها ، وكيف تدهورت نفسيته إلى حد أن أصبح شعره متردداً بين الاستبشار والخيبة ، بين شكوى الحال والتكفف الضارع ، بين تصوير حال الأطفال وحال الممدوحين ، وقد سخرت الأيام سخرية غير رفيقة بابن دراج . فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجه وأطفاله ، وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال – أو الأبناء – حديثاً مستمداً من الواقع لا من الخيال ، وأضرعته النكبة من أجلهم في الواقع لا في الخيال أيضاً . كان غير راض بالنعمة دون رضى ، فأصبح يرضى بالرزق من أي كف جاءه ، وتلك حال من الانهيار النفسي الذي تلمح بذوره في المرحلة الأولى

١ الديوان : ٤٧٨
٢ انظر ابن خلكان ، الترجمة رقم : ٥٥
٣ التكملة : ٣٩٦ ، ٧١٣

ولكنه لم يكن ليتحقق سريعاً لولا اجتماع النكبة والشيخوخة معاً .

ويبدو من السياق العام لشعره أنّه كان جادّاً في أكثر شئونه ، محبّاً لأطفاله ، قيماً بالمسئولية العائلية ، مترفعاً عن كثير من صغائر الأمور وتوافه المشاغل ؛ ارسل إليه أحد الأدباء لغزاً وسأله أن يفسره فلم يتعب فكره في ذلك بل كتب إلى السائل على ظهر رقعته بديهة[1] :

إذا شذّتْ عنِ العربِ المعاني   فليس إلى تَعَرُّفِها سبيلُ

واستنشد المطرف المرواني بعض شعر له يقول فيه :

إلى أن دهـاني إذ أمنت غروره   سفاهاً ، وأدّاني لما ليسَ يُذْكَر

فأعجب بالشعر ، إلا أنّه انتقد عليه قوله: « وأداني لما ليس يُذكر » لأنّه وجد في هذا التعبير إيحاءات غير مستساغة ، فاغتاظ الأموي منه وقال له : يا أبا عمر من أين جرت العادة بأن تمزح معي في هذا الشأن ؟ فتراجع أبو عمر وسكن غضبته بأن قال : حلمُ بني مروان يحملنا على أن نخرق العادة في الحمل على مكارمهم[2] . وشعره وكتابته يدلان على أنّه كان ذا حظ طيب من الثقافة وسعة الاطلاع .

آراء النقاد في شعره

نال كثيراً من تقدير النقاد الأندلسيين وغيرهم ، فقال فيه ابن حزم : « لو قلت إنّه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد» . وقال مرة أخرى: « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب

---

١ الجذوة : ١٠٥

٢ النفح ٢ : ٨٥٦ – ٨٥٧

والمتنبي »[١]. وعده ابن حيان « سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين »[٢] وبقريب من هذا قال ابن بسام نفسه. وقال فيه الثعالبي: « بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ... وكان يجيد ما ينظم »[٣]. وقد افتخر الأندلسيون بذكر الثعالبي له. وسموا ابن دراج متنبي المغرب. ووصفه ابن شرف بأنّه « شاعر ماهر عالم بما يقول ... حاذق بوضع الكلام في مواضعه لا سيما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة وشكا ما دهاه في أيام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه »[٤]. وقال ابن شهيد: « والفرق بين أبي عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام، شديد أسر الكلام، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب، وما تراه من حوكه للكلام. وملكه لأحرار الألفاظ، وسعة صدره، وجيشة بحره، وصحة قدرته على البديع، وطول طلقه في الوصف. وبغيته للمعنى. وترديده وتلاعبه وتكريره، وراحته بما يتعب الناس. وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس »[٥].

وافتخر به الشقندي واختار له قصيدته الرائية في معارضة أبي نواس ثم شفع ذلك بقوله[٦]: « وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات من غرائب الآيات. لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر ».

١ الجذوة ٠ ١٠٥ — ١٠٦
٢ الذخيرة ١ / ١ . ٤٣
٣ اليتيمة ١ : ٤٣٨ والذخيرة ١ / ١ ٠ ٤٤
٤ الذخيرة ٤ / ١ ١٦٥
٥ الذخيرة ١ / ١ : ٤٥
٦ النفح ٢ ٧٨٢ — ٧٨٣

إليه انتهت الطريقة التي اختارها الأندلسيون وارتضوها بعد الغزال، وعنده بلغت آخر الشوط في تطورها وتعقدها والتوائها، لأنّه جمع بين أبي تمام والمتنبي، وحاول أن يبذّ كل من تقدمه في المعاني والصياغة، مازجاً كل ذلك بجلبة ابن هانىء، مطيلاً إطالة ابن الرومي، معتمداً في أكثر شعره على الكد والمصابرة والنحت، ولقد أصاب ابن شهيد من بين النقاد الذين تقدمت الإشارة إليهم في النص على أكثر مميزاته حين وصفه :

أ — بشدة الأسر في الشعر والصبر على حوك الكلام .

ب — بالاقتدار على البديع إذا قورن بمن تقدمه من الأندلسيين .

ج — بطول النفَس في قصائده وبخاصة في الوصف .

د — بتعقب المعاني والتلاعب بها وترديدها .

هـ — بالغموض — نتيجة لذلك — حتى تنبهر أنفاس القارىء وهو يحاول فهم شعره وإدراك حدوده ومعانيه . ونسي ابن شهيد أنّه يتميز بقريحة تعتمد المقايسة، لأنّه يكون على خير أحواله في الشعر إذا هو عارض غيره، إلا أن في أبحره ثقلاً كثيراً، وفي كثير من قوافيه شذوذ عن طبيعة الموضوع، وعن الموسيقى العامة . ولقد عارض صاعداً والمتنبي وأبا نواس، ولكن شعره يظهر أنّه كان يقيس على أمثلة من أشعار غيره، ثم يطنب في استغلال هذه المقايسة ويبالغ ليظهر تفرده، فيسمع المتنبي مثلاً يقول :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر

فيطلع بقصيدة على هذا التشكيك ويكثر من ذلك فيقول :

أنورُكِ أم أوقدت بالليل نارَكِ لباغي قِراك أم لباغي جوارِكِ

وريّاك أم عَرف المجامر أشعلت   بعود الكبــاء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق   حداهُ دعـائي أنْ يجودَ ديارك
وطرَّة صبحٍ أم جبينك سافراً   أعرتِ الصباحَ نورَهُ أم أعارك
وأنت أجرتِ الليل إذ هزَمَ الضُّحى   كتائبَهُ والصبحَ لمّـا استجارك
فللصبح فيما بينَ قرطيك مطْلعٌ   وقد سكن الليلُ البهيمُ خِمارك
فيا لَنهـارٍ لا يغيظُ ظلامَه   ويا لَظلامٍ لا يغيظُ نهـارك
ونجمُ الثريا أم لآلٍ تَقَسّمَتْ   يمينَك إذ ضَمّنْتِها أم يسارك

ولعله أن لا يكون ناظراً في هذا إلى المتنبي ، فإنه يحب شعر ابن هانىء الأندلسي في قوله :

فتكاتُ لحظكِ أم سيوفُ أبيكِ   وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيكِ

حتّى لتجده ناظراً إلى هذه القصيدة نفسها حين يقول[1] :

إن كان واديك ممنوعاً فموعدنا   وادي الكرى فلعلّي فيـه ألقاك

فهذا من قول ابن هانىء :

عيناك أم مغناك موعـدنا وفي   وادي الكرى نلقاك أم واديك

بل لعله أن لا يكون متأثراً بالمتنبي ولا بابن هانِىء ، فهذه الطريقة من التمويه التشكيكي موجودة عند كثير من الشعراء ، والمهم أن ابن دراج إذا جرى فيها أبعد الغاية ، وأسهب ، وقد أطلت الاقتباسة من القصيدة المتقدمة لدلالتها على هذا الإسهاب ، ولدلالتها على شيء آخر في شعر ابن دراج

......

(1) اليتيمة ١ : ٤٤٠

وهو تعلقه بالصورة الواحدة مسافة طويلة في شعره ، وإلحاحه على جوانبها بشدة ، فترى الصورة في الأبيات السابقة هي النار أو النور وما يكتنف ذلك من ليل ، وتستمر هذه الصورة في كل الأبيات المتقدمة دون ملل ، وهذا إن دل في هذا المقام على شيء فإنما يدل على الاسترسال وحب الإطالة ، لا على تحقيق وحدة ما ، أو على شغف بالصورة نفسها ، ولكن كلما وجد ابن دراج سبيلاً لكي يمد في عمر المعنى — وفي عمر الصورة تبعاً لذلك — فإنّه لا يتردد في أن يسلكه ، وهذا شيء ينتظم شعره ونثره . ويخرج أحياناً إلى حد الإملال ، فمن ذلك أنّه قد يشبه أبناءه بيوسف وإخوته والأحد عشر كوكباً فيسترسل مستخرجاً كل الملابسات التي تليق بالموضوع من قصة يوسف وإخوته ، فيقول[1] :

أخو ظمإ يمص حشاه سبع … وأربعة وكلّهم ظماء
كأنجم يوسف عدداً ولكن … برؤيا هذه برح الخفاء
خطوب خاطبتهم من دواه … يموت الحزم فيها والدهاء
وكلُّهُمُ كيوسفَ إذ فداهُ … من القتلِ التغرُّبُ والجلاء
وانسجنُ حواهُ فكم حواهم … بطونُ الفُلكِ والقفرُ القواء
وإن أقوتْ مغاني العزّ منهم … فكم عمرَتْ بهم بئرٌ خلاء

فانظر إليه كيف استخرج من قصة يوسف كل ما ينطبق على بنيه أو وجّه المعاني التي في قصة يوسف ليمنحها لهم ، فذكر أنهم أحد عشر كأنجم يوسف ، وكل واحد فيهم هو يوسف الذي نجته الغربة من القتل ، وإذا كان يوسف قد سُجن فكل واحد فيهم قد مرّ في سجن السفينة أو وجد

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ٦٧

في القفر سجناً ، وكل واحد منهم لجأ إلى بئر خلاء بعد مغاني العز الواسعة . وهذا تشقيق للمعنى وإسهاب فيه . والأصل فيه التوليد المصاحب للمعنى النثري . وابن دراج بدأ كاتباً وانتهى كاتباً شاعراً . غير أنّه يبني شعره على النهج الفكري في النثر ، ويحاول أن يوشحه بالبديع والقوة اللفظية .

وتسيطر على ابن دراج الصور الحربية في نثره وشعره . وإذا أخذ في هذا النوع من الصور أسرف فيه كثيراً ، وإذا تذكرنا أنّه صرح بعجزه أحياناً عن المشاركة في الحرب عرفنا في شغفه بالصور الحربية نوعاً من التعويض . فمن ذلك في شعره :

أوْجَفْتُ خيلي في الهوى وركابي	وقذَفْتُ نَبلي في الصِّبا وحرابي
وسللتُ في سُبلِ الغوايةِ صارماً	عَضْباً ترَقْرَقَ فيه ماء شبابي
ورفعت للشوق المبرِّحِ رايةً	خفاقةً بهزائجِ الأطراب
ولبستُ للنّوّام لأمةَ خالعٍ	مسرودةً بصبابةٍ وتصابي
وبرزتُ للشكوى بشكّةِ مُعْلمٍ	نكصَ الملامُ بها على الأعقاب
فاسأل كميَّ الوجدِ كيف أثرْتُهُ	بغروبِ دمعٍ صائب التسكاب
واسأل جنود العذْلِ كيف لقيتها	في جحْفل البرَحاء والأوصاب
ولقد كررتُ على الملام بزَفْرةٍ	ذَهِلَ العتابُ بها عن الاعتاب
حتى تركتُ العاذلينَ لما بهم	شغفاً بحبّ التاركيّ لما بي
من كلّ ممنوعِ اللقاء اغتاله	صَرْفُ النوى فنأى به ودنا بي
حتى افتتحتُ عن الأحبّةِ معْقلاً	وَعِرَ المسالك مقفلَ الأبواب
ووقفتُ مَوْقفَ عاشقٍ حلّتْ له	فيه غنيمةُ كاعبٍ وكعاب

وفي كل ذلك تلحظ أدوات القتال وفنون الحرب ، حتى يصل إلى الغنيمة ، وهكذا تحوّل بمنظر الحب إلى منظر الموقعة الحربية ، وأزجى

فيه من الصور ما شاء . وجمع إلى هذا كلّه في طريقته الشعرية فنون البديع فأكثر في هذا الموقف من الجناس « لبست للتّوّام لأمة »، « وبرزت للشكوى بشكة » . وهو في غير هذا الموطن شديد الغرام بالمطابقات ، وأحياناً بالإشارات على مثال أبي تمام في كثرة إشاراته التاريخية ، كقوله :

وما شكر النخعيُّ شكري ولا وَفى   وفائيَ – إذ عزَّ الوفاء – قَصيرُ

وكالإشارات الكثيرة في قصيدته الرائية التي مدح بها صاحب سرقسطة منذر بن يحيى ، ومنها :

وأصبتُ في سبإ مورِّثَ مُلْكِها   يسبي الملوكَ ولا يَدبُّ لها الضّرا
والحارثَ الجفنيَّ ممنوعَ الحمى   بالخيل والآساد ، مبذولَ القِرى
وحططتُ رحلي بين ناريْ حاتمٍ   أيامَ يَقْري موسراً أو معسرا

ثمّ تضيق هذه الحلقة بين الكلف بالمعنى والكلف بالفنون البديعية ، فإذا معاني ابن دراج ألغاز عسرة الحل تتطلب من القارىء تحيلاً في الفهم وشروداً في التصور . فإذا أراد استخراج صورة جديدة يصور فيها غرام ممدوحه بجمال الجيوش وقتالها وأعلامها قال :

وأجنادُهُ في مَوْقفِ الرَّوْعِ رَوْضُهُ   وأعلامُهُ في مَوْرِدِ الموت وَرْدُهُ

والتلاعب اللفظي في هذه الصورة ، يزيد إلى عسر التلاعب المعنوي . ومن معمياته قوله :

الطرفُ مرآة عيني أستدلُّ بها   على الصباحِ إذا ما خِيفَ ساطعُهُ
جوناً أزيدُ به ليلَ الرقيب دجًى   ويستنيرُ لي الإصباح لامعُهُ

ويبعد في استعاراته حين يتحدث عن الإبل التي أوصلته إلى الممدوح فيقول :

بُدْنٌ فَدَتْ منّا دماء نحورها ... ببقائها في كلّ أفْقٍ مَنْحرا
نَحَرتْ بنا صَدْر الدبور فأنبطتْ ... قلَقَ المضاجعِ تحت جوٍّ أكْدَرا
[خُوصٌ نفحن بنا البرى حتى انثنت ... أشلاؤهُنَّ كمثلِ أنصافِ البُرَى]
وصَبَت إلى نحر الصَّبا فاستخلصتْ ... سَكَنَ الليالي والنهارَ المبصرا

والمعنى أن هذه الجِمال — وشبهها بالهدي الذي ينحر في عرفات — قد استنقذت منا دماء نحورها حين ظلت منحراً في كل وجه ، أي ما عاشت إلا لتموت ، فواجهت الدبور فأثارت مضاجع قلقة في جو أغبر ، ثم مالت إلى نحر الصَّبا فلما قتلت الصبا استخلصت هدوء الليالي والنهار المبصر . وإنما جاءه هذا التكلف من طلب المعنى ، ومن الإلحاح على صورة النحر والفداء . ويقول في قصيدة أخرى :

في وقعةٍ قامت بِعُذْرِ سيوفِهِمْ ... لو ذابَ من حرّ الجِلادِ حديدُها
ويضيقُ فيها العذرُ عن خطيَّةٍ ... سمراءَ لم يُورِقْ بكفّكَ عودُها

والمعنى أن السيوف لو ذاب حديدها في أيدي أولئك الأبطال من حر المعركة لكان في ذلك عذر لهم ، أما الرمح الذي كنت تحمله أيها الممدوح فلا عذر له لأنّه لم يورق من ندى كفك ، وهذا غاية في الصنعة والإحالة . وتقليب المعاني التي تتردد عند الشعراء الآخرين ومزج أحدها بالآخر لإخراج معنى جديد . وقد يقف المرء حائراً إزاء قوله :

وتلك مراتبُ الأخطار مني ... حمائمُ ينتحبْنَ على هديل

وربما عنى أن مراتب الأخطار ثاكلات كالحمائم اللواتي فقدن الهديل

منذ القدم فهن ينحن عليه ، وكذلك المراتب العليا ، إنها تتطلع إليه ولا تجده ، ومن حق ممدوحه أن يرفعه إلى تلك المراتب .

ومثال آخر من التعقيد سببه حبّ التوليد للمعنى ورسم المتقابلات قوله في وصف المرأة الرومية التي قتل بعلها في المعركة[1] :

شجيتْ بمصرع بَعْلها ثم انثنت   مطلوبةً بجفونها أوتارها
من كل مغرمة بخلّ تمتري   ألسيف أمضى فيه أم تذكارها

فهذه المرأة حزنت لمصرع زوجها ولكنها هي كانت قد قتلت من قبل بجمال عينيها ولذلك طلبت بثأر ما كانت قد جنت من أوتار . وهي إذ تشهد مصرع خليلها الذي تحبه تشكّ أيهما أمضى نفاذاً في جسمه ألسيف أم ذكريات أيامه بصحبتها ، وكلّ هذا تكلف وتعقيد يراد به ابتكار معنى أو تصوير المفارقة بين شيئين متباعدين . وليس كل شعر ابن درّاج بهذه الصعوبة ولكنك لا تعدم أن تجد هذا اللون من التعقيد متناثراً هنا وهناك في ديوانه ، وعند هذا الحدّ يغدو شعره لوناً من الشعر المتافيزيقي المغرب الملتوي عن تعمّد ، ويصدق فيه قول ابن شهيد : « وراحته بما يتعب الناس وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس » .

على أنّا يجب ألا ننكر أنّ ابن درّاج أول شاعر أندلسي لا ينزل شعره عن مستوى الجزالة ، وأن صياغته بالغة درجة عجيبة من القوة ، حتى ليمكننا أن نقول إن إغرابه في طلب الصورة ثم محافظته على هذا اللون من الصياغة القوية كان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين ؛ وتجيء قصيدته على مسرد واحد لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، لا أعني بالانخفاض الرداءة

١ الديوان : ٤١٠

وبالارتفاع الجودة ، وإنّما أعني المراوحة بين المستويات العالية والذرى ؛ فليس في قصائد ابن درّاج ذروة أو ذرى ينتقل بها القارىء من المستوى العام إلى ثبج الموجة العالي ، كما يفعل المتنبي حين ينتقل مثلاً من المدح إلى الحكمة ، وإنّما هي موجة واحدة هادرة من أول القصيدة إلى آخرها ؛ وسرُّ ذلك فيما أعتقد أن ابن درّاج لم يكن يتصوّر قصيدته تصوّراً عامّاً وانما كان يرسم حدودها التفصيلية بدقة كأنّه يكتب رسالة ، ولذلك فإنّه يتدرّج فيها بتفصيل لا حذف فيه ، يملك على القارىء أقطار فكره وخياله ، ولا يدع مجالاً كبيراً للإيحاء . خذ مثلاً هذه القصيدة التي يهنىء فيها المنصور بن أبي عامر بإقبال ابن شانجة محكماً له في نفسه إثر ما كان من إيقاع المنصور به[1] تجد فيها صورة التسلسل الموضوعي بعد مطلعها :

ألا هكذا فليسمُ للمجد من سما ويحمِ ذمار الملك والدين من حمى

وفي هذا القسم يتحدث عن حقّ من كانَ مثل المنصور : ماذا يحرز :

وحق لمن لاقى فأقدم سيفه على غمرات الموت أن يتقدما

ومن . . . ومن . . . ومن . . . إلى أن استنفد جميع ما يمكن أن ينسبه للمنصور من حقوق لقيامه بأمر الدين والواجب ، ثم ينتقل إلى القسم الثاني حيث يذكر قدوم ابن شانجة ، فلا يترك شيئاً يتعلق بهذا القدوم دون أن يذكره : فإذا قدم ابن شانجة فإنّه يمر بين صفوف الجند ذوي الرايات المزركشة المطرزة بصور الحيّات والعقبان ، فلا بد أن يتحدث عن الجند ومنظر راياتهم ، ويكون الختام بتهنئة المنصور . . . طريقٌ لاحب طويل ، ولكن ابن درّاج

---

[1] هي القصيدة رقم : ١٠٧ في الديوان

يتتبعه دون سأم آتياً على كل ما فيه من أمور دقيقة وجزئيات صغيرة .

وقد يسأل سائل : ها إن ابن درّاج مدح أناساً كثيرين ، كان بعضهم على غير وئام مع الآخرين ، ومجّد عهوداً متفاوتة فلمَ لم يتفاوت شعره إلى حدّ واضح ، ولمَ لم يقع في التناقضات الكثيرة ؟ والجواب على ذلك أن ابن درّاج لم يكن يحور إلى مفهوم عام في نظرته للمواقف المختلفة والأشخاص المختلفين ؛ كان نظره إلى الأمر الواقع يحجب عنه كلّ ما تقدّم ، ولا يمكّنه من استشراف ما يمكن أن يجدّ ، فكل قائم بالأمر إنما هو « مبعوث العناية الإلهية » في تلك اللحظة ، دون اعتبار لما تقدمها أو لما يجيء بعدها ، وكل أمير — في ظرف ما — فإنّما يحقّق حدودَ الله وينصر شريعته ويذب عن دينه ؛ ولم ينظر ابن درّاج أبداً إلى الجذور ولا نظر إلى النتائج مجتمعة حين كان يفكر في أمر الأندلس ، ولولا بعض لحظات التأمل والاعتبار لما حصلنا منه على تلك الأبيات التي يصوّر فيها أثر الفتنة البربرية ؛ ولم يكن ابن درّاج يتأمل في مشكلة الأندلس ، فقد شغل عنها بالتفكير في رزقه ورزق الأفواه الكثيرة الجائعة التي كان يجوب بها أرجاء البلاد مستدرّاً لعطف أمير بعد أمير .

فإذا قلنا إنّه أتقن فن المدح لم نكد ننسى أنّه أتقن وصف حال أطفاله ، حتى جعل هذا الموضوع هو المحرك العاطفيّ — بعد النكبة — في كثير من قصائده . ولا يخطىء الناظر في شعره أن يلحظ كثْرة اقتباسه للتعبير القرآني ولعبارات من محفوظه القديم ؛ وليس لديه قصائد كثيرة في غير موضوع المدح ؛ هنالك عدد قليل من القصائد في الرثاء وأخرى في وصف الأزهار نظمها بطلب من المظفر بن أبي عامر ، وبعض مطالع غزلية مطوّلة تدلّ على إحكام للصنعة الشعرية ، ولكن ليس فيها عمق عاطفيّ .

لقد مكّننا استكشاف ديوانه من أن ندرس شعره في أدواره المختلفة ،

ولكن طول قصائده وكثرتها يجعل كلّ دراسة لديوانه لمحات موجزة ، في مثل هذا المقام [1] .

---

١ كان محمد بن إبراهيم القيسي من أهل وشقة – وسكن سرقسطة – قد جمع شعر ابن دراج وزاد فيه كثيراً على ما بأيدي الناس سنة ٤٦٧ ، ورآه ابن الأبار بخطه في بلنسية سنة ٦٣٥ ، ولعل سكناه لسرقسطة أعانته على جمع ما زاده من شعر (التكملة : ٤٠٤) . وأجاز ابن دراج لابن حزم رواية شعره وعن ابن حزم رواه الحميدي وشريح بن محمد (فهرسة ابن خير ٤١٤– ٤١٥) ورأى ابن خلكان ديوانه ونقل منه وقال إنه في جزءين ، ثم نشر ديوانه أخيراً بتحقيق الدكتور محمود مكي (دمشق ١٩٦١) . وقد احتوى الأصل على ١٦٢ قصيدة أضيف إليها ملحق ببعض قصائد لم ترد في الديوان ، وفي كتاب التشبيهات شعر لم يرد في ديوانه ولا في الملحق ، فالديوان بحالته هذه لا يمثل جميع ما قاله ابن دراج . كذلك فإن في النفس من ترتيبه شيئاً ، وذلك أن اعتماد الترتيب التاريخي هو الذي يستوحى من مواطن كثيرة في الديوان ، إلا أن هذا الترتيب يختل في عدة مواضع ، وأكبر الظن أن الخلل سببه اضطراب في النسخة لا في عمل جامعه الأول .

٢ ــ ابن شهيد
أبو عامر أحمد بن عبد الملك

الذخيرة ١ / ١ : ١٦١	الجذوة : ١٢٤	بغية الملتمس رقم : ٤٣٧
المغرب ١ : ٧٨	المطمح : ١٦	اليتيمة ١ : ٣٨٢
الخريدة ١٢ : ٢٠١	المطرب : ١٤٧	الشذرات ٣ : ٢٣٠
إعتاب الكتاب : ٧٤	المسالك ١١ : ٢٠٦	معجم الأدباء ٢ : ٢١٨

وانظر صفحات متفرقة في النفح والشريشي .

بيت بني شهيد من بيوتات الشعر في الأندلس . وهم أشجعيون من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس يوم مرج راهط . وكان عبد الملك أبو مروان والد أبي عامر الذي نترجم له من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية ، مقرباً عند المنصور بن أبي عامر . وقد استعمله المنصور والياً على الجهات الشرقية ، جهات بلنسية وتدمير ، فبقي هنالك تسعة أعوام . ثم سئم العمل فكتب إلى المنصور يقول : « إن كبير حق المولى لا يذهب بصغير حق العبد ، ولي حرمة أدل بها ، وذمة أنبسط لها ، وقد طالت علي الغربة ، وسئمت الخدمة ، ومللت من النعمة ، فالإدالةَ الإدالةَ »[١] . وقد أعفاه المنصور من الخدمة حسب رغبته ، فعاد إلى قرطبة وقد أثرى ، إذ كان معه حين عودته أربعمائة ألف دينار ناضة ومائة ألف من ذهب آنية ، ومائتــان من رقيق الصقلب ، ولم يحاسبه المنصور على هذا الثراء ، بل إنّه صرف له فوق

١ الذخيرة ١ / ١ ١٦٧

ذلك ألفي مدي من قمح وشعير مناصفة ، لأن السعر كان عالياً ، وكانت نفقته الشهرية من القمح سبعين مدياً ومن الشعير علف ثمانين دابة .

وفي قرطبة أصبح أبو مروان من ندامى المنصور ومستشاريه . وكان من الناحية الثقافية كثير الاهتمام بالتاريخ والخبر واللغة والأشعار ، مع سعة روايته للحديث والآثار . وقد ألّف كتاب التاريخ الكبير في الأخبار ورتبه على السنين – بدأ به من عام الجماعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه [1] . وأصيب بالنقرس في شيخوخته ، فأهدى إليه ابن أبي عامر محفة من خيزران ليُحمل فيها ، وكان في مرضه يحضر مجالس الأنس ويستخفه الطرب فيرقص إذا أخذ منه الشراب ، ويرتجل الشعر ، ومما ارتجله في بعض تلك المواقف [2] :

هاك شيخٌ قاده عذرٌ لكا ... قام في رَقْصَتِه مُسْتَهلِكا
لم يُطِقْ يَرْقُصُها مستثبتاً ... فانثنى يَرْقُصُها مُسْتَمْسِكا
عاقه من هزِّها معتدلاً ... نِقْرِسٌ أنحى عليه فاتكا
أنا لو كنتُ كما تعرِفُني ... قمتُ إجلالاً على رأسي لكا
قهقَه الإبريقُ مني ضَحِكاً ... ورأى رعشةَ رجلي فبكى

وفي شيخوخته كان ما يزال قويَّ الشهوات ، منطلق النفس وراء لذاته ، إلا أنّه نسك في أخريات أيامه ، وتوجه إلى الآخرة ، وعزف عن الدنيا ، ثم أدركته منيته من ذبحة أصابته ، وقبيل وفاته كان المنصور قد نقله من منية المغيرة إلى منية النعمان ليكون قريباً منه [3] .

١ الصلة : ٣٣٨
٢ الذخيرة ٤ / ١ : ١٧
٣ الصلة : ٣٣٩

وفي الحي المسمى منية المغيرة وفي الدار المعروفة بدار ابن النعمان ، بين تضاعيف هذا النعيم ، ولد أحمد بن عبد الملك ، وشهد عزّ أبيه في ظل العامريين بل فتنه مجد العامريين وثراؤهم وقصورهم ، وكان طفلاً شديد الحساسية ، فانطبعت في ذاكرته منذ الصغر ذكريات لم تنطمس من بعد ، نلمس فيها الثورة الخبيثة على أبيه ، والتشوف إلى الثراء وحب الظهور . واستشعار السيادة في ذلك الدور المبكر من حياته .

فقد ظل يذكر كيف دخل وهو في الخامسة من عمره على المنصور ابن أبي عامر ، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة ، فأخذ يتأملها تأمل الشره ، فأمره المنصور أن يأخذها ويأكلها ، فلما أطبق على بعضها فمه لم يستطع أن يقطع منها شيئاً ، بل إن يده ضاقت عنها ، فتناولها المنصور منه ، وأخذ يقطع له بفمه ويطعمه ، وكأنّ هذا العطف كان يذكره بأنّه حُرم شيئاً كثيراً من عطف أبيه الذي كان مشغولاً بمجالسه وبأمور الدولة أكثر من النظر إلى أبنائه . ثم سلمه المنصور إلى من حمله إلى بيت المنصور حيث السيدة زوجه ، ولم ينس الطفل أحمد ما استُقبل به من حفاوة من النساء ، وكيف غمرنه بالهدايا ، وقدمت له زوج المنصور ألف دينار عن نفسها وثلاثة آلاف عن زوجها ، وظنّ الطفل أنّه حر التصرف فيما أُهدي إليه لأنّه يملكه . ولكنه ما كاد يعود إلى البيت حتى استولى أبوه على كل شيء . فوزع منه ما وزع ، واستبقى منه ما شاء . وتلك حادثة أثرت في نفسية أحمد تأثيراً عميقاً يشبه الحقد ، ذلك أنّه كان يرجو أن يشبع رغبته من تلك الألوف . لا بشراء اللعب فحسب ، « والخيل إذ ذاك نخب من قصب ، والدرق قشور من خشب »[1] . بل ليفرق ما يريد تفريقه من ذلك المال على الخدم والجواري وأطفال الحي .

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٥

وقد نُقل إلى المنصور أن هذا الطفل غضب مما فعله أبوه . ولعله بكى لديه . فمنحه خمسمائة دينار وأقسم على أبيه أن يبيح له التصرف التام بها ، فبددها على لعبه وفرق كثيراً منها على لداته .

وحادثة ثانية كانت أعمق أثراً من الأولى ، وهو يقول إنها كانت أفدح نازلةٍ نزلت بصبوته [1] ، ذلك أن أباه حين نسك ، نسيَ حق الطفولة في اللهو ، فطرح ذيل نسكه وتقشفه على أبنائه ، وعمد إلى ابنه أحمد وكان يومئذ في الثامنة ، فحلق لمته ، وانتزع ما عليه من ثياب الخز والوشي ، وألبسه بدلاً منها ثياباً بسيطة ، فتلقى الطفل هذه بألم شديد ، ومر به الوزير ابن مسلمة ذات مرة ، فسأله عن حاله ، فأجابه بالنشيج والعجيج ، — مظهر من مظاهر الحساسية الشديدة والنشأة المدللة — فما كان من الوزير إلا أن حكى الأمر للمظفر ابن المنصور — وكان المنصور غائباً — فاستقدم الغلام إليه وألبسه ثياب الحرير ، وحمله على فرس بسرجه ولجامه ، وأعطاه ألف دينار ، وعقد له — عقداً صورياً — على الشرطة . فأرضى في نفسه الصغيرة تشوفها إلى المراكز العالية الكبيرة ، وتطلعها إلى الجديد من الثياب والوافر من الأموال .

من أجل ذلك كانت نكبة قرطبة حادثاً جللاً بالنسبة له لأنها هوت بالمجد العامريّ ، وقضت على الأيام السعيدة في ظل العامريين ، وكانت نشأة أبي عامر لا تقوّيه على الكفاح والمغامرة من جديد ، لنعومتها أولاً ، ولفرقه الشديد من تقلبات الأيام في المهاجرة . فبقي في قرطبة ينظر إلى معاهدها الدارسة في أسى ، ويبكي قصورها ومتنزهاتها . ويعللُ عجزه عن مفارقتها بحبه للوطن ، بحبه لقرطبة وإن كانت عجوزاً متغيرة الريح ، ساقطة الأسنان ، زانية بالرجال « طاب له الموت على هواها » [2] :

١ انظر الذخيرة ١ / ١ : ١٦٤
٢ الذخيرة ١ / ١ ١٧٥

عجوزٌ لعَمْرُ الصِّبا فانيهْ   لها في الحَشا صورةُ الغانيهْ
زَنَتْ بالرجالِ على سِنّها   فيا حبّذا هيَ مِنْ زانيهْ
تَقاصَرُ عن طولها قُونكَةٌ   وتُبْعِدُ عن غُنْجها دانيهْ
تردّيْتُ من حُزْنِ عيشي بها   غراماً فيا طولَ أحزانيهْ

وكان أبو عامر عند النكبة في ريعان الشباب ، وفورة الهوى ، تجاوز العشرين بقليل وقد تعود حياة اللهو التي تهيئها المدينة الكبيرة ، ولكنه أيضاً شعر ، بحكم سنه وما يحيط به من مثالية في النظر إلى الأمور ، أن الفتنة غيرت المقاييس وزعزعت القيم ، فرفعت وخفضت دون معيار صحيح ، « وأن الفتنة نَسْخٌ للأشياء من العلوم والأهواء ترى الفَهِمَ فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة ، يُلْمَحُ بأعينِ الشنآن، ويستثقل بكل مكان »[1] . حقاً ان الفتنة لم تتركه منطوياً على نفسه ولكنها قتلت فيه طموح الطفولة والصبا إلى السيادة، فأخذت الحاجة وحدها تدفعه — كما دفعت ابن درّاج — إلى مدح هذا أو ذاك ممن تعاقبوا على حكم المدينة ، مع شعور عميق بأن العامريين وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون أن يفردوه ويميزوا مكانته بين ذوي الفهوم . وكما أن الفتنة قوت في نفسه حب السلامة في تلك الفترة المتقلبة . فإنها أضافت شيئاً إلى المرارة التي كان يحسها نحو الأشياء والناس وأذكت من نار النقمة عنده على بعض معاصريه ، حتى لتحس من بعض رسائله أنه كان يرى من حوله يكيدون له ، حباً في الكيد أو حسداً لعبقري مثله . ومما زاد في نقمته أنه رأى بعض من كان يعاشرهم من فتيان العامريين ، قد صاروا سادة في مختلف جهات الأندلس ، فأخذ يحس ، محققاً أو ظاناً ، أن أصدقاءه تنكروا له ،

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٧٩

ومن هؤلاء مجاهد العامري أبو الجيش ، الذي كان رفيق صباه ، فلما حدثت النكبة وهبّت على مجاهد ريح السعد « وجاءت المنى من تهامة ونجد » حاصَ عن الوفاء ، فانقطع عن مراسلة صديقه القديم ، فدفعت الحاجة بابن شهيد أن يقصده ثم انصرف – كما يقول – « بين الحالتين ، لا قرب ولا شحط ، ولا رضى ولا سخط »[1] وهو موقف أشبه بخيبة الأمل منه بفوز الرجاء .

ومع أن أبا عامر يقول : « فما سقطنا على سوقة يهش إلينا ، ولا دفعنا إلى ملك يصبو بنا » ، فإنّه أحرق قسماً من جهوده الفنية بخوراً على أعتاب المستولين على قرطبة ، فمدح المستعين لما تمّ له الأمر بقصيدة مطلعها :

بكى أسفاً للبينِ يومَ التفرُّقِ   وقد هوّنَ التوديعُ بعضَ الذي لقي

وهي قصيدة لم يبق منها إلا مقدمتها الغزلية ؛ ولما أصبح أمر قرطبة في يد بني حمود (٤٠٧) ، وصل أبو عامر بهم أسبابه ، غير أنّه « دبت إليه عقارب ، برئت منها أباعد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب ، وانبرت إليه منه خطوب . . . وأقام مرتَهناً ولقي وهناً »[2] ، وفقد ماله في تلك الأيام فكتب إلى ابن حمود رسالة في صفة السجن والمسجون[3] وألحق بها قصيدة يمكن أن يستنتج منها أنّه كان يعاني الضيق الشديد من الفقر والانحباس في السجن ، إذ يقول :

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلةٌ   وجبّارُ حُفّاظٍ عليَّ عنيدُ
فمَنْ مبلغُ الفتيان أنّيَ بَعدَهُمْ   مقيمٌ بدارِ الظالمينَ وحيدُ

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٩٢ وما بعدها .
٢ المطمح : ٢٠
٣ إعتاب الكتاب : ٧٤

مقيمٌ بدارٍ ساكنوها مِن الأذى قيامٌ على جَمْرِ الحِمامِ قُعود
وَيُسمَعُ للجنَّانِ في جَنَبَاتِها بسيطٌ كترجيعِ الصَّبا ونشيد

ثم يستعطف المعتلي بن حمود صاحب مالقة وإشبيلية بقوله :

وراضتْ صعابي سطْوَةٌ علَوِيّةٌ لها بارقٌ نحو النّدى ورعودُ
تقولُ التي من بيتها خفَّ مركبي : أقُرْبُكَ دانٍ أم نواكَ بعيد
فقلتُ لها: أمري إلى منْ سمَتْ به إلى المجدِ آباء لـه وجدود

وفيها يقول مصرّحاً بذكر المعتلي :

إلى المعتلي عاليتُ همّيَ طالباً لكرّتِـهِ إنَّ الكريمَ يعودُ
همامٌ أراهُ جودُهُ سُبُلَ العُلا وعلّمَهُ الإحسانُ كيفَ يسودُ

ومنها :

حنانيكَ إنَّ الماء قد بلغَ الزُّبَى وأنحتْ رزايا ما لهُنَّ عديدُ
ظمئتُ إلى صافي الهواء وطَلْقِهِ فهل ليَ يوماً في رضاكَ وُرُودُ

غير أن علاقته بالمعتلي تحسنت حين استجاب هذا الوالي لرجائه وأطلقه ، فأخذ يمدحه ويبعث إليه بالمدائح من قرطبة . من ذلك أن المعتلي لما أوقع بالفرقة الزنجية في إشبيلية كتب أبو عامر إليه يمدحه ويقول[1] :

غنّاكَ سَعْدُكَ في ظلّ الصِّبا وسَقى « فاشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُرْتفِقا »

ومنها :

أجريتَ للزّنجِ فوق النّهر نهرَ دَمٍ حتى استحالَ سماءً جُلِّلَتْ شَفَقا

[1] الذخيرة ١/١ : ٢٦٨

وساعدَ الفَلَكُ الأعلى بقتلِهِمُ   حتى غدا الفُلْكُ بالناجي به غرقا

ولما انتصر المعتلي على ابن الشَّرْب ، أنشده الشعراء قصائدهم فلم تعجب أبا عامر وأنشده يومئذ[1] :

فريقُ العدا من حدِّ عزمك يَفْرَقُ   وبالدهر ممّا خافَ بطشَك أَوْلَقُ
عجبتُ لِمَنْ يَعْتَدُّ دونك جُنَّةً   وسهمُكَ سَعْدٌ والقضاء مُفَوِّق
وما شربَ ابن الشَّرْب قبلك خمرةً   من الذلِّ بالعجز الصريح تُصَفَّق

وقد يكون أبو عامر أنشد هذه القصيدة في قرطبة أو في مالقة ، لأن المعتلي هذا لما رأى ضعف القاسم بن حمود بقرطبة زحف عليها من مالقة ، ودخلها دون قتال وهرب منها القاسم ، وظل يحيى المعتلي فيها حتى سنة ٤١٣ حين عاد القاسم بجيش من البربر فأخرجه عنها ، وهرب المعتلي إلى مالقة . ويبدو أن ابن شهيد كان ميالاً للمعتلي ، ولذلك فإنه فكر في اللّحاق به إلى مالقة ، ولا ندري هل نفذ هذا العزم أو رجع عنه ، ولكن له قصيدة قالها وقد أزمع الخروج عن قرطبة لاحقاً بيحيى وهو يذكر فيها أنّه محسود ببلده ، وأن أمية هضموا حقه ، وأن هاشماً (أي العلويّ يحيى) سيردُّ له حقوقه ، يقول[2] :

أرى أعيُناً تَرْنُو إليَّ كأنّما   تُساوِرُ منها جانبيَّ أراقمُ
أدورُ فلا أعتامُ غيرَ مُحارِبٍ   وأسعى فلا ألقى امرءاً لي يُسالِمُ
ويجلبُ لي فهمي ضروباً من الأذى   وأشقى امرىء في قرية الجهلِ عالِمُ
سلامٌ عليكم لا تحيّةَ شاكرٍ   ولكن شجىً تنسدُّ منه الحلاقمُ
عليكمْ بداري فاهْدِموها دعائماً   ففي الأرضِ بنّاءونَ لي ودعائمُ

١ الذخيرة ١/١ : ٢٧٣
٢ الذخيرة ١/١ : ٢٧٥

لئن أخرجَتْني عنكمُ شرُّ عصْبةٍ ... ففي الأرضِ إخوانٌ عليَّ أكارمُ
وإن هَشَمَتْ حقي أميةُ عندها ... فهاتا على ظهرِ المحَجّةِ هاشمُ

وأراد أهل قرطبة بعد خروج يحيى أن يبايعوا واحداً من بني أمية فقدموا عليهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي تلقب بالمستظهر (٤١٤) ووزر له ابن حزم أبو محمد فلم يمكث في الخلافة أكثر من شهر ونصف، وخلفه الذي ثار عليه ولقّب بالمستكفي، فحكم ستة أشهر وأياماً، ثم عاد يحيى الحمودي، فلما انقضت أيامه بايع أهل قرطبة أموياً جديداً هو هشام بن محمد، من نسل الناصر (٤١٨)، فتلقب المعتد بالله، وبقي يتنقل في الثغور ثلاثة أعوام دون استقرار، ثم سار إلى قرطبة فدخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠، فلم يقم بها إلا يسيراً حتى خلعه الجند، وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية بتاتاً. ولا ندري شيئاً من أمر ابن شهيد في هذه الفترة المتقلّبة غير أنّه وزر أولاً للمستظهر مع صديقه ابن حزم ثم أصبح جليساً لهشام المعتد[1]، وقد زها مرةً حين تفوّقَ في تلك المجالس على أصحابه أنفسهم، وشمت بانخذالهم لأنهم لا يعترفون بعبقريته ولا ينصفونه[2]، ورثى المعتدَّ حين خلع بقوله[3]:

أحْلَلْتَني بمحلةِ الجوزاء ... ورَوِيتُ عندكَ مِنْ دمِ الأعداء
وحمَلْتَني كالصَّقْرِ فوق معاشرٍ ... تحتي كأنّهمُ بناتُ الماء

وظلت صلة ابن شهيد طوال هذه المدة وثيقةً باثنين من العامريين هما

١ المغرب ١ : ٨٥، ١٢٣
٢ الذخيرة ١/١ : ٢١٠
٣ المغرب ١ : ٨٥

المؤتمن عبد العزيز الذي كان أبو عامر يراسله كثيراً ويمدحه [1] ، وأبو عامر ابن المظفر الذي ظل في قرطبة ، في عيشة راضية ، حتّى خاف المعتدّ على نفسه ، فهرب منها ولجأ إلى مواليه العامريين بالثغور فخذلوه ، ولما يئس المعتد من عودته إلى قرطبة استولى على أملاكه ، وجعل يتطلب ودائعه عند الناس فوقع من ذلك بلاء عظيم على بعض أهل قرطبة ، واضطر بعضهم إلى الجلاء عنها بسبب بحث المعتد عن ودائع العامريين [2] . ومن أوائل التقارب بين ابن شهيد وابن المظفر هذا أنّ الثاني طلب مرة أن يستعمل حمام ابن شهيد لأن حمام بيته كان تحت التصليح في يد البنّائين [3] ، ثم تقاربا وتصادقا وامتد بينهما حبل الصداقة ، حتّى لنرى ابن شهيد يسهر عند ابن المظفر ويشرب . وقد سهر ذات ليلة ، وفي مجلسهم طفلةٌ صغيرةٌ تسقيهم تسمى أسماء ، فعجبوا من مكابدتها السهر على صغر سنها وطلب ابن المظفر إلى ابن شهيد وصفها فقال [4] :

أفدي أُسَيْماء من نديمٍ ... ملازمٍ للكؤوسِ راتبْ
قد عجِبوا في السهادِ منها ... وهْي لعَمْري من العجائب
قالوا تجافى الرُّقادُ عنها ... فقلتُ : لا ترقدُ الكواكب

ومن مدائحه في ابن المظفر :

جُمِعَتْ بطاعة حُبّكَ الأضْدادُ ... وتألّف الأفْصاحُ والأعْيادُ
كتَبَ القضاء بأن جدّكَ صاعدٌ ... والصبحُ رَقٌّ والظلامُ مِدادُ

ومرت أكثر أيام ابن شهيد وهو في قرطبة ، في مناقضات ومماحكات

---

١ انظر الذخيرة ١ / ١ : ١٦٣ — ١٧١ ، ١٧٣ — ١٨٠
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٦٠ — ٢٦١
٣ الذخيرة ١ / ١ : ٢٥٧
٤ الذخيرة ١ / ١ : ٢٦٠ والنفح ٢ : ٨٠٦

بينه وبين معاصريه من الأدباء والشعراء ، فتصدى له من الشعراء خصمه وصديقه ابن الحناط الأعمى الذي كان مُغْرًى بالكيد له ، وجرت بينه وبين ابن شهيد «مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقتْ أبا عامر بالماء وأخذت عليه بفروج الهواء»[1] ، ومن رسائله التي أنحى فيها على طريقة ابن شهيد في النظم والنثر : « الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام ، يصابُ بها أغراض الكلام ، وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عطفه ، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الآداب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء .

« وابن اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطعْ صولةَ البُزْلِ القناعيس »[2]

ومع ذلك فإنا نجد ابن الحناط هذا يمدح أبا عامرٍ في قصيدة ، منها[3] :

أمّا الفراقُ فلي في يومه فَرَقُ وقد أرِقْتُ له لو يَنْفَعُ الأرَقُ
أظعانهم سابقتْ عيني التي انهملتْ أم الدموعُ مع الأظعان تَسْتَبِق
عاق العقيقُ عن السلوانِ واتضحتْ في توضحٍ ليَ من نهجِ الهوى طرق

بل إن ابن الحناط لما نُعيَ إليه أبو عامر بكى ورثاه بديهةً بقوله[4] :

لما نعى الناعي أبا عامرٍ أيقنتُ أني لستُ بالصابرِ
أودى فتى الظَّرْفِ وتِرْبُ النَّدَى وَسَيِّدُ الأوَّلِ والآخرِ

. . .

١ الذخيرة ١ / ١ : ٣٨٣
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٣٨٥
٣ الجذوة : ٥٤
٤ الجذوة : ٥٤ والنفح ٢ . ٨١٦

وهو في رسائله يهاجم اثنين ممن كانوا يكيدون له، أحدهما يسمى ابنَ فتح والآخر أبا عبد الله الفرضي، أحد المشتغلين بالكيمياء، ويقول إن الثاني كاد له أيام المستظهر (٤١٤)، وصنع على لسانه شعراً في هجاء القائم بالأمر يومئذ، منه[١]:

يا كسرَةً دَهَمَتْنا ليس تَنْجَبِرُ وَسُبَّةً لَحِقَتْنا ما لها عُذُرُ

ويزعم أن ابن فتح أفسد عليه ىبة ابن عباس وزير زهير الفتى الصقلبي صاحب المريّة، وربما كان شيء من ذلك، ولكن التنافر بين ابن شهيد وابن عباس كان يتم دون حاجة إلى تدخل الآخرين ودسائسهم، فقد كان كل منهما معجباً بنفسه وبقدرته الأدبية، ثم إن ابن شهيد هجا ابن عباس فأقذع حينما ورد مرّة على قرطبة. وذلك أن ابن عباس هذا، في قَدْمَتِهِ تلك، جمع لمة من الأدباء من أصحاب ابن شهيد وهم: ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني. وسألهم عن ابن شهيد وأمرهم أن يوجهوا في استدعائه، قال ابن شهيد[٢]: «فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلّى ثقيل، فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً لي حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً لذيلٍ لم ير أحد سحبه قبله وهو يترنم، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال فردَّ ردّاً لطيفاً، فعلمتُ أنَّ في أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام... فرأيت أصحابي يُصيخون إلى ترنمه، فسألتهم عن ذلك، فقال لي الحناطي، وكان كثيرَ الإنحاء عليّ، جالباً في المحافل ما يسوء الأولياء إلي، إن الوزير حضره قسيم من شعره، وهو يسألنا إجازته، فعلمت أنّي المراد». ومن الجدير بالملاحظة هنا نظرة ابن شهيد إلى

١ الذخيرة ١/١ : ١٨٩
٢ الذخيرة ١/١ : ٢٦٢ والنفح ٢ : ٩٨٩

نفسه أولاً ، وكيف لم يغب عن باله أن يذكر قيام الأصحاب في المجلس له ، ثم نظرته إلى ابن عباس وكبريائه ورأيه في طبيعة العلاقة بينه وبين الحناطي . ثم إنّه أخذ قلماً وأجاز القسيم بديهة وانصرف ، وبعد قليل لحق به أصحابه وأنبأوه أن ابن عباس لم يُعْجَبْ بما جاءت به بديهته ولم يرتضه ، وسألوه هجاءه ، فهجاه مقذعاً ، فلا غرابة إذا لم يكن بين الرجلين شيء من الانسجام . ومع ذلك فبينه وبين ابن عباس مراسلات يقول في بعضها : « إلى وزير كان لي وزراً ، رفرق شرابي وأخصب به جنابي »[1] ويعده ابن عباس بصرف ضيعة له كانت بجهة تدمير من أملاك أبيه لما كان والياً بتلك الناحية[2]، ويقول ابن حيان في وصف ما صنعه ابن عباس حين قدم قرطبة : « ومن عُجْبه أنّه دخل قرطبة — ومنها منتماه — وهم بقية الناس ، فحجب كبيرهم الشيخ أبا عمر بن أبي عبدة من غير عذر . . . وتنقص أديبهم أبا عامر بن شهيد ، ولم يك يحسن مستملياً له ، ثم أجمل وصف جماعتهم وقد سئل عنهم فقال : ما رأيت بقرطبة إلا سائلاً أو جاهلاً »[3] .

وكان أشد ما يغيظ ابن شهيد إلصاقُ العيب بإنشائه وشعره ، ولذلك صب سوط عذاب على أبي بكر المعروف باشكمياط لأنه زعم أن ابن شهيد ينتحل ما لغيره ، وتعقب ابن الإفليلي أحد معلمي اللغة في قرطبة بشدة وتهكم به كلما سنحت الفرصة ، وبسببه جرد قلمه لكتابة رسالة التوابع والزوابع وهاجم من أجله طبقة المعلمين جملة بعنف وشدة ، فمما قاله فيهم « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فِطَنٍ

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٨٢

٢ المصدر نفسه ١ / ١ : ١٦٦

٣ الذخيرة ١ / ٢ : ١٨٦

حمئة ، وأذهان صدئة »[1] . وكان ابن الإفليلي هذا حجة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، وقد نال جاهاً عند بني حمود ، ثم استكتبه المستكفي بعد ابن برد فوقع كلامه بعيداً من البلاغة لأنّه على طريقة المعلمين المتكلفين ، وفي أيام هشام المعتد لحقته تهمة في دينه فسجن في المطبق مع من سجن من الأطباء كابن عاصم والبسباسي ، ثم أُطلق .

غير أن ابن شهيد أنشأ في قرطبة أيضاً علاقات إخوانية طيبة ، فكان أبو المغيرة بن حزم من أقرب أصدقائه إليه حتّى كانا كما قال الفتح : « لا ينفصلان في رواح ولا مقيل ، ولا يفترقان كمالك وعقيل ، فكانا بقرطبة رافعيْ ألوية الصبوة ، وعامريّيْ أندية السلوة »[2] . وكان من أصدقائه أيضاً الفقيه أبو محمد ابن حزم نفسه . لأنهما نشأا معاً في الدولة العامرية وسنّاهما متقاربتان، ولما مرض ابن شهيد كتب إلى ابن حزم بأبيات يذكر فيها أخوّته وصداقته ، ويطلب إليه أن يؤبنه ، ويشيع ذكره ويدعو له الله أن يغفر ذنبه[3] :

فمَنْ مبلغٌ عنّي ابنَ حزمٍ وكان لي ... يداً في مُلمّاتي وعند مَضايقي
عليـــك سلامُ اللهِ إني مفارقٌ ... « وَحسْبُكَ زاداً من حبيبٍ مفارق »
فلا تنسَ تأبيني إذا مـا فَقَدْتَني ... وتذكارَ أيـامي وفضلَ خلائقي
فلي في ادّكاري بعـدَ موتيَ راحةٌ ... فـــلا تمنعونيهـــا علالةَ زاهق

فأجابه ابن حزم بقوله :

أبا عامرٍ ناديتَ خِـــلاً مصافيـــاً ... يُفدّيكَ من دُهمِ الخُطوبِ الطوارقِ
وآلتَ قلبـاً مخلصاً لك مُمْحِضاً ... بودّكَ موصولَ العُرَى والعَلائق

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٥
٢ المطمح ، ٢٢
٣ الجذوة : ١٢٥

ثم يهدىء من جزعه ويتمنى له بعد الشدة رخاء، ويتفجّع لفقده، إن حدث. وقد كتب ابن حزم لابن شهيد أيضاً رسالة مستقصاة بيّن له فيها أن القرآن خارج عن نوع بلاغة المخلوقين وأنّه على رتبة قد منع الله تعالى جميع الخلق عن أن يأتوا بمثله[1]. وهنالك شخص ثالث من أصدقائه يدعى أبا بكر ابن حزم واسمه يحيى ولا يمتّ بالقرابة للاثنين الأولين، وقد وجّه إليه ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع التي سماها أيضاً «شجرة الفكاهة»[2]، وكانت بينه وبين القاضي ابن ذكوان علاقة طيبة، وفي أحد مجالسه عنده جيء بباكورة باقلاء فارتجل ابن شهيد أبياتاً في وصفها[3]، ولما توفي هذا القاضي رثاه ابن شهيد فقال[4]:

ظننّا الذي نادى مُحِقّاً بِمَوْتِهِ ... لعُظْمِ الذي أنحى من الرُّزْء كاذبا
وخلنا الصباحَ الطّلْقَ ليلاً وأنّنا ... هبطنا حُدارِيّاً من الحزن كاربا
ثكلنا الدّنا لمّا استقلّ وإنّما ... فقدناكَ يا خير البريّة ناعبا
وما ذهبَتْ اذ حلّ في القبرِ نَفْسُهُ ... ولكنّما الإسلامُ أدْبَرَ ذاهبا

ومن أصدقائه الخلص أبو جعفر ابن اللمائي[5] أحد أئمة الكتّاب في وقته، وقد شق علي ابن شهيد موته لأنّه نعي له وابن شهيد طريح الفراش، فكان في فقده، على أنّه صديق عزيز، إنذار لابن شهيد بسطوة الموت، فرثاه بقصيدة حزينة مطلعها[6]:

. .

١ الفصل ١ : ١٠٧
٢ انظر في ترجمة يحيى هذا كتاب الجذوة : ٣٥١
٣ النفح ٢ : ٨٠٦
٤ النفح ٢ . ٨٦٥
٥ انظر ترجمته في الذخيرة ١ / ٢ ١٣٢ والمطمح : ٢٥
٦ الذخيرة ١ / ١ : ٢٨٣ والنفح ٢ : ٩٦٠

أمِنْ جَنابِهِمُ النفحُ الجنوبيُّ أسرى فصاك به في الغورِ غاريُّ

وقد تخيّل فيها كيف مرَّ به الليل ، فسأله أذاكَ النفحُ الزاكي من أزهار فكرة اللمائي فأخبره أنَّ اللمائي مات :

فقلتُ والسقمُ منشورٌ على جَسدي يحْدو الرَّدى ورداءُ العيش مَطْوِيُّ
أهدى اللمائيُّ من أزهارِ فكرتهِ نشراً فقال الدجى مَرَّ اللمائيُّ
فقيل : ماتَ فقال الليلُ : قاربَ ذا فانهلَّ من مقلتي نوءٌ سِماكيُّ
وبتُّ فرداً أُنادي مُقلتي شَغَفاً كأنّني في نقوبِ الدارِ جِنّيُّ
لا عشتُ إن متَّ لي يا واحدي أبداً وموتُنا واحدٌ لا شكَّ مرئيُّ
إنَّ الكريمَ إذا ما ماتَ صاحبُهُ أودى به الوجدُ والثُّكْلُ الطبيعيُّ

ورثى ابن شهيد أيضاً حسان بن مالك بن أبي عبدة الوزير (– ٤٢٠) وهو من الأئمة في اللغة والأدب في أيام الدولة العامرية [١] ، وممّن لهم علاقة وكيدة بالقاضي ابن ذكوان ، وأحسب أن ابن شهيد لم يرثه لصداقة بينهما ، فقد توفي الرجل عن سن عالية ، ولكنه رثاه اعترافاً بفضله وأدبه ، فقال :

أفي كلّ عامٍ مَصْرَعٌ لعظيمِ أصابَ المنايا حادثي وقَديمي
وكيف اهتدائي في الخطوبِ إذا دجَتْ وقد فَقَدَتْ عَيْنايَ ضوء نجوم
مَضَى السلفُ الوضّاحُ إلاّ بقيّةً كَغُرّةِ مُسْوَدّ القميصِ بهيم
فإن ركبت منّي الليالي هضيمةً فقبليَ ما كانَ اهتضامُ تميم

وفيها يذكر فضله وفوائده في العلم والأدب :

كأنّك لم تَلْقَحْ بريحٍ من الحجى عقائمَ أفكارٍ بغيرِ عقيم

١ انظر ترجمته في الجذوة : ١٨٣ والمطمح : ٢٦

ولم نَعْتَمِد مغناكَ غدواً ولم نزَلْ   نؤُمُّ لفَصْلِ الحكْمِ دارَ حكيم

ومن أوثق العلاقات ما كان بينه وبين عبد العزيز بن أبي عامر ، فإليه وجّه ابن شهيد كثيراً من رسائله ومدحه بقصائد جمة ، وذكّره دالّتَهُ على العامريين ، وتحرّم بفضله ، ولم يستنكف من أن يشكو إليه حاجته أحياناً وضيق ذات يده ، وربما كان يشير إلى أيامهما معاً في قوله [1] :

سقياً لطيبِ زماننـــا وسرورِهِ   وعزيز عيشٍ مُسْعِفٍ بغزيرهِ

ومن أجمل مدائحه فيه وأطولها قصيدته التي مطلعها [2] :

هاتيك دارهُمُ فَقِفْ بمعانِيهــا   تَجِدِ الدموع تَجِدُّ في هَمَلانِها

ويطول بنا القول لو أردنا أن نحصر طبيعة العلاقات بين ابن شهيد والمقربين إليه ، فهو يخاطب في مرض موته صديقاً له يدعى أبا عمرو ، ولا شك أيضاً في أنّه كان على صلة بالكاتب أبي حفص بن برد مولى الشهيديين ، ولما مات محمد بن ربيب كان ابن شهيد هو الذي اقترح على ابن برد رثاءه ، ولم يرثه بنفسه — فيما يبدو — [3] وابن برد رثى ابن شهيد أيضاً كما رثاه أبو الأصبغ القرشي وكثيرون غيرهما [4] ، وكان من أصدقائه الذين توفوا قبله أيضاً أبو الوليد الزجالي .

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٧٦ والشريشي ١ : ١٩٤ ، ٢٣٠
٢ الذخيرة ١ / ١ : ١٧٣
٣ الذخيرة ١ / ٢ : ٥١
٤ الذخيرة ١ / ١ : ٢٨٨

علته ووفاته[1] :

بدأ مرض ابن شهيد في مستهل ذي القعدة سنة ٤٢٥ ، ولازمه حتّى قضى نحبه ، ومعنى هذا أنّه ظل مريضاً سبعة أشهر كاملة ، قاسى فيها العذاب الشديد ، ويقول ابن بسام إن الفالج غلب عليه ، ولكنه لم يقض على حركته تماماً فكان يمشي إلى حاجته على عصا مرة ، واعتماداً على إنسان مرة ، وفي العشرين يوماً الأخيرة صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع ، أما الحميدي فيقول — نقلاً عن ابن حزم — إن علته هي ضيق النفس والنفخ ، ويبدو أنهما اجتمعتا عليه معاً ، وأنّ إصابته بالعلة الثانية ترجع إلى ما قبل إصابته بالفالج ، وأن هذا المرض أي الفالج هو الذي استمر سبعة أشهر ، ولما بلغت منه الأوجاع مبلغاً شديداً همّ بقتل نفسه ، ثم آثر الرضى بقضاء الله ، وفي ذلك يقول :

أنوحُ على نفسي وأندبُ نُبْلَها ... إذا أنا في الضرّاء أزْمَعْتُ قَتْلَها
رضيتُ قضاء اللهِ في كلّ حالةٍ ... عليّ وأحكاماً تيقّنْتُ عَدْلَها

وعلى ما أصاب جسمه من وهن ، بقي ذهنه متفتحاً ، وقريحته متوقدة ، وإن الشعر الذي صدر عنه في فترة المرض وإن صدر عن نفس يائسة متألمة ، ليدل على حيوية شعرية غير عادية . ففي علته رثى ابن اللمائي — كما تقدم — وكتب قصيدة إلى ابن حزم ، تقدمت الإشارة إليها كذلك ، وفيها كتب إلى صديق له اسمه عمرو يقول :

إقر السلامَ على الأصحابِ أجْمَعِهم ... وخُصّ عمراً بأزكى نورِ تسليمِ

[1] راجع الذخيرة ١/١ : ٢٨١ — ٢٨٩

وقلْ له يا أعزَّ الناسِ كُلّهِمُ شخصاً علي وأوْلاهمْ بتكريم
اللهُ جارُك من ذي مَنْعَةٍ ظَفِرَتْ منه الليالي بعِلْقٍ غير مذموم

وكتب إلى جماعة من إخوانه يقول :

هذا كتابي وكفُّ الموتِ تُزْعِجني عن الحياةِ وفي قلبي لكمْ ذِكَرُ
إن أقْضِكمْ حقكُمْ من قلةِ عمري إنّي إلى الله لا حقٌ ولا عُمَرُ

ومن الجدير بالذكر أنّه يقرأ في هذه الأبيات الوداعية السلام على المنصور أفضل من سعى لثأر بني الإسلام وعلى ابنه المظفّر . فلا تزال صورة المجد العامري تخايل عينيه وهو على فراش المرض .

وفي علته قال أيضاً :

تأملتُ ما أفنيتُ من طولِ مُدّتي فلم أره إلا كلمحةِ ناظرِ
وحصّلْتُ ما أدركتُ من طولِ لذّتي فلم ألْفِهِ إلا كصَفْقَةِ خاسر
وما أنا إلا رهنُ ما قدَّمَتْ يدي إذا غادروني بين أهلِ المقابر

وتحدث في الأبيات عن أصدقائه الذين سيذكرونه بعد موته ، فقد كان يرتاح للذكر بعد الموت ، ثم وصف سطوة الموت نفسه ، وفي كل أشعاره تلمح هذا الأسى على فراق أصدقائه ، وموقفه منهم موقف المودع الذي يعرف أن نهايته اقتربت ، على أنّه لا يشير في الظاهر إلى خوفه من الموت ، ولكنه يتجلد في الغالب ، وآخر ما قاله مودعاً لأصدقائه :

أستودعُ اللهَ إخواني وَعِشْرَتَهُمْ وكلَّ خِرْقٍ إلى العلياء سبّاقِ
وفتيةً كنجومِ القَذْفِ نَيّرُهُم يهدي ، وصائبُهُمْ يُودي بإحراقِ

ثم يقول مشيراً إلى صديق حميم :

وكوكباً لي منهمْ كان مَغْرِبُـهُ   قلبي ومشرقُه مـا بَيْنَ أطواقي
اللهُ يعلـمُ أنّي مـا أُفارِقُـهُ   إلا وفي الصدرِ منّي حرٌّ مُشْتاقِ
كنّا أليفينِ خانَ الدهرُ أُلْفَتَنـا   وأيُّ حُرّ على صَرْفِ الرَّدَى باقِ

وقد أوصى قبل وفاته بهذه الوصايا :

أ — أن يصلي عليه الرجل الصالح أبو عمر الحصار (فتغيب إذ دعي وصلى عليه جهور بن جهور أبو الحزم صاحب قرطبة حينئذ) .

ب — أن يسن التراب عليه دون لبن أو خشب (فلم ينفذ هذا أيضاً) .

ج — أن يدفن بجنب صديقه أبي الوليد الزجالي .

د — أن تكتب هذه الكلمات على قبره : بسم الله الرحمن الرحيم قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب . مات وهو يشهد أن لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له . وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنّة حق وأن النّار حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور [ثم تاريخ الوفاة بالشهر والسنة] ويكتب تحت النثر هذا النظم :

يا صاحبي قمْ فقد أطَلْنـا   أنَحنُ طولَ المَدى هُجُودُ
فقال لي : لن نقومَ منهـا   ما دام من فوقنا الصَّعيد
تذكرُ كم مرّةً لَهَونَا   في ظلّها ، والزمانُ عيد
وكم سرورٍ هَمَى علينـا   سحابـةً ثَرَّةً تَجُـود
كلٌّ كأنْ لمْ يكنْ تَقَضَّى   وَشُؤمُـهُ حاضرٌ عتيـد
حَصَّلَـهُ كاتبٌ حفيـظٌ   وَضَمَّهُ صادقٌ شَهيـد
يا ويلنا إن تَنَكَّبَتْنـا   رحمةُ مَنْ بَطْشُهُ شديد
يا ربِّ عفواً فأنت مولى   قَصّر في أمرِكَ العبيـد

وكان أبو عامر شديد الخوف من الموت ، ومن شدة السوق ، فأخذ يدعو الله عزّ وجل ويشهد شهادة التوحيد ، ويرغب إلى الله أن يرفق به ، حتى أسلم الروح ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ٢٤٦ هـ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أم سلمة ، ولا عقب له ، وتكاثر الناس في جنازته، وكثر البكاء والعويل عند قبره ، وأنشدت جملة من المراثي .

صفته وأخلاقه وثقافته :

كان ابن شهيد أصم ، ومن فكاهات ابن الحناط أنّه حين سئل : كيف كان هشام المعتد ؟ قال : يكفي من الدلالة على اختياره أنّه استكتبني واتخذ ابن شهيد جليساً ، وكان ابن الحناط أعمى ، وابن شهيد أصم[1] ، ولما كان ابن عباس يترنم بقسيم من الشعر لم يسمع ابن شهيد ما كان يقول واضطر أن يسأل أحد الجماعة ليُسمعه ما كان يترنم به . وكان أيضاً أطلس والدليل على ذلك قوله في رسالة التوابع والزوابع على لسان صاحب عبد الحميد الكاتب « أهكذا أنت يا أطيلس ، تركب لكلٍّ نهجه ، وتعج إليه عجّه ؟ فقلت : الذئب أطلس وإن التيس ما علمت »[2] . وهذا كل ما نعرفه من صفاته الجسمانية ، وربما كان لصممه أثر بعيد في تكييف علاقاته بالناس ، ومحاولته الترفع عن نظرائه ومعاصريه ، وإساءة الظن فيهم .

وقد اشتهر بين معاصريه بخلال أربع :

الأولى : ميله إلى اللهو والبطالة « فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة ، فحطّ في هواه حتى أسقط شرفه ووهم نفسه راضياً في ذلك بما

---

١ المغرب ١ ١٢٣

٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٣٠

يلذه . فلم يقصر عن مصيبة ولا ارتكاب قبيحة »[1] ، وقال الحجاري في وصفه « كان ألزم للكأس من الأطيار بالأغصان ، وأولع بها من خيال الواصل بالهجران »[2] .

الثانية : إسرافه في الكرم حتى كان لا يَليق شيئاً ، وأشرف في أواخر أيامه على الإملاق ، وكانت عند أهل قرطبة قصص مشهورة عن جوده وسخائه تلحق بالأساطير ، من ذلك تلك القصة التي رواها صاحب المطرب عن رجل من طليطلة قصد أبا عامر فألفى لديه صنوف الإكرام . بل وهبه أبو عامر داراً في قرطبة ومركباً وخادماً ونعماً كثيرة وفرشاً وثيرة[3] .

الثالثة : عزة النفس المصحوبة بالعجب ، وقد تنازل عن عزة النفس في حالات إعساره ، ولكنّه كان يقهر نفسه بحيث لا تستشعر الندم على فائت ، وكثيراً ما يتمدح بعزته النفسية في شعره تمدُّحه بالكرم فيقول :

والنفسُ نفسٌ مِنْ شُهَيْدٍ سِنْخُها سِنْخٌ غَذَتْ منه العُلا بِلبانِها

ومصدر عجبه شيئان : نسبه الشهيدي الأشجعي :

من شُهيدٍ في سرّها ثم من أشْ جَعَ في السرّ مِنْ لبابِ اللباب

واقتداره على النثر والشعر، اقتداراً يرى كل معاصريه وكثيراً من غير معاصريه دونه، وقد قال له أصحابه ذات مرة : « إنك لآت بالعجائب وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنّك شديد الإعجاب بما يأتي منك »[4] .

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٢
٢ المغرب ١ : ٨٥
٣ المطرب : ١٤٧ — ١٤٨
٤ الذخيرة ٤ / ١ . ٢٧ والنفح ٢ : ٨٠٧

الرابعة : الفكاهة ، والميل إلى الهزل ، وأكثر ما بقي له من هذا يشير إلى حدة في الطبع ، وحرارة في الأجوبة ، وهجوم على التعريض الكاوي ، والألفاظ المقذعة، وهو شيء تبرزه رسائله لا أشعاره، فإن الفكاهة في شعره قليلة أو معدومة ، وخصوماته الأدبية كثيرة ، وهي معرض لهذه الحدة الممزوجة بالتندر ، إلاّ أنّه كان – على إعجابه وحدته – محبباً إلى نفوس أصدقائه ، يأنسون بمجلسه ويغترفون من كرمه ، ويقضون الوقت في داره طاعمين شاربين أو متنزهين في البساتين أو متحدثين في جامع قرطبة . على أنّه بعد ذلك دائم التبرم من الزمان لأنّه لم ينصفه وقدّم غيره ، محقّر لأكثر الملكات الأدبية في بلده ، زارٍ على النشاط الثقافي فيه ، ولعل انصرافه إلى اللذة وتبطله مقترن أولاً بيأسه من أحوال قرطبة بعد الفتنة ، متصل أيضاً بفرقه الشديد من الموت ، وقد كان يؤمن بأنّه عبقري ، وأنّه لا يعمر طويلاً ، وقد قال فيه جني أبي الطيب [1] : « إن امتد به طلق العمر فلا بد أن ينفث بدرر ، وما أراه إلا سيحتضر ، بين قريحة كالجمر ، وهمة تضع أخمصه على مَفْرِق البدر » . ولعل نقمته على الحياة وقلّة احتفاله بجد الأمور ازدادتا حينما وجد أنّه لا يعيش له أبناء ، ولا ندري كم رزق منهم ، ولكنّه رثى بنيّةً له ماتت صغيرة ، بقصيدة منها [2] :

أيها المعتدُّ في أهْـلِ النّهَى لا تَذُبْ إثرَ فقيدٍ وَلَهَا

وفيها يقول :

وإذا الأُسْدُ حَمَتْ أغيالَهَــا لم يضرَّ الخيسَ صرعاتُ المَها

. . . .

١ الذخيرة ١/١ : ٢٢٨

٢ الذخيرة ١/١ : ٢٢٤

وغريبٌ يا ابنَ أقمـارِ العُـلا أنْ يُرَاعَ البدرُ مِنْ فقْدِ السُّها

وجل اعتماده في شعره على شحذ قريحته ، لأن ثقافته لم تكن عميقة ولا واسعة الأطراف ، وقد قرأ وحفظ كثيراً من شعر المشارقة ونثرهم ، فعرف بشاراً وأبا نواس وصريع الغواني وأبا تمام والمتنبي وعبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون وقابوس بن وشمكير وبديع الزمان ، وقرأ كثيراً من آثارهم ، ولم يزد إلى ذلك ثقافة في فنون أخرى علمية سوى ثقافته الأدبية الخالصة ، ولما توفي لم توجد لديه كتب إلا القليل [١] . وقد قال في التوابع والزوابع إنّه جلس في صغره إلى الأساتيذ ، غير أنّه لم يسم أحداً منهم ولكنه افتخر إلى جانب ذلك بأن « يسير المطالعة من الكتب » يفيده . وتهكم بسعة الاطلاع في الرسالة المذكورة حين سأله تابع ابن الأفليلي: على من قرأ ، ولمّا قال له: فطارحني كتاب الخليل ، قال له : هو عندي في زنبيل [٢] .

شعره :

ليس في الأندلسيين الذين درسنا شعرهم حتّى عصر ابن شهيد من كان أكثر منه توقداً في القريحة ، وأنفذ بصراً في نقد الشعر . وقد يدانيه ابن حزم وابن حيان المؤرخ في الحدة الذهنية ، ثم تفترق السبيل بهؤلاء فيذهب كل في طريقه ، وهو — في الشعر — خير ثمرة لمدرسة القالي الّتي جنحت إلى القوة والجزالة البدوية ، بينما هو في النثر تلميذ نابه للجاحظ وبديع الزمان . وقد استطاع أن يفصل بين شعره ونثره ، فلم يكن كابن دراج الذي بنى القصيدة على طريقته الكتابية ، ولم يجمع ابن شهيد بين الطريقتين إلا في القليل النادر ،

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٦٢ والمغرب ١ : ٧٨
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٣٤

وذلك في بعض الموضوعات التي استحسنها له معاصروه في النثر ، كوصف النحلة وصفة البرغوث ، فإنّه عاد يعالج مثل هذه الموضوعات في شعره[1] ، وهو أقل شعره قيمة . وقد أثرت فيه نظرته النقدية لأنّها جعلته على وعي بما يريد أن يصنعه في الشعر — كان يعرف التطور الذي أصاب الشعر بعد صريع الغواني وبشار وأبي نواس وكيف أسرف أبو تمام في التجنيس « وطاب ذلك منه وامتثله الناس ، فكل شعرٍ لا يكون اليوم تجنيساً أو ما يشبهه تمجه الآذان . والتوسط في الأمر أعدل »[2] ، وهذا قد يدل على الطريقة التي انتهجها في نظرته إلى البديع ، وأنّه سلك في شعره مسلكاً متوسطاً ، في هذا الاتجاه . بل إن قارىء شعره ليحس أنّه يصف مذهبه حين يقول : « ومنهم الكارع في بحر الغزارة ، القادح بشعاع البراعة ، الذي يمر مر السيل في اندفاعه . والشؤبوب في انصبابه ، لا يشكو الفشل ، ولا يكلّ على طول العمل »[3] ، وابن شهيد قد بنى شعره في أكثره على هذا الاندفاع الجامح ، والحدة العارمة ، حتى ليجد من يقرأ شعره أنّه في حدة غاضبة لا تكاد تهدأ . وهو يقر أنّه يتعمد استعمال وحشي الكلام غير أنّه لا يجعله نابياً في شعره لأنّه يحسن وضعه في مواضعه[4] ، بل إن ابن شهيد الناقد هو الذي اختار للناس روائع شعره ووضعها في أيديهم ليشهدوا له أو عليه ، وذلك في رسالة التوابع والزوابع ؛ فبالإضافة إلى ما تحتويه هذه الرسالة من فكاهة وتندُّرٍ بابن الأفليلي وبعض خصوم ابن شهيد في قرطبة ، وما تثيره من تخيلات في عالم الجن ، تعرض محاسن شعر ابن شهيد التي يراها خير ما يقدم من الشعر ، إزاء شعر المشرق . وتكشف

١ انظر أمثلة من ذلك الذخيرة ١ / ١ : ١٨٥
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٣
٣ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٤
٤ الذخيرة ١ / ١ . ٢٠٠

هذه الرسالة أيضاً عن سر ابن شهيد نفسه في مذهبه حين تقف به عند شاعر شاعر ، محاولاً التفوق على مشاهيرهم ، ما عدا المتنبي . فهو يعارض عمر ابن أبي ربيعة في رائيته ، وطرفة في قصيدة له لامية ، وقيس بن الخطيم في قصيدته الحماسية التي يقول فيها :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءها

ثم يعارض المحدثين كالبحتري وأبي نواس ، ويتهيب أن ينشد المتنبي ثم يسمعه عدداً من قصائده — دع ذكر الناثرين — ، ثم تطلعنا كيف كان المعنى الواحد من معاني هؤلاء المتقدمين يذهب ويجيء في نفسه ، ويدهشه أحياناً ثم لا يلبث أن ينشقّ خاطره عن معنى مولّدٍ منه . فقد ملك إعجابه — مثلاً — قول امرىء القيس :

سموتُ إليها بعدَما نامَ أهلُها سُمُوَّ حَبابِ الماء حالاً على حالِ

وافتتن به ، ورأى عمر بن أبي ربيعة قد حاوله فقصّرَ عنه حين قال :

وَنَفَضْتُ عنّي النومَ أقبلتُ مِشْيَةَ الـ حُبابِ ورُكْني خيفةَ القَوْمِ أزْوَرُ

وظلّ يتأمل هذا المعنى حتى بدا له من وجوهه ما مكنه أن يقول :

ولمّا تملّأ مِنْ سُكْرِهِ فنامَ ونامَتْ عيونُ العَسَسْ
دنوتُ إليه على بُعْدِهِ دُنُوَّ رفيقٍ درَى ما التَمَسْ
أدبُّ إليه دبيبَ الكرَى وأسمو إليهِ سُمُوَّ النَفَسْ

وظلّ معنى أبي الطيب :

أأخلعُ المجدَ عن كتفي وأطلُبُهُ وأتركُ الغيثَ في غِمْدي وأنْتَجِعِ

– ظلّ يحيك في نفسه حتى استطاعَ أن يقول :

وَمِن تحت حِضْني أبيضُ ذو سَفاسِق   وفي الكفّ من عَسّالة الخطّ أسْمَرُ
فذا جدولٌ في الغِمْدِ تُسقى به المُنى   وذا غُصُنٌ في الكفّ يُجنى فيُثْمِرُ

وأقلقه بيت أبي الطيب :

وأظْما فلا أُبْدي إلى الماء حاجةً   وللشمسِ فوقَ اليَعْمُلاتِ لُعابُ

حتى قال ، وأُعجب بقوله :

إذا الشمسُ رامتْ فيه أكلَ لحومنا   جرَى جَشَعاً فوق الجيادِ لُعابُها

ويستشفُّ من رسالته هذه أن المتنبي هو الرمز الكبير الذي كان يأسره ويملك إعجابه ويدفعه إلى المحاكاة وتوليد المعاني . وقد أدى ابن شهيد كل ذلك ولم يضعف لأنّه بنى شعره كما تقدم على الاندفاع والعنف والغضب ، ولم تقصر به المحاكاة ، وأبرز توليد المعاني منه شاعراً متوقد القريحة، لماحاً، مجدداً للصور – كان عيبه الكبير هو ميزته الكبرى أعني شعوره بأنّه متفوق على كل شاعر ، وأنّه يستطيع أن يساوي المتنبي إن لم يتفوق عليه . وكثرت عليه الروافد من هنا وهناك ، فمضى يروض قريحته على الاضطلاع بهذا العبء الكبير، بل إنّه لا يطيق أن يثني الناس على قطعة شعرية لأبيه ، فبعد أن روى القطعة السابقة التي منها « قهقه الإبريق مني ضحكا . . . » قال[1] : « فإن استهل الطاعن صارخاً ، وقال : هكذا الشعر وهكذا الطبع وهكذا الماء رقة وعذوبة والهواء لطافة وسهولة . . . قلنا له :

[1] الذخيرة ١ / ١ : ١٧٧

أذّنَ الديكُ فَثِبْ أوْ ثَوِّبِ وانْضَحِ القلبَ بماء العِنَبِ»

ومضى يروي قصيدة له ، يرى أنها لا تقصر عن مقطوعة أبيه .

ومن رياضة القريحة وكدها ، أطاعه القول وأسمح ، وليس هناك من كان يجمع بين الميزتين كابن شهيد،أعني بين التعب الذي يتكلفه في الإحاطة بالمعاني وانتقاء الألفاظ ، وبين سرعة البديهة والقدرة على الارتجال . وقد عرف فيه أصحابه ذلك فكانوا يعقدون له المجالس ويمتحنونه في القول على البديهة — ذلك ما فعله الوزير ابن عباس حين قدم قرطبة ، ومثل ذلك أيضاً قام به جماعة من أصحابه . حين طلبوا إليه أن يصف مجلساً سمجاً رديء الهيئة فيه باب غريب معرض، ولبد أحمر مبسوط على الأرض. وقد خلعوا نعالهم على إحدى حواشيه ، فقال بديهة قطعته التي مطلعها[1] :

وفتيةٍ كالنجومِ حُسْناً كُلُّهُمُ شاعرٌ نبيلُ

ومنها في صفة المجلس :

في مجلسٍ شابَهُ التّصابي وطاردتْ وَصْفَهُ العُقُولُ
كأنّما بابُهُ أسيرٌ قد عَرُضَتْ وَسْطَهُ نُصُولُ
ينظرُ من لِبْدِهِ لدينا بحرَ دمٍ تحته يسيلُ
كأن أخفافَنا عَلَيه مراكبٌ ما لها دليلُ

واجتاز يوماً بحانوت بعض معارفه من الطرائفيين وبين يديه رامشنة جميلة في زنبيل ملآن حرشفاً فجعل الطرائفي يده في لجام دابة ابن شهيد وقال : صف هذا يا أبا عامر فإن صاعداً رام وصفه فلم يأت بشيء ، فقال ابن

١ الذخيرة ٤/١ : ٢٧

شهيد وهو على ظهر دابته[1] :

هل أبْصَرَتْ عَيْناكَ يا خليلي | قنافذاً تُباعُ في زَنْبيـلِ
من حُرْشُفٍ مُعْتَمَدٍ جليلِ | ذي إبَرٍ تنفذُ جلدَ الفيـلِ
كأنّها أنيابُ بنتِ الغُـولِ | نُقْلُ السخيفِ المائقِ الجَهُولِ

إلى آخر الأرجوزة . وارتجل مرّة أخرى وصف طبق من الباقلاء في مجلس ابن ذكوان . وامتحان أصدقائه له لا يدل على إعجابهم بقدرته فحسب ، بل ربما أشار ضمناً إلى شيء من ريبتهم — أول الأمر — فيما ينتجه من شعره ، حتّى كان بعضهم يقول إذا سمع شعره أو نثره : إنّه ليس له ، وقوله التالي يشير إلى هذا الاتّهام[2] :

وبُلّغْتُ أقواماً تجيشُ صُدورُهُمْ | عليَّ وإنّني منهمُ فارغُ الصَّدْرِ
أصاخوا إلى قولي فأسمعتُ مُعْجِزاً | وغاصوا على سِرّي فأعياهُمُ أمري
فقال فريقٌ : ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ | وقال فريقٌ : أيْمنُ اللهِ ما نَدْري

ولا ريب في أن اتّهامهم له بالانتحال مبنيّ على الحسد ، وإن كان اتّهاماً لا يعدم حظّاً ضئيلاً من الصواب . وقد غطّى على محاكاته وأخذه بعض المعاني من غيره ، أنّه يحاول دائماً أن يكون مبتكراً مجدداً ، يضيف إلى ما يأخذه ، أو يبتكره معنى أو صورة جديدة . وربما لم يكن من الغلوّ أن أميزه بكثرة الصور المبتكرة ، لا بين شعراء الأندلس فحسب بل بين شعراء المشارقة أيضاً ، ومن ذلك :

فكأنَّ النجومَ في الليلِ جيشٌ | دخلوا للكمونِ في جَوْفِ غابِ

١ الذخيرة ٤/١ : ٢٨
٢ الذخيرة ١/١ : ٢٣٣ والشريشي ١ : ٤٦

وكأنّ الصباح قانصُ طـيرٍ　　قبَضَتْ كفُّهُ برِجْلِ غُرابِ

ففي البيتين صورتان هما الغاية في الطرافة ، وصورة الصباح منهما تدل على دقة عجيبة في الرسم والتجسيم معاً . ومن صوره أيضاً :

ورعيتُ مِنْ وَجْهِ السماء خميلةً　　خضراءَ لاحَ البدرُ من غُدْرانها
وكأنّ نَثْرَ النجمِ ضأنٌ وَسْطَها　　وكأنّما الجوزاء راعي ضانِها

فتصور القمر غديراً من تخيلات ابن شهيد الخاصة ، أمّا رؤية النجوم في شكل ضأن أو صوار فهي متوفرة في الشعر القديم . كشعر ذي الرمة ، وقد أضاف إليها ابن شهيد جعله الجوزاء راعياً وجمع بين البيتين لتمام منظر واحد .

ومن غرائب ذلك قوله في الغزل .

فتَمَشَّتْ نحوي وقد مُلّكْتُها　　مِشْيَةَ العُصْفُورِ نَحْوَ الثّعْلبِ

وتتساند الموسيقى الهادرة مع الصور المنظورة في شعره ولكنّه إلى الثانية أكثر ميلاً ، فإذا تحدث عن الأصوات كانت مدوية أو مزمجرة ، أي قوية شديدة ، ولعل لذلك صلة بثقل سمعه . ولذلك أيضاً – فيما أعتقده – يرتاح إلى المرثيات أكثر . ولا يستطيع أن يبعث في شعره موسيقى خفيفة إلا نادراً . وإن كان يتحدث عن التلذذ بالغناء وصوت المزاهر والكيثار وغيرها . ومن الطريف في هذا – وهو الأصم – ميله في الشعر إلى الحوار (راجع قصيدته في رثاء ابن اللمائي) ومن ذلك قوله :

قلتُ : هبْ لي يا حَبيبي قبلةً　　تَشْفِ من عَمّكَ تبريحَ الصَّدى
فانثنى يهتزُّ مـن منْكبِـه　　قائلاً : لا ، ثمّ أعطاني اليدا

. . . .

قال لي يلعبُ : خُذْ لي طائراً   فتراني الدهرَ أجري بالكَدا
وإذا استنجزتُ يوماً وَعْدَهُ   قال لي يَمْطُلُ : ذكّرْني غَدا

ولكن حديثه كثيراً ما يكون مناجاة بينه وبين نفسه أو حكاية على لسان أشياء لا تعقل كهذا الحوار بينه وبين الغمام :

وغمامٍ باكرَتْنا عَيْنُهُ   تُتْرِعُ الأفْقَ بدمعٍ صَيِّبِ
فسألناه وقد أعجبَنا   حَشْوُهُ العينَ بمرأًى عَجَبِ
أنت ماذا ؟ قال : مُزْنٌ علَّمَتْ   كَفُّهُ النَّجْعَةَ كفّا دَرِبِ
سامَنِي بالشرق أن أسقيَكُمْ   رحمةً منهُ بأقصى المغربِ
فسألناه : أبِنْ ذاكَ لنا   قال : هل يخفى ضياء الكوْكَبِ؟

وأكثر شغفه بالصور السابحة المعتلية عن مستوى الأرض المقترنة بالجو أو بالنجوم أو بالطيور أو بظهور الخيل . وهو يتصور نفسه على ارتفاع . ومردُّ هذا كله إلى شعوره بالاستعلاء بالنسبة لمن حوله . وإلى خوفه من الموت . حتى إنّه حين تصور قدوم الموت تمنى قائلاً :

تمَنّيْتُ أني ساكِنٌ في غَيابَةٍ   بأعلى مَهَبِّ الرّيحِ في رأسِ شاهقِ

وقد كان في حياته — لا شعوريّاً — يعيش في رأس شاهق، والرياح تجأر من حوله ، كان جواداً والناس حُمُر ، فإذا أحس أن زمانه لم ينصفه أسِيَ لذلك الجواد الذي كبا فنهقت الحمير تضحك منه :

وكبوتُ طِرْفاً في العُلا فاستضحكت   حُمُرُ الأنامِ فما تريمُ نُهاقَها

إلا أن همته في السماء رغم تقصير حظه :

هِمّةٌ في السماء تَسْحَبُ ذَيْلاً   من ذيولِ العُلا وجدٌّ كابي

وهو يأسى كثيراً على المعتدّ ؛ ويقول :

وَحَمَلْتَنِي كالصقرِ فوق معاشرٍ   تحتي كأنهمُ بناتُ الماء

بل إن بحر بيانه إذا طما ، بلغ جدولٌ منه في مَدّهِ قرْنَ الشمس :

ولمّا طمى بحرُ البيانِ بفكرتي   وأغرقَ قرنَ الشمس بعض جداولي

وتشيع هذه الصور السابحة المعتلية في شعره ، فتنقله عن الأرض . وتبعده عن القبر ، وعن الناس ، وهذا الطيران هو الذي طاف به على ديار الجن « وسار كالطائر يجتاب الجو فالجو » ، وهذه هي صورة الأديب الحق لديه – « كاللَّقْوَةِ في المرقب ، سامٍ نَظَرُهُ ، قد ضم جناحيه ووقف على مخلبه لا تتاح له جارحةٌ إلا اقتصّها ولا تنازله طائرة إلا اختطفها ، جرأته كشفرته ، وبديهته كفكرته » . ومن ثم تعجبه صور النجوم في حيرتها أو تعلّقها وصورة الليل :

تراهُ كمَلْكِ الزّنجِ في فَرطِ كِبْرِهِ   إذا رامَ مشياً في تَبَخْتُرِهِ أبْطا
مُطِلاً على الآفاق والبدرُ تاجُهُ   وقد علّقَ الجوزاءَ في أُذْنِهِ قُرْطا

فإذا ترك هذه الصورة ، بقيت الموسيقى العامة في شعره تصور التحدر والاندفاع ، مستعيناً على ذلك ببعض الجناس ، كقوله :

قَضَتِ النّوَى بذيادِ رُجّحِ عِينِهِمْ   ظُلْماً وكان الدهرُ من أعوانها
زَجَرُوا اغتراباً من نعيبِ غُرابِهِمْ   وقَضَوْا ببينٍ من مُغَرِّدِ بانِها

ويصبح شغفه بالجناس أحياناً ضرباً من التكلف خارجاً عن حد الاعتدال ، كما أن شغفه بالموسيقى الصاخبة يتملكه أحياناً فينسى كل ما عداه كما في قوله :

كتبوا بنِقْسِ المِسْكِ في كافورِهِ وتَكفُّري برداءِ وصلٍ مُقَرْطَقٍ
بعبيرِهِ ، مُتَضَمِّخٌ ، مترنّحٌ بفتُورِهِ مُتَلَفِّعٌ بحريرِهِ
فشربتُها وسمعتُ مِنْ طُنْبورِهِ وسُنانُ ناولَني مُدامةَ طَرْفِهِ
يستفُّ بالصحراء حَبَّ بَريرِهِ يدعو بِلُكْنَةِ بربريّ لم يَزَلْ
بردائِهِ متلفّعٌ في عيرِهِ متقدمٌ بمضائِهِ متكلمٌ

ومع ذلك فإن وراء هذا الثوب من الصنعة ، روحاً بدوية ، تجعل ابن شهيد أقرب الأندلسيين شبهاً بشعراء المشرق ، الذين ينسجون في عالمهم الحضاري على نماذج الجاهلية وصدر الإسلام ، وتحسُّ مثل ذلك في قوله :

فتنشّقا النَّفَحاتِ من ظَيّانِها يا صاحبيَّ إذا وَنَى حاديكُما
شَفَعَ الشبابُ فكنتُ إلفَ حِسانِها وَخُذا لِمُرْتَبَعِ الحِسانِ فَرُبَّما
مِنْ صَبْوَتي وطويتُ من أزمانِها عاودتُ ذكرَ العيشِ فيه وما انْقَضَى
وشبيبةً أخلقتُ مِنْ ريعانِها فبكيتُ من زمنٍ قطعتُ مراحلاً

وابن شهيد غير مقصر في موضوعات المدح والرثاء متفوق في الأوصاف والخمريات والمجونيات والإخوانيات والأهاجي ، إلاّ أنّه يفتقد العمق الذي تجده عند الغزال ، كما أنّه بريء من الغموض العسر الذي شاب أشعار ابن دراج ، وتفوق في الحدة والاندفاع في الشعر على كل من سبقه من شعراء الأندلس . وقد عابه معاصروه بشيئين : الانتحال والتطويل ، وكان هذان الاثنان — بالمعنى الذي يفهمه ابن شهيد — من مصادر تفوقه .

٣ ـ ابن حزم
أبو محمد علي بن أحمد بن سعيا
٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ.

الجذوة : ٢٩٠	البغية رقم : ١٢٠٤	الصلة : ٣٩٥
طبقات الأمم : ٨٦	المغرب ١ : ٣٥٤	الذخيرة ١ / ١ : ١٤٠
المعجب : ٣٠	النفح ١ : ٣٦٤	تذكرة الحفاظ ٣ . ٢٤١
النجوم الزاهرة ٥ : ٧٥	شذرات الذهب ٣ ٠ ٢٩٩	
تاريخ الحكماء للقفطي : ١٥٦		

كان أكثر الثلاثة تأثراً بالفتنة . وأعمقهم إحساساً بالتغير الذي أحدثته . لأنها فاجأته وهو شاب في ظل النعيم وحياة القصور . وأخرجته من نعمته وثرائه ووطنه ، وغيرت مجرى حياته ، حتى إن الناظر إلى حال ابن حزم في نشأته الأولى وحاله بعد خراب قرطبة ، ليدهش لما أصاب خط حياته من انكسار ، غير أنّه لم يتخاذل للانقلاب ، فاستنقذ نفسه من إسار الماضي ، وتجلد بقوة وهو ينظر إلى المجد الزائل ، وإذا ابن حزم الشاب المترف شخصية جديدة ، قوية جبارة ، تمزج القوة بالمرارة ، وإذا هو يولد من جديد ، ليمي ملكاته المدهشة في خدمة مجتمعه ، بعد أن كان هشاً في عهد الشباب يعيش لنفسه . إن حياة ابن حزم صورة للإرادة التي لا تعرف التردد والضعف ، وصورة لليقظة النفسية التي أثارتها الفتنة .

اختلف الباحثون المحدثون في نسبه : فذهب دوزي وجولدتسيهر إلى القول بأن جده أو والد جده لم يكن عربياً ولم يولد مسلماً ، وإنّما اعتنق

الإسلام ، ومثل هذا الرأي يعتمد على إشارة لابن حيان قال فيها « فقد عهده الناس خامل الأبوّة ، مُوَلّد الأرومة ، من عجم لبلة ، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام »[1] ، أما تلميذه الحميدي فيقول إن أصله من الفرس وجده الأقصى في الاسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان[2]؛ وقد رددت أكثر المصادر هذا الرأي ، وسخر معاصره ابن حيان من هذه الدعوى : وذهب إلى أن والده أحمد بن سعيد مؤسس مجد يغنيه عن النسب والسابقة « ولم يكن إلاّ كلا ولا حتى تخطّى عليّ هذا رابية لبلة . فارتقى قلعة اصطخر من أرض فارس ، فالله أعلم كيف ترقاها ، إذ لم يكن يؤتى من خَطَلٍ ولا جهالة »[3] . وقد ذكر ابن حزم نفسه نسبته إلى الفرس ، وافتخر بها في إحدى قصائده كما افتخر بولائه لبني أمية ، فقال[4] :

سَما بيَ ساسانٌ ودارا وبَعْدَهُمْ ... قُرَيْشُ العُلَى أعياصُها والعَنابِسُ
فما أخّرَتْ حَرْبٌ مراتبَ سُؤدَدي ... ولا قَعدتْ بي عن ذُرَى المجد فارس

وكلا النسبين لا يدعيان النسبة إلى العرب . ولكن الفرق بينهما أن الثاني يمنح ابن حزم عدداً كثيراً من الآباء المسلمين ويجعل لأسرته جذوراً راسخة في الإسلام ، أما الأول فيقصر علاقته بالإسلام على جده الأدنى . أو والد جده — على الأكثر — . وقد مال لهذا الرأي عدد من الباحثين لأنّه يصل ابن حزم بالمسيحية أو بالاسبانية عموماً ، رغبةً منهم في أن يدرسوه على ضوء الوراثة القريبة ، ولكني أميل إلى ترجيح النسبة الفارسية . لأنّ اتهام ابن

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٤٢
٢ الجذوة : ٢٩٠
٣ الذخيرة ١ / ١ : ١٤٢ — ١٤٣
٤ انظر الملحق من ديوان ابن حزم

حزم في نسبه الفارسي إنّما صدر عن رجل ميال للذم والثلب . هو ابن حيان المؤرخ ، ولا يبعد أن يكون انعدام السابقة والأولية قبل صعود نجم أحمد بن سعيد ، والد أبي محمد ، هو الذي أوحى بهذا الاعتقاد ، ثم إن ابن حزم أتقى لله من أن يلفق لنفسه نسباً غير نسبه . وليست وراء هذا التلفيق غاية كبيرة لرجل يرى أن الناس يتفاضلون بأعمالهم لا بأنسابهم . وقد نسب نفسه إلى الولاء . وكان هو وأبوه كلاهما ميالاً لبني أمية في عهد العامريين . ولم يكن هذا الميل ليكسب لهما رضى العامريين ، ولا بد أن يكون في صدق الولاء القديم ما يدفعهما إلى مثل ذلك ، وقد دهش ابن حيان نفسه من هذه الموالاة . كما دهش من أن يكون ابن حزم مدعياً في نفسه ، إذ لا يعرف عليه خطل أو جهالة .

وأياً كان الأمر فإن والد علي وُلد بقرية من عمل لبلة تسمى منت لشم ويقول آثن بلاسيوس انها تقابل ما يسمى اليوم كاسا مونتيخا (Casa Montija)[1] . ثم هاجر منها إلى قرطبة ، ليتثقف ، فنال من الثقافة ما أدهش معاصريه . وكان زميلاً لابن أبي عامر وبينهما بعض المنافسة ، إلا أن هذه المنافسة لم تمنع الحاجب من الاستفادة من مواهب أحمد بن سعيد ، فاتخذه أول وزير له سنة ٣٨١ ، « واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصيّر في يده خاتمه ، فلما تناهت حاله في الجلالة وأمّلته الخاصة والعامة اتّهمه المنصور بأنّه قد زها عليه برأيه وآنس منه عُجْباً بشأنه . فصرفه عن الوزارة ، وأقصاه عن الخدمة ، دون أن يغير عليه نعمة . وكان يقول : « والله إن ابن حزم للنصيح جيباً ، الأمين غيباً ، ولكنّه زها برأيه وظنّ أن سلطاني مضطرٌ إلى تدبيره » . فتردّد في نكبته ، ثم أخرجه لينظر في كور الغرب باسم الإقامة فرئم العزلة

١ انظر نكل ٠ ٧٥

وتبرأ من الدالة . فلمّا زكن المنصور ذلك منه أعاده إلى حُسْنِ رأيه فيه وصرفه إلى خطته »[1] .

وكان يجمع إلى سعة العلم قوّة في البلاغة ، وممّا يدل على مذهبه الكتابي قوله في بعض المناسبات : « إنّي لأعجب ممّن يلحن في مخاطبة ، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة ، لأنّه ينبغي إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره ، فالكلام أوسع من هذا »[2] .

وقد تأثّر عليّ بشخصية والده ، وظلت له في نفسه صورة جميلة لم تطمسها الأيام ، لأنّه فقده وهو في أول شبابه ، يوم كان محتاجاً إلى رأيه وتوجيهه . ولذلك ظل وفياً لما سمعه من إرشاداته ونصائحه . وظل يذكر قوله له[3] :

إذا شئتَ أنْ تحيا غنياً فلا تكنْ   على حالةٍ إلاّ رضيتَ بدُونها

وفي مجلس والده تعرّف على كثير من الرجال كأبي عمر أحمد بن حبرون[4] وروى عنهم ، وأفاد ممّا كان يسمعه منهم . ومن الوصايا التي أثرت في نفسه وظل يكيف حياته بمقتضاها قولة لأبي عبد الله محمد بن إسحاق الزاهد ، كان يقولها لأبيه الوزير على سبيل الوعظ وهي : « احرص على أن لا تعمل شيئاً إلاّ بنية فإنّك تؤجر في جميع أعمالك . فإذا أكلت فانوِ بذلك التقوى لطاعة الله ، وكذلك في نومك وتفرجك وسائر أعمالك ، فإنّك ترى ذلك في ميزان حسناتك »[5] . وفي مجلس أبيه كان يستمع إلى الشعراء الذين

. . . .

١ اعتاب الكتاب : ٦٩
٢ الجذوة : ١١٨ ، وانظر ترجمته أيضاً في الصلة : ٣٠
٣ الصلة : ٣١
٤ الجذوة · ٥٩
٥ الجذوة : ٤١

يمدحون الوزير ويحفظ ما يستجيده من أشعارهم[1]. وقد كان والده أيضاً أحد مصادره الشفوية في التاريخ لأنّه كان يقص عليه بعض الأحداث التي شهدها في وزارته للمنصور بن أبي عامر كما أن والده كتب كتاباً ضخماً في التاريخ أيضاً . ولذلك كان ابن حزم — عن طريقه — مطلعاً على كثير من دقائق الأمور التي تجري في بلاط المنصور أو في معاركه[2]، وهذه الثقافة هي التي حببت إليه الاستكثار من الرواية التاريخية ، وميزته بالمعرفة الدقيقة للأخبار .

ولكن قبل هذا كلّه قضى علي فترة طفولته وصباه حتّى بلغ حد الشباب بين الجواري . فهن اللواتي علمنه القرآن وروّينه كثيراً من الأشعار ودرّبنه في الخط فلم يجالس الرجال إلا وهو في حد الشباب[3] . وقد جعلته هذه النشأة رقيقاً في شبابه ، حييّاً من مجالس الرجال ، كما طبعته على سوء الظن بالمرأة لأنّه شاهد من أسرار النساء ما لا يكاد يعلمه غيره ، وكان همه الوقوف على ما يجري بينهن ، والترقب لما يفعلنه . وأورطته أيضاً نشأته هذه في علاقات عاطفية مبكرة ، فأحب في صباه جارية شقراء الشعر . ومنذ ذلك الحين لم يكن يستحسن من النساء إلاّ الشقر ، وظل على ذلك طوال حياته ، وهذا ما عرض لأبيه نفسه وعلى هذا جرى إلى أن وافاه أجله[4] . وأحب جارية اسمها « نعم » ، وتزوجها وهو دون العشرين ، وكان هو أبا عُذْرَتها . ثم اختطفها الموت منه ، فحزن عليها أبلغ الحزن وأعجبه ، حتّى إنّه ظل سبعة أشهر كاملة لا يغير ثيابه بعد وفاتها[5] . وقد حدثنا علي بشيء عن علاقاته العاطفية في الطوق ،

١ الجذوة : ٢٤٢
٢ نقط العروس : ٧٧ ، ٨١ ، والجذوة : ١١٨
٣ الطوق : ٥٠
٤ الطوق · ٢٨
٥ الطوق : ٩١

وكان صريحاً في تذكر هذه الفترة من حياته في قصور قرطبة ، في التحدث عن شؤون قلبه ، وعن حبه لجارية أخرى ألفها في أيام صباه [1] .

وأول تجاربه في المجتمع – خارج هذا النطاق – أن نراه في مجلس المظفر عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٦ ﻫ وسنه يومئذ حوالي أربعة عشر عاماً (ولد ليلة الفطر قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء ، آخر يوم من شهر رمضان المعظم وهو اليوم السابع من نونبر سنة ٣٨٤) [2] وفي ذلك المجلس كان صاعد ينشد المظفر في يوم عيد الفطر قصيدته التي مطلعها :

إليك حَدَوْتُ ناجيةَ الركابِ مُحَمَّلةً أمانيَّ كالهِضابِ

فأخذ علي يستحسنها ويصغي إليها ممّا حدا بصاعد أن يكتبها له بخطّه وينفذها إليه [3] . ثم تقوى صلته بوالده بعد ذلك ويصبح من شهود مجلسه .

وبقي أحمد وأبناؤه يعيشون في الجانب الشرقي من قرطبة في دورهم المحدثة بربض الزاهرة ، على مقربة من المنصور أولاً والمظفر ثانياً ، إلى أن قام المهدي يحاول أخذ الخلافة ، فانتقلوا من الجانب الشرقي إلى الغربي حيث دورهم ببلاط مغيث ، وهي مساكنهم القديمة ، في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ﻫ . ويدل هذا الانتقال على أن الوزير ابن حزم كان يميل إلى إعادة السيادة الأموية ، وأنّه نفض يده من الولاء العامري ومن الرضى بخلافة هشام المؤيد معاً . وفي تلك الأثناء أشيع أن هشاماً المؤيد توفي ، فحضر علي ووالده الوزير جنازته « المزورة » [4] . غير أن المؤيد لم يلبث أن عاد (٧ ذي الحجة سنة ٤٠٠) فاتّهمهما

١ الطوق : ١١٥
٢ الصلة : ٣٩٥
٣ الجذوة : ٢٢٤
٤ الفصل ١ : ٥٩

بأنهما المحركان للمهدي «وامتحنا بالاعتقال والترقب والاغرام الفادح والاستتار . وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا »[1] . وفي أثناء الفتنة توفي أبوه يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٤٠٢ هـ . وأصبح علي يواجه الأزمة مع أهله دون أن تكون شخصية الوزير المحبوب إلى جانبهم ، فأجلوا عن منازلهم وتغلب عليهم جند البربر ونهبوا منازلهم الغربية ، واستوطنوها . وخرج ابن حزم عن قرطبة أول سنة ٤٠٤ هـ[2] . وتكاد هذه الحادثة أن ترسم خطاً فاصلاً في حياته . ولكنه لم ييأس من العودة إلى الوطن وانتهز كل فرصة لذلك . وكان يحسب أن إعادة الخلافة الأموية كفيلة بإرجاعه . وإرجاع دوره وقصوره ، فلذلك شايع من قام منهم للمطالبة بالخلافة . ذلك أنه بعد رحيله عن قرطبة لجأ إلى المرية . وحاكمها يومئذ خيران العامري ، فنقل الوشاة إلى خيران أن ابن حزم وصديقه محمد بن إسحاق يسعيان في القيام بدعوة الأموية ، فاعتقلهما أشهراً ثم غرّبهما عن المرية ، فصارا إلى حصن القصر ونزلا على عبد الله بن هذيل التجيبي ، فأقاما عنده شهوراً مكرّمين . ثم ركبا البحر قاصدين بلنسية عندما سمعا بظهور المرتضى عبد الرحمن بن محمد الأموي فساكناه ببلنسية[3] . وسارا معه في محاصرته لغرناطة وفيها زاوي بن زيري الصنهاجي . غير أن آماله عادت فتحطمت لإخفاق المرتضى . ومع ذلك نجده يعود إلى قرطبة سنة ٤٠٨ وواليها يومئذ القاسم بن حمود . وهناك تحسس معاهده ودياره وبكاها بحرقة ، وتفقد أصدقاءه فوجدهم قد تفرقوا ومات بعضهم كصديقه الحميم ابن الطبني . وانصرف في قرطبة إلى تلقي العلم ، لأنه أحسّ بنفسه ضائعاً لم ينل دنيا ، وتكاد الآخرة تفلت

١ الطوق : ١١١
٢ الطوق . ١١٢
٣ الطوق : ١١٨

من يده . وقبل أن نتحدث عن نشاطه العلمي نتم الحديث عن نشاطه السياسي فنجده بعد ست سنوات (سنة ٤١٤) عندما فر القاسم بن حمود وبويع المستظهر الأموي ، يعود إلى التشبث بالآمال الأموية . فضمه المستظهر إلى حاشيته وأصبح له وزيراً . قال المقري في المستظهر : واشتغل مع ابن شهيد وابنَيْ حزم بالمباحثة في الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الأهداب والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون[١] . وكانت آخر تجاربه السياسية أن سجنه المستكفي هو وابن عمّه أبو المغيرة[٢] . وبعدها أدركه اليأس من النجاح في السياسة ، وعرف أن العلم هو ميدانه الحقيقي ، فانصرف إلى نشر مذهبه الجديد ، وإلى التأليف . وهذا هو الدور الثاني من حياته ، حين عزف عن التعلق بالأسباب التي تصله بالثروة والمجد الدنيوي ، وعاش يكفكفُ أساهُ إلى الماضي ولذائذه ، متنقلاً في البلاد الأندلسية . فحيناً نراه يسكن شاطبة ، ومرّة أُخرى نجده في مالقة يودع صديقه أبا عامر محمد بن عامر في سفرته إلى المشرق ، ومعهما صديقهما أبو بكر محمد بن إسحاق[٣] . وكان في تطوافه يلقى العلماء ويجادلهم ، كما يجادل الملحدين والذين لا يقرون بالنبوة ، ويجادل زعماء الأديان الأخرى مثل ابن النغرالة اليهودي وزير صاحب غرناطة[٤] . وهذه المجادلات العنيفة هي التي كونت له خصوماً كثيرين ، كانوا يكيدون له عند ملوك الطوائف ، حتى جمع المعتضد بن عباد كتبه وأحرقها . وأعتقدُ أنّه فعل ذلك بعد المناظرة التي قامت بين ابن حزم والباجي .

فبعد سنة ٤٥٢ ذهب ابن حزم إلى ميورقة ، وكان فيها الفقيه محمد بن

١ النفح ١ : ٢٣١

٢ المغرب ١ : ٥٥ ، والتقريب : ١٩٩ بشيء من التفصيل .

٣ انظر الطوق : ٤١ ، ١٨

٤ الفصل ١ : ١٧ ، ٢٥ ، ٦٥ — ٦٧ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٣٥ وغيرها من الصفحات .

سعيد الميورقي يدرس الفقه والأصول . فلمّا وردها ابن حزم كتب محمد هذا إلى أبي الوليد الباجي يخبره بقدوم ابن حزم ، فسافر الباجي إلى ميورقة من بعض سواحل الأندلس . وهناك تضافرا على ابن حزم وناظراه وأخرجاه منها . وكان الميورقي سبب العداوة بين الباجي وأبي محمد[1] . قال القاضي عياض في الباجي : « ووجد عند وروده بالأندلس لابن حزم الداودي صيتاً عالياً وظاهريات منكرة . وكان لكلامه طلاوة قد أخذت قلوب الناس ، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت ، لقلة استعمالهم النظر وعدم تحققهم به ، فلم يكن يقوم أحد بمناظرته . فعلا شأنه وسلموا الكلام له على اغتمامهم فحادوا عن مكالمته . فلمّا ورد أبو الوليد الأندلس . وعنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة لطرق الجدل والمناظرة ما حصّله في رحلته ، أمله الناس فجرت له معه مجالس كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة »[2]. وقد شهد ابن حزم للباجي بالتفوق في المذهب المالكي[3]. ومما جرى بينهما في بعض المناظرات ، أن قال الباجي : أنا أعظم منك همّة في طلب العلم لأنّك طلبته وأنت مُعانٌ عليه تسهر بمشكاة من الذهب . وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق . فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك لأنّك إنّما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي . وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرتَهُ . فلم أرْجُ به إلاّ علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة ، فأفحمه[4] .

وكثر أعداء ابن حزم في مدن الأندلس ، وأخذوا يؤلبون عليه أمراءها .

١ التكملة : ٣٩١
٢ ترتيب المدارك ج ٢ الورقة : ١٥٨ نسخة دار الكتب المصرية . وانظر النفح ١ : ٣٠٩
٣ النفح ١ : ٣٦٠
٤ النفح ١ : ٣٦٤

ويستصرخون ضده علماء الأمصار الإسلامية « فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبلة »[1] . وهنالك كان يختلف إليه الطلبة ، فيحدثهم ويفقههم . وواظب هو على التأليف والاكثار من التصنيف ، ولكن الناس أحجموا عن كتبه ، إذ حاربها الفقهاء ، وأحرق بعضها بإشبيلية ومزق علانية . غير أنه مضى في سبيله ، لا يثنيه شيء ، حتى وافته منيته عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وعمره إحدى وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة وعشرون يوماً[2] .

ثقافته واساتذته ومؤلفاته :

حصل ابن حزم في صباه شيئاً من الثقافة الأولية على يد الجواري ، ثم أخذ يطلب العلم في قرطبة قبل الأربعمائة بقليل ، وظل مثابراً على طلب العلم أثناء الفتنة حتى إنه كان في سنة ٤٠١ يتلقى الحديث على أستاذه الهمداني في مسجد القبري بالجانب الغربي من قرطبة[3] ، وبعد خروجه من قرطبة أفاد من تجواله في البلاد ومن لقاء بعض العلماء ، ولكنه لما عاد إليها أدرك أن محصوله من العلم ما يزال قاصراً ، فأكب على الطلب ، حتى حصل في مدة قصيرة ما لا يحصله غيره في العمر الطويل . وتمذهب أولاً للشافعي ، ثم اختار مذهب الظاهر . ووضعه موقف المنافح عنه موضع من لا بد له من ثقافة واسعة . وكان يأسه من الحياة السياسية سبباً في تعميق حياته العلمية ، ومن أشهر أساتذته :

١ — أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت وهو فقيه عالم زاهد ، أثر

١ الذخيرة ١ / ١ : ١٤١ — ١٤٢
٢ الصلة : ٣٩٦
٣ الطوق : ١٣٥

في ابن حزم لميله إلى القول بالظاهر ، وقد سمع منه بعض الأخبار والفوائد اللغوية [1] .

٢ — أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري ، كان مجلسه بالرصافة وهو أستاذه في الجدل والكلام . وكان من زملائه في الطلب عليه أبو عبد الله ابن الطبني صديقه الحميم . وفي مجلسه صادق أيضاً أبا علي بن الحسين بن علي الفاسي . وكان هذا عاملاً عالماً ممّن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا والاجتهاد بالآخرة . وقد انتفع به ابن حزم وبتأثيره عرف قبح المعصية [2] .

٣ — أبو سعيد الفتى الجعفري وهو يذكر أنّه قرأ عليه معلقة طرفة [3] .

٤ — وقد روى ابن حزم الحديث عن علماء كثيرين منهم محمد بن سعيد ابن نبات ومحمد بن سعيد بن جرج الفقيه وعبد الرحمن بن سلمة الكتاني وأحمد بن قاسم البياني ويونس بن مغيث المعروف بابن الصفار قاضي الجماعة بقرطبة وعن أبي الوليد الفرضي والد المصعب ومحمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وعن كثيرين غيرهم [4] .

٥ — أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الجسور الأموي . روى التاريخ للطبري وعنه حدث ابن حزم بهذا الكتاب . وهو أول شيخ سمع منه قبل الأربعمائة [5] .

١ انظر الجذوة : ٣٢٨ ، ٢٢٦ ، والطوق : ١٠٥

٢ الطوق : ٧٢ ، ١١٧ ، ١٢٦ والجذوة : ١٨١

٣ الطوق : ٧٠

٤ انظر صفحات متفرقة من الجذوة والطوق ، والتكملة : ٣٨٣

٥ الجذوة : ٩٩ — ١٠٠

٦ — أبو عبدة حسان بن مالك وصفه ابن حزم بأنه من أكثر من لقيهم للغة مع شدة عنايته بها وثقته وتحريه في نقلها[١] . وقد عمل حسان كتاباً على مثال كتاب ربيعة وعقيل للمنصور بن أبي عامر . وهو من العلماء الذين أخملتهم الفتنة[٢] .

٧ — أحمد بن محمد بن عبد الوارث أبو عمر المعروف بابن أخي الزاهد ، وهو مؤدبه في النحو[٣] .

٨ — أبو محمد عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمي القاضي وهذا أحد تلامذة أبي علي القالي وعنه أخذ ابن حزم بعض مؤلفات القالي مثل فعلت وافعلت وكتاب النوادر كما روى عنه كتاب حديث أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي[٤] .

ومن العسير أن يصور الدارس مدى ثقافة ابن حزم لتشعب هذه الثقافة وشمولها لجميع أنواع المعرفة في عصره — ما عدا الحساب والهندسة — وهذا هو الجانب المدهش حقاً : فهو متعمق للفقه والحديث ، عارف بآراء أهل المذاهب الأخرى ، مطلع على كتب أهل الأديان يناقش مادة التوراة والانجيل مناقشة تفصيلية ، ويجمع إلى ذلك كله اطلاعاً واسعاً في اللغة والنحو والأدب والتاريخ ، وقد قرأ كثيراً من مؤلفات أهل بلده في هذه العلوم ، كما أنه درس الفلسفة والمنطق والفلك ، وقد عابه خصومه المتزمتون بالمنطق واقليدس والمجسطي ، ولما شاء أن يضع منهجاً كافياً للدارس في بعض العلوم اقترح

١ الأحكام ٤ : ١٢
٢ الجذوة : ١٨٤
٣ التكملة : ٧٩٠
٤ انظر صفحات متفرقة من فهرسة ابن خير .

الواضح في النحو للزبيدي والموجز لابن السراج ، واقترح في اللغة كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد ومختصر العين للزبيدي ، وعد من التوغل في اللغة أن يدرس المرء كتاب خلق الانسان وكتاب الفرق لثابت والمذكر والمؤنث لابن الأنباري والممدود والمقصور والمهموز لأبي علي القالي والنبات لأبي حنيفة الدينوري ، ونصح بدراسة كتاب المجسطي لمعرفة الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها ، وحث على النظر في المنطق ليقف الدارس على الحقائق ويميزها من الأباطيل ، وعلى النظر في الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر وفي الحيوان والنبات والمعادن . وعلى قراءة كتب التشريح وقراءة التواريخ القديمة والحديثة. وعلى النظر في الكلام والحديث والفقه أو علم الشريعة جملة . وما وصف ابن حزم هذا كله إلاّ وهو مطلع عليه وعلى أكثر منه بكثير . وتدل رسالته في فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلده ، وعلى سعة باعه في معرفة أكثر ما يتصل بأخبار رجالها وتاريخها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها . فقد كان يحفظ كثيراً من شعر ابن عبد ربه وابن دراج وصاعد وابن هذيل والمصحفي والطليق والغزال وكثير غيرهم ، وكتاب الجذوة معرض لمعرفة ابن حزم بشؤون الأندلس أيضاً ، فأكثر ما فيه إنّما يرويه الحميدي عن أستاذه. هذا إلى قدرة فائقة في التجريح والتعديل ومعرفة الأنساب . وكل ذلك يدل على ذاكرة عجيبة وحيوية عقلية فذة .

وقد صدق القاضي صاعد في قوله عنه : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »[1] . وكان جمّاعاً للكتب ، جمع منها في علم الحديث

١ نقله المقري في النفح ١ : ٣٦٤ ، أما ما ورد في كتاب صاعد فهو « ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر في علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة » (طبقات الأمم : ٨٧) .

والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً[1] . كما كان كثير التقييد لا يدع شيئاً يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة . وبنسبة هذا الاطلاع الواسع كثرت مؤلفاته ، حتى بلغ مجموع ما ألفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والتاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمائة مجلد (بين كتاب ورسالة) تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة[2] . ومع أن كثيراً من مؤلفاته قد ضاع ، فقد بقي قدر صالح منها .

منها في الفقه والأصول : المحلى والإحكام ومراتب الاجماع وحجة الوداع وقسم من كتاب الإبطال ، ومنها في العقائد والمذاهب : الفصل وكتاب الأصول والفروع (مخطوط) وهو صورة مختصرة من الفصل ، وفي المنطق : كتاب التقريب ، وفي الأنساب والأخبار : كتاب الجمهرة وجوامع السيرة ، وفي الأدب : طوق الحمامة وقطعة من ديوانه . كما وصلتنا له رسائل كثيرة من أهمها رسالته في مراتب العلوم ورسالة في مداواة النفوس ورسالة في فضل الأندلس ورسالة التلخيص لوجوه التخليص وغيرها .

شخصيته وأخلاقه :

كان ابن حزم ذكياً سريع الحفظ واسع الاطلاع متفانياً في طلب العلم ونشره . وكان في شخصه متواضعاً عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا متديناً كريم النفس ، وقد اتهمه ابن حيان بأنه يجهل « سياسة العلم » لحدة فيه وشدة عارضته في الرد على الخصوم ، وعدم الاعتماد على التلميح والتعريض والأناة في التوجيه ، وربما كان بعض ما يشوب هجماته من مرارة راجعاً إلى فيض عاطفي أصيل احتبسه التدين في نفسه ، حتى إننا لنسمعه يقول : إن «

١ الجذوة : ٢٩٠
٢ طبقات الأمم : ٨٧

مات في ساعة الوداع كان معذوراً [1] . ولما نُعي إليه من يحب فرّ إلى المقابر . ولما ماتت جارية كان يحبها مكث أشهراً والحزن عليه غالب ، وصرح بظمإ دائم إلى الألفة والمحبة فقال إنّه لم يروَ من ماء الوصل قط . هذا إلى أن تربيته الأولى بين الجواري قد غرست في نفسه سوء الظن بالعلاقات بين الرجال والنساء مع غيرة شديدة وجدت في طبعه . وكان أصدقاؤه يتهمونه بأنّه متذلّ بالأسرار لا يكاد يحفظ سراً ، غير أن ذلك لم ينقص فيه خلتين لازمتاه طوال حياته وهما : الوفاء وعزة النفس ، وهذه الثانية هي التي منحته صلابة عجيبة في مواقفه من الآراء ومن حكام عصره . وقد طبع كذلك على التأني والتربص وعلى حب المسالمة وعدم التعرض لأذى أحد من أجل أدنى معرفة ناشئة . غير أن علاقاته لم تكن لتقوم إلاّ بعد التجربة الطويلة ولا تصح محبته إلاّ بعد التمادي في الأنس فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً [2] . وكانت الشقرة في الجمال أكثر تأثيراً من غيرها في نفسه .

وقد تعاورت عليه علل غيرت من قواه الجسمانية ، أصيب مرّة بعلة افقدته ما كان يحفظ وما عاوده حفظه إلاّ بعد أعوام ؛ وكان يكثر أكل الكندر مقاومة لما أصابه من خفقان في القلب وهو يعزو إلى ذلك جمود دمعه في أشد المواقف العاطفية . وأصيب مرّة بالرمد ، ومرة بمرض ولّدَ عليه ربواً في الطحال وهو يقول إن ذلك استلب منه الشعور بالفرح والبهجة وأورثه الضجر والضيق وقلة الصبر [3] . وهذا يفصح عن سبب المرارة وحدة الخطاب في مناظراته ومجادلاته لمخالفيه .

وعلى شدة ضعفه أمام الجمال فإنّه لم يتورط في المحرّمات حتى قال :

. .. .

١ الطوق : ٨٨
٢ الطوق : ٢٤
٣ الرسائل : ١٥٥

« يعلم الله أنّي بريء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجره . وإنّي أقسم بالله أجل الاقسام ما حللت متزري على فرج حرام قط »[1]

وزعم أبو الخطاب ابن دحية أن ابن حزم برص من أكل اللبان وأصابته زمانة .

وعلى الجملة فإن رسم صورة كاملة لشخصية ابن حزم ممّا تضيق عنه هذه الترجمة ، فقد كان نسيج وحده فيمن أنجبتهم الأندلس .

شعره :

كان يقول الشعر بسرعة على البديهة ولذلك كثر شعره ، وجمعه تلميذه الحميدي على حروف المعجم . ولم يصلنا منه إلاّ قطعة صغيرة وإلاّ أشعاره في الطوق وبعض متفرقات منه في شرح الشريشي على المقامات وفي الغيث المنسجم للصفدي وما أشبه ، وفي الكتب التي أوردت له ترجمة . وقد رأى له ابن الأبار شعراً في رثاء أبي محمد جابر المعروف بالعطار ، وكان محدثاً على مذهب أهل الظاهر[2] . وبعض شعره قاله قبل بلوغ الحلم ، وأكثر ما نظمه دون العشرين إنّما كان تغزلاً ثم رثاء لجاريته « نعم » التي فقدها فحزن على فقدها . وكان إخوانه يسومونه القول في ما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم فيقول ما يناسب حالهم ومقصودهم ، وكان أحياناً يصنع الشعر بتكليف ، فقد كلفته إحدى كرائم المظفر أن يصنع لها أغنية لتلحنها ففعل[3] . ولم يكن له وقت معين لقول الشعر ، فأحياناً يقول شعراً وهو نائم ويختار أحياناً أخرى أن ينظم بعد صلاة الصبح[4] ، وكان بينه وبين ابن عمّه أبي المغيرة مراسلات بالشعر

١ الطوق : ١٢٦
٢ التكملة : ٢٤٧
٣ الطوق : ١١٤
٤ الطوق : ١٠٨ ، ١٤٦

وبينه وبين ابن شهيد مقارضات شعرية أيضاً . وله مدح في هشام المعتد[1] .

وقد حال بين ابن حزم وبين التجويد الشعري أمور كثيرة منها :

١ ـ إكثاره من القول على البديهة .

٢ ـ عدم إيمانه بقيمة الشعر في باب العلوم المقربة من الله تعالى .

٣ ـ عدم تدقيقه في اختيار الألفاظ ذات الموقع الجميل في النفس .

٤ ـ اعتقاده أن الشعر ميدان يصلح لكل موضوع .

٥ ـ استبحاره في الفقه والجدل والحديث وغلبة طرائقه في هذه العلوم على الشعر .

ولذلك قلّ التعبير الجميل في شعره ، وإن كان شعراً زاخراً بالمعاني . وكثرت المؤثرات الثقافية والإشارات إلى العلوم والعقائد والتعليلات والبناء الجدلي وأثر الفقه الظاهري واستعمال الألفاظ المتصلة بكل ذلك ، فمن أمثلة ذلك قوله :

كذب المدّعي هوى اثنينِ حتْماً   مثلما في الأصولِ أُكْذِبَ ماني

وقوله :

فآثرتُ أن يبقى ودادٌ وينمحي   مِدادٌ فإن الفرْعَ للأصْلِ تابعُ

وقوله :

فهمْ أبداً في اختلاجِ الشكوكِ   بظنّ كَقَطْعٍ وقَطْعٍ كظَنّ

ويلجأ إلى التقسيم والتفريع على نحو يذكر بابن الرومي في قوله :

١ الطوق : ٧٧

معهودُ أخلاقِكَ قِسْمانِ والدهرُ فيكَ اليومَ سيّانِ
فانكَ النعمانُ فيما مَضَى وكانَ للنعمانِ يَوْمانِ
يومُ نعيمٍ فيهِ سَعْدُ الوَرَى ويومُ بأساءَ وعُدْوانِ
فيومُ نعماكَ لغَيري ويو مي منكَ ذو بُؤسٍ وهجرانِ
أليسَ حُبي لك مستأهلاً لأنْ تجازيْه بإحسانِ

ويغمض أحياناً كأنّما يضع أمامنا قضية فلسفية في مثل قوله :

أليسَ يحيطُ الروحُ فينا بكلِّ ما دنا وتناءى وهو في حُجُبِ الصَّدْرِ
كذا الدهرُ جسمٌ وهو في الدهرِ روحهُ محيطٌ بما فيه وان شئتَ فاسْتَقْرِ

ولا يفتأ يرسل التلميحات ويشقق المعاني منها ، ومن أبرز ذلك قوله :

فكلُّ ترابٍ واقعٌ فيه رجلُهُ فذاكَ صعيدٌ طيّبٌ ليس يُجْحَدُ
كذلك فعلُ السامريِّ وقد بدا لعينيه من جبريلَ إثْرٌ مُمَجَّدُ
فصيّرَ جَوْفَ العجلِ من ذلك الثّرى فقامَ له منه خُوَارٌ مُمَدَّدُ

وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه إلى تمجيد الزهد ، وبعضها في تسبيح الله وتمجيده وإثبات حدوث العالم كالقصيدة التي مطلعها :

لك الحمدُ يا ربٌّ والشكر ثُمْ لكَ الحمدُ ما باحَ بالشكْرِ فَمْ

وشهرت بين الأندلسيين قصيدته التي قالها في الرد على قصيدة شاعر نقفور ، وبعض قصائده تعليم خالص في الحث على طلب الحديث وفي نظم بعض الآراء الفلسفية ، وله قصيدة يعارض بها قصيدة ابن زريق البغدادي لإعجابه بها .

وأحفلُ شعره بالعناصر الشعرية الصحيحة هي القصائد الذاتية التي ينافح

بها عن موقفه ويدافع عن غاياته ويذكر تكالب الناس على إيذائه والحط من قدره ، لأنها قائمة على القوة والجزالة والحدة وليست معرضاً للتفنن في الرأي وإبراز المعاني من حجبها ، من ذلك قصيدته التي يقول فيها :

أما لهمْ شُغُلٌ عنّي فَيَشْغَلَهُمْ   أو كلّهُمْ بِيَ مشغولٌ ومُرْتَهَنُ
كأنَّ ذكريَ تسبيحٌ بــه أُمِرُوا   فليس يَغْفَلُ عَنّي منهمُ لَسِنُ
إن غبتُ عن لحظهم هاجوا بغيظهِمُ   حتّى إذا ما رأوني طالعاً سكنوا

وأقوى ما وردنا في هذا الباب من شعره قصيدته البائية التي خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر وفيها يقول[1] :

أنا الشمسُ في جوّ العلــومِ منيرةٌ   ولـكنَّ عيبي أنَّ مطلعيَ الغَرْبُ
ولو أنني من جانب الشرقِ طالــعٌ   لجدَّ على ما ضاعَ مِنْ ذِكْريَ النَّهْبُ
ولي نحو أكنافِ العراقِ صَبَــابَةٌ   ولا غرْوَ أن يستَوْحشَ الكلِفُ الصبُّ
فإن يُنزِلِ الرحمنُ رحليَ بَيْنَهم   فحينئذٍ يبدو التأسفُ والكربُ
فكم قائلٍ أغفلتُهُ وهوَ حاضرٌ   وأطْلُبُ ما عنه تجيء به الكتبُ
هنالك يُدْرَى أن للبعدِ قِصَّةً   وأن كسادَ العِلْمِ آفتُهُ القُرْبُ

وفي هذه الأبيات تبدو حسرة أبي محمد على إنكار أهل الأندلس لفضله ، وتوقعه الرحلة إلى العراق ، وهي أماني جاشت في نفسه في لحظة ثم صرفته الأيام عن كل ذلك .

وفي شعر أبي محمد جانب دقيق قد نسميه « الجانب الباطني » كان يهرب إليه أحياناً من قسوة الظاهر وحدّة صلابته ، وينقل إليه معاني التنزيه والتوحيد ويتأول الأشياء على غير ظاهرها ، حتى كان بعض أصدقائه يسمي قصيدة له

١ الجذوة : ٢٩٢

« الإدراك المتوهم » وهي التي يقول فيها :

تَرى كلَّ ضدّ به قائماً ... فكيف تحدُّ اختلافَ المعاني
فيا أيها الجسمُ لا ذا الجهاتِ ... ويا عرضاً ثابتاً غيرَ فانِ
نَقَضْتَ علينا وجوه الكلامِ ... فما هو مُذْ لُحْتَ بالمُستبانِ

وتجده — وهو المتمسك بأشدّ ألوان التنزيه — يقول :

أمِنْ عالمِ الأملاكِ أنت أم انْسِيُّ ... أبِنْ لي فقد أزْرَى بتمييزيَ العيُّ
أرى هيئةً إنسيةً غير أنّه ... إذا أُعْمِلَ التفكيرُ فالجِرمُ عُلْويُّ
ولا شكَّ عندي أنك الروحُ ساقَه ... إلينا مثالٌ في النفوسِ اتِّصاليُّ
ولولا وقوعُ العينِ في الكونِ لم نَقُلْ ... سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقيُّ

فهو في كل هذا المنزع يذهب إلى التجريد المحض كقوله أيضاً :

كأنّما هو توحيدٌ تضيقُ به ... نَفْسُ الكفور فتأبى حين تُوْدَعُهُ

ومن تأمل هذا اللون من الشعر في موضوع الحب خاصة وجد أن ابن حزم الظاهري المتشدد قد بلغ فيه مشارف التصوف « الباطني » ، وكأنّما كانت نفسه تأنس بهذه الروحانية الغيبية كلما وجدت قلقاً من التشدد في الأخذ بالظاهر ، وهو في هذا الجانب الواهم متأثر بطريقة النظام ، إلاّ أن هذا اللون ليس أكثر شعره .

ولقد يشق علينا أن نعرف التيارات الشعرية التي أثرت في ابن حزم لأن حفظه لشعر المشارقة والأندلسيين لا يكاد يحصر ، وهو معجب بشعراء مختلفي الطرق والاتجاهات الشعرية ، وهو أيضاً حصيف في النقد عارف بجيِّد الشعر مميز له ، ولكن المرء رهن بظروفه ، وقد كان ابن حزم في ظروف تبعد به عن الشعر ولا تهيىء له تجويده أو الانقطاع المتفرغ له .

النثر الأندلسي في هذا العصر

النثر الاندلسي في هذا العصر

كانت لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طبقتين من الناس : كتّاب الرسائل وكتّاب الزمام . أما كاتب الرسائل « فله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة ، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة ، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه » . وأما كاتب الزمام فهو المسؤول عن شؤون الخراج [1] . وهذا الكلام عن الكتابة ينطبق على عهد متأخر ولكن الحال ربما لم يختلف كثيراً عن ذلك في عهد بني أمية .

وهناك أيضاً من يسمى الكاتب الخاص ، ولدى كل أمير مثل هذا الكاتب ، كما أن هيئة الكتابة عامة يطلق عليها « الكتابة العليا » [2] .

وجودة الخط أمر مشترك بين كتّاب الانشاء وكتّاب الزمام ، وكان المنصور بن أبي عامر يتشدد في النص على جودة الخط حتى لقد أصدر عهداً يوبخ فيه العمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا أن يحكموا الخط ويميزوا أنواع الرق والمداد ، وهدد المنصور بأن من كتب كتاب اعتراض أو عمل في رق ردي أو بمداد دني أو خط خفي فيه لحن أو بَشْرٌ فإنّه معزول ومطالبه

١ النفح ١ : ١٠٢ – ١٠٣
٢ الحلة . ١٩٢

باطلة وسيغرم المال الذي ذكره في ذلك القنداق [1] ، وهذا التشدد يوحي بالخوف من الخطإ والبشر في المسائل الخراجية .

وهكذا فإن من يلحقهم اسم كاتب في هذا العصر كثيرون جداً ، ولكن الكتابة الانشائية الفنية المستقلة غير واضحة الصورة إلاّ في أواخر هذا العصر لأن صورة الكتابة الديوانية قد غلبت عليها ، وكان هذا النوع من الكتابة هو ميدان فرسان البلاغة حينئذ . وكم نسمع أن هذا أو ذاك كاتب بليغ مثل يوسف بن سليمان الكاتب فإنّه كان كاتباً بليغاً عالماً بحدود الكتابة بصيراً بأعمالها [2] ، والرازي كان كاتباً بليغاً [3] ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرؤوف كان بليغاً مترسلاً [4] ، ولكنا لا نملك شواهد ذلك كله ، فقد ضاعت الكتب التي ألفت في كتّاب تلك الفترة مثل : طبقات الكتّاب بالأندلس للأقشتين وكتاب آخر لسكن بن سعيد وكتاب ثالث لعبيديس الجياني بعنوان « اللفظ المختلس من بلاغة الكتّاب بالأندلس » وكلّها أُلّفت في دور مبكر . ولذلك خفيت علينا صورة الكتابة الإخوانية والرسائل المستقلة فيما خلا خبراً عن رسالة لابن الجرز ألفها في مناقضة رسالة اليتيمة لعبد الله بن المقفع [5] ، غير أن وجود مثل هذه الكتب التي تعرض للكتّاب والكتابة الأندلسية يدل على اهتمام بالكتابة وتقدير لها وربما دلّ أيضاً على وفرتها .

وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تفضيل الايجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى ، وأصحاب التوقيعات المقتضبة هم المشهود لهم بالبلاغة

---

١ الذخيرة ١ / ١ : ٨٧
٢ طبقات الزبيدي : ٣٢٠
٣ المصدر نفسه : ٣٢٧
٤ المصدر نفسه : ٣٣٤
٥ طبقات الزبيدي : ٣٢٦

في هذا الشأن ، وتفضل الكتابة كلّما انتحلت طبيعة التوقيعات . ومن أقدم نماذج هذا النوع ما أملاه عبد الرحمن الأول إلى سليمان بن الأعرابي : « أمّا بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »[1] . وهذه صورة إنشائية ذات حظ كبير من الفصاحة والقوة ، وهي لا تفترق عن بعض أنواع الانشاء في العصر الأموي بالمشرق . وهذا نموذج آخر كتبه أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط من عمله : « أمّا بعد فإن يكن التقصير لك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً ، وقد علمت بما قدمت ، فاعتمد على أيهما أحببت »[2] .

وقد اقتضت مثل هذه المناسبات هذا الإيجاز والإيماء والقصد في القول والحدة في الخطاب ، غير أن ذلك لم يكن سمة عامة للإنشاء ، وفي العهد الذي أصدره الناصر عندما رغب في أن يلقب بالخلافة جانب من التطويل وشيء من الازدواج دون أن تدخله صنعة مقصودة[3] . وهذا ما نجده أيضاً في كتاب أنشأه الحكم لما كان وليّاً للعهد بأمر من أبيه إلى المشاور أبي إبراهيم حين تخلف عن حضور الإعذار الذي صنعه الناصر لأولاده ، وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك — لما امتحن أمير المؤمنين ، مولاي وسيدي — أبقاه الله — الأولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدماً في الولاية متأخراً عن الصلة . على أنّه قد انذرك ، أبقاه الله ، خصوصاً للمشاركة في السرور الذي كان عنده ، لا أعدمه الله تواليَ المسرة ، ثم أنذرت

---

١ ابن عذاري ٢ : ٨٦
٢ المصدر نفسه
٣ ابن عذاري ٢ : ٢٩٧

من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه فأعيت عليه عنك الحجة ، فعرِّفني أكرمك الله ما العذر الذي أوجب توقفك . . . »

فرد أبو إبراهيم بقوله : « قرأت أبقى الله الأمير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقفي لنفسي ، إنّما كان لأمير المؤمنين سيدنا ، أبقى الله سلطانه ، لعلمي بمذهبه وسكوني إلى تقواه واقتفائه لأثر أسلافه رضوان الله عليهم فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويطرق إلى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ولعلمي بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى »[1] .

وكلتا الرسالتين في غاية البساطة والبعد عن التعمل ، وقد ظل أمر الكتابة بسيطاً لا تحلية فيه حتّى أواخر أيام المستنصر ، وكان السجع يجيء في الرسائل عفواً دون تعمد ، حتّى مقدمات الكتب كمقدمة قضاة قرطبة للخشني ظلت عارية من السجع إلاّ فيما ندر . ومن الشاذ في انتحال بعض السجع حينئذ رسالة ليزيد بن طلحة (في خلافة الأمير عبد الله) كتبها إلى أهل قرمونة يحضهم فيها على الطاعة ، ومنها : « إن أحق ما رجع إليه الغالون وألحق به التالون وآثره المؤمنون وتعاطاه بينهم المسلمون ممّا ساء وسر ونفع وضر ما أصبح به الشمل ملتئماً والأمر منتظماً والسيف مغموداً ورواق الأمن ممدوداً »[2] ، ثم تستمر الرسالة بعد ذلك دون سجع .

تلك هي المرحلة الأولى من الكتابة في هذا العصر . أما المرحلة الثانية

---

١ النفح ١ : ١٧٧

٢ طبقات الزبيدي : ٢٩٤

فتشغل عهد الدولة العامرية وفترة الفتنة وفيها ظهر أكابر الكتّاب الناثرين ومنهم :

١ — ابن برد الأكبر
٢ — عبد الملك بن إدريس الجزيري
٣ — ابن دراج القسطلي
٤ — ابن شهيد
٥ — ٦ — ابنا حزم
٧ — الحنّاط
٨ — ابن حيان المؤرخ
٩ — ابن زيدون .

وتمتاز هذه المرحلة عن سابقتها بمميزات كثيرة منها تغير المؤثرات التي أخذ يتلقاها هؤلاء الكتّاب ، إذ تغيرت النماذج المشرقية التي يحتذونها وأصبحت طريقة سهل بن هارون والجاحظ أولاً ثم طريقة بديع الزمان ثانياً هما النموذج الأعلى للمنشئين بالأندلس . ومنها احتفال الأندلسيين بالآثار الكتابية وإقبالهم عليها فكان لبعض الرسائل بينهم شهرة خاصة كرسالة ألفها بعضهم فاشتهرت عند أهل الثغر لبلاغتها [١] ورسائل لابن دراج كان الناس يتناقلونها ويعجبون بها [٢] . وتمتاز هذه المرحلة أيضاً بالثورة على التقصير في الكتابة ، ويمثل هذه الثورة قول والد الفقيه ابن حزم — وهو من الكتّاب الوزراء المقدمين في الدولة العامرية وكانت له في البلاغة يد قوية — : « إنّي لأعجب ممّن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة لأنّه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه

١ الحلة . ١٩١
٢ الجذوة : ١٠٤

ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا »[1] ، وتبلغ هذه الثورة ذروتها عند ابن شهيد ضد المعلمين وعجزهم عن تعليم البيان ، بل هو يعيب الأندلسيين عامة لتقصيرهم في شؤون البلاغة وكلامه صادر عن العجب ولكن فيه دلالة على ما كان يطمح إليه من رفعة لشأن الكتابة .

وأكبر ما يميز الكتابة في هذه المرحلة تمييز أصولها وطرائقها وأساليبها ، وهذا راجع إلى قوة حركة النقد التي وصفناها من قبل ، فلم يكن أخذ طرق المشارقة تقليداً فحسب ، بل كان مبنياً على فهم لتنوع الأساليب النثرية وإدراك لميزاتها ، وقد كان ابن حزم ذا نظر ثاقب في نقد الأساليب وتمييز المذاهب النثرية ، كما أن لابن شهيد في هذا الباب بصيرة الناقد الحصيف إذ يقول : « ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان . . . ثم دار الزمان دوراناً فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد ابن الزيات وابني وهب . . . ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف ، وبرقّة الكلام كلف ، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما »[2] . ويفاضل ابن شهيد بين سهل والجاحظ فيذهب إلى أن سهلاً عالم والجاحظ كاتب وانهما إذا ذكر ميدان الكتابة مختلفا الطريقة وكلاهما محسن في بابه[3] . ولا نزال نسمع من يفضل الايجاز على الإطالة مثل ابن الحناط الذي يقول : « الاسهاب كلفة والايجاز حكمة وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام »[4] .

١ الجذوة : ١١٨
٢ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٣
٣ الذخيرة ١ / ١ : ٢٠٧ — ٢٠٨
٤ الذخيرة ١ / ١ . ٣٨٥

وفي هذه المرحلة يستقل النثر الفني في بعض أحواله عن الكتابة الديوانية ، ويتخذ له موضوعات من الحياة تشبه الموضوعات التي يدور حولها الشعر وبخاصة الوصف ، وأصبح يعتمد الخيال كما في رسائل ابن شهيد وبعض رسائل ابن برد الأصغر كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم . ويبرز كذلك التنوع في الأساليب بحيث يمكن لقارىء النماذج النثرية أن يفرد لابن دراج ولابن شهيد ولابن حيان ولابن زيدون خصائص أسلوبية واضحة .

وفي طليعة هذه الطبقة من الناثرين يقف ابن الجزيري وابن برد الأكبر وابن دراج وهم المتأثرون بإنشاء ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ ، وهم متقاربون في طبيعة الأسلوب بعض التقارب ، إلاّ أن ابن دراج اختط لنفسه طريقة حددها ابن حزم بقوله : « وقد كان أحدث ابن دراج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل »[1] ، وهذا أدق حكم على أسلوب ابن دراج فكأن هذا الكاتب قد مزج الموروث الأندلسي في النثر بين بلاغة منذر بن سعيد البلوطي في خطبه وبين أعلى صور الرسائل الأندلسية ومسح كل ذلك ببعض التأثير المشرقي في الصنعة ، فكان في أسلوبه خارجاً عن المألوف العام من الأساليب في الأندلس وكان يتردد بين السجع والازدواج ، ومن أمثلة نثره قوله « يا سيدي ومن أبقاه الله كوكب سعد في سماء مجد ، وطائر يمن في أفناء أمن ، مرجوّاً لدفع الأسواء مؤملاً في اللأواء ، وكنت قد نشأت في معقل من الأمن والوفر ، محدقاً بسور من الأمن والستر ، حتى أرسل إليّ سلطان الفقر رسولاً من نوب الدهر ، يريد استنزالي إليه وخضوعي بين يديه... »[2]

والفرق بين ابن دراج والجزيري هو ما ينتجه التباعد بين الروية والسرعة ،

---

١ التقريب : ٢٠٥

٢ الذخيرة ١/١ : ٤٥ — ٤٦

فقد كان ابن دراج مروّياً لا ينشيء إلاّ بعد الجهد والكد ، وكان الجزيري على عكس ذلك . وشاهد هذا قول الحميدي : « إن ابن أبي عامر لما فتح شنت ياقب أو غيرها استدعى كاتبيه هذين وأمر بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، فأمّا ابن الجزيري فقال : سمعاً وطاعة ، وأمّا ابن دراج فقال : لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة ، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة »[1] . ويستطيع القارىء أن يقارن بسهولة بين ما مر من أسلوب ابن دراج وبين قول الجزيري في كتاب كتبه عن المنصور يعاتب فيه جنده لنكوصهم عن المحاربة في بعض غزواته : « وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون وتشتاقون ملاقاة الفحول ، فحين جاءكم شانجه Sancho بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل وأجفلتم إجفال الرئال من المقتنصين ، ولولا رجال منكم رحضوا عنكم العار وحرروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم أوشملت بالموجدة كافتكم »[2] . وهذا الأسلوب في رأيي أليق بالمقام . ولكن التنوق في الكتابة غلب حتى على الرسائل الديوانية ، وابتليت الكتابة الأندلسية بشدة الزخرف بعد هذا العصر حتى أصبح التعبد للمحسنات أمراً بارزاً . ويقف ابن برد وسطاً بين هذين الكاتبين في أسلوبه فليس لديه استرسال الجزيري ولا حوك ابن دراج وانّما لديه تعمُّل وازدواج ، وما وصلنا من رسائله فكله من نماذج الرسائل الديوانية[3] .

وجاءت بعد هؤلاء طبقة ابن شهيد ومن أدرك زمان الفتنة وحضر جانباً من العصر التالي ، وتميزت طرائق هؤلاء الكتّاب ، فكان ابن زيدون مكثراً

١ الجذوة : ١٠٤
٢ أعمال الأعلام : ٧٢
٣ الذخيرة ١ / ١ : ٨٤ وما بعدها

من الاقتباسات والتلميحات والإشارات ، يبني الرسالة – كالرسالة الهزلية – من محفوظه . وكان ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة المتعاطفات وترتيبها على نحو خاص والإغراب في الاشتقاقات . وظل ابن حزم الفقيه يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالاً دون التفات إلى حلاوة الجرس . أما ابن شهيد فلم يلتزم أسلوباً واحداً فهو حيناً يحاكي عبد الحميد وحيناً آخر يذكرنا بالجاحظ ، غير أنّه شديد الإعجاب بطريقة البديع وكأنّما أنشأ رسالته في صفة البرد والنار والحطب ورسالته في الحلواء ليحاكي المقامات . وهو مفتون بقدرة البديع على الوصف ، كما هي الحال في وصف الدينار ، فهو يسرف في محاكاة هذا اللون كثيراً كقوله في الثعلب : «أدهى من عمرو ، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر ، كثير الوقائع في المسلمين ، مغرى بإراقة دماء المؤذنين ، إذا رأى فرصة انتهزها ، وإذا طلبته الكماة أعجزها ، وهو مع ذلك بقراط في إدامه ، وجالينوس في اعتدال طعامه ، غداؤه حمام أو دجاج ، وعشاؤه تدرج أو دراج »[1]، ومن هذه البابة وصف البرغوث ووصف الفالوذج وغير ذلك ...

وقد أثر بديع الزمان أيضاً في نثر أبي المغيرة ابن حزم فله رسالة يعارض فيها إحدى رسائل البديع[2] . وأبو المغيرة من اسمح كتّاب الأندلس طبعاً في النثر ، هذا على أنّه يقيد نفسه بالسجع في أكثر رسائله . ولا ريب في أن الرسائل المتبادلة بينه وبين ابن عمّه الفقيه في أمر شجر بينهما إنّما هي على حظ عالٍ من البلاغة[3] .

١ الذخيرة ١ / ١ : ٢٣٥
٢ الذخيرة ١ / ١ : ١١٧
٣ انظر الذخيرة ١ / ١ : ١٣٦

وأكثر هؤلاء الكتّاب يوشحون رسائلهم بالشعر ويحلون فيها الأبيات، ويقتبسون الأمثال، كما أن أكثرهم يلحق بالعصر التالي، عصر ملوك الطوائف.

اهم الآثار النثرية في هذا العصر

أكثر الكتب التي تتصل بهذا العصر إنّما هي في التراجم . فأما الكتب الأدبية فأهمها ثلاثة : العقد لابن عبد ربه ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد وطوق الحمامة لابن حزم . فأمّا الأول فالصورة الأندلسية فيه باهتة كما أنّه يقوم على الجمع ، ويتبقى الكتابان الآخران وهما يستحقان منّا وقفة في هذا المقام :

١ ـ رسالة التوابع والزوابع

اسمها أيضاً «شجرة الفكاهة» ، ولم تصلنا كاملة وإنّما وصلتنا منها مقتطفات أوردها ابن بسام في الذخيرة ، وقد خاطب بها كاتبها صديقه أبا بكر ابن حزم حينما تساءل معجباً ببلاغة صديقه : «كيف أوتي الحكم صبياً وهزَّ بجذعِ الكلام فاسّاقط عليه رُطَباً جنيّاً» . وحاول ابن شهيد أن يعلل ذلك في مطلع الرسالة بأنّه ، وإن كان قليل الاطلاع ، ذو موهبة طبيعية . وسمى هذه الموهبة ، كما كان قدماء العرب يسمون شياطين الشعر ، جنيّاً تابعاً له كان يلهمه ويثير القول على لسانه ويخدمه في كل حال ويعينه إذا أُرتج عليه . وكانت «كلمة السر» بينهما أن ينشد :

وآلي زهيرَ الحبَّ يا عزَّ إنّـهُ إذا ذكرتْهُ الذاكراتُ أتاها
إذا جرَتِ الأفواهُ يوماً بذكرها يُخَيّلُ لي أنّي أُقبّلُ فاها
فأغْشَى ديارَ الذاكرين وإن نأتْ أجارِعَ مِنْ داري هوًى لهواها

فيحضر عندئذ صاحبه زهير بن نمير ، وهو مثله أشجعيٌّ ، ومعنى هذا أن كل قبيلة في الإنس لها ما يقابلها عند الجن ، وهؤلاء الجن – حسب وصف ابن شهيد – ليسوا جميعاً قباح الصور ، بل هم ربما كانوا مخلوقين على حسب الصور التي يمثلونها من بني الإنس . ولذلك كان فيهم من هو على شكل الحمار والبغل والإوزة لأن الإنس في طبائعهم هذه الأشكال نفسها . ولما تنقل هو في أرض الجن مصاحباً لزهير لقي التابعين للأموات كما لقي التابعين لبعض الأحياء . أمّا أرض الجن فإنّه يقول إنّها ليست كأرضنا ، وجوّها ليس كجونا ، ومع ذلك فإنّه لا يميزها بشيء خاص ، بل نرى فيها أشجاراً متفرعة وأزهاراً عطرة وأكثر مناطقها كذلك من حيث المناظر وليس فيها ما يفردها عن ديار الإنس ، بل إن المشابهة بين كل شاعر وتابعه تجعل المشابهة متوفرة بين بيئتيهما ، فهناك مثلاً ذات الأُكيراح في دار الإنس وهنالك واحدة مثلها في ديار الجن .

ولما سأله زهير بمن يريد أن يبدأ عند زيارة تلك الديار أجاب بأن الخطباء أولى بالتقديم ولكنه إلى الشعراء أشوق ، وهذا حكم عجيب يدل على أن الخطباء في رأي ابن شهيد الناقد مقدمون على الشعراء ، وكلمة « الخطباء » هذه تعني الناثرين لأنّه حين يتقدم للقاء من يسميهم الخطباء يلقى تابعي عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان .

وقد لقي من الشعراء صاحب امرىء القيس وطرفة وقيس بن الخطيم . أما امرؤ القيس – أو صاحبه – فظهر على فرس شقراء كأنّها تلتهب ، وأما صاحب طرفة فإنّه كان عند منظر طبيعي متميز : « وركضنا حتّى انتهينا إلى غيضة شجرها شجران : سام يفوح بهاراً وشجر يعبق هندياً وغاراً ، فرأينا عيناً معينة تسيل ويدور ماؤها فلكياً ولا يحول . . . فبدا إلينا راكب جميل الوجه قد توشح السيف واشتمل عليه كساء خز وبيده خطي » . ويرسم ابن شهيد لكل

شاعر صورة حسبما تخيله أو تأثر به من شعره .

وقد اكتفى بمقابلة ثلاثة من شعراء الجاهلية وانتقل من بعدهم إلى لقاء المحدثين ولم يأبه بالوقوف على واحد من شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية وأغلب الظن أنّه لا يقابل إلاّ من تربطهم به رابطة من محاكاة أو معارضة . وبدأ من المحدثين بأبي تمام فصوّره صورة عجيبة حين جعل صاحبه يسكن تحت الماء ، وأنّه إنّما يفعل ذلك حياء من التحسن باسم الشعر وهو لا يحسنه ، وهذا حكم عجيب . وقد زعم ابن شهيد أن أبا تمام استنشده فلم ينشده اجلالاً ، ثم أنشده فأكثر ،وأوصاه أبو تمام وصية جيدة ، كما كان يوصي تلميذه البحتري ذات يوم ، فقال : « فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكدّ قريحتك فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ونقح بعد ذلك » . وأيضاً من العجيب أن تصدر مثل هذه الوصية عن أبي تمام ، وشعره يقوم على كد القريحة والتحيل عليها بمختلف الوسائل. وفي مقابلته للبحتري نرى هذا الشاعر وقد امتلأ حسداً لابن شهيد ، وهي إشارة إلى أن الشاعر الأندلسي تفوق على « أبي الطبع » المشرقي . أمّا الصورة التي وجد عليها أبا نواس فهي مشتقة من شعره ، وتمثل بيئة مسيحية فيها النواقيس والرهابين والكنائس والأديرة والحانات وأبو نواس سكران منذ أيام عشرة « ونزلنا وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه وعكفت غزلانه وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة قد افترش أضغاث زهر واتكأ على زق خمر وبيده طرجهارة وحواليه صبية كأظْبِ تعطو إلى عرارة » . وقد نوع ابن شهيد الانشاد أمام أبي نواس فأنشده خمرية ومرثية في ابنته ومرثية في ابن ذكوان وقصيدة من قصائد السجن وقطعة مجونية ، وأقر له عند سماع المجونية بقوله : « هذا والله شيء لم نلهمه نحن » . وأخيراً انتهى من الشعراء إلى أبي الطيب « وهو صاحب قنص . . . فارس على فرس بيضاء كأنّه قضيب على كثيب وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه ، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى

لها عذبة صفراء » ، واتهمه أبو الطيب بأنّه يستعير من غيره « يتأول » ، وأكبر أبا الطيب أن ينشده وأخذ هو يعرض عليه شعره فتنبأ له أبو الطيب بأنّه ستتفجر عبقريته ولكنّه سيموت مبكراً . ويجدر بنا أن نتأمل موقفه أمام كل واحد من هؤلاء الشعراء وكيف أقروا له ومنهم الجاهلي والمحدث ، وكيف أنشدهم هو شعراً من معارضاته وشعراً مستقلاً غير مبني على المعارضة .

وإذا كان قد مر بالشعراء واحداً إثر واحد ، كل في بيئته الخاصة وعلى هيئته التي تصورها — وفي هذا ما فيه من حركة تخيلية — فإنّه لقي من يسميهم الخطباء مجتمعين في مرج واحد سماه « مرج دهمان » . وقد بدأه صاحب الجاحظ بأن كلامه النثري نظم لأنّه مغرى بالسجع ، فاعتذر عن ذلك بأنّه لا يجهل فضل المماثلة والمقابلة ، ولكنّه عدم ببلده فرسان الكلام ، وهنا تصدى للنثر الأندلسي والناثرين فعابهم جملة وذكر أن كلامهم ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدي إليه طريق ولا للبيان عليه سمة إنّما هي لكنة أعجمية يؤدون بها المعاني تأدية المجوس والنبط . وقد ردّ على صاحب الجاحظ بكلام فيه مماثلة — أي على طريقة الجاحظ — فتنبه لذلك صاحب عبد الحميد ورماه بالتقصير لو أطال ، فرد عليه بكلام ماثل به طريقة عبد الحميد أيضاً وقرأ لهما رسالته في الحلواء على طريقة البديع فاستحسنا سجعه فيها .

وبعد أن جاز الامتحان بنجاح أمام صاحب عبد الحميد وصاحب الجاحظ انتقل يومىء إلى معاصريه الذين يعيبونه فعدّ منهم ثلاثة أشدهم عليه أبو القاسم ابن الإفليلي ، فاستدعى جنّيّهُ إلى الحضرة ورسم له صورة كاريكاتورية : « جني أشمط ربعة وارم الأنف يتظالع في مشيته كاسراً بطرفه وزاوياً لأنفه » . وهنا يعرض علينا ما كان بينه وبين ابن الإفليلي من خصومة إذ يتهمه ابن الإفليلي بقلة الاطلاع ويريد مناظرته في كتاب سيبويه وشرح ابن درستويه فيسخر ابن شهيد من هذه الكتب . فيتصدى له ابن الإفليلي زاعماً أنّه أبو البيان أي

الصفة التي يدعيها الشهيدي لنفسه ، فيُفهمه ابن شهيد أن البيان شيء لا يعلمه المؤدبون وإنّما يعلّمه الله الناس وأنّه لن يكون ذا شأن في البيان إلاّ حتّى يقول نثراً مثل وصف ابن شهيد للبرغوث والثعلب .

ثم يعرض له صاحب بديع الزمان فيقترح عليه ممتحناً أن يصف جارية فيصفها ، ويطلب إليه ابن شهيد أن يسمعه البديع وصفه للماء فيقول البديع متحدياً : ذاك من العقم (أي يعجز عنه ابن شهيد) فيثور ابن شهيد ويولد للماء وصفاً جديداً فيغتاظ صاحب البديع ، ويضرب الأرض برجله فتنفرج عن هوة واسعة يتدهدى فيها حتّى يغيب أثره . ويستمر هو في تحدي ابن الافليلي بالشعر بعد النثر فتظهر عليه الكآبة . ويحاول بعض الجن أن يصلح بينهما فيلج ابن شهيد ويزعم أن ابن الافليلي يتعقبه كثيراً ويجعله موضعاً للتندر في مجالس الطلب . وأخيراً يقول له صاحب الجاحظ وصاحب عبد الحميد إنهما في حيرة من أمره ، أيعدّانه شاعراً أم خطيباً ، ثم يجيزانه بأنّه شاعر خطيب ، ويزدهي أبو عامر حتّى يقول في هذا الموقف : « وانفض الجمع والأبصار إلي ناظرة والأعناق نحوي مائلة » .

ذلك هو القسم الأول الذي وصلنا من هذه الرسالة ، وغاية أبي عامر فيه أن يعرض محاسن شعره ونثره مقيسةً إلى روائع بعض الجاهليين والمحدثين وكبار الناثرين حتّى بديع الزمان ، وأن يبرز هنالك تميزه على أهل بلده ، ويكيد ابن الافليلي الذي كان التهكم به غاية من غايات هذه الرسالة . وقد غفل ابن شهيد أثناء ذلك عن كثير من مقتضيات الحال ، فلا نراه إلاّ على ظهر فرسه يقابل هذا أو ذاك فلا هو يستريح ولا يشعر بشيء من الظمأ ، ولا يدعى إلى طعام أو شراب (ولعل ديار الجن خالية منهما) وتتمثل له دنيا الجن على نحو ناقص لا تعمل فيه القوة الخيالية الخلاقة ، بل إنّه ليصدم أذواقنا بشدة إعجابه بنفسه وازدهائه كلّما أنشد قريضاً أو قرأ

نثراً ، وليس في هذا القسم أي فرع من شجرة الفكاهة .

أما القسم الثاني الذي احتفظ به ابن بسام فإنّه يدور أيضاً حول مشكلة أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشعراء ، مثلما كانت المشكلة الأولى تدور حول المقارنة بين المعارضات . ويورد ابن شهيد أولاً معنى تداوله كل من الأفوه والنابغة وأبي نواس وصريع وحبيب والمتنبي وذلك هو معنى أن الطير ترافق الممدوح لعلمها بانتصاره فتشبع من لحوم القتلى . وتدور محاورة حول المفاضلة بين هؤلاء الشعراء في ذلك المعنى عينه ، وهنا تتفتق قريحة ابن شهيد فيتخذ لنفسه تابعاً آخر — عدا زهير — يسميه فاتك بن الصقعب ثم يستعرض معنى آخر أورده امرؤ القيس في قوله :

سموت إليها بعدما نام أهلها سموَّ حباب الماء حالاً على حالِ

وكيف حاوله عمر بن أبي ربيعة فأخفق ، وهنا يستمع ابن شهيد إلى نصيحة غالية تقول : « إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحْسِنْ تركيبه وأرقَّ حاشيته فاضرب عنه جملة وان لم يكن بد ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك وتقوى منتك » . ثم يقدم لنا نماذج من شعره جاذب بها المتنبي وهو معجب بكل ما يصنع ، ويسمعه شخص آخر من الجن فيسأله محقراً : « على من أخذت هذا الزمير ؟ » ويتحداه بأمثلة أخرى من شعر أبي الطيب فيرد عليه ابن شهيد بقصائد اه معارضاً فإذا عرف الجني أنه من أسرة أكثرها شعراء حلف أن لا يعرض له أبداً ، وقلَّ واضمحل أمّا هذا الجني فاسمه فرعون بن الجون وهو تابع رجل كبير في قرطبة . وعند هذه المرحلة يبلغ إعجاب الشهيدي بنفسه ذروته ، فمن قبل كان تلميذاً للمتنبي يتهيب الانشاد بين يديه ، أمّا وقد غاب المتنبي فلم يعجبه أن يتعصب أحد من أهل بلده للمتنبي ويفضله عليه بل يرى في نفسه شاعراً لا يقع دون

أبي الطيب في أحسن معانيه وأسيرها . وإذا كان الشعر هو إجادة المعارضة وإجادة الأخذ فقد حاز ابن شهيد في المرتين قصب السبق ، وظن أن ذلك يغنيه عن الأصالة بل ظن أن طريقه تلك هي الأصالة عينها ، وبذلك ينتهي القسم الثاني .

وفي القسم الثالث – وهو ما تبقى من الرسالة – منظران أولهما مفاضلة بين شعرين لحمارٍ وبغلٍ من عشاق الجن ، والثاني منظر إوزة تسمى العاقلة ، والمنظران قائمان على التندّر بشخصين معروفين عند أبي عامر مجهولين عندنا وهما من أهل بلده ، أمّا في المنظر الأول فهناك بغلة ترضى بحكم أبي عامر في المفاضلة بين شعر البغل والحمار ثم تقترب لتعرفه بنفسها وتقول له : انها بغلة أبي عيسى ، وتسأله : ماذا فعل الأحبة بعدي ؟ فيقول لها : « شب الغلمان وشاخ الفتيان وتنكرت الخلان ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة ». ولا يخفى ما في هذا الكلام من تهكم بطبقة من اللدات عرفها أبو عامر بقرطبة . وأما الإوزة فإنها أيضاً تابعة شيخ من شيوخ قرطبة وقد رمز له بالإوزة لأنها صغيرة الرأس مشهورة بالحمق محرومة من عقل الطبيعة وقد وصفها بالكبر وادعى أنها اتهمته بأنّه لا يحسن شيئاً من النحو والغريب ؛ ومرة أخرى نعود إلى مثل موقف ابن الافليلي إذ يطلب إليها ابن شهيد أن تحاوره فيما يحسنه من البيان لا فيما ليس يحسنه .

وفي هذه الرسالة كشف أبو عامر عن كثير من آرائه في النقد وصوّر الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع ، وقدم خير ما يختاره من نظمه ونثره مبنياً في أكثره على المعارضة والأخذ ومزج كل ذلك بشيء من التخيل وقسط قليل من الفكاهة وكمية كبيرة من العجب والعنف .

٢ ـ طوق الحمامة

اجتمعت لهذا الكتاب فنون من العناصر ميزته بين غيره من الكتب الأندلسية ، منها أنّه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الأندلس كان شديد العارضة في المدافعة عن الدين ، وقد صرف حياته في المجادلات الفقهية العنيفة ، فتخصيصه شيئاً من وقته للحديث في هذا الموضوع ممّا يستوقف النظر . وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سينكرون عليه تأليفه ويقولون إنّه خالف طريقته وتجافى عن وجهته فقال : وما أحل لأحد أن يظن فيَّ غير ما قصدته ، قال الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ . وصرح أنّه لا يحب المراءاة ولا أن ينسك نسكاً أعجمياً . ومنها الطريقة التي اتبعها ابن حزم في هذا الكتاب ، فقد ألف شيخه ابن داود الأصفهاني كتاب الزهرة وجمع فيه أشعار الحب وخلط ذلك بشيء من أشعاره الخاصة ، أما ابن حزم فقد تقدم استاذه خطوات كثيرة ، حقاً إنّه استغل هذا الكتاب ليعرض فيه أشعاره الغزلية في مواقف متنوعة ، كما فعل صديقه ابن شهيد في التوابع والزوابع ولكن ذلك لم يكن هو غايته الأولى من الكتاب بل كانت غايته الكبرى هي رسم صورة واقعية من حياته هو ومن حياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو « الحب » ، مخفياً أسماء بعض الأشخاص حيناً مصرحاً بها في أحيان كثيرة ، وهذه الناحية من الكتاب هي أقوى ما فيه ، لأنها تضمنت اعترافاته الذاتية وتجاربه وتجارب من حواله في شؤون عاطفية ، فكان ذلك من أجمل ما سجلته كتب التراجم العربية في هذا الباب ، فالكتاب من بعض نواحيه « ترجمة ذاتية » تصور شجاعة صاحبها في الحديث عن نفسه وعن مجتمعه ، كما تدل على نوع دقيق من الاستبطان النفسي ، ومن دراسة عارضة لنفسيات الآخرين . ثم إن هذا الكتاب يحتوي نظرة في الحب تشبه أن

تكون مفلسفة أفلاطونية ، وهي نوع من الحب العذري لم يكن كثير الشيوع في الشعر الأندلسي من قبل ، فشرح الحب على هذه الطريقة حدث هام في الأدب الأندلسي جعل بعض الباحثين من المستشرقين يعقد الصلة بين هذه النظرة الأندلسية وما طرأ من تغير على شعر الحب في أوروبة في القرن الثاني عشر ، وإلى كتاب طوق الحمامة يشير المشيرون حين يتحدثون عن هذا الأثر.

ولا نستطيع أن نعين بالضبط متى كتب ابن حزم كتاب الطوق ، ولكنه ألفه فيما يبدو بعد خروجه من قرطبة بوقت غير طويل ، إذ لا تزال حسرته على دياره ومعاهده التي خربها البربر حية قوية ، كما أنّه يتحدث فيه عن مشاهداته في مدن الأندلس المختلفة ، ممّا يدل على أنّه ربما بدأ بكتابته بُعيد استقراره النهائي واعتزاله الحياة السياسية ، وهذا لم يتم قبل سنة ٤١٩ . ويفصح أنّه حين كتبه كان يسكن شاطبة وأن كتاباً لأحد أصدقائه وصله من المرية ، ثم جاءه صديقه زائراً وكلفه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه . فتكلف التأليف إرضاء لصديقه ، وأخذ على نفسه ألا يقص قصص الأعراب والمتقدمين « فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضي مطيةَ سواي ولا أتحلّى بحلي مستعار » .

وقسم ابن حزم رسالته هذه على ثلاثين باباً :

عشرة منها في أصول الحب ، كعلاماته والحب في النوم والحب بالوصف والحب من نظرة واحدة والتعريض بالقول والإشارة بالعين والمراسلة بالكتاب والسفير — وفي هذا الترتيب نلمح التدرج من أخف أصول الحب — كالحب في النوم — إلى أقواها صلة في الواقع ، ثم كيف يتدرج من التعريض إلى الإشارة إلى المراسلة إلى السفارة .

اثنا عشر في أعراض الحب وصفاته محمودها ومذمومها — وهو يقرن كل صفة بما يناقضها فإذا تحدث عن كتمان السر شفعه بالحديث عن الكشف

والاذاعة ، وإذا تحدث عن الطاعة ألحقها بالكلام في المخالفة ، وشفع الوفاء بالحديث عن الغدْر وهكذا .

ستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب وهي العاذل والرقيب والواشي – وهؤلاء كلهم ذوات – ثم الهجر والبين والسلو – ومرة أخرى نجد هذا التدرج المتصاعد في تصوير هذه الآفات .

خاتمة في بابين تحدث فيهما عن قبح المعصية وعن فضل التعفف لكي يقرن الحب بروح التدين ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فالرسالة من حيث التبويب محكمة البناء ، ولكن ابن حزم يوسع فيها من مدلول الحب ، وفي معرض الاستشهاد يقص قصصاً عن الصداقة مثلاً . وقد يحكي في بعض الأحايين حكايات من الأدب المكشوف . وهي قليلة في الكتاب ، ثم هو يبالغ في استطراف شعره ، وربطه بالأحداث التي يقصها ، وفي كثير من الأحيان لا يكون شعره إلاّ كلاماً منظوماً ، فيصنع مقارنة غير ملائمة مع الحكايات المروية . ويتبسط أحياناً في الشرح والتفصيل حتى يخرج إلى تقرير أمور بديهية مستغنى عنها . ومع ذلك كله فإن هذه العيوب لا تغض كثيراً من قيمة الكتاب ، وقد كتبه مؤلفه في أسلوب حي دون أن يلجأ إلى التزويق اللفظي أو التصنع ، ولو قارناه بالتوابع والزوابع لفضلناه لسهولة طبيعته ، وجريان أسلوبه المسترسل ، ولم نجد فيه جلبة لمعلية . هذا إلى ما فيه من خصائص الكاتب المتأمل في الحياة والناس ، وهو شيء لا يحسنه امرؤ معجب بذاته مثل ابن شهيد .

مُلحَقَاتٌ

١ ـ رسالة في فضل الاندلس وذكر رجالها
لابن حزم

« هكذا سماها ابن خير في فهرسته : ٢٢٦ وسميت أحياناً « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » . أوردها المقري في النمح ٢ . ٧٦٧ وذكر أن الحسن بن محمد التميمي القيرواني كتب إلى أبي المغيرة ابن حزم رسالة يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم ، واطلع أبو محمد على هذه الرسالة فرد عليها بعد وفاة القيرواني ، ويفهم من كلام ابن الأبار في التكملة · ٣٨٨ انه كتبها بطلب من محمد بن عبد الله الفهري يمن الدولة رئيس قامة البونت من أعمال بلنسية ، وذكر الحميدي أنه خاطب بها أبا بكر بن اسحاق صديقه الحميم (الحدوة : ٤٢) وتدل مقدمة الرسالة على أنه قام بالأمرين معاً فاستجاب لطلب يمن الدولة وخاطب أبا بكر » .

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

١ ـ أما بعد يا أخي يا أبا بكر [١] سلام عليك . سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي . ثم لقيك في حال سفر ونقلة ، ووادّك في خلال جولة ورحلة ، فلم يقض من مجاورتك أرباً . ولا بلغ في محاورتك مطلباً ، وإنّي لما احتللت بلك . وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً فتأملته . فإذا فيه خطاب لبعض الكتّاب من مصاقبينا [٢] في الدار ، أهل إفريقية ، ثم ممن

---

١ هو أبو بكر محمد بن إسحاق صديق ابن حزم ، والمتنقل معه في الأندلس ، والمعتقل معه على يد خيران (انظر الجذوة · ٤٢ وطوق الحمامة في صفحات متفرقة) .

٢ النفح · مصافينا .

ضمنه حضرة قيروانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه[1] ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس ، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف ، فإن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهائهم ، ومناقب قضاتهم ، ومفاخر كتابهم ، وفضائل علمائهم ؛ ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم ، ويبقي علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه ، بأن شيئاً من هذه التآليف لو كان منّا موجوداً لكان إليهم منقولاً ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار وكثرة السُّفّار ، وترددنا[2] إليهم ، وتكررهم علينا .

٢ – ثم لمّا ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الآهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومحل السؤدد ، ومحط رحال الخائفين ، وملقى عصا التسيار ، عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته ، ولا ينال حُضْرُهُ[3] هُوَيْناه ، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور ،

١ هذا عجيب فقد صرح ابن بسام أن أبا علي ابن الربيب القروي كتب إلى أبي المغيرة ابن حزم رسالة بهذا المعنى وأن أبا المغيرة رد عليه برسالة أطال فيها القول وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس . الذخيرة ١/١ . ١١١ – ١١٦ ، وهذا هو عين ما قاله صاحب النفح ٢ : ٧٦٦

٢ النفح : وترددهم .

٣ الحضر : سرعة الجري .

وأجتزي من الإطالة في تقريظه بمنتماه المذكور ، فحسبي بذينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور وفضله المشهور ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت[1] ، أطال الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه ، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه . فرأيته أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي ، أو بعد عنه فخفي ، فتناولت الجواب المذكور ، بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات ، رحمنا الله تعالى وإياه ، فلم يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمسمعين من في القبور ، فصرفت عنان الخطاب إليك . إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاوب عنه . ومن لدنك وصلت إليّ الرسالة المعارضة . وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كناية لمن غاب عنه من أخبار تآليف أهل بلدنا ، مثلما غاب عن هذا الباحث الأول ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا «كمهد إلى البركان نار الحباحب» ، وباني صوّى في مهيع القصد اللاحب ، فإنّك وإن كنت المقصود والمواجه فإنّما المراد من أهل تلك الناحية من نأى عنهم علمُ ما استجلبه السائل الماضي . وما توفيقي إلاّ بالله سبحانه .

٣ — فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي[2] التاريخي كتباً جمّة منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات

١ البونت : قرية من أعمال بلنسية ، استقل فيها بنو قاسم بعد الفتنة وأولهم عبد الله بن قاسم الذي توفي سنة ٤٢١ وخلفه ابنه محمد الملقب بيمن الدولة ، وبقي فيها والياً حتى ٤٣٤ (أعمال الأعلام : ٣٠٨)

٢ الجذوة : ٩٦ — ٩٧ وطبقات الزبيدي : ٣٢٧

مدنها وأجنادها الستة[1] ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه ممّا ليس في غيره ، وهو كتاب مربح مليح . وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلاّ ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشّر به ، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه ، بصفات الملوك على الأسرّة ، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان ، زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت ، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين ، حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك ، يَسُرُّ عاجله ويغبط آجله . فإن قال قائل : لعله صلوات الله تعالى عليه إنّما عنى بذلك الحديث أهل صقلية واقريطش ، وما الدليل على ما ادعيته من أنّه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتماً ، ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح . فالجواب ، وبالله التوفيق ، أنّه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحي إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم ، وخبره الحق ، بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك ، وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخرت عن بغلتها هناك ، فتوفيت رحمها الله تعالى ، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشّر بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت أم

[1] لعله يعني الأجناد التي نزلت الأندلس في طالعة بلج القشيري وفرقها أبو الخطار على الكور. انظر النفح ١ : ١١٢ والإحاطة ١ : ١٠٩

حرام منهم ، كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يظن به ، وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان ، أنّه يذكر طائفتين قد سمّى إحداهما أولى ، إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية ، ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثانٍ ضرورة . وهو صلى الله عليه وسلم إنّما ذكر طائفتين ، وبشّر بفئتين ، وسمّى إحداهما الأولين ، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدقِ آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر صلى الله عليه وسلم أنّه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّه خير من كل قرن بعده . ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري ، وأما صقلية فإنها فتحت صَدْرَ أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازياً أسدُ بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبها مات ، وأما اقريطش فإنّها فُتحت بعد الثلاث والمائتين [١] ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب [٢] ، المعروف بابن الغليظ [٣] ، من أهل قرية بطروج [٤] ، من عمل فحص البلوط ، المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلّ الربضيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة

١ الجذوة : بعد الثلاثين والمائتين .
٢ ترجمته في الجذوة : ٢٨٢ وقد نقل الحميدي ما قاله ابن حزم .
٣ الجذوة : المعروف بالغليظ .
٤ ويقال : بطروش ، وهو حصن شامخ الحصانة من أعمال قرطبة ويحيط البلوط بجباله وسهوله ، وأهلها يحفظونه ، ويستعينون به على الغذاء في أيام الشدة .

٣٥٠ ، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس .

٤ — وأمّا في قسم الأقاليم فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ومَعَقّ تمائمنا ، مع سرّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلاّ مغرّبة عن مطالعها على الجزء المعمور . وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك ، على كل حال ، حظّ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم ، والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانته التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائي الأقطار ، فسيح المجال .

٥ — والذي نعاه علينا الكاتب المذكور ، لو كان كما ذكر ، لكنا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر ، وجلائل البلاد ، ومتسعات الأعمال . فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما أذكر أنّي رأيت في أخبارها تأليفاً غير المعرب عن أخبار المغرب وحاشا تآليف محمد بن يوسف الوراق[١] ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم[٢] كتباً جمة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت ووهران وتونس[٣] وسجلماسة ونكور والبصرة[٤] وغيرها

١ الجذوة : ٩٠ ، والبغية : ٣٠٤ والوافي ٥ رقم : ٢٣٢٧ .
٢ الجذوة : والغالبين عليهم .
٣ الجذوة : وتنس .
٤ نكور مدينة في المغرب على ساحل البحر الأبيض ، والبصرة المعنية هنا موضع ببلاد المغرب أيضاً .

تآليف حساناً . ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع ، آباؤه من وادي الحجارة [1] ومدفنه بقرطبة وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان .

٦ — ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا ، إذ مرادنا أن نأتي منه بالمطلب ، فيما يستأنف ، إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين ، دون محاشاة أحد ،بل قد تيقنّا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم ، وإنّما سكن علي الكوفة خمسة أعوام وأشهراً [2] ، وقد بقي ٥٨ عاماً وأشهراً بمكة والمدينة شرّفهما الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا . وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين ، وأنس ابن مالك ، وهشام بن عامر ، وأبي بكرة ، وهؤلاء : مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلتْ هنالك . وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم . وكذلك في المصريين : عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي المكيين : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير [3] ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ، فيمن هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقٌ به ، وهو منّا بحكم جميع أولي الأمر منا ، الذين إجماعهم فرضٌ اتباعه ، وخلافه

١ تعرف أيضاً بمدينة الفرج بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا (الروض : ١٩٣) .

٢ علق ابن حجر على هذا بقوله : صوابه أربعة أعوام (النفح ٢ : ٧٧٥) .

٣ هذا هو النظام الذي جرى عليه ابن سعد في الطبقات ، ولكن الأمر في ذلك يختلف عما يذهب إليه ابن حزم ، فليس هناك من مترجم مثلا يقول : إن علياً كوفي أو إن عمراً مصري .

محرم اقترافه . ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظّ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به ، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم ، فكذلك لا ننازع في محمد بن هانىء سوانا ، والعدل أولى ما حُرِصَ عليه . والتَّصَفُ أفْضَلُ ما دُعي إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه . وعلى ما ذكرنا من الإنصاف تراضى الكل .

٧ — وهذه بغداد حاضرة الدنيا ، ومعدن كل فضيلة . والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف . والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر . وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا : وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر [1] . وأمّا سائر التواريخ التي ألفها أهلها . فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد . ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر ابن شبة [2] . وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان ، في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر ، كريزي النسب ، [في] صفاتها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة [3] . وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والسند والري وأرمينية وأذربيجان

١ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (— ٢٨٠) : ترجمته في معجم الأدباء ١ : ١٥٢ وتاريخ بغداد والفهرست ، وقد بقيت قطعة من كتابه تاريخ بغداد نشرها المستشرق هنسي كلر بالزنكوغراف ١٩٠٨ وأعيد طبعها بمصر ١٣٦٨ هـ. وبقي من كتابه المنظوم والمنثور جزءان (القاهرة ، أدب ٥٨٧) .

٢ انظر ترجمة عمر بن شبة في معجم الأدباء ٦ : ٤٨١ ، والتهذيب ٧ : ٤٦٠ ، وبغية الوعاة : ٣٦١ . والكتاب الذي يشير إليه ابن حزم هو : أخبار أهل البصرة .

٣ ذكر السخاوي فيمن ألف في الكوفة : ابن مجالد ، وعمر بن شبة ، وأبا الحسين محمد بن جعفر التميمي الكوفي النحوي (الإعلان : ١٢٨) .

وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها[1] ولقد تاقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد . وما علمناه علم على أنهم العلية الرؤساء والأكابر العظماء . ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تآليفهم . وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان[2] ، وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر . وكما بلغنا سائر تآليفهم في أنحاء العلوم . وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى[3] . وكذلك بلغنا رد القاضي [عبد الله بن] أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة وتشنيعه على الشافعي[4] ، وكتب ابن عبدوس ومحمد بن سحنون[5] وغير ذلك من خوامل تآليفهم دون مشهورها .

٨ — وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر «أزهد الناس في عالم أهله» . وقرأت في الانجيل أن عيسى عليه السلام قال : «لا يفقد النبي

١ استفاص التاريخ للبلدان بعد ابن حزم ، انظر الإحاطة ١ : ٩٠ وما بعدها ، وانظر الاعلام بالتوبيخ للسخاوي ١٢١ — ١٣٥

٢ حمزة بن الحسن الأصبهاني : ترجم له أبو نعيم في تاريخ أصبهان ١ : ٣٠٠ وقد وصلنا من كتبه تواريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، والدرة الفاخرة ، وهي الأمثال التي جاءت على وزن افعل التفضيل (ميونخ : ٦٤٢ والفاتيكان : ٥٢٦ وداماد إبراهيم ٩٦٣) ، وشرح ديوان أبي نواس (نشر منه الجزء الأول بعناية فاغنر) . ولم يوجد كتابه في أخبار أصبهان .

٣ انظر الخشني : ٣٠٦ ، وكان ابن عبدون قاضياً . وكذلك : ٢٤٢ ؛ قال : وكان موثقاً كاتباً للشروط والوثائق .

٤ انظر المالكي : ٣٧٥ ، ٥٠٤ ؛ قال وله كتب يرد فيها على الشافعي لا بأس بها .

٥ انظر الخشني : ١٨٢ ، ١٧٨ ، والمالكي : ٣٦٠ ، ٣٤٥ حيث ترجمة كل من ابن عبدوس وابن سحنون .

حرمته إلاّ في بلده » . وقد تيقنّا ذلك بما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاماً ، وأصحهم عقولاً ، وأشدهم تثبتاً ، مع ما خُصوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء . ولا سيما أندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد . ان أجاد قالوا : سارقٌ مُغير ، ومنتحلٌ مُدَّعٍ ، وإن توسط قالوا : غثّ بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمه الهَبَل . وبعد ذلك ان ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يُعليه على نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهنالك حمي الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نُحِلَ ما لم يَقُلْ ، وطُوِّقَ ما لم يتقلد ، وأُلحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه ، وبالحرى . وهو السابق المبرز ان لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليفٍ غُمِزَ ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه . وعظم يسير خطبه ، واستشنع هيّن سقطه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكلُّ نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل رسالة ، فإنّه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب ، إلاّ الناهض الفائت ، والمطفف المستولي على الأمد .

٩ — وعلى ذلك ، فقد جُمِعَ ما طنّه الظانُّ غيرَ مجموع ، وأُلفت

عندنا تآليف في غاية الحسن ، لنا خَطَرُ السبقِ في بعضها ، فمنها : كتابُ الهداية لعيسى بن دينار[1] ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب . فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق . ومن الكتب المالكية التي أُلفت بالأندلس : كتاب القطني مالك بن علي[2] ، وهو رجل قرشي من بني فهر ، لقي أصحاب مالك ، وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات . ومنها كتاب أبي إسحاق [يحيى بن] إبراهيم بن مزين[3] في تفسير الموطإ ، والكتب المستقصية لمعاني الموطإ وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضاً . وكتابه في رجال الموطإ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطإه .

١٠ — وفي تفسير القرآن : كتاب أبي عبد الرحمن بقيّ بن مخلد[4] فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنّه لم يُؤلفْ في الاسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنّفهُ الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم . فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف . ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحَدٍ قبله ، مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنّه روى عن مائتي رجل و ٨٤ رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء . وسائرهم أعلام مشاهير .

١ الجذوة ٠ ٢٧٩ (توفي ٢١٢ ﻫ) وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث ، ولم يورد الحميدي أسماء كتبه .

٢ في النفح : القصي والتصويب عن الجذوة ٣٢٤ ، وهو من نسل عبد الملك بن قطن الفهري والي الأندلس (توفي ٢٦٨) بعد أن كف بصره .

٣ الجذوة . ١٤٨

٤ الجذوة ٠ ١٦٧ وهو ينقل النص الموجود هنا ، وانظر ترجمته في الصلة ١ : ١١٨

ومنها مُصَنَّفُهُ في فضل[1] الصحابة والتابعين ومن دونهم ، الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها ، وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه ، فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام لا نظير لها . وكان متخيراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه . ومنها في أحكام القرآن : كتاب ابن آمنة الحجاري[2] ، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد[3] وكان داودي المذهب ، قوياً على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات : منها كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة . ومنها في الحديث : مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح[4] ، ومصنف محمد ابن عبد الملك بن أيمن[5] ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات ، ولقاسم بن اصبغ هذا تآليف حسان جداً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل[6] وكلامه ، ومنها كتاب المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى وهو خير منه [انتقاء][7] وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة . ومنها كتاب في فضائل قريش وكنانة ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس

١ الجذوة : فتاوى .
٢ في النفح : ابن أمية ، والتصحيح عن الجذوة : ٣٨٠
٣ كان قاضي الجماعة في حياة الحكم المستنصر ، وهو خطيب الأندلس وفقيهها ، انظر الجذوة : ٣٢٦ ، وطبقات الزبيدي : ٣١٩ ، وابن الفرضي ٢ : ١٤٢ . ومن مصنفاته : الانباه على استنباط الأحكام من كتاب الله .
٤ الجذوة : ٣١١ ، وتوفي ابن أصبغ سنة ٣٤٠
٥ انظر الجذوة : ٦٣ ، وتوفي ابن ايمن سنة ٣٣٠
٦ هو إسماعيل بن إسحاق القاضي .
٧ زيادة من الجذوة .

في الموطإ ، ومنها كتاب التمهيد لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر[1] ، وهو الآن بعد في الحياة ، لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً ، فكيف أحسن منه . ومنها كتاب الاستذكار وهو اختصار التمهيد المذكور . ولصاحبنا أبي عمر ابن عبد البر المذكور كتب لا مثل لها منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً[2] اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوّبَهُ وقرّبه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه . ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله ، على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء والحجة لكل منهما . ومنها كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات . ومنها كتاب جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته[3] . ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف بن الفرضي[4] في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال . — ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين — لا أعلم مثله في فنه البتة . ومنها تاريخ أحمد

---

١ الجذوة : ٣٤٤ ، والصلة : ٦٤٠ ، وتوفي ابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ .

٢ الجذوة : ستة عشر جزءاً .

٣ اغفل ذكر الدرر في اختصار المغازي والسير وكتاب الشواهد في إثبات خبر الواحد وكتاب البيان عن تلاوة القرآن وكتاب التحويد والمدخل إلى العلم بالتحديد وكتاب العقل والعقلاء وكتاب أخبار أئمة الأنصار . أما كتاب جامع بيان العلم فقد طبع في جزئين (إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ) وطبع مجرداً من الإسناد باسم مختصر جامع بيان العلم في جزء واحد .

٤ ابن الفرضي أبو الوليد هو الحافظ الراوية قتل في الفتنة ٤٠٣ ، انظر الجذوة : ٢٣٧ وقد وصلنا من كتبه كتاب في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس .

ابن سعيد[1] ، ما وضع في الرجال أحد مثله ، إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي . ولم أره . وأحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف القائم في ذلك . ومنها كتب محمد بن [أحمد بن] يحيى بن مفرج القاضي[2] وهي كثيرة ، منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري . ومما يتعلّق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي[3] فما شآه أبو عبيد إلاّ بتقدم العصر فقط . ومنها في الفقه الواضحة والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها . ومنها المستخرجة من الأسمعة وهي المعروفة بـ « العتبية »[4] ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث . والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام[5] الاشبيلي المعروف بابن المكوي[6] ، والقرشي أبو مروان المعيطي[7] ، في جمع أقاويل مالك ، كلها على نحو الكتاب الباهر الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد المصري أقاويل الشافعي كلها .

....

١ الجذوة : ١١٧ وأحمد بن سعيد هو الصدفي (توفي سنة ٣٥٠) ألف في تاريخ الرجال كتاباً كبيراً جمع فيه جميع ما أمكنه من أقوال الناس في العدالة والتجريح .

٢ الجذوة : ٣٨

٣ في النفح : عامر بن خلف السرقسطي ، والتصويب من الجذوة : ٣٢٢ وقد نقل تعليق ابن حزم هنالك .

٤ الواضحة لعبد الملك بن حبيب والعتبية لتلميذه العتبي (الجذوة ٢٦٤ ، ٣٧) وهاهنا يذكر ابن حزم ما تفتخر به الأندلس بقطع النظر عن رأيه هو فيه ، لأنه لا يرى عبد الملك أو تلميذه من ثقات أهل الحديث ، وفي الكتابين من غرائب الحديث ما لا يقبله مثل ابن حزم .

٥ الجذوة : هاشم .

٦ في النفح الكوي .

٧ في النفح : البصري . وترجمة ابن المكوي في الجذوة : ١٢٣ ، والصلة : ٢٨ (توفي سنة ٤٠١) واسم المعيطي : محمد بن عبيد الله القرشي ، وقد قال ابن بشكوال انهما جمعا الكتاب للمستنصر ، أما الحميدي فذكر أنهما جمعاه بأمر المنصور بن أبي عامر . واسم الكتاب المجموع « الاستيعاب » .

ومنها كتاب المنتخب الذي ألّفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، وما رأيت لمالكي قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها ، وتفريع وجوهها . وتآليف قاسم بن محمد[1] المعروف بصاحب الوثائق ، وكلّها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظاراً ، جارياً في ميدان البغداديين .

١١ — ومنها في اللغة الكتاب البارع[2] الذي ألفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف مثله في بابه ، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية[3] ، بزيادات ابن طريف[4] ، مولى العبديين ، فلم يوضع في فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني في اللغة[5] ، لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة بعد . وهاهنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي : أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية وجّه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية . وأبو غالب ساكن بها ، ألف دينار أندلسية ، على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « ممّا ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد » فردّ الدنانير وأبى من ذلك ، ولم يفتح في هذا باباً البتة وقال : والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، لأني لم أجمعه له خاصة ، بل لكل طالب [عامة][6] .

١ الجذوة : ٣١٠ وتوفي قاسم سنة ٢٧٨ وله كتاب الإيضاح في الرد على المقلدين .
٢ بقيت من هذا الكتاب قطعة أخرجها Fulton بالزنكوغراف ، لندن ١٩٣٣
٣ في النفح : محمد بن عامر العزي والتصويب عن الجذوة : ٧١ ، وقد وصلنا من كتبه كتاب الأفعال وكتاب افتتاح الأندلس .
٤ انظر ترجمة ابن طريف في الجذوة : ٣٨١
٥ الجذوة : ١٧٢ وقد نقل الحكاية عن مجاهد العامري وابن التياني . وانظر أيضاً الصلة ١ : ١٢٢
٦ زيادة من الجذوة .

فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها . ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد[1] في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس ، في غاية الايعاب ، يدأ بالفلك ، وختم بالذرة . وكتاب النوادر[2] لأبي علي إسماعيل بن القاسم وهو مُبارٍ لكتاب الكامل لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً ، فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً . وكتاب الفصوص لصاعد بن الحسن الربعي[3] وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين . ومن الانحاء تفسير الجرفي[4] لكتاب الكسائي حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش[5] .

١٢ — ومما ألف في الشعر : كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الأندلس[6] ، كتاب حسن ، وكتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن

١ الجذوة : ١١٠ ، والصلة : ١٤ وكان صاحب الشرطة بقرطبة ، أخذ عن القالي كتاب النوادر ، وتوفي سنة ٣٨٢ وترجم له صاحب الجذوة مرة أخرى تحت « ابن سيد » : ٣٨١ ونقل ما قاله ابن حزم هنا .

٢ هو المشهور باسم « كتاب الأمالي » .

٣ ترجمة صاعد في الجذوة : ٢٢٣ ، والبغية رقم : ٨٥٢

٤ في النفح : الحوفي والتصحيح عن الجذوة : ٣٨٤ وضبطه بالجيم وضمها ، وهو في البغية رقم : ١٥٧٦

٥ ترجمة ابن سيده ، رقم ٨٩٢ في الصلة (٢ : ٣٩٦) ، وهو صاحب المخصص والمحكم وغيرهما ، وتوفي سنة ٤٥٨ . وقد ذكر الحميدي كتاب العالم والمتعلم وشرح كتاب الأخفش عند الكلام على ابن سيد المتقدم الذكر ، ويبدو أن المصادر اضطربت في نسبة هذين الكتابين لتشابه الاسمين ولكن من العريب أن يذكر ابن حزم مؤلفات ابن سيد في مكانين .

٦ عبادة بن ماء السماء : ترجم له في الجذوة : ٢٧٤ والصلة : ٤٢٦ والذخيرة ، ولابن حيان في المقتبس نقول عن كتاب لعبادة ، وكذلك ينقل ابن سعيد في المغرب عن كتابه في طبقات الشعراء (انظر المغرب ١ : ١١٥ ، ١٢٥) .

فرج[1] ، عارض به كتاب الزهرة لأبي [بكر] محمد [بن] داود رحمه الله تعالى ، إلاّ أن أبا بكر إنّما أدخل مائة باب ، في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فرداً في معناه . ومنها كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب[2] وهو حي بعد . وممّا يتعلق بذلك : شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الافليلي لشعر المتنبي ، وهو حسن جدّاً .

١٣ — ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم وذلك كثير جدّاً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها . وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه . وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف[3] . وفي أخبار بني قسي والتجيبيين وبني الطويل بالثغر[4] . فقد رأيت من ذلك كتباً

١ أحمد بن فرج : ترجمته في الجذوة . ٩٧ والصلة ١ : ١٢ والمغرب ٢ : ٥٦ واليتيمة ١ : ٣٦٨ وقلائد العقيان : ٧٩ ، ولم يصلنا كتاب الحدائق ولكن الحميدي وابن الأبار في الحلية وابن سعيد في المغرب نقلوا عنه كثيراً .

٢ علي بن محمد بن أبي الحسين الكاتب : ترجمته في الجذوة : ٢٩٠ قال الحميدي . كان في الدولة العامرية وعاش إلى أيام الفتنة .

٣ انظر المقتبس : ١٥

٤ من أخبار هؤلاء الثائرين طرف في المقتبس وابن عذاري ، وانظر في التعريف بهم وبأنسابهم كتاب الجمهرة ٠ ٤٦٤ ، أما التجيبيون فهم من العرب ، وأما بنو قسي وبنو الطويل وهم بنو شبراط فإنهم من المولدين .

مصنفة في غاية الحسن . وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني [1] . وكتاب محمد بن الحارث الخشني في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها [2] . وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز . وكتابه في فضائل بني أمية . وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس . ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس ، تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار ، من أجلّ كتاب أُلف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتهال [3] ، وكتاب المآثر العامرية لحسين بن عاصم [4] في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأقشتين محمد بن عاصم النحوي في طبقات الكتّاب

١ في النفح : الليثي ، وترجمته في الجذوة : ١٥٩ ومعجم البلدان (رية) .
٢ توفي الخشني ٣٦١ هـ ، وترجمته في الجذوة : ٤٩ ، وقد وصلنا كتابه في أخبار قضاة الأندلس الذي ألفه بطلب من الحكم المستنصر ونشره ريبير ١٩١٤ ونشر بمصر ١٣٧٢ وكذلك وصلنا كتابه علماء إفريقية وهو مطبوع مع الكتاب الأول ، وقول ابن حزم « بها » يدل على أن للخشني كتاباً في علماء الأندلس وفقهائها وهو غير الكتاب السابق .
٣ مؤرخ الأندلس المشهور حيان بن خلف أبو مروان ، انظر ترجمته في الصلة ١ : ١٥٠ والذخيرة ١ / ٢ : ٨٤ – ١١٤ ، وانظر ملحق بروكلمان ١ : ٥٧٨ لأسماء كتبه ، وقد نشرت قطعة من المقتبس بعناية الأب ملشور انطونية بباريس ١٩٣٧ ومن تواريخ ابن حيان نقول كثيرة في الكتب الأندلسية وبخاصة في الذخيرة .
٤ حسين بن عاصم : ترجمته في الجذوة : ١٨١

بالأندلس [1] . وكتاب سكن بن سعيد في ذلك [2] . وكتاب أحمد بن فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم . وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان ابن جلجل [3] .

١٤ — وأمّا الطب : فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب رفيعة حسان [4] . وكتب محمد بن الحسن المذحجي استاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتب رفيعة حسان [5] . وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي . وقد أدركناه وشاهدناه . ولئن قلنا إنّه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع ، لنصدقن [6] . وكتب ابن الهيثم [7] في الخواص والسموم والعقاقير من أجلّ الكتب وأنفعها .

١٥ — وأمّا الفلسفة : فإنّي رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه

١ الأقشتين : ترجمته في الجذوة : ٧٤ والبغية رقم : ٢٤٣

٢ سكن بن سعيد . ترجمته في الجذوة : ٢١٩ والبغية رقم : ٨٣٤

٣ ألف ابن جلجل هذا الكتاب سنة ٣٧٧ وقد نشر نشرة محققة جيدة بعناية الأستاذ فؤاد السيد (مطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥) ، مع مقدمة ضافية في التعريف بالكتاب ومؤلفه .

٤ يحيى بن اسحاق : ترجمته في ابن جلجل . ١٠٠ وابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٨ والجذوة : ٣٥١ والبغية رقم ١٤٦٠

٥ محمد بن الحسن المذحجي : (يكتب ابن الحسين في طبقات صاعد وابن أبي أصيبعة ، ويكتب ابن الحسن حيث ورد في مؤلفات ابن حزم من مطبوع ومخطوط) ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٧٣ والجذوة : ٤٥ والبغية رقم : ٨١

٦ خلف بن عباس (في النفح : عياش) الزهراوي : ترجمته في ابن أبي أصيبعة ٣ : ٨٥ والجذوة : ١٩٥ والبغية رقم : ٧١٥ ومن كتابه التصريف نسخ مخطوطة في برلين وباريس وولي الدين وغيرها (راجع ملحق بروكلمان ١ : ٤٢٥)

٧ اسمه عبد الرحمن بن إسحاق وترجمته في ابن أبي أصيبعة : ٧٤

الصناعة[1] ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

١٦ — وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلاّ أنّي سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممّن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنّه لم يؤلف في الازياج مثل زيج مسلمة[2] وزيج ابن السمح[3] . وهما من أهل بلدنا . وكذلك كتاب لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه .

١٧ — وإنّما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلاّ في أحدها[4] ، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتمه أو شيء مستغلق يشرحه أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق يجمعه أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه . وأمّا التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

١ سعيد بن فتحون السرقسطي : ترجمته في الجذوة : ٢١٦ والبغية رقم : ٨١٣ وطبقات الأمم ٧٨ وله تآليف في الموسيقى ورسالة في المدخل إلى علوم الفلسفة سماها « شجرة الحكمة » ورسالة في تعديل العلوم . نالته منحة أيام المنصور بن أبي عامر فهاجر إلى صقلية وبها توفي .

٢ مسلمة : هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد من أهل قرطبة توفي ٣٩٨ وله تعديل زيج البتاني ولعله الذي يشير إليه ابن حزم (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٨ وابن القفطي : ٣٢٦ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في بروكلمان الملحق ١ : ٤٣١) .

٣ ابن السمح : أبو القاسم اصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي كان في زمن الحكم ومن كتبه زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند توفي سنة ٤٢٦ (ابن أبي أصيبعة ٣ : ٦٢ وطبقات الأمم : ٧٩ وانظر مؤلفاته التي وصلتنا في تاريخ بروكلمان ١ . ٤٧٢ والملحق ١ : ٨٦١) .

٤ التواليف السبعة : قابل بين ما جاء هنا وما ذكره ابن حزم في كتاب التقريب : ١٠

١٨ — وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب. فهي على كل حال غير عريّة عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال. نُظّارٌ على أصوله، ولهم فيه تآليف منهم: خليل بن إسحاق [1] ويحيى بن السمينة [2] والحاجب موسى بن حدير [3] وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد. وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك.

١٩ — ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى، وهو وإن كان صغير الجرم، قليل عدد الورق. يزيد على المائتين زيادة يسيرة، فعظيم الفائدة، لأنّا اسقطنا فيه المشاغب كلّها، وأضربنا عن التطويل جملة، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة. ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة، منها ما قد تم. ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منه صدر، ويعين الله تعالى على باقيه. لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها. ولا أردنا السمعة فنسميها، والمراد بها ربنا جل وجهه. وهو ولي العون فيها، والملي بالمجازاة عليها، وما كان لله تعالى فسيبدو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٢٠ — وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء، فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إنْ طُلِبَ مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك. على قرب المسافة في هذه

١ خليل بن إسحاق: لعل صوابه خليل بن عبد الملك (ابن الفرضي ١ : ١٦٥ والتكملة ١ : ٣٠٩) وهو ممن صحب ابن مسرة وكان يقول بالاستطاعة وتتلمذ له ابن السمينة.

٢ يحيى بن السمينة توفي سنة ٣١٥، ترجمته في طبقات الأمم ٧٤ وابن الفرضي ٢ : ١٨٥

٣ موسى بن محمد بن حدير: ترجمته في الجذوة ٣١٦ والبغية رقم: ١٣٢٠ وأخوه أحمد بن محمد بن حدير ولي أيضاً الوزارة والقيادة لعبد الرحمن الناصر.

البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

٢١ — ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي[1] في الشعر ، لم نباه به إلاّ جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلاّ محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلاّ القفّال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبته المزني بن إبراهيم[2] والتلمذة له . وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلاّ أبا الحسن ابن المفلس (المغلس ؟) والخلال والديباجي ورويم بن أحمد وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته . وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة[3] وعمّه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة[4] لم نناطح بهم إلاّ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد ابن عبدوس . وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي[5] وأبي عبد الله محمد ابن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلاّ أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص وأحمد ابن فرج وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ،

---

١ ترجمة جعونة في الجذوة ١٧٧ والبغية رقم : ٦٢٦ والمغرب ١ : ١٣١

٢ الجذوة : أبي إبراهيم المزني .

٣ الجذوة : ٧١ والبغية رقم : ٢٢٢

٤ فضل بن سلمة الجهني مولاهم توفي سنة ٣١٧ أو ٣١٩ ، انظر الجذوة : ٣٠٨ والبغية رقم : ١٢٨٣

٥ محمد بن يحيى الرباحي : ترجمته في الجذوة : ٩١ والبغية رقم : ٣١٢

وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا وهو حي بعد ، لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركّبٍ من لساني عمرو وسهل . ومحمد بن عبد الله ابن مسرة في طريقه التي سلك فيها وإن كنا لا نرضى مذهبه ، في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلاّ ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة . وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم .

انتهت الرسالة

٢

قطعة من شعر ابن حزم[١]

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم قال الفقيه الإمام الأوحد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي رضي الله عنه[٢] :

١

لكَ الحَمْدُ يا ربّ والشكرُ ثمْ　　لكَ الحمدُ ما باحَ بالشُّكْرِ فَمْ
لك الحمدُ في كلّ ما حالة　　فقد خصَّني منكَ فَضْلٌ وَعَمْ
من الماء أنشأتَني نُطْفَةً　　ومن بَعْدِ ذلك لحمٌ ودمْ
وأسكنتَ في جسدي روحَهُ　　وأجعلتها في طِباقِ الرَّحِمْ
وأخرجتني بعدُ في عالمي　　وَبَلّغْتَني درجاتِ الفَهِمْ
فمنكَ لي البصرُ المُقْتَفي　　وسمعٌ وذوقٌ ونُطْقٌ وَشَمْ
وَحِسٌّ صحيحٌ وتمييزُ ما　　خلَقْتَ بأنواعه من أُمَمْ
ومكَّنْتَني من فنونِ العلومِ　　بِبادي الكلامِ وَخَطّ القَلَمْ

١ انما أثبت هذه القطعة لأنها وردت مجتمعة في مخطوطة مستقلة كتب عليها اسم ديوان ابن حزم ، وليس لها فيها إلا القصائد الواردة هنا ، وبقية المخطوطة من لزوميات أبي العلاء ، وقد وردت القصائد بهذا الترتيب في مسالك الأبصار مما يدل على أن هذه القطعة قد تكون مأخوذة من ذلك الكتاب .

٢ قال ابن خير في فهرسته : ٤١٧ إن هذه القصيدة ٧٣ بيتاً ، وقد بلغت هنا ثمانين .

وعلمتني الحُكْمَ في هلْ وَما   وأطْلَعتْني طِلْعَ كيفَ ولِمْ[١]
وَحَدَّ الحقائِق مَيَّزْتَ لي   من البـاطل المُتَّقَى في الكَلِمْ
ببرهانِ صدقٍ يُليحُ اليقينَ   وينفي المحـالَ وَيُبدي الحكمْ
ويوفي المسمّى بيانَ اسمهِ   ويحتَدُّ بالوصف ما لم يُسَمْ
وَمِنْ هَيْئةِ الفَلَكِ المستديرِ   وقفتُ عـلى حَدِّهِ المُنْتَظِمْ
ومـا فيـه من فَلَكٍ دائرٍ   ومن كوكبٍ قاطعٍ كالعَلَمْ
فأكبَرُهـا قاصداً مَغْرِباً   وسائِرُها جهـةَ الشَّرْقِ أمّ
إدارةَ ربٍّ لهـا منشيء   يُصَرِّفُها أمْرُهُ حيثُ حُمْ
يخالفُ ما بينَ أدوارهـا   على سَنَنٍ راتبٍ مستَتِمْ
ليعلمَ أهْلُ النّهَى أنهـا   مُدَبّرةٌ لحـكيمٍ حَكَمْ
وأنْ ليسَ تختارُ شَيْئاً ولا   لهـا الحُكْمُ بل لإلهِ الأمَمْ
يُديرُ بأزمانهـا دهرهـا   فيثبتُ مبدؤُها لِلْفَهِمْ
وتشهدُ أنَّ الذي صاغَهـا   هو الواحدُ الحقُّ باري النَّسَمْ
هو الأوَّلُ المُبْتَدي خَلْقَها   كما شاء إذْ شاء فَرّقَ وضَمّ
فأبدى الزمانَ وأبدى المكانَ   ومـا فيهما صاغَ بدءاً ولَمّ
هواء ومـاء وأرضٌ ونارٌ   ومشرقُ أنوارهـا والظُّلَمْ
نهارٌ مضيء وليل أحَمّ   وبحرٌ عميقٌ وَطَوْدٌ أشَمْ
وَرَكّبَ لاميها كيفَ شاء   سُكّانَ بَرٍّ وسكّانَ يَمْ
ونبتٌ يقومُ عـلى ساقِـهِ   وآخرُ لا ساقَ يُعْلِيهِ ثُمْ
بِلا فيمَ قطعاً ولا لِمْ ولا   هنالك مِمّ ولا فيه كَمْ
ولا كانَ شيء سواه لـه   مثالاً ولا مُخْرِباً ما نَظَمْ

١ انظر أقسام السؤال في كتاب التقريب : ١٨٢ ، والأبيات ٩ – ١٢ فيها حمد لله تعالى على ما علمه من أصول منطقية .

فصاغَ العقولَ كما شاءها فمن شاء أذكى ومن شا أصَمْ
وركّبَها في النفوسِ التي كما شاء أنشأها رَبُّكُمْ
وما كان مِنْ قبلُ عقلٌ ولا سَفاهٌ ولا كان مدحٌ وذمْ
ولا كان عدلٌ ولا حكمةٌ ولا كان ظُلْمٌ ولا مَنْ ظَلَمْ
ولو كانَ ذلك لم يعتَدِلْ وجودُ الأمورِ ولم يَسْتَقِمْ
لأنَّ الكثيرَ له عِدَّةٌ تُعَدُّ وتحصرُهُ إذْ تَعُمْ
وما حَصَرَتْهُ حدودُ الكلامِ فَوِجْدانهُ صحَّ بعدَ العدمْ
نهاياتُهُ جامعاتٌ لهُ فقد صحَّ مبدؤهُ وانتظمْ
ولكنَّ مُبْدِعَها واحدٌ هو الأوَّلُ الحقُّ أفْنَى إرَمْ
وليس بمعجزِهِ ما يقومُ بوهمٍ إليه وما لم يَقُمْ
ولا شيء يُشْبِهُهُ جُمْلَةً تَحَقَّقَ ذلك مَنْ قد عَلِمْ
فأبدى اللغاتِ وأعطى العلومَ وأفْشَى الصناعاتِ والكلَّ زمْ
ولولا التعاليمُ لم نَدْرِها ولا عاش حيٌّ ولم تَغْذُ أمْ
فصحَّ بذلك إرسالُ مَنْ به عَلِمَ الناسُ ما قد عُلِمْ
فيا لكَ برهانَ حقٍّ بدا فجلّى من الجهلِ ما قد أهَمّ
بِصدْقِ النُّبُوَّةِ والمبتدي لخلقِ الجميعِ ومنشي النِّعَمْ
فأرسلَ مُرْسَلهُ بالهُدَى على ما قضاه وما قد حتَمْ
مُحَمَّدٌ المُصْطَفى بالكتابِ به أنبياءَ الهُدى قد ختَمْ
فشقَّ له القمرَ المستنيرَ بحضرةِ راضِينَ أوْ مَنْ رَغِمْ
وأبدى اليَنابيعَ مِنْ كَفِّهِ فأرْوَى به الجيشَ والجيشُ جمْ
وأعْجَزَ في نَظْمِ قُرْآنِهِ أُولي حَضَرٍ وبُداةَ الخِيَمْ
ودانَ الملوكُ لآياتِهِ خلافَ التكاذيب مِمَّنْ زَعمْ
على غيرِ خوفٍ له يُتّقى ولا رغبةٍ عنده تُغْتَنَمْ

فحلّوا لـه عَقْدَ تيجانِـهِمْ   وخلّوْا لهُ مُلْكَهُم فانهدَمْ
بطبِّ النفوسِ بلاَ سلِّ سيفٍ   ولا بذلِ مـالٍ له يُقْتَسَمْ
كباذانَ في اليَمَنِ المُتّقي   وأهْلِ عُمَانَ وضاحي قـدمْ
إلى ذي الكلاعِ وذي زرودٍ   إلى ابن ظليم فأقصى إرَمْ
وصحَّ لنا نَقْلُ أعـلامِهِ   وأحكامِهِ باتّصالٍ سَلِمْ
فما فيـه معترض يُتّقى   بأطباقِ عُرْبٍ ونَقْلِ العَجَمْ
وقـد ظَهَرَ الحقُّ فيمـا بـه   أتى لا كَنَقْلٍ كثيرِ السَّقَمْ
كنقلِ النّصارى ونَقْلِ اليهودِ   ونَقْلِ المجوسِ لأخبارِ جَمْ
أحاديثُ لم تكُ في أصْلِهـا   تُبـاحُ ولكنّهـا تُكْتَتَمْ
ولم تأتِ إلاّ بنقلٍ أتى   بـه كلُّ منتحـلٍ مُتَّهَمْ
مناقِضَةً بَعْضُها بَعْضَها   تكاذيبُها بادياتٌ تَنِمْ
فشتّانَ بينَ الهُدى والعَمَى   وشتّانَ نورُ الضحى والعَتَمْ
فما جاء من عند ربِّ الجميعِ   على يَدِ مُرْسَلِهِ قُلْ نَعَمْ
ولا تَعْدُهُ واطّرِحْ غَيْرَهُ   وإنْ لامَ فيه أخٌ وابنُ عَمْ
تَفُزْ بالحقيقةِ مُسْتَعْجِلاً   وتسلمْ إذا متَّ مِنْ كلِّ غَمْ
ولا تلتفتْ لدعـاء وأنتَ   لقومٍ براهينُهَـا لم تَقُمْ
ولا تشتغلْ بالذي نَفْعُهُ   لدنيـا لهـا أمَدٌ مُنْصرِمْ
فما هـذه الدارُ إن حُصِّلَتْ   حَقيقَتُها غيرُ طيفٍ ألَمّ
سيفنى العزيزُ ويَفْنَى الذليلُ   وتَفْنَى القُوى وسيَفْنَى الألَمْ
يَبيدُ الجميعُ فـلا تغترِرْ   بما لا يدومُ لمَنْ لم يَـدُمْ
فأيْنَ الذينَ بَنَوْا تدمراً   وباني البرابيْ وباني الهَرَمْ
وأين الأُلى أحكموا قادساً   وعَقْدَ قناطرِها والصَّنَمْ
أولئك أهلُ القُوَى قد مَضَوْا   كما قـد مضى سدُّ سَيْلِ العَرِمْ

فَمِنْ حالِ طفلٍ إلى صَبْوَةٍ وشرخِ شبابٍ ويأتي الهَرَمْ
وتأتي المنيَّةُ لا بُدَّ أنْ يُطيفَ بنا حُكْمُها المُلْتزِمْ
ومن بعد ذلك دارُ الجزاء وما قد مَضى فكماضي الحُلُمْ
فدارُ النعيمِ لأهلِ الفَلاحِ ونارٌ لِمَنْ قد عَصى تَضْطَرِمْ
فبادرْ قُبَيْلَ حُلولِ الرَّدى فتندمَ إذ ليس يُغْني النَّدَمْ

هذه القصيدة في إثبات حدوث العالم وصحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وفيها وعظ حسن ، ارتجلها الفقيه في مجلس الخلافة دون إعمال روية ، رحمه الله .

٢

ذكر في صلة الصلة وهو التاريخ المعروف بتاريخ الفرغاني أن النقفور ملك النصارى أرسل بقصيدة نظمها كاتب مرتد وأرسلها إلى أمير المؤمنين المطيع رضي الله عنه وذلك إذ أخذت النصارى بعض ثغور الإسلام فلما وصلت إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدي أمير المؤمنين المعتد بالله تعالى بالأندلس ، ولم يقصد بها المعتد وانما وردت من بلاد المشرق ، اهتز الفقيه الإمام أبو محمد رضي الله عنه عند سماعها عصباً لله عز وجل ولرسوله ولدينه وارتجل قصيدة على البديهة ولم يتثبت فيها لشدة غضبه وهمه رضي الله عنه ، فقال ، رحمه الله[١] .

من المحتمي للهِ ربِّ العوالمِ ودين رسولِ اللهِ مِن آلِ هاشمِ
محمدٍ الهادي إلى الناس[٢] بالتُّقى وبالرشدِ والإسلام أفضلِ قادم[٣]
. . .

١ وردت هذه القصيدة في طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ١٨٤ والبداية والنهاية لابن كثير ١١ : ٢٤٧ وهي كثيرة التصحيف والتحريف في هذين المصدرين ولذلك لم أشر إلى فروق القراءات إلا عند الضرورة . وقال ابن خير إنها ١٣٩ بيتاً ، ولم يكن ابن حزم هو الوحيد الذي رد على قصيدة شاعر نقفور بل هناك قصيدتان أيضاً في الرد عليها إحداهما لأبي بكر القفال الشاشي والثانية للفقيه أبي الأصبغ عيسى بن موسى ابن زروال الغرناطي ؛ انظر فهرسة ابن خير : ٤٠٩ (س = السبكي ، ب = البداية والنهاية) .
٢ س : الله .
٣ س ب : قائم .

عليه من الله السلامُ مُرَدَّداً … إلى أن يوافي البعثَ[1] كلُّ العوالم

إلى قائلٍ بالإفك جهلاً وضلّةً … عن النَّقَفورِ المُنْتزي في الأعاجم

دعوتَ إماماً ليس من أمر آلـه … بكفّيْهِ إلا كالرسومِ الطّواسم

دهتْهُ الدَّواهي في خلافتهِ كما … دهتْ قبله الأملاكَ دُهمُ الدَّواهِم

ولا عجبٌ منْ نَكْبَةٍ أوْ مُلِمّةٍ … تُصيبُ الكريمَ الحرَّ وابنَ الأكارم

ولو أنّه في حالِ ماضي جدودهِ … لَجُرِّعْتُمُ منهُ سُمُومَ الأراقم

عسى عطفةٌ للهِ في أهْلِ دينِهِ … تُجَدِّدُ مِنْهُمْ دارِساتِ المعالم

فخَرْتُمْ بما لو كان فهْمٌ يريكُمُ … حقائقَ دينِ الله أحكمِ حاكمِ[2]

إذَنْ لعَرَتْكُمْ خَجْلةٌ عند ذكره … وأُخرِسَ منكم كلُّ قَيْلٍ مخاصم

سلبناكُمُ دهراً فَلُذْتُمْ بكرَّةٍ … من الدهر أفعالَ الضعافِ العَزائم

فطِرْتُمْ سروراً عند ذاك ونخوةً … كفعلِ المَهينِ الناقصِ المُتعاظِم

وما ذاك إلاّ في تضاعيفِ غَفْلةٍ … عرَتْنا وَصرفُ الدَّهرِ جمُّ الملاحِم

ولما تنازعنا الأمورَ تخاذُلاً … ودالتْ لأهْلِ الجهلِ دُولةُ ظالم

وقد شَغَلَتْ فينا الخلائفَ فتنةٌ … لعبْدانِهِمْ من تُرْكهِمْ والدَّيالم

بكُفْرِ أياديهم وَجَحْدِ حقوقهم … لمن رفعوهُ مِنْ حضيض التهائم

ألَمْ ننتزعْ منكمْ بأيدٍ وقوةٍ[3] … جميعَ بلادِ الشامِ ضربةَ لازم

ومصرَ وأرضَ القيروانِ بأسْرِها … وأندلساً قسراً بضربِ الجماجم

ألم تَنْتَصِفْ منكم على ضَعْفِ حالها … صقلّيّةٌ في بَحْرِها المتلاطِم

أحلّتْ بقُسْطَنْطينةٍ كلَّ نكبةٍ … وسامتكمُ سوء العذابِ المـلازم[4]

١ ب : الحشر .
٢ البيت مختلف الرواية في ب .
٣ ب : بأعظم قوة .
٤ البيت سقط من ب .

مشاهدُ تقديساتكمْ وبيوتُها ... لنا وبأيدينا على رَغْمِ راغم
أما بيتُ لحمٍ والقُمامةُ بعدها ... بأيدي رجالِ المسلمين الأعاظم
وكرسيُّكُمْ في أرضِ اسكندريّة ... وكرسيُّكُمْ في القُدْسِ في أورَشالم
ضممناهُمُ قسراً برغمِ أنوفكمْ ... كما ضمّتِ الساقين سودُ الأداهم
وكرسيٌّ أنطاكيّةٍ كان برهةً ... ودهراً بأيدينا بذلَّ الملاغم
فليس سوى كرسيِّ رومة فيكمُ ... وكرسيٍّ قسطنطينةٍ في المقاوم
ولا بدَّ مِنْ عَوْدِ الجميعِ بأسره ... إلينـا بعزمٍ قـاهرٍ متعاظم
أليسَ يزيدٌ حلَّ وَسْطَ دياركمْ ... على بابِ قسطنطينةٍ بالصّوارم
ومَسْلَمَةٌ قد داسها بعد ذاكمُ ... بجيشٍ لُهامٍ كالليوثِ الضراغم
وأخْدَمكمْ بالذلِّ مسجدَنا الذي ... بنى فيكُمُ في عصرنا المتقادِم
إلى جنبِ قصرِ المُلكِ في دارِ[1] ملككم ... ألا هـذه حقّاً صريمةُ[2] صارم
وأدّى لهرونَ الرشيدِ مليكُكُمْ ... إتاوةَ[3] مغلوبٍ وجزيةَ غارم
سلبناكمُ مسرى[4] شهوراً بقوةٍ ... حبانا بها الرحمنُ أرحمُ راحم
إلى أرضِ يعقوبٍ وأريافِ دومةٍ ... إلى لجّةِ البحرِ البعيدِ المخارم
فهل سرتمُ في أرضنا قطُّ جُمْعَةً ... أبى الله ذاكمْ يا بُقَاةَ الهزائم
فما لكمُ إلاّ الأمانيُّ وَحْدَها ... بضائعُ نَوْكى تلك أضغاثُ حالم[5]
رويداً يعُدْ نحوَ الخلافةِ نورُها ... ويُكْشَفُ مغبرُّ الوجوهِ السواهم
وحينئذ تدرونَ كيف فرارُكُمْ ... إذا صدمتكم خيْلُ جيشٍ مُصادم
على سَلَفِ العاداتِ منا ومنكمُ ... ليالِيَ أنتم في عِدادِ الغنائم

١ س : أرض .
٢ ب : صرامة .
٣ ب : رفادة .
٤ ب : مصر .
٥ ب : أحلام نائم .

سبَيْتُمْ سبايا ليس يكثرُ عَدُّها [1] وسبيكمُ فينـا كقَطْرِ الغمائم
فلو رامَ خلْقٌ عدَّها رام مُعجزاً وأنّى بتعدادٍ لريشِ الحمائم
بأبناء حمدانٍ وكافورَ صُلْتُمُ أراذلُ أنجاسٌ قصارُ المعاصم
دعيٌّ وحجّامٌ أتوكمْ فتهتمُ وما قدرُ مَصَّاصٍ دماءَ المحاجم [2]
ليالِيَ قُدْناكُمْ كما اقتادَ جازرٌ جماعةَ أتياسٍ لحزّ الحلاقم
وَسُقْنا على رِسْلٍ بناتِ ملوككُمْ سبايا كما سيقتْ ظباءُ الصرائم
ولكنْ سَلوا عنا هرقلاً ومَنْ خلا لكمْ مِن ملوكٍ مُكْرَمينَ قماقم
يخبّرْكُمُ عنّا المتوّجُ منكمُ وقيصرُكُمْ عن سَبْيِنا كلَّ آيم [3]
وعن ما فتحنا من منيعِ بلادكُمْ وعن ما أقمنا فيكُمُ مِنْ مآتم
ودعْ كلَّ نَذْلٍ ينتمي لا تعدَّهُ إماماً ولا مِنْ مُحْكَماتِ الدعائم
فهيهاتِ سامرّا وتكريتَ منكمُ إلى جبـلا تلكمْ أمانيُّ هائم
مُنًى يتمنّاها الضعيف ودونها تَطايرُ هاماتٍ وحزُّ الغلاصم
ومن دون بغداد سيوفٌ حديدةٌ مُيَسَّرَةٌ للحربِ من آل هاشم
محلّةُ أهلِ الزُّهْدِ والخيرِ والتقى ومنزلةٌ يحتلّها [4] كلُّ عالم
دعوا الرملةَ الدمثاءَ [5] عنكم فدونها من المسلمين الصِّيْدِ كلُّ مُخاصِمِ [6]
ودونَ دمشقٍ كلُّ جيشٍ كأنّهُ سحائبُ طيرٍ تَنْتَحي بالقوادم
وضربٌ يُلَقّي الرومَ كلَّ مذلّةٍ كما ضرَبَ السكّيُّ بيضَ الدراهم
ومن دون أكنافِ الحجازِ جحافلٌ كقطرِ الغيوثِ الهاملاتِ السواجم

١ ب : يحصر العد دونها .
٢ بعد هذا البيت في ب بيت مضطرب
٣ البيت مختلف الرواية في ب .
٤ ب : يختارها .
٥ س : الغراء .
٦ ب : الغر كل مخاصم ، س : كل ملازم .

نحطانِ كرامُ العمائم
ماً في يبيسِ الهشائم
من مأزقِ متلاحم
ـِاً منكُمُ في المغانم
تذكارَ أخْذِ العواصم
حرُّ النفوسِ [3] الحوائم
.هراً بِعَــــدلِ المقاسم
لريّ القلاعِ القوائم
خَل [4] وعَضُ الأباهم
مِ بالخيولِ الصلادم
ـّوا في ديار البراهم
ثِ كذكر البهاذم [5]
ـِ كلُ أروعَ عازمِ
لآسادِ مثلَ البهائم
دنى واسطٍ والكظائم
نوي لقاهُمْ بِغانِم [8]
يدِ للثريّا مُزاحم

مُحلٌّ جميعِ الأرض منها تيقُّناً | مُحلةُ سِفْلِ الخفّ من فَصِّ خاتم
دفاعٌ من الرحمن عنها يَحُفُّها | فما هو عنها كرَّ طرفٍ برائم
بها دَفَعَ الأحبوشَ عنها[1] وقبلهُمْ | بحصباء طيرٍ من ذُرَى الجوِّ حائم
وجمعٌ كموجِ البحرِ ماضٍ عرمرمُ | حَمَى سُرَّةَ البطحاء ذاتِ المحارم
ومن دون قبرِ المصطفى وَسْطَ طيبة | جمـوعٌ كسودٍ من الليلِ فاحم
يقودهمُ جيشُ الملائكة العُلَى | كفاحاً ودفعاً عن مُصَلٍّ وصائم
فلو قد لقيناكمْ لعدتمْ رمائماً | بمَنْ في أعالي نَجْدِنا والحضارم[2]
وباليَمَنِ الممنوع فتيانُ غارمٍ[3] | إذا ما لقوكمْ كنتمُ كالمطاعم
وفي جَلْهَتَيْ أرضِ اليمامةِ عُصْبَة | مغـاورُ أنجـادٌ طوالُ البَراجم
ستفنيكمُ والقرمطيّينَ دولةٌ | تعودُ لميمونِ النقيبةِ حازم
خليفةِ حقٍّ ينصرُ الدينَ حكمُهُ | ولا يتّقي في اللهِ لومـةَ لائم
إلى وَلَدِ العباس تُنْمى جدودُهُ | بفخرٍ عميمٍ أو لزُهْرِ العباشم
ملوكٌ حرى بالنّصرِ طائرُ سعدهمْ | فأهـلاً بماضٍ منهمُ وبِقادم
مَحَلَّتُهُمْ في مسجدِ القدسِ أو لدى | منازلِ بغـدادٍ محلِّ الأكارم
وإن كان من عُليا عديّ وتيْمِها | ومن أسدٍ أهلِ الصلاح الحضارم
فأهلاً وسهلاً ثم نُعْمى ومرحباً | بهمْ من خيارٍ سالفـين أقادم
همُ نصَروا الإسلامَ نصراً مؤزّراً | وهمْ فتحوا البلدانَ فَتْحَ المُراغم
رويداً فوعدُ اللهِ بالصدقِ واردٌ | بتجريعِ أهلِ الكفرِ طَعْمَ العلاقم
سنفتحُ قسطنطينةً وذواتِـهـا | ونجعلكمْ قوتَ النسورِ القشاعم
ونملكُ أقصى أرضكمْ وبلادكمْ | ونلزمكمْ ذلَّ الجِزَى والمغارم

١ ب : وقع الأحبوش هلكى .
٢ الشطر الثاني في ب مختلف تماماً .
٣ س : غارة .

ونفتحُ أرضَ الصينِ والهند عَنوةً   بجيشٍ لأرضِ التركِ والخُزْرِ حاطم
مواعيدُ للرحمن فينا صحيحةٌ   وليستْ كأمثالِ العقولِ السقائم
إلى أن نرى الإسلام قد عمّ حكمُهُ   جميعَ البلادِ بالجيوش الصوادم
أيُقْرَنُ يا مخذولُ دينٌ مثلثٌ   بعيدٌ عن المعقولِ بادي المآثم
يدينُ لمخلوقٍ بدينِ عبادة [1]   فيا لكَ سخفاً ليس يَخْفى لكاتم [2]
أناجيلكمْ مصنوعةٌ متكاذبٌ [3]   كلامُ الألى فيما أتَوْا بالعظائم
وعودُ صليبٍ لا تزالون سُجّداً   له يا عقولَ الهاملاتِ السوائم
تدينون تضلالاً بصَلْبِ إلهكُمْ   بأيدي يهودٍ أرذلينَ ألائم
إلى ملّةِ الإسلامِ توحيدِ ربّنا   فما دينُ ذي دينٍ لنا بمقاوم
وصِدْقِ رسالاتِ الذي جاء بالهُدى   محمدٍ الآتي بدفعِ المظالم
وأذعنتِ الأملاك طوعاً لدينه   ببرهانِ صدقٍ ظاهرٍ في المواسم
كباذانَ [4] في صنعاء مالك دولةٍ   وأهل عمان حيثُ رهطُ الجهاضم
وسائرُ أملاكِ اليمانينَ أسلَمُوا   ومن بلَدِ البَحْرَيْنِ قومُ اللّهازم
أجابوا لدينِ اللهِ دونَ مخافةٍ   ولا رغبةٍ تَحْظى بها كفُّ عادم
فحلّوا عرى التيجانِ طوعاً ورغبةً   لحقَّ مبينٍ بالبراهينِ قائم [5]
وحاباهُ بالنّصْرِ المليكُ [6] إلهُهُ   وصيّرَ مَنْ عاداهُ تحتَ المناسم
فقيرٌ وحيدٌ لم تُعِنْهُ عشيرةٌ   ولا دفعوا عنهُ شتيمة شاتم
ولا عنده مالٌ عتيدٌ لناصرٍ   ولا دَفْعُ مرهوبٍ ولا لمسالم

١ س : بدين لمخلوق يدين عباده .
٢ ب : لعالم .
٣ ب : قد تشابهت .
٤ ب : كما دان .
٥ ح : ناجم .
٦ ب : المكين .

ولا وَعَدَ الأنصارَ دنيا تخصُّهُمْ   بلى ، كان معصوماً لأقدارِ عاصم
فلم تمتهنهُ قطُّ قوّةُ آسرٍ   ولا مُكّنَتْ من جسمه يدُ لاطم[1]
كما يفتري زوراً وإفكاً وضلةً   على وَجْهِ عيسى منكمُ كلُّ آثم[2]
على أنكم قد قلتمُ هُوَ ربّكُمْ   فيا لَضلالٍ في الحماقةِ جاثم
أبى الله أن يدعى له ابنٌ وصاحبٌ   سَيَلْقى دعاةُ الكفرِ حالةَ نادم
ولكنّهُ عبدٌ نبيٌّ[3] مكرّمٌ   من الناسِ مخلوقٌ ، ولا قول زاعم
أيُلْطَمُ وَجْهُ الربّ تبّاً لجهلكم   لقد فُتُّمُ[4] في ظلمكمْ كلَّ ظالم
وكم آيةٍ أبدى النبيّ محمدٌ   وكم عَلَمٍ أبداهُ للشركِ حاطم
تساوى جميعُ الناسِ في نَصْرِ حقّهِ   فللكلّ من إعظامِهِ حالُ خادم
فعُرْبٌ وأُحبوشٌ وتُرْكٌ وبَرْبَرٌ   وكُرْدٌ[5] بهم قد فاز قِدْحُ المُساهم
وَقِبْطٌ وأنباطٌ وَخُزْرٌ وَدَيْلَمٌ   وَرومٌ رَموكُمْ دونَهُ بالقواصم
أبَوْا كُفْرَ أسلافٍ لهم فتَحَنّفُوا   فآبوا بحظّ في السعادةِ جاثم
به دخلوا في ملّةِ الحقّ كلّهُمْ   ودانوا لأحكامِ الإله اللّوازم
به صحّ تفسيرُ المنام الذي أتى   بِه دانيالٌ قبله حَتْمَ حاتم
وسندٌ وهندٌ أسلموا وتديّنوا   بدينِ الهدى في رَفض دين الأعاجم
وشقّ لنا بَدْرَ السموات آيةً   وأشْبَعَ من صاعٍ له كلَّ طاعم
وسالت عيونُ الماء في سَبْطِ[6] كفّهِ   فأرْوَى بهِ جيشاً كثيرَ القماقم
وجاء بما تقضي العقولُ بصدقِهِ   ولا كَدّعاوٍ غيرِ ذاتِ قوائم

١ ب : ظالم .
٢ ب : لاطم .
٣ ب : رسول .
٤ ب س : فقتم .
٥ س : وفرس .
٦ س : وسط .

عليهِ سلامُ اللهِ ما ذرَّ شارقٌ   يعاقبُهُ ظلماءُ أسحـ[illegible]م [1]
براهينُهُ كالشمسِ لا مثلَ قولكمْ   وتخليطكمْ في جوهرِ الأقانيم
لنا كلُّ علمٍ من قديمٍ ومُحْدَثٍ   وأنتمْ حميرٌ دامياتُ المحازم
أتيتمْ بشعرٍ باردٍ متخاذلٍ   ضعيفِ معاني النظم جمِّ البلاغم
فدونَكَها كالعقد فيه زُمُرُّدٌ   ودرٌّ وياقوتٌ بإحكامِ حاكم

رضي الله عن قائلها وأثابه الجنّة بمنّه ورحمته . إنّه هو الغفور الرحيم .

٣

وقال رضي الله عنه إذ أكثر الناس في عذله وتأنيبه :

قالوا تحَفّظْ فإنّ الناسَ قد كثُرَتْ   أقوالهُمْ وأقاويلُ العِدا مِحَنُ
فقلت : هل عيبهُمْ لي غيرَ أنّيَ لا   أقولُ بالرأي إذ في رأيهم فِتَنُ
وأنّني مولعٌ بالنصّ لستُ إلى   سواهُ أنحُو ولا في نَصرِه أهِنُ
لا أنثني نحوَ آراءٍ يُقَالُ بها   في الدين بل حسبيَ القرآنُ والسّنَن
يا برْدَ ذا القولِ في قلبي وفي كبدي   ويا سروري بهِ لـو أنهم فَطِنوا
دعهمْ يعضُّوا على صُمّ الحصَى كمداً   مَن ماتَ من قوله عندي لهُ كفَنُ
إنّي لأعْجَبُ من شأني وشأنِهِمُ   واحسرتا إنّني بالناسِ مُمْتَحَنُ
ما إن قصدتُ لأمرٍ قطُّ أطلبُهُ   إلا وطارتْ بهِ الأظعانُ والسّفُنُ
أما لهُمْ شُغُلٌ عنّي فيشغلهُمْ   أو كُلّهُمْ بيَ مشغولٌ ومُرْتَهَنُ
كأن ذكريَ تسبيحٌ بهِ أُمِرُوا   فليسَ يَغْفُلُ عني منهمُ لَسِنُ
إن غبتُ عن لحظهمْ هاجوا بغيظهمْ   « حتّى إذا ما رأوني طالعاً سكنوا »

......

١ س : عاتم .

دعوا الفضولَ وَهُبّوا للبيانِ لكيْ يُدْرى مقيمٌ على الحسنى وَمُفتتَن
وحسبيَ اللهُ في بدء وفي عَقِب بذكره تُدْفَعُ الغَمّاء والإحَن

٤

وقال رحمه الله في مدح كتب الحديث والحث على طلبه :

أنائمٌ أنتَ عن كُتْبِ الحديثِ وما أتى عن المصطفى فيها من الدِّينِ
لمُسْلمٌ والبخاريُّ اللذان هما شدّا عُرى الدينِ في نَقْلٍ وتبيين
أولى بأجر وتعظيم ومَحْمَدَة من كلّ قول أتى مِنْ رأي سحنون
يا مَنْ هَدى بهما اجعلني كمثلهما في نَشْرِ دينكَ محضاً غيرَ مفتون
لا تجعلنّيَ ربَّ العرشِ دونهما يومَ الحسابِ وفي وَضْعِ الموازين

٥

وقال رضي الله عنه :

أجَلْ هوَ رَبْعٌ قد عفته الرّوامِسُ فهلْ أنتَ فيهِ ويُبْ غيركَ حابسُ
لَقَلّ له أنْ تحْبِسَ العيسَ ساعةً عليه فتُبْكيكَ الرسومُ الطوامس
على أربع قد كان دهراً بطوله للهْوكَ فيه مَرْبَعٌ ومجالس
عسى يستجيبُ الرَّبْعُ إذ أنا سائلٌ وهل تُرْجعُ اللفظَ الطلولُ الدوارس
فَعُجْتُ عليه ناقتي وهو سَبْسَبٌ سَقَتْهُ وجادتْهُ الغمامُ الرواجس
وقلتُ ودمعي ساكبٌ متحدّرٌ وإنسانُ عيني في هواميه غامس
لقد كان عيشي فيكَ لودام مُونِقاً ولكنْ أبَتْ ذاك الحظوظُ الأباخس
لياليَ من أهواه يُمْسي كأنّه من العُفْرِ ظبيٌ بالصريمَةِ كانس

وإذْ شَمْلُنا باقٍ جميعٌ مُحَسَّدٌ ... ولم تقتطعْ ذاك الدهورُ الدَّهارِس
فكان حوابُ الربع إذ أنا سائل ... وهل تفهمُ القولَ الربوعُ الأخارس
كذلك حكمُ الدهرِ آتٍ وذاهبٌ ... وفي الدهر أصنافٌ مدُوسٌ ودائس
فعرَّجْت عنه مُوجعَ القلبِ ثاكلاً ... وبين الحشا لَذْعٌ من الحُزْنِ ناخس
وفي طيِّ مثنيِّ الصفيح على الثرى ... . [1]للشكلِ والحسنِ لابس
غريبُ صفاتِ الحسْنِ إن تبْغِ حسنَهُ ... فأمنعُ معدومٍ هناك المجانس
إذا حُدَّ لم تحوِ الحدودُ جهاتِه ... وإن قِيسَ يوماً ضلَّ فيه المُقايس
فديناهُ من ظبيٍ يلوحُ ضياؤهُ ... على مثله حقّاً أصابَ المنافس
عجبتُ لدهرٍ لا يني وهو طالبي ... بثأرٍ ولا ينفكُّ دأباً يُمارس
إذا ما اصطرعنا فالتداولُ بيننا ... عراكٌ فمنهوسٌ هناكَ وناهس
فتسعٌ وعشرونَ أتيحت سهامُها ... لرأسي فغضَّت منه فالرأسُ هارس
كأنَّ بياضَ الرأسِ ينفي سوادَهُ ... صباحٌ تَفَرَّى عنه ليلٌ عُكامس
فأهلاً بوفدِ الشيب إذ جاء وافداً ... وكنتُ ، وقلبي قبلَ ذا منه واجس
ولما أتى رُدَّتْ نفوسٌ بغيظها ... ولم تنبسطْ نحوي اللحاظُ النواعس
ولم أرَ مثلَ الشيبِ أوفى وَفيَّةً ... ليذعره بازي[2] النهار المؤانس
وكنا نجوماً طالعاتٍ مضيئةً ... تنيرُ بأدناها الخطوبُ الحنادس
لقد كان لي في بعضِ ذلك واعظٌ ... وما اختلستنيه الصروفُ الخوالس
تناءينَ عنّي كالغصون وأعرَضتْ ... ضواحكُ أقمارٍ وَهُنَّ عوابس
وقد طالما ارتاحتْ وَهَزَّتْ غصونَها ... بقربيَ أحقافُ الرمالِ الأواعس
ظباءٌ إذا قيسَ الظباءُ بحُسنها ... فإن يعافيرَ الظبــاء خنافس
زمانٌ يسودُ المرء فيه محقّرٌ ... ولا كزمانٍ ساد فيه الفلاقس

---

[1] غير واضحة في ص .
[2] غير واضح في ص .

زعيمون أن يُقْضَى لنا دون غيرنا إذا ازدحمتْ عند الملوكِ القلانس
سَمَوْنا فما في دهرنا غيرُ حاسدٍ وطُلْنا فلم نُدْرَكْ فما ثَمَّ نابِس
إذا ما تُراميني مفاخرُ معشرٍ فأيسرُ فخري للمفاخرِ هارس
وإنّي بعِرْضي دونَ ديني مُتّقٍ وإنّي بعرضي دونَ روحي مُتارس
سما بِيَ ساسانٌ ودارا وبعدهم قريشُ العُلَى أعياصُها والعنابس
فما أخَّرَتْ حربٌ مراتبَ سؤددي ولا قَعَدتْ بي عن ذرى المجد فارس
هنالك مجدُ الدهر طالت فروعُهُ فهنَّ مواضٍ صُعَّدٌ لا نواكس
ملكنا ملوكَ الأرض في كلِّ جانبٍ فحدُّ مُناوينا الحدود الأواكس
إذا شبَّتِ الحربُ العوانُ فبأسُنا لكل منيعِ النَّيْلِ في الناس فارس
أباحوا بيوتَ النار كلَّ ذخيرةٍ حَمَتْها شياطينُ الرَّدى والأبالس
فلمّا أتى الاسلامُ بالحقِّ والهُدى أقرُّوا لنورٍ حَوَّلَتْهُ الأحامس
فشُدَّتْ عرَى الإسلامِ فيهمْ وعُطِّلَتْ بأسيافهمْ للمشركينَ مَدارس
وأعلنَ دينَ اللهِ في الأرض بأسُهُمْ وذلّتْ بهم للمسلمينَ الكنائس
فسائِلْ بسلمانٍ وبالحَسَنِ الرضى وزارا وفيروز هُداةٌ أشاوس

٦

وقال رضي الله عنه إذ حبس يتشوق إلى أهله وولده وتروى لغيره :

مُسَهَّدُ القلبِ في خدَّيْهِ أدْمُعُهُ قد طالما شَرِقَتْ بالوجدِ أضْلُعُهُ
داني الهمومِ بعيدُ الدارِ نازحُها رجعُ الأنينِ سكيبُ الدمع مُفْزَعُه
يأوي إلى زَفَراتٍ لو يُباشرُها قاسي الحديدِ فُواقاً ذابَ أجمعه
إذا تخلّلَ في أرجائها فَرَحاً ظلَّتْ قواصِفُها باليأسِ تَقْرَعه
وإن وَنَتْ لوعةٌ عن كُنْهِ صولتها هبّتْ له لوعةٌ رقشاءُ تَلْسَعُه

تاهتْ به في بحار الحُزْنِ فكرتُهُ ... حتّى رمته سحيقاً ضلَّ مرجعه
كم فكرةٍ داهمَتْهُ في مسارِحِها ... تسقيه سمّاً نقيعاً بات يَجْرَعُه
ذكرَى أفَيْراخِهِ في كلِّ ناحيةٍ ... توحي إلى القلب أسراراً تُقَطِّعُه
كم قد تحمّلَ من أعباء نأيِهِمُ ... نِضْواً نَبا بلذيذِ النومِ مضجعه
قد عاندَ الحزنَ حتّى عاد يرحمه ... وسادرَ الدمعِ حتى جَفَّ مدمعه
وصار يرحمُهُ مَنْ كان يَعْذُلُهُ ... لما اصطفاه من الاعوازِ أشْنَعُهُ
تجولُ حلّتُهُ في ذاتِهِ فترى ... آثارَ مـا الدهرُ بالأحرارِ يصنعه
جسمٌ تخوّنَتِ الأيامُ جُثّتَهُ ... فعـادَ كالشنِّ مرآهُ ومسمعه
تناهبتْ نُوَبُ الدنيا محـاسنَهُ ... فالضيمُ ملبسه والسجنُ موضعه
يشكو إلى القيدِ ما يلقاهُ من ألمٍ ... فبالأنين لـدى شكواه يرجعه
يا هاجعاً والرزايا لا تُؤرِّقُهُ ... قلْ كيفَ يهجعُ من في الكبْلِ مهجعه
أم كيف حالةُ حيٍّ ساكنٍ جَدَثاً ... يرنو بعينِ أسيرٍ عزَّ مَطْمَعُهُ
قد طال في هاوياتِ السجنِ محبسه ... وانشتَّ من شملِهِ ما كان يَجْمَعُهُ
فكم زفيرٍ يقدُّ الصخرَ أيسَرُهُ ... وكم أنينٍ بنارِ الوجد يشفعه
ما رجّعتْ سجعَها حيناً مطوَّقةٌ ... إلا ومن فَضْلِ شجوي ما تُرَجِّعه
ولا تجرَّعَ كأسَ الوجدِ من أحدٍ ... إلا ومن فضل وجدي ما تَجَرَّعَهُ
يا راحلاً عند حيٍّ عنده رَمَقِي ... اقرا السلامَ على من لم أُوَدِّعـه
وسلْهُ باللهِ عن عهدي أيَحْفَظُهُ ... فعهـدُهُ بمـكانٍ لا أُضَيِّعُهُ
وكيف عنّي وعن أُنسي تصبُّرُهُ ... أم كيف بعد بعادي عنه أرْبُعُهُ
تجهمتْ نُوَبُ الدنيا لعامرِها ... فلا يدٌ عن يدِ الضرّاء تمنعه
واطولَ شوقاهُ ما جدَّ البعادُ بهم ... إليهمُ مـذْ سَعوا للبين أفظعه
لئن تباعدَ جُثْماني فلمْ أرَهُمْ ... فعندهمْ وأبيكَ القلبُ أجْمَعُهُ
أقولُ والدهرُ قد غالت غوائلُهُ ... وحطَّ مني مكاناً كان يرفَعُه

عسى لطائفُ مَنْ لا شيء يُعْجِزُه تَحْنو على شَمْلِنا يوماً فتَجْمعه
بمبتني المجد مذ حُلّتْ تمائمُهُ بحيث لا نُوَبُ الدنيا تضعضعه
بحيثُ يشتجرُ الخطّيُّ في صَفَدٍ ويفطِمُ السيفُ ذا بأس ويرضعه
بالحاجبِ المُرْتجى السامي أرومتُهُ إلى هلالِ الذي بالسَّعْدِ مطلعه
سما إلى غايةٍ في المجدِ سامية فنال غايةَ ما قد كان يُزْمِعُهُ
فأصبحتْ قلَلُ السامينَ خاضعةً لعزّهِ وسناءُ المجد موضعه
وارتاحَ للعُرْفِ والحاجاتِ يُسألها فغصّ بالوفد والآمال مَصْنَعُهُ
نعمَ الشفيعُ لمنْ ضاقتْ مذاهبُهُ لدى الخليفةِ أسمى مَنْ يشَفّعه
وكلُّ زارعِ خير عند مضطهد فسوف يحصد ما قد كان يزرعه
فعش عزيزاً على الأيام محتكماً ما هزَّ ذيل الصبا غصناً يزعزعه

٣

منتخبات شعرية متنوعة

عباس بن ناصح

قال يصف طول الليل :

فبتُّ أرقبُ صبحاً سُدَّ مَطْلَعُهُ ... فلا أرى اللّيل عَنْ مرقاته انصدعا
كأنّه ونجومُ الليل قد جَعَلَتْ ... تهوي على السمت منها غُوَّراً خُضُعا
راعٍ تلبّثَ قد أوصى بصرمته ... أخرى الرعاء يُزَجّي سائقاً هُبَعا [1]
يا ليلُ أصبحْ ويا صبحُ استترْ فلقد ... أبرحتماني فإن لم تفعلا فدعا [2]

١ الصرمة القطيع من الغنم ، والهبع ، ما نتج في آخر النتاج وضده الربع .
٢ أبرحتما : أفرطتما وبالغتما .

عبد الله بن الشمر

قال يتبرم بكثرة الصيد في الشتاء والبرد والجليد والغزوات في الصيف مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ليتَ شعري أمنْ حَديدٍ خُلقنا ... أم خُلقنا من صخرةٍ صمّاء
كلَّ عامٍ في الصيف نحن غزاة ... والغرانيقُ غزونا في الشتاء[1]
إذ ترى الأرضَ والجليدُ عليها ... واقعٌ مثلَ شُقّةٍ بيضاء
فكأن الأنوفَ تُجْدَعُ منّا ... بالأشافي الحدادِ أو بالابـاء[2]
نطلبُ الموتَ والفناء بإلحا ... حٍ كأنّا نخافُ موتَ الفَناء

.....

١ الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود .
٢ الأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

أشعار للغزال[1]

١

وإنَّ رجائي في الإيابِ إليكمُ   وإن أنا أظهرتُ العزاءَ قصيرُ
وإن كنتِ تبغينَ الوَداع فبالغي   فدونك أحوالٌ — أرى — وشهور

٢

يُعْرَفُ عَقْلُ المرء في أرْبَعٍ   مِشْيَتُهُ أوَّلُها والحَرَكْ
ونورُ عينيه وألفاظُهُ   بعدُ عليهنَّ يدورُ الفَلَكْ

٣

إنَّ الفتاةَ وإنْ بدا لكَ حُبُّها   فبقلبها داءٌ عليكَ دفينُ
وإذا ادَّعَيْنَ هوى الكبيرِ فإنّما   هُوَ للكبير خديعةٌ وَقُرُونُ
وإذا رأيتَ الشيخَ يهوى كاعباً   فَعَلَيْهِ من دَرَكِ القُرونِ زُبُونُ

٤

أنا شيخٌ وقلتُ في الشيخِ شيئاً   يعلمُهُ كلُّ أبلهٍ وَذَهينِ
كلُّ شيخٍ تراه يكثرُ من كَسْـ   ـبِ الجواري فَتَخُذْهُ لي بالقرونِ

١ المقطعات من ١ — ١١ استخرجت من بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية) .

٥

وَمُراءٍ أخذَ النّا سَ بِسَمْتٍ وَقُطُوبِ
وخشوعٍ يشبهُ السّقْ مَ وضعفٍ في الدَّبيبِ
قلتُ : هل تألمُ شيئاً قالَ : أثقالُ الذنوبِ
قلتُ : لا تعنَ بشيء أنتَ في قالبِ ذيبِ
إنّما تبْني على الوثْ بَةِ في حينِ الوثوبِ
ليسَ منْ يخْفى عليهِ منكَ هذا بلبيبِ

٦

تسألُني عن حالتي أمُّ عُمَرْ
وهي ترَى ما حلَّ بي مِنَ العِبر
وما الذي يَسْألُ عنه مَنْ خَبَر
وقد كفاه الكَشْفُ عن ذاك النّظَر
وما تكونُ حالتي مع الكِبر
اربدَّ مني الوجهُ وابيضَّ الشّعَر
وصار رأسي شُهْرَةَ من الشُّهَر
ويَبِسَتْ نَضْرَةُ وجهي واقْشعَرّ
ونقص السمعُ بنُقْصانِ البصر
وصرتُ لا أنهضُ إلا بعد شَر
لو ضامني مَنْ ضامني لم أنْتَصِر
فانظرْ إليَّ واعتبرْ ثم اعتبر
فإنَّ للحليمِ فيَّ مُعتَبَر

٧

لقد فَسَدَتْ فما تَلْقى ... بها مَنْ ليس ذا شَجَنِ
وصارَ الحيُّ مِنّا يَغْـ ... ـبِطُ الملفوفَ في الكفنِ

٨

طالبُ الرّزقِ الحَلال لا يقرّ
نهـارهُ وليْلهُ عـلى سفر
في الحرّ والبردِ وأوقاتِ المَطَر
ومالُـهُ في ذاكَ نزرٌ محتقر
إنَّ الحـلالَ وحْدَهُ لا يختمر
أينَ ترى مالاً حـلالاً قد ثمر
ما إن رأينا صافياً منهُ كثر

٩

إنّي حلبتُ الدهرَ أصنافَ الدّرَرْ
فمرّةً حلـوٌ وأحيـانـاً مَقِر
وعلقماً حيناً وأحياناً صبر
وجلُّ ما يسقيكـه الـدهر كدر
فلَمْ أجد شيئاً مِنَ الفَقْرِ أمـر
ألا ترى أكثر مَنْ فيهـا يفر
مخـافةَ الفقرِ إلى نـارِ سقر

١٠

وإنَّ مُقامي شطرَ يـومٍ بمنزلٍ ... أخـافُ عـى نَفْسي بهِ لكثيرُ
وقد يهرُبُ الإنسانُ مِنْ خيفةِ الردى ... فيُدركهُ مـا خافَ حيثُ يَسيرُ

١١

وإن أُعطيتَ سلطانـاً ... فَحاذِرْ صولةَ الزَّمنِ
أخو السلطان موصوف ... بحسنِ الرأي والفطن
ويصبح رأيهُ المحمو ... د منسوباً إلى الأفن
وتبصر في مطيتـه ... سقوط العين والأذن
وتسترخي مفاصلهُ ... وتكسى كسوة الحزن
كأنَّ بشاشةَ السلطا ... ن حين تزول لم تكن

١٢

قالَ لي يحيى وصر ... نا بينَ موجٍ كالجبالِ
وتـولَتْنـا ريـاحٌ ... مِنْ دَبـورٍ وشمالِ
شقّتِ القلعـينِ واذ ... بتّتْ عُرى تلك الحبالِ
وتمطّى ملكُ الموْ ... تِ إلينا عَنْ حيالِ
فرأينا الموتَ رأي الـ ... ـعين حـالاً بعدَ حـالِ
لمْ يكُن للقومِ فينا ... يا رفيقي رأسُ مـالِ

١٣

كُلِّفْتَ يا قلبي هوًى متعبا غالبتَ منهُ الضيغَمَ الأغلبا

إنّي تعلّقتُ مجوسيّةً تأبى لشمسِ الحسنِ أن تغربا

أقصى بلاد الله في حيثُ لا يلقى إليها ذاهبٌ مذهبا

يا نودُ يا رودَ الشباب التي تُطْلِعُ من أزرارها الكوكبا

يا بأبي الشخص الذي لا أرى أحلى على قلبي ولا أعذَبا

إن قلتُ يوماً إن عيني رأت مُشْبِهَهُ لم أعدُ أن أكذبا

قالت أرى فَوْدَيهِ قد نَوَّرا دعابةً توجب أن أدعبا

قلتُ لها يا بأبي إنّه قد يُنْتَجُ المرء كذا أشهبا

فاستضحكتْ عُجباً بقولي لها وإنّما قلتُ لكي تعْجَبا

١٤

قصدتُ بمدحي جاهداً نحو خالدٍ أؤمِّلُ من جدواه فوقَ مُنائي

فلم يعطني من مالهِ غيرَ درهمٍ تكلّفه بعدَ انقطاعِ رجائي

كما اقتلع الحجّامُ ضرساً صحيحةً إذا استُخرجت من شدّة ببكاء

عبد الله بن فرح

قال في طفيلي يدعى ابن الإمام :

أفديكَ مِن متوجّـدٍ غضبانِ حتى يلوحَ له ضبابُ دخانِ
يقتادُه شمُّ القتارِ بأنفـهِ مثلَ اقتيادِ النجمِ للحيرانِ
وعلا الدخان بشنت طولة مربياً يُبدي كمين مطابخ الإخوانِ
وبحانة الملهين جاسوس لـهُ يُنْبيهِ أينَ تَناكحَ الزوجانِ
صَبٌّ إلى الطُّوفان مرتاح إلى الـ جودْان مُضطغنٌ على الخلاّنِ
فترى الإماميين حَوْلَ ركابهِ كالخيل صائمة ليوم رهـانِ
لَوْ يَسْمعون بأكلَةٍ أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمانِ
زار الفتى القرشيَّ لا لتعهّدٍ منه ولا شوق إلى لُقيانِ
حتى إذا وُضع الخوان تساقطوا نهماً عليهِ تساقُط الذبّانِ
ورأيتَهُ مِنْ بينهم متخمّطاً في لقمة كتخمّط السكرانِ
لم ينصرف إلاّ وفي أكمامهِ حملٌ وفي أعفاجهِ حملانِ
وأحو ثقيفٍ فرَّ منه قاصداً جيّانَ لو أغنتْ قرى جيّانِ
لو حلَّ في نجران لم يبعد عـلى عزَمات نيّته مدى نجرانِ
كالموتِ تسعى في التحلّص جاهداً منهُ وتلْقاه بكلّ مكانِ

عبد الملك بن جهور

١

يا أحسنَ النّاس في عينيَّ مبتسما   وأعذبَ الخلقِ عندي منطقاً وفما
حلّتْ بقلبيَ من عينيكَ نازلةٌ   من الهوى صيّرتني في الورى علما
لَمْ تبقَ جارحةٌ مني أقلّبها   إلاّ بعثتَ عليها بالهوى سقما
فارحمْ مقامَ محبّ ما شكا وبكى   تبرُّماً بالذي يلقى ولا ندما

٢

أجلّكَ أن تحلَّ بك الأماني   فكَيْفَ بأن أراكَ وأن تَراني
وأكرَهُ أن يمثّلَكَ التّمني   حذاراً أن يَبوح به لساني
ولو أنّي استطعتُ لفرط شجوي   علَيْكَ لما رآكَ الحافظانِ
وما أشكو إليكَ بغيرِ دمْعي   بيانُ الدمع أعربُ من بياني

أحمد بن فرج

١

يـــا غيمُ أكثر حـاجتي   سقيُ الحمى إن كنتَ تُسعِفْ
رشّفْ صــداه فطالمـــا   روّى الصدى فيه الترشف
واخلع عليهِ من الربيــ   ع ووشيه ثوباً مصنَّف
حـــتّى تـــرى أنهـــاءهُ   وكأنّها أعشار مصحف
وتخـــال مرفضَّ النـــدى   في روضه شكلاً وأحرف

٢

وطائعة الوصال عففت عنها   وما الشيطان فيها بالمطاعِ
بدت في الليل سافرةً ظلام الـ   ـدياجي منهُ سافرةَ القنـاعِ
وما من لحظةٍ إلاّ وفيهـا   إلى فِتَن القلوب لها دواعي
فملّكتُ النهى جَمَحات شوقي   لأجريَ بالعفاف على طباعي
وبتُّ بها مبيتَ الطفل يظما   فيمنعُه الفطامُ عن الرضاعِ
كذاك الروضُ ليس به لمثلي   سوى نظرٍ وشمّ من متاعِ
ولستُ من السوائمِ مهمَلاتٍ   فأتخذ الرياض من المراعي

ابن عبد ربه

١

بكرتْ عليّ عواذلي يَلْحَيْنَني ... وعلى الذي لم يَعْذُني أعدينَني
إيهاً عليكَ فقد كبرتَ عن الصبا ... ونهى المشيبُ عن الذي ينهينَني
أنّى وكيف وقد رأينَ تغيّري ... عن عهدهن إذا العيون رأينني
وعلى مفارقة الشباب شمتنَ بي ... وعلى معاداة الصبا عادينَني
أدنينني حتى إذا التهبَ الجوى ... أقصينَني أضعاف ما أدنينَني
وفتنَّني بلواحظ تشكو الضنى ... دائي بهنَّ ، وربما داوينَني
يذكين في قلبي وبين جوانحي ... حُرَقاً بنارِ جحيمِها أصلينَني

٢

ألا إنّما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هي الدارُ ما الآمال إلاّ فجائعٌ ... عليها ولا اللذات إلا مصائبُ
فكم سَخِنَتْ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ ... وقرَّتْ عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ
فلا تكتحلْ عيناك منها بعَبْرَةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنكَ ذاهبُ

٣

ومدامةٍ صلّى الملوك لوجهها ... مِنْ كثرة التبجيل والتعظيمِ
رَقّتْ حُشاشتها ورقَّ أديمُها ... فكأنّها شيبت مِن التسنيم

وكأن عين السّلسبيل تفجّرت لك عَنْ رحيق الجنّة المختوم
راحٌ إذا اقترنتْ عليكَ كؤوسها خلتَ النجومَ تقارنتْ بنجوم
تجري بأكناف الرياض وما لها فَلَكٌ سوى كفّي وكفّ نديمي
حتى تخال الشمسَ يُكسَفُ نورها والأرض ترعدُ رِعدةَ المحموم

٤

صحيفة أُفنيتْ ليتٌ بها وعسى عنوانها راحة الراحي إذا يَئسا
يراعةٌ غرّني منها وميضُ سنا حتى مددتُ إليها الكفَّ مقتبسا
فصادفتْ حجراً لو كنتَ تضربهُ من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنّما صيغ من بخلٍ ومن كذبٍ فكان ذاك له روحاً وذا نفسا

٥

أتقتُلني ظلماً وتجحدني قَتْلي وقد قامَ من عينيك لي شاهدا عدلِ
أطلاب ذحلي ليسَ بي غير شادن بعينيه سحرٌ فاطلبوا عنده ذحلي
أغار على قلبي بعينيه شادنٌ أطالبه فيه ، أغارَ على عقلي
بنفسي التي ضَنّتْ عليَّ بوصلها ولو سألتْ قتلي وهبتُ لها قتلي
إذا جئتُها صَدّتْ حياء بوجهها فيعجبني هجرٌ ألذُّ منَ الوصل
كتمتُ الهوى جهدي فحرّره الأسى بماء البلا هذا يخطُّ وذا يملي
وإن حكمتْ جارتْ عليَّ بحكمها ولكنَّ ذاكَ الجور أحلى من العدل
وأحببتُ فيها العذلَ حبّاً لذكرها فلا شيء أشفى في فؤادي من العذل
أقولُ لقلبي كلّما ضامَه الأسى إذا ما أبيتَ العزَّ فاصبرْ على الذلّ
برأيكَ لا رأيي تعرضتَ للهوى وأمركَ لا أمري وفعلكَ لا فعلي

وجدتَ الهوى نصلاً لموتِيَ مغمداً فجرّدتَه ثم اتكيتَ على النصل
فإن كنتَ مقتولاً على غير ريبةٍ فأنت الذي عرّضتَ نفسك للقتل

٦

وإنّي لأغضي الطرفَ عنكِ جلالةً وخوفاً على خدّيكِ من لحظاتي
ولو أنني أهملتُ عيني بأن ترى سناكِ لحالتْ دونها عبراتي
رأيتُ وشاةَ الكاشحين أباعداً ولكنَّ دمعي من عديد وشاتي
زعمتِ بأنّي حلتُ عنكِ ولم أكن أعنّيك في بثّي وفي حسراتي
وهلْ أنا إلاّ طالبٌ لمنيّتي إذا حُلْتُ عمن في يديه حياتي

يحيى بن هذيل

١

لا تلم هائماً قد استحسنَ الوجـ ـدَ وكلٌ أمرهُ إلى استحسانِهْ
فأنا الطائعُ المشوقُ لمَنْ صا ر يُريني الهوانَ في عِصيانِه
مرَّ بي خاطراً يكاد من العجـ ـب به أن يُراعَ في ريعانـه
في مُلاء كأنهُ وهو فيهـا وردُ خدّيه في جنى سوسانِه
يشتكي بالفتور من كسل المشـ ـي ولا يشتكيه من أجْفانِه
ولقَدْ شفني وأسهرَ طرفي لمعُ برقٍ يرفُّ في لمعانـه
شِمْتُهُ والظلامُ يفترُّ عنه كافترار الزنجيّ عن أسنانـه

٢

غنّى وفوقَ جَناحيهِ سقيطُ ندى والغيمُ يُنجزُ للحوذان ما وعدا
يهفو به خوط ريحانٍ تُغازلُـهُ في الجوّ ريحٌ فتلوي متْنَهُ أوَدا
إذا استقلّ ومسّ الأرض تحسبه مصلّياً إن تلقّى سجدةً سَجَدا
لـهُ ثلاثةُ ألوانٍ تخـالُ بهـا زمرداً وعقيقاً جاورا بَرَدا

٣

والأرضُ عاطرةُ النواحي غضّةٌ خضراءُ في ثوبٍ أغرَّ جَديدِ
والمـاءُ تدفعه إليكَ مشاعبٌ شتّى من الميثاء والجلمـود

صافٍ على صفة المها ومذاقه شهدٌ ، فخذْ من طيّبٍ وَبَرود
ملأ التلاعَ فأقبلت وكأنّها هجماتُ حيّاتٍ ذواتِ حُقود
تنحو إلى حال الغطيطِ وربما زأرت فتسمعها زئير أسود
وتثيرُ طافيةَ الحصى فكأنّها دلّتْ على الساعات فهمَ بليد

٤

وقفتُ على علياء والجزع بيننا لأنظرَ من نارٍ على البعد تُوقَدُ
تقومُ بطولِ الرمحِ ان هبّتِ الصَّبا وعندَ سكونِ الريحِ تهدا فتقعد
فشبهتها في الحالتين بقارىء إذا اعترضته سجدةٌ ظلّ يسجد

٥

وأرى بقيةَ مفرقي قد فُرّقَتْ ليُرى بها ريشُ الغرابِ غريبا
كالطير لما فاجأتها هجمةٌ للصقر فرّت في الجهاتِ هروبا
أو كافتراقِ السَّفْر في ديمومةٍ لم يخرجوا من قفرها تأويبا

يوسف بن هارون الرمادي

١

وما عجبي إلاّ من الفرس إنهم ... لهم حِكَمٌ قد سِرْنَ في الشرق والغربِ
لتركهمُ أن يعبدوا نارَ زينبٍ ... ونارُ هوًى منها توقّدُ في قلبي
وما بيَ تحبيبُ الذنوبِ إليهمُ ... ولكن حُسْنُ الذنبِ عذرٌ لدى الذنب
وأحببْ بها ناراً تَوَقّدُ للقِرى ... حلالاً لأهل الأرض حِجْراً على الصبّ
وما حرُّ تلك النّار إلاّ سلامةً ... وبرداً لدى النّار التي أودعتْ قلبي

٢

وقال حين أُريقت الخمور وأحرقت الحانات أيام الحكم المستنصر :

بخَطْبِ الشاربينَ يضيقُ صدري ... وترمضني بليّتهم لعمري
وهل هم غير عشاقٍ أصيبوا ... بفَقْدِ حبائبٍ ومُنوا بهجرِ
أعشّاقَ المدامة إن جزعتم ... لفرقتها فليسَ مكان صبرِ
سعى طلاّبكم حتى أُريقت ... دماء فوقَ وجه الأرض تجري
تضوَّعَ عَرْفُها شرقاً وغرباً ... وطبّق أفقَ قرطبةٍ بعطرِ
فقل للمسفحين لها بسفح ... وما سَكَنَتْهُ مِن ظرفٍ بكسرِ
وللأبواب إحراقاً إلى أن ... تركتُم أهلَها سكّان قفرِ
تحرّيتُمْ بذاكَ العدلَ فيها ... بزعمكُمُ فإن يَكُ عن تحرّي
فإن أبا حنيفة وهو عدلٌ ... وفرَّ عن القضاء مسير شهرِ

فقيهُ لا يـدانيه فقيـهٌ إذا جاء القياسُ أتى بدُرّ
وكان من الصلاةِ طويل ليلٍ يقطّعُهُ بلا تغميضِ شَفْرِ
وكان له من الشُرّابِ جارٌ يواصلُ مغرباً فيه بفجرِ
وكان إذا انتشى غنّى بصوت الـ مضاعِ بسجنهِ من آلِ عمرو
« أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسداد ثغرِ »
فغيّبَ صوتَ ذاك الجار سجنٌ ولم يكنِ الفقيهُ بذاك يدري
فقالَ وقد مضى ليلٌ وثانٍ ولم يسمعه غنّى « ليت شعري »
أجاري المؤنسي ليلاً غناء لخـيرٍ قَطْعُهُ ذلك أم لشرّ
فقالوا إنّه في سجن عيسى أتاهُ به المحارسُ وهو يسري
فنادى بالطويلـة وهي ممّـا يـكونُ برأسِ لجليـل أمرِ
ويَمّمَ جاره عيسى بن موسى فـلاقاه بإكرام وبـرّ
فقال : سجنتَ لي جاراً يُسَمّى بعمرٍو قال : يطلق كل عمرو
بسجني حين وافقه اسم جار الـ فقيه ولو سجنتُهُم بوترِ
فأطلقهم لـه عيسى جميعاً لجارٍ لا يبيت بغـير سكرِ
فإن أحببتَ قل لجوار جـارٍ وإن أحببتَ قـل لطلابِ أجرِ
فإن أبا حنيفة لم يؤبْ مِنْ تَطَلّبه تخلّصه بـوزرِ
نواقِعُها من آجلِ النهي سرّاً وكَمْ نهيٍ نواقعُه بجهْرِ

٣

ونزل أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي على بني أرقم بوادي آش فقُدّمَ إليه فيما أُكرم بـه طبقُ وردٍ ، وكان في فصل الشتاء ، فاستغربه ثم أخذ منه وردةً واحدة وقال بديهةً :

يا خدود الحُور في إخجالها قد علَتْها حمرةٌ مُكْتَسَبَهْ
اغتربنا ، أنتِ من بجّانةٍ وأنا مغتربٌ من قُرْطُبَهْ
واجتمعنا عند إخوانٍ صفاً بالندى أموالُهُم مُنْتَهَبَهْ
عصبة إن سُئِلَتْ عن نسبةٍ فإلى أرقمها مُنْتَسِبَهْ
إنَّ لثمي لكِ قُدّامهم ليسَ فيهِ فعلةٌ مستغربَهْ
لاجتماعٍ في اغترابٍ بيننا قَبِّلَ المغتربُ المغتربَهْ

عبد الملك بن إدريس الجزيري

قال يتشوق إلى ابنه الأصغر وهو سجين :

ألوى بعزم تجلّـدي وتصبري نأيُ الأحبة واعتيادُ تـذكّري
شحطَ المزارُ فـلا قرارَ ونافرتْ عيني الهجوعَ فلا خيالٌ يعتري
أزرى بصبري وهو مشدودُ القوى وألآنَ عودي وهو صلبُ المكسر
وطوى سروري كلّه وتلذذي بالعيش طيّ صحيفةٍ لم تُنْشَر
هلاّ بمـا ألقى الحبيبَ توهماً بضمير تـذكاري وعين تفكري
وإذا الفتى فَقَدَ الشبابَ سما لـه حبُّ البنين ولا كحبّ الأصغر
عجباً لقلبي يوم راعتنا النوى ودنا فراقك كيفَ لم يتفطّر
ما خلتني أبقى خلافك ساعةً لولا السّكونُ إلى أخيكَ الأكبر
إنسان عيني إن نظرتُ وساعدي مهما بطشتُ وصاحبي المستوزر
فإذا شكوت إليه شكوى راحة ذكرته فشكا إليّ بأكثر
أربى عليّ فحظّهُ ممّا بنا حظُّ المعلّى من قداح الميسر

ابن درّاج القسطلي

١

دعي عزمات المستضام تسيرُ [1] فتنجدُ في عرض الفلا وتغورُ
لعلّ بما أشجاكِ مِنْ لوعةِ النوى يُعَزُّ ذليلٌ أو يُفَكُّ أسيرُ
ألم تعلمي أن الثواءَ هو التوى وأنّ بيوتَ العاجزينَ قبورُ
ولَمْ تزجري طير السُّرى بحروفها فتنبئْكِ إن يَمّنَّ فهي سرورُ
تخوّفني طول السفار وإنّه لتقبيلِ كفّ العامريّ سفيرُ
دعيني أردْ ماءَ المفاوز آجناً إلى حيثُ ماءُ المكرماتِ نميرُ
وأختلسُ الأيّامَ خلسةَ فاتكٍ إلى حيث لي من غدرهنّ خفيرُ
فإنّ خطيراتِ المهالكِ ضُمَّنٌ لراكبها أنّ الجزاءَ خطيرُ
ولمّا تدانَتْ للوداعِ وقد هَفا بصبريَ منها أنّةٌ وزفيرُ
تناشدني عهدَ المودّةِ والهوى وفي المهدِ مبغومُ النداءِ صغيرُ
عَييٌّ بمرجوعِ الخطابِ ولفظُهُ بموقعِ أهواءِ النفوسِ خبيرُ
تبوّأ ممنوعَ القلوبِ ومُهّدَتْ له أذرعٌ محفوفةٌ ونحورُ
فكلُّ مفدّاةِ الترائبِ مُرضعٌ وكلُّ محيّاةِ المحاسنِ ظئيرُ
عصيتُ شفيعَ النفسِ فيه وقادني رواحٌ لتدآبِ السُّرى وبكورُ
وطار جناحُ الشوقِ بي وهفت بها جوانحُ من ذعرِ الفراقِ تطيرُ
لئن ودّعَتْ مني غيوراً فإنّني على عزمتي من شجوها لغيورُ
ولو شاهدتني والصواخدُ تلتظي عليَّ ورقراقُ السرابِ يمورُ
أُسلِّطُ حرَّ الهاجراتِ إذا سطا على حُرِّ وجهي والأصيلُ هجيرُ

وأستنشقُ النكباء وهي بوارحٌ ... وأستوطىء الرمضاء وهي تفورُ
وللموت في عين الجبانِ تلوّنٌ ... وللذعرِ في سمع الجريء صفيرُ
لبانَ لها أنّي من الضّيمِ جازعٌ ... وأنّي على مضّ الخطوب صبورُ
أميرٌ على غَوْلِ التنائف ما له ... إذا ريعَ إلاّ المشرفيُّ وزيرُ
ولو بَصُرَتْ بي والسّرى جُلُّ عزمتي ... وجَرْسي لجنّان الفلاةِ سميرُ
وأعتسفُ المَوْماةَ في غَسَق الدجى ... وللأسْدِ في غيلِ الغياضِ زئيرُ
وقد حوّمتْ زُهْرُ النجومِ كأنّها ... كواعبُ في خُضْرِ الحدائق حُورُ
ودارتْ نجومُ القطبِ حتى كأنّها ... كؤوسُ مهاً والى بهنَّ مديرُ
وقد خيّلتْ طُرْقُ المجرّةِ أنّها ... على مفرقِ الليل البهيمِ قتيرُ
وثاقب عزمي والظلام مروّعٌ ... وقد غض أجفانَ النجومِ فتورُ
لقد أيقنَتْ أن المُنى طوعُ همّتي ... وأنّي بعطفِ العامريّ جديرُ
وأنّي بذكراه لِهَمّيَ زاجرٌ ... وأنّيَ منه للخطوبِ نذيرُ
وأي فتى للدينِ والملك والندى ... وتصديق ظنّ الراغبين نَزُورُ
مُجيرُ الهدى والدين من كلّ ملحدٍ ... وليس عليهِ للضلالِ مُجيرُ
تلاقتْ عليه من تميمٍ ويعربٍ ... شموسٌ تلالا في العلى وبُدُورُ
من الحِمْيَريّينَ الذين أكُفُّهُمْ ... سحائبُ تهمي بالندى وبحورُ
ذوو دُوَلِ المُلْكِ التي سَلَفَتْ بها ... لهم أعْصُرٌ موصولةٌ ودهورُ
لهم بَذَلَ الدهرُ الأبيُّ قيادَهُ ... وهم سكّنوا الأيامَ وهي نَفُورُ
وهم ضربوا الآفاقَ شرقاً ومغرباً ... بجمعٍ يسيرُ النصرُ حيثُ يسيرُ
وهم يستقلّونَ الحياة لراغبٍ ... ويستصغرون الخطبَ وهو كبيرُ
وهم نصروا حزبَ المروّةِ والهدى ... وليسَ لها في العالمين نصيرُ
وهم صدّقوا بالوحي لمّا أتاهمُ ... ومـا النّاسُ إلاّ عاندٌ وكَفورُ
مناقبُ يعيا الوصفُ عن كُنْهِ قدرها ... ويرجعُ عنها الوهمُ وهو حَسيرُ

ألا كلُّ مدحٍ عن مداكَ مقصِّرٌ … وكلُّ رجاء في سواك غُرُورُ
تَمَلَّيْتَ هذا العيدَ عِدَّةَ أعْصُرٍ … تَوَاليكَ منها أنْعُمٌ وحُبورُ
ولا فقدتْ أيامَكَ الغرَّ أنفسٌ … حياتُك أعيادٌ لهم وسرورُ
ولما توافَوْا للسلام ورُفِّعَتْ … عن الشمس في أفق الشروقِ ستورُ
وقد قامَ من زُرْقِ الأسنّةِ دونها … صفوفٌ ومن بيضِ السيوفِ سطورُ
رأوا راحة الرحمن كيف اعتزازُها … وآيات صنعِ الله كيف تُنيرُ
وكيف استوى بالبحر والبدر مجلسٌ … وقام بعبْءِ الراسيات سريرُ
فساروا عِجالاً والقلوب خوافقٌ … وأُدنُوا بِطاءً والنواظرُ صورُ
يقولون والإجلالُ يُخرِسُ ألسُناً … وحازتْ عيونٌ مِلأَها وصدورُ
لقد حاط أعلامَ الهدى بك حائطٌ … وقدَّرَ فيك المكرماتِ قديرُ
مقيمٌ على بذلِ الرغائبِ والنُّهَى … وفكرُكَ في أقصى البلاد يسيرُ
وأين انتوى فلُّ الضلالة فانتهى … وأين جيوشُ المسلمين تُغيرُ
وحسبُكَ من خفضِ النعيم مُعَيَّداً … جهازٌ إلى أرض العدى ونفيرُ
فقُدْها إلى الأعداء شعثاً كأنّها … أراقمُ في شُمِّ الربى وصُقورُ
فعزمُكَ بالنصرِ العزيز مُخَبِّرٌ … وسعدُكَ بالفتح المبين بشيرُ
وناداكَ يابنَ المُنعمين ابنُ عَشْرةٍ … وعبدٌ لنُعْماكَ الجسامِ شكُورُ
غنيٌّ بجدوى راحتيكَ وإنّهُ … إلى سبب يدني رضاكَ فقيرُ
ومِنْ دون ستري عفّتي وتَجمُّلي … لريْبٍ وصرف للزمانِ يجورُ
وضاءل قدري في ذراكَ عوائقٌ … جرتْ ليَ برْحاً والقضاءُ عَسيرُ
وما شكَرَ النخعيُّ شكري ولا وفى … وفائي — إذا عزَّ الوفاءُ — قصيرُ
فقُدْني لكشفِ الخطبِ والخطبُ مُعضِلٌ … وكِلْني لليث الغاب وهو هصورُ
فقد تخفض الأسماء وهي سواكنٌ … ويعملُ في الفعل الصحيح كسيرُ

وتنبو الرُّدَيْنيّاتُ والطولُ وافرٌ   وينفذ وقعُ السهمِ وهو قصيرُ
حنانيكَ في غفرانِ زلّةِ تائبٍ   وانّ الذي يجزي به لغفورُ

٢

أنضيتُ خيلي في الهوى وركابي   وعَمَرْتُ كأسَ صِباً بكأسِ تصابِ
وعُنيتُ مُغْرًى بالغواني والصِّبا   واللهو ، واللذاتُ قد تغري بي
في غمرةٍ لا تنقضي نَشَواتُها   من صرفِ كأسٍ أو جفون كعابِ
أيامَ لا نَرْتاعُ من صرفِ النوى   أمناً ولا نصغي لنعب غرابِ
أيامَ وجهُ الدهرِ نحوي مشرقٌ   ومحاسنُ الدُّنيا بغير نقابِ
ولقد أضاء الشيبُ لي سُنَنَ الهدى   فثنى سِني دَدَني على الأعقاب
ورأيتُ أردية النهى منشورةً   تسعى بجِدَّتِها إلى أترابي
ورأيتُ دار اللهو أقوى رَبْعُها   وخلتْ معاهدُها من الأحبابِ
وخلتْ بيَ النَّكَبَاتُ ترمي ناظري   وخواطري بنوافذِ النُّشّابِ
ولَكَمْ أصابَتْني الخطوبُ بِشَكّةٍ   تُعْيي التجلّدَ واحتسبْتُ مصابي
حفظاً لعلمٍ حاز صدري حفظَه   ألاّ أخيسَ بحرمةِ الآدابِ
حتى تركْتُ الدهرَ وهو لما بهِ   صبراً وغادرني السقامُ لما بي
وصرفتُ عن صرف الزمان ملامتي   وكففتُ عن سعي الحسود عتابي
علماً بأنَّ الحرصَ ليس بزائد   حظّاً وأن الدهرَ غير محابِ
همَمُ الفتى نُكْبٌ تبرّحُ بالمنى   أبداً إذا عمَّ القضاءُ الآبي
فقطعْتُ يا منصورُ نحوكَ نازعاً   خُدَعَ المنى وعلائقَ الأسبابِ
فرضاكَ تأميلي وقُرْبُكَ هِمّتي   ونَداكَ محيائي وحمدُكَ دابي

٣

سأمنعُ قلبي أن يحنَّ إليكِ وأنهى دموعي أن تفيضَ عليكِ
أغَدْراً ولم أغْدِرْ وخوفاً ولم أخُنْ لقد ضاعَ لي صدقُ الوفاء لديكِ
بفِعلكِ عيبَ الحسنُ عندي وإن غدتْ مهاةُ النقا والشمسُ مُشْتَبِهَيكِ
اصدُّ بوجهي عَنْ سنا الشمسِ طالعاً لأن صار منسوبَ الصفاتِ إليكِ
وأستفظع الشهدَ اللذيذ مذاقُهُ لِمَطْعَمِهِ الموجودِ في شَفَتَيْكِ
وأصرف عن ذكراكِ سمعي ومنطقي ولو نازعتنيها حمامةُ أيْكِ
ولو عنَّ لي ظبيُ الفَلا لاجتنبتُهُ لتمثال عَيْنَيْكِ وسالفَتَيْكِ

ابن شهيد

١

خليليَّ عوجا باركَ اللهُ فيكما ... بدارتها الأولى نُحيِّ فناءها
ولا تمنعاني أن أجود بأدمعٍ ... حواها الجوى لمّا نظرتُ جواءها
فأُقسِم ما شمتُ الغداةَ وقودَها ... وقد شمتُ ما رابَ الحمى وأساءها
ميادينُ أفراس الصِّبا ومراتعٌ ... رتعتُ بها حتى ألفتُ ظباءها
فلَمْ أرَ أسراباً كأسرابها الدُّمى ... ولا ذئبَ مثلي قد رعى ثمَّ شاءها
ولا كضلالٍ كان أهدى لصبوتي ... لياليَ يهديني الغرامُ خباءها
وما هاجَ هذا الشوقَ إلاّ حمائمٌ ... بكيتُ لها لمّا سمعتُ بكاءها
تغنّ فلا يبعدْ بذي الأيكِ عاشقٌ ... بكى بينَ ليلى فاستحثَّ غناءها
أنا البحرُ لا يستوهنُ الخطبُ طاقتي ... وتأبى الحسانُ أن أُطيقَ لقاءها
عجبتُ لنفسي كيف مُلّكها الهوى ... وكيف استفزَّ الغانياتُ إباءها
ولو أنني أنحتْ عليَّ أكارمٌ ... ترضّيْتُ بالعِرْضِ الكريم جزاءها
ولكنَّ جرذانَ الثغور رَمَيْنَني ... فأكرمتُ نفسي أن تُريقَ دماءها
تيمّمَ قصدي النائباتِ فردّها ... فتًى لم يُشجّعْ حينَ حانَ رياءها
إذا طرقَتْهُ الحادثاتُ أعارَها ... شبا فِكَرَاتٍ قد أطال مضاءها
أما وأبي الأعداءُ ما دفعَتْهُمُ ... يدٌ سَبَقَتْهُمْ يتّقونَ عداءها
جزَاهُمْ بما حازوا من الجهل حلمُهُ ... كريمٌ إذا راءَ المكارمَ جاءها

٢

أصفيحٌ شيمَ أم برقٌ بـدا ... أم سَنا المحبوبِ أورى أزْنُدا

هبَّ مِن مرقده مُنكسراً ... مُسْبِلاً للكُمِّ مرخي للرِّدا

يمسحُ النعسةَ من عَيْنَيْ رشاً ... صائدٍ في كلِّ يومٍ أسَـدا

أوْرَدَتْـهُ لُطُفاً آياتُـهُ ... صفوةَ العيشِ وأرعَتْهُ دَدا

فهو من دلٍّ عراهُ زُبْدَةٌ ... من صريحٍ لم تُخالِطْ زَبَدا

قلتُ : هَبْ لي يا حبيبي قبلـةً ... تشفِ من عمِّك تبريحَ الصَّدى

فانثنى يهتزُّ من منكبِـهِ ... قائـلاً : لا ، ثم أعطاني اليـدا

كلّما كلَّمَني قبَّلْتُـهُ ... فهو إمّا قال قولاً رَدَّدا

كادَ أن يرجع من لثمي لـه ... وارتشافي الثغرَ منه أدْرَدا

قال لي يلعبُ : خذ لي طائراً ... فتراني الدهرَ أجري بالكُدَى

وإذا استنجزتُ يوماً وَعْدَهُ ... قال لي يمطُلُ : ذكِّرني غدَا

شربَتْ أعطافُهُ خمرَ الصِّبا ... وسقاه الحسنُ حتّى عَرْبَدا

وإذا بتُّ بهِ في روضَةٍ ... أغْيَداً يعرو نباتاً أغْيَدا

قـامَ في الليلِ بجيدٍ أتْلَعٍ ... ينفضُ اللّمّة من دمع الندى

رشأٌ بـل غادة ممكورةٌ ... عممت صبحاً بليلٍ أسودا

أحَّحَتْ مِنْ عضّتي في نهـدها ... ثم عَضّتْ حُرَّ وجهي عمَدا

فأنا المجروح من عَضّتِها ... لا شفاني الله منها أبَـدا

ومكانٍ عازبٍ عن جيرةٍ ... أصدقاءٍ وهُمُ عينُ العِدى

ذي نباتٍ بُلْبِلَتْ أعرافُـهُ ... كعذارِ الشَّعرِ في الخدِّ بَدا

تحسبُ الهضبَةَ منه جبلاً ... وحدودَ الماء منهُ أبردا

قلتُ إذا خيَّمْتُ فيه قاطنـاً ... وتـلاقتْني الأماني سُجَّـدا

ورأيتُ الدهرَ خوفي ساكناً وبني الأحرارِ حولي أعبُدا
جادَ من أصبحتُ في أيّامِه والردى يحذرُ من خوفي الردى
ملكٌ يُحسَبُ عدلاً مَلَكاً وإمامٌ أمَّ فينا فهَدى
خِلتُهُ والرمحُ في راحتِه قمراً يحمِلُ منهُ فرْقَدا
نِعْمَ ما اخترتُ لنفسي فاعلموا انْ زمانٌ جارَ أو صَرْفٌ عَدا
ليسَ من يعشو إلى نار القِرى مثل من يعشو إلى نار الهدى

٣

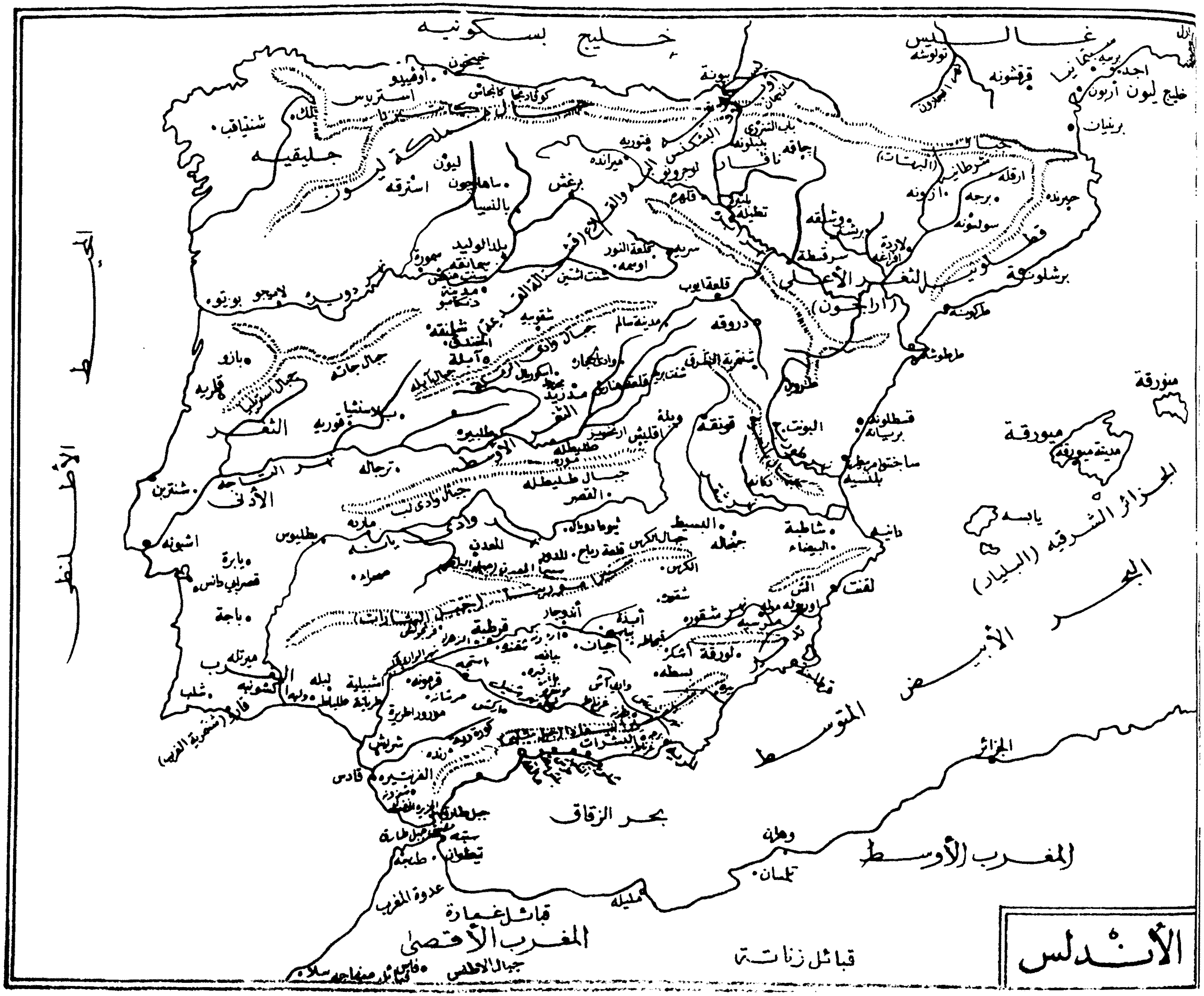
ولمّا تَمَلأَ مِنْ سكرِهِ فنامَ ونامت عيونُ العَسَسْ
دنوتُ إليهِ على بُعْدِهِ دُنوَّ رفيقٍ دَرى ما التَمَسْ
أدِبُّ إليه دبيبَ الكرى وأسمو إليه سُمُوَّ النَّفَسْ
وبتُّ به ليلتي ناعماً إلى أن تَبَسَّمَ ثَغْرُ الغَلَسْ
أُقبّلُ منهُ بياضَ الطُّلى وأرشفُ منه سواد اللَّعَسْ

ابن حزم الأندلسي

قال يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة أبا المطرف رحمه الله من قصيدة

ألمّ يجــاليني جــلاءً مُجَرِّبٌ على أنهُ حقّاً بيَ العالِمُ الطبّ
أعيذُك أن ترتابَ في أنّيَ الذي أتى سابقاً والكل ينجرُّ أو يحبو
أمثلك يعشو عن مكاني ويمتري بأنيَ مِن أفلاكِ ذا الأدب القطبُ
أيخفى عليك البدرُ ليلة تِمِّه ولم يستترْ عنك النيازكُ والشهبُ
وحاشاي أن يمتدَّ زهوٌ بمنطقٍ وأن يستفزَّ الحلمَ من قوليَ العُجبُ
ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أسوة وليس على من بالنبي ائتسى ذنبُ
يقول — وقال الحقَّ والصدقَ — انني حفيظٌ عليم ما على صادقٍ عتبُ
فلو كُسي الفولاذُ حدةَ خاطري تساوى لديه اللحم والحجر الصلبُ
ولو كان للنيران بعضُ ذكائه وفاض عليها لجةُ البحرِ لم يَخْبُ
وما اختصّ علم دون علم بوجهتي بلى مسرحي في كلّها الواسع الخصبُ
ومالي عميمٌ لست أخشى نفاده بإنفاقه لا بل يزيدُ وينصبُّ
سموتُ بنفسي لا بمجدٍ هوت به من الزمن الغدّار آلاته الحُدْبُ
وإن شئتَ أخبار الدهور فإنني أنا جامعُ التاريخ مذ نبتَ الهَضْبُ
يسافرُ علمي حيث سافرتُ ظاعناً ويصحبني حيث استقلت بيَ النجبُ
أنا الشمسُ في جوّ العلوم منيرةٌ ولكنَّ عيبي أن مطلعيَ الغربُ
ولو أنّني من جانب الشرقِ طالعٌ لجدَّ على ما ضاعَ من ذكريَ النهبُ
ولي نحوَ أكنافِ العراقِ صبابةٌ ولا غروَ أن يستوحش الكلفُ الصبُّ
فإن يُنزلِ الرحمن رحليَ بينهم فحينئذٍ يبدو التأسّفُ والكربُ

فكم قائلٍ أغفلتُه وهو حاضرٌ   وأطلب ما عنه تجيء به الكتبُ
هنالك يدرى أن للبعد قصةً   وأن كسادَ العلم آفته القربُ
فيا عجباً من غاب عنهم تشوّقوا   له ، ودنوُّ المرء من دارهم ذنبُ
وإن مكاناً ضاق عني لضيّقٌ   على أنهُ فيحٌ مهامِههُ سُهْبُ
وإن رجالاً ضيّعوني لضُيَّعٌ   وإن زماناً لم أنل خِصْبَهُ جَدْبُ



الأندلس
خليج بسكونيه
غاليس
جليقيه
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
عدوة المغرب
قرطبة
سرقسطة
برشلونة
طليطلة
جبال طليطلة
القصر
شاطبة
بلنسية
الجزائر
وهران
تلمسان
مليلة
قادس

المراجع والفهارس

المراجع

الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (الجزء الأول) . نشر الأستاذ عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٥٥ .

الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١ — ٨) . مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٥ .

أخبار الغناء والمغنين بالأندلس للدكتور إحسان عباس . مجلة الأبحاث ، السنة ١٦ ، الجزء الأول ، آذار ١٩٦٣ .

إعتاب الكتّاب لابن الأبّار (مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي . ط . القاهرة .

أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب . تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال ط . دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ .

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي للدكتور عبد العزيز الأهواني . مجلة معهد المخطوطات ، المجلد الثالث ، الجزآن الأول والثاني .

البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (الجزء الحادي عشر) ط . مصر ، ١٣٥٧ .

بغية الملتمس للضبي . مطبعة روخس ، مجريط ، ١٨٨٤ .

بغية الوعاة للسيوطي . الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦ .

بهجة المجالس لابن عبد البر (مخطوطة دار الكتب المصرية) .

البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري (جزآن) . ط . بيروت ، ١٩٥٠ .

البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري (الجزء الثالث) . تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال .

تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية . ط . مجريط ، ١٨٦٨ .

تاريخ الحكماء للقفطي . تحقيق الأستاذ جوليوس ليبرت . ليبسك ، ١٩٠٣ .

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي (١ — ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٤ .

تاريخ عبد الرحمن الناصر لمجهول . تحقيق الأستاذين أ . ليفي بروفنسال وغرسية غومس .
ط . مدريد — غرناطة ، ١٩٥٠ .

تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالنثيا . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٥٥ .

التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) . تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال . دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ .

تثقيف اللسان لابن مكي (مخطوطة مراد ملاّ رقم ١٧٢٥) .

ترتيب المدارك للقاضي عياض (مخطوطة دار الكتب المصرية) .

التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتاني . تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦ .

تعليق منتقى من فرحة الأنفس لابن غالب (مخطوطة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية) .

التقريب لحد المنطق لابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . ط . بيروت . ١٩٥٩ .

التكملة لابن الأبار (١ — ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .

تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر بعناية عبد القادر بدران (١ — ٥) . مطبعة روضة الشام ، دمشق ، ١٣٢٩ — ١٣٣٢ .

جذوة المقتبس للحميدي . تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . القاهرة ، ١٩٥٢ .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم . الطبعة الأولى ، تحقيق الأستاذ أ . ليفي بروفنسال . ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم . تحقيق الأستاذ محمد عبد السلام هارون . ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ .

الحلة السيراء لابن الأبار (مخطوطة الأسكوريال رقم : ١٦٥٤) .

الحلة السيراء لابن الأبار (١ — ٢) . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ .

ديوان ابن درّاج القسطلّي . تحقيق الدكتور محمود علي مكي . دمشق ، ١٩٦١ .

ديوان أبي العتاهية . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٨٦ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (١ — ٤/١) . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ — ١٩٤٥ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (الجزء الثالث) (مخطوطة بغداد) .
ذكر بلاد الأندلس (مخطوطة الرباط رقم : ٨٥) .
رسائل ابن حزم . تحقيق الدكتور إحسان عباس . القاهرة ، ١٩٥٤ .
رسائل ابن حزم (مخطوطة شهيد علي رقم : ٢٧٠٤) .
الروض المعطار لمحمد بن عبد الله الحميري . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
رياض النفوس للمالكي . تحقيق الدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥١ .
الريحان والريعان لابن المواعيني (مخطوطة الفاتح) .
شرح المختار من شعر بشار للتجيبي . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة .
شرح مقامات الحريري للشريشي . ط . القاهرة ، ١٣٠٠ .
الشعر الأندلسي لأميليو غرسية غومس . ترجمة الدكتور حسين مؤنس . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
الصلة لابن بشكوال (١ — ٢) . ط . القاهرة ، ١٩٥٥ .
صورة الأرض لابن حوقل . ط . ليدن ، ١٩٣٨ .
طبقات الأطباء لابن جلجل . تحقيق الأستاذ فؤاد سيد . نشر المعهد الفرنسي بالقاهرة . ١٩٥٥ .
طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . مصر .
طبقات الأمم للقاضي صاعد . ط . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ، ١٩١٢ .
طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١ — ٦) . الطبعة الأولى . المطبعة الحسينية المصرية . القاهرة ، ١٣٢٤ .
طبقات النحويين واللغويين للزبيدي . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . ط . القاهرة ، ١٩٥٤ .
طوق الحمامة لابن حزم . تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي . القاهرة ، ١٩٥٠ .
العقد لابن عبد ربه (١ — ٧) . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة . ١٩٥٢ — ١٩٦٥ .

عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ – ٢) . ط . المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٣٠٠ .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١ – ٢) . دار الفكر ببيروت ، ١٩٥٦.
فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس . ط . القاهرة ، ١٩٥٩
الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم (١ – ٥) . ط . القاهرة ، ١٣١٧ .
فهرسة ابن خير . ط . سرقسطة ، ١٨٩٣ .
قضاة قرطبة وعلماء إفريقية للخشني . ط . مصر ، ١٣٧٢ .
قطعة من ديوان ابن حزم (مخطوطة بالمكتبة التيمورية) .
لحن العامة للزبيدي (فلم محفوظ بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية) .
المرقبة العليا للنباهي . تحقيق الأستاذ أ. ليفي بروفنسال . ط . دار الكاتب المصري .
مسالك الأبصار وممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (الأجزاء ٦ و١٠ و١١) (مخطوطة آيا صوفيا رقم : ٣٤٣٣) .
المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي . تحقيق الدكتور مصطفى عوض الكريم . الخرطوم ، ١٩٥٤ .
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . ط . الجوائب ، ١٩٠٢ .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لابن عبد الملك المراكشي ط . مصر ، ١٣٢٤ .
معجم البلدان لياقوت الحموي . ط . دار صادر ، بيروت .
معجم الأدباء لياقوت الحموي (١ – ٢٠) . ط . مصر .
المغرب من أخبار أهل المغرب لابن سعيد . تحقيق الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر.
المقتبس لابن حيان . تحقيق ملشور انطونية . باريس ، ١٩٣٧ .
المقتبس لابن حيان . تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي . دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
المقدمة لابن خلدون . المطبعة التجارية بمصر .
المكتبات في اسبانيا الإسلامية للأستاذ خوليان ريبيرا . ترجمة الدكتور جمال محمد محرز . مجلة معهد المخطوطات . المجلد الرابع . الجزآن الأول والثاني .
نثار الأزهار لابن منظور . ط . الجوائب ، ١٢٩٨ .

نفح الطيب للمقري (١ — ٤) . ط . بولاق ، ١٣٠٢ .
نفح الطيب للمقري (١ — ٤) . تحقيق الأستاذ رينهارت دوزي ورفاقه . بريل . ليدن ، ١٨٥٥ — ١٨٥٩ .
نفح الطيب للمقري (١ — ١٠) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٤٩ .
نقط العروس لابن حزم . فصلة من مجلة كلية الآداب بالقاهرة . المجلد ١٣ ، الجزء الثاني ، ديسمبر ، ١٩٥١ (بتحقيق الدكتور شوقي ضيف) .
نكت الهميان للصفدي . ط . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩١١ .
الوافي بالوفيات للصفدي (الجزء الخامس) ، (مخطوطة أحمد الثالث) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (١ — ٦) . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ، ١٩٤٨ .
يتيمة الدهر للثعالبي (الجزء الأول) . ط . بيروت .

Hispano-Arabic Poetry, by Nykl. Baltimore, 1948.

فهرس عام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ن

هـ

و

ي

فهرس المحتويات

الشعراء الأندلسيون في هذا العصر

النثر الأندلسي في هذا العصر

ملحقات

المراجع والفهارس